

دولة الاموية في الاندلس

الخلافة الاموية والدولة العامرية

تأليف

محمد عبداللّه عنان

العصر الاول - القسم الثاني

الطبعة الثالثة

الناشر : مؤسسة الخابزي بالقاهرة



دولة الاموية في الاندلس

الخلافة الاموية والدولة العاصمية

تأليف

محمد عبداللّه عنيان

العصر الاول - القسم الثاني

الطبعة الثالثة

الناشر: مؤسسة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثالثة

١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م

الحقوق كلها محفوظة للمؤلف

Copyright, Cairo, 1960

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الثالث

عبد الرحمن الناصر

وقيام الخلافة الأموية بالأندلس

٣٠٠ - ٣٥٠ هـ : ٩٢١ - ٩٦١ م

الفصل الأول

المملكة الإسبانية النصرانية

خلال القرن التاسع الميلادي

ألفونسو الثاني ملك جليقية . النضال بين الأندلس وبين المملكة النصرانية . موقعة الصخرة . غزو ألفونسو للأراضي الإسلامية . غزو الحكم جليقية . غزو المسلمين لألبه والقلاع . راميرو الأول . الحرب الأهلية في جليقية . غزو محمد بن عبد الرحمن جليقية . وفاة راميرو وولاية ولده أردونيو . تحالف أردونيو مع الثوار المسلمين . غزو الأمير محمد لألبه والقلاع . التحالف بين موسى بن موسى وملك نافار . الحرب بين أردونيو والجليقيين . هزيمة موسى ومصرعه . تحالف لب بن موسى مع أردونيو . غزو أردونيو لأراضي المسلمين . غزوة المنذر بن محمد لنافار . غزوات أخرى لألبه والقلاع . وفاة أردونيو وولاية ولده ألفونسو الثالث . الحرب الأهلية في جليقية . اتساع المملكة النصرانية في عهد ألفونسو الثالث . توغله في أراضي المسلمين . عقد السلم بينه وبين محمد بن عبد الرحمن . أحوال المملكة النصرانية . نفوذ الكنيسة في توجيه العرش الإسباني . معارك بين المسلمين والنصارى . الثورة ضد ألفونسو . نزوله عن العرش . وفاته وخلاله . ملكة نافار . أصلها ونشأتها . مدافعة البشكنس عن استقلالهم . تحالف نافار مع بني قسى . المصاهرة بين الأسرتين . التنافر بين نافار وليون . سانشو ملك نافار . الحرب بين سانشو وبني قسى .

- ١ -

تحدثنا فيما تقدم عن نشأة المملكة الإسبانية النصرانية عقب افتتاح المسلمين لاسبانيا^(١) ، وكيف نمت هذه المملكة الوليدة المحتجة فيما وراء الجبال الشمالية ، بخطوات بطيئة ولكن ثابتة ، وكيف شغل عنها ولاية الأندلس فلم ينهضوا لسحقها ، انتقاصاً لشأنها وخطرهما ، حتى غدت في أواخر القرن الثامن عاملاً بحسب حسابها ، وبدأت حكومة قرطبة تنظر إلى هذه القوة الجديدة التي توالى غزواتها للأراضي الإسلامية بعين الاهتمام والتوجس ، وتخصّص لمقارعتها شطراً كبيراً من جهودها ومواردها .

وقد انتهينا في أخبار هذه الحقبة من تاريخ المملكة الإسبانية النصرانية ، إلى عصر ألفونسو الثاني الملقب بالضعيف ، الذي تولى الملك سنة ٧٩١ م (١٧٥ هـ) .

(١) راجع الفصل السابع من الكتاب الثاني من « دولة الإسلام في الأندلس » ص ٢٠٤-٢٢٠ .

وكان ألفونسو الثاني ملكاً حازماً مقداماً ، فضبط المملكة ونهض بها نهضة شاملة ، وحصن ثغورها وقواعدها ، وعمل على تحسين شئونها الاجتماعية ، وجعل عاصمتها مدينة « أوفيدو » . وكانت مملكة جليقية أو مملكة أستوريش (أستورياس) كما كانت تسمى يومئذ ، تمتد من ولاية بسكونية شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالاً حتى نهر دويرة جنوباً ، ولكنها لم تكن عندئذ كما كانت أيام ألفونسو الكاثوليكي تشمل ولاية نافار أو بلاد البشكنس ، التي استطاعت أن تستقل بنفسها ، وقامت بها غير بعيد مملكة نصرانية مستقلة أخرى .

واستطال حكم ألفونسو الثاني زهاء نصف قرن . عاصر فيه ثلاثة من أمراء الأندلس ، هم هشام بن عبد الرحمن ، وولده الحكم ، وحفيده عبد الرحمن ، وتوالى فيه مراحل النضال بين الأندلس والمملكة النصرانية ، فنشبت الحرب بينهما مراراً عدة ، وتبادلا الغزوكل للأراضي الآخر مراراً ، وكانت أهم الأحداث البارزة في حلقات هذا النضال ، هزيمة الحلالقة والبشكنس بقيادة ألفونسو الثاني على يد المسلمين في موقعة الصخرة في قاصية جليقية في سنة ٧٩٥ م (١٧٩ هـ) . وفي سنة ٨١٠ م (١٩٣ هـ) في عهد الحكم بن هشام عبر ألفونسو الثاني بقواته نهر دويرة ، وغزا الأراضي الإسلامية ، وتوغل في سيره حتى قلسمرية وأشبونة ، وعاث في تلك الأنحاء أماً عيث ، ورد الحكم على ذلك بنفسه في صيف العام التالي غازياً إلى جليقية ، وتوغل في منطقة وادي الحجارة ، وأثنى في تلك الأنحاء عقاباً للنصارى وزجرأ لهم على عدوانهم .

وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت الحياوش الأندلسية ، بقيادة الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث في سنة ٨٢٣ م (٢٠٨ هـ) ، غازية إلى ألبه والقلاع ، على أثر غزو ألفونسو الثاني للثغر الأعلى ، وإغارته على مدينة سالم ، وهزم المسلمون النصارى في عدة مواقع وعاثوا في أراضي جليقية ، وخربوا مدينة ليون ، وأملوا على النصارى صلحاً شديداً قاسياً^(١) .

ولما توفى ألفونسو الثاني في سنة ٨٤٢ م ، خلفه على العرش ولده راميرو الأول أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية . على أنه لم يخلفه دون نضال . ذلك أن

(١) راجع في تفاصيل الحروب والغزوات المتقدمة « دولة الإسلام في الأندلس » القسم الأول من العصر الأول ص ٢٥٦ وما بعدها ، وكذلك المراجع .

راميرو حينما توفي أبوه كان في ولاية بردوليا الشرقية ، التي عرفت فيما بعد بقشتالة (كاستيليا) Castilla نظراً لكثرة قلاعها ، يرقب حركات المسلمين . وكان عبد الرحمن بن الحكم يقوم عندئذ بغزواته الكبرى في الثغر الأعلى ، ويثخن في بلاد البشكنس ، وكان ألفونسو يخشى أن يتدفق هذا السيل المحرب إلى أحواز جليقية ، ولكن عبد الرحمن ارتد إلى قرطبة بعد أن غزا بنبلونة ، وخرّبها ، وسحق البشكنس وحلفاءهم ثوار الثغر الأعلى . وتوفي ألفونسو بعد ذلك بقليل ؛ فوثب في أوڤيدو زعيم من الأشراف يدعى الكونت ريوتيانوس واستولى على العرش ؛ وعلم راميرو بذلك وهو في بردوليا فخرج إلى جليقية ، وجمع جيشاً في مدينة « لك » وسار إلى أشتوريش ليقاتل المعتصب . ولقيه ريوتيانوس في قواته على ضفاف نهر نارسياس ، وماكادت المعركة تضطرم بين الفريقين ، حتى هجر ريوتيانوس معظم جنده ، وهزم هزيمة شديدة ، وقبض عليه ، وسملت عيناه ، واعتقل بقية حياته في أحد الأديار ؛ واسترد راميرو عرشه ، وأطاعته سائر جليقية وأشتوريش .

ولكن علاقة العرش بالأشراف لبثت على توترها ، ولم تمض أعوام قلائل حتى دبر الأشراف ثورة جديدة ضد راميرو (٨٤٥ م) . ثم تلتها في سنة ٨٤٨ م ثورة أخرى ، واستطاع راميرو في كل مرة أن يخمّد الثورة ، وقبض على معظم الزعماء والخوارج وأعدم الكثير منهم .

ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن حكومة قرطبة كانت في معاملتها للزعماء الخوارج عليها تبدو أكثر اعتدالاً وتسامحاً . فقد كانت تعفو أحياناً عن الثوار ، وكانت تؤثر اصطناع القادرين والأكفاء منهم ، وكانت في عقابهم أقل قسوة ونكالا . وقد يرجع ذلك إلى ظروف الأحوال في الأندلس ، فقد كانت الثورات شعبية أو قبلية على الأغلب . أما في جليقية فكان زعماء الثورة من الأشراف والزعماء الإقطاعيين الأقوياء ، وكان خطرهم على العرش أشد وأدعى إلى التوجس والحذر (١) .

وشغلت المملكة النصرانية في بداية عهد راميرو ، كما شغلت المملكة الإسلامية برد خطر النورمانيين الذين فاجأوا الأندلس بغارتهم المخربة في سنة ٨٤٢ م حسبما

سلفنا . وشغلت حكومة قرطبة بالأخص حيناً بتحسين أطراف المملكة ، وإصلاح ما تخرب من أعمالها . وما كاد أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ينتهي من ذلك ، حتى نشط إلى استئناف غزو المملكة النصرانية ورد غارات النصارى ، فسير ولده محمداً في سنة ٨٤٧ م إلى جليقية فاخترق بسائطها ، وحاصر مدينة ليون ، وعاث في تلك المنطقة . وتقول بعض الروايات النصرانية ، إن المسلمين التقوا براميرو على مقربة من مدينة سالم ، وهزموه هزيمة شديدة واستولوا على عدد من الحصون ، وعلى كثير من الغنائم والأسرى . وفي رواية أخرى أن راميرو التقى بالمسلمين على مقربة من كلافينجو بجوار قلعة هرة ، وأنه هزمهم بالرغم من قلة جنده ، وتنسب هذا النصر إلى خرافة خلاصتها أن راميرو رأى القديس ياقب في نومه ليلة المعركة ووعده بالنصر^(١) . على أن الروايات الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة وهذا النصر المزعوم .

وأنفق راميرو بقية عهده القصير في العمل على تنظيم شئون مملكته وتوطيد الأمن فيها ، وأنشأ عدداً من الكنائس والأديار ، ثم توفى في ديسمبر سنة ٨٥٠ م بعد حكم دام نحو ثمانية أعوام ، تاركاً عرش أشتوريش وبردوليا لولده أردونيو .

وتولى أردونيو عرش المملكة النصرانية عقب وفاة أبيه بقليل ، وبدأ أعماله بتحسين المدن المتاخمة لحدود المسلمين ، مثل تودة وليون وأستركة ، وأصلح باقي القلاع والحصون تاهباً للدفاع ، وأخذ الثورة في ولاية بسكونية ، وفرض عليها سلطانه . ولما ظهرت أعراض ثورة المولدين في الأندلس في بداية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقامت طليطلة بثورتها على حكومة قرطبة ، أرسل أردونيو مدداً إلى الثوار ، ولكن جيش الأندلس هزم الثوار وحلفاءهم النصارى في موقعة وادي سليط شر هزيمة (٨٥٤ م) . وفي العام التالي غزا الأمير محمد ألبه والقلاع وعاث فيها ، ولكن الأندلس شغلت بعد ذلك بظهور النورمالين وغزوهم لثغور الأندلس وبسائطها القريبة ، فوقف سير الصوائف إلى الشمال بضعة أعوام . ولكن أردونيو كان يواجه عندئذ خطر قوة جديدة ، أخذت تنمو وتشتد في الولايات الشمالية . ذلك أن موسى بن موسى بن قسي ، استطاع أن يبسط سلطانه

على الثغر الأعلى ، وأن ينشئ فيه إمارة مستقلة قوية ، واقترن غرسية أمير نافار بابنة موسى وتحالف معه ، ليستعين به على مقاومة المسلمين ، ومقاومة جيرانه النصرارى من الغرب . وفى أوائل عهد الأمير محمد ، عبر موسى جبال البرنيه بقواته ، وغزا جنوبى فرنسا، واضطر ملكها شارل الأصلى إلى مهادنته ومسألمته ، وأغدى عليه الهدايا والتحف . ولما رأى أردونيو نهوض قوة موسى وخطرها عليه ، اضطر أن يسعى إلى مخالفته ، ولكنه ما لبث أن تركه مغضباً إذ كان موسى يؤازر البشكنس النأثرين عليه بتحريض صهره أمير نافار ، ولم ير أردونيو فى النهاية بدأ من محاصمة موسى ومحاربته ، وهاجم أردونيو بعض الحصون الغربية التابعة لموسى ، فسار موسى لقتاله ومعه صهره غرسية ملك نافار فى قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها موسى وجرح وقتل صهره غرسية . ثم توفى موسى متأثراً بجراحه (٨٦٢ م) . وكانت ضربة شديدة أصابت سلطان بنى قسى فى الشمال ، ولما شعر لب بن موسى عقب وفاة أبيه بقوة المملكة النصرانية وخطرها على سلطان أسرته ، سعى إلى مهادنة أردونيو ومخالفته على قتال المسلمين ، وردهم عن الولايات الشمالية .

وانتهز أردونيو فرصة اشتغال حكومة قرطبة بأمر النواحي النأثرية ، فعبر نهر دويرة بقواته وغزا مدينة قورية وأسر واليها ، ثم غزا شلمنقة ، وهزم المسلمين ، وعاث فى تلك الأنحاء . فسير محمد جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فاخترق ألبة والقلاع ، وهزم النصرارى فى كل موطن ، ووصل إلى بنبلونة ، وعاث فى نواحيها . وتوالت حملات الأندلس بعد ذلك على ألبة والقلاع ، ونشبت بين المسلمين وأردونيو معارك متعاقبة ، هزم فيها النصرارى جميعاً حسبما فصلنا ذلك فى موضعه^(١) . وأراد محمد أن يقضى نهائياً على مملكة جليقية فسير السفن إلى المياه الغربية لتغزوها من البحر ، ووصل الأسطول الأندلسى بالفعل إلى مصب نهر منهو ، ولكن العواصف ثارت وحطمت السفن ، وفشل المشروع فى المهدي (٨٦٦ م) .

ولزم أردونيو عقب هزأئمه المتوالية السكنينة بقية عهده ، ثم توفى فى شهر مايو

(١) راجع تفاصيل هذه المعارك فى أخبار أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن فى القسم الأول من العصر الأول .

سنة ٨٦٦ م ، واختار قبيل وفاته ولده البكر ألفونسو لولاية عهده ، فخلفه على العرش باسم ألفونسو الثالث ولما يبلغ الرابعة عشر من عمره .

وما كاد الملك الفتي يجلس على العرش ، حتى ثار عليه الكونت فرويلا حاكم ولاية جليقية وولد الملك برمند ، مطالباً بالعرش ، وسار في قواته إلى أوفيدو ، ففر ألفونسو إلى ولاية ألبه ، واستولى فرويلا على القصر ، وأعلن نفسه ملكاً . ولكن الأشراف القوط الذين يرون في العرش رمزهم وملاذهم ، لم يرقهم هذا الاغتصاب ، فثاروا على فرويلا وقتلوه حتى قتل ، وعاد ألفونسو إلى أوفيدو ظافراً واسترد عرشه .

ولم يمض قليل على ذلك حتى دبر أخوة ألفونسو ، وهم فرويلا ونونيو وبرمند وأدثاريوس مؤامرة لعزله وانتزاع العرش منه ، ولكن المؤامرة افتضحت قبل نضجها وقبض ألفونسو على أخوته وعاقبهم بسمل أعينهم واعتقالهم ، ولم ينبج من بطشه سوى برمند إذ فر إلى أسترة واستولى عليها ، واستطاع بمؤازرة المسلمين أن يستقل بحكمها بضعة أعوام^(١) .

وكان حكم ألفونسو الثالث الذي استطاع أربعة وأربعين عاماً ، فاتحة عهد جديد من القوة والنهوض بالنسبة للمملكة النصرانية . وكان ألفونسو أميراً وافر العزم والكفاية ، فاستطاع خلال حكمه الطويل بالحروب والزواج أن يدفع حدود مملكته حتى جبال البرنيه شرقاً ؛ وعبر نهر دويرة إلى أراضي المسلمين مراراً ، ووصل في غزواته إلى ضفاف التاجه ، وغزا عدة من المدن الإسلامية المتاخمة مثل ماردة وقلمرية وبازو وقورية وشلمنقة ؛ ومع أنه لم يستطع أن يضم هذا البسيط إلى مملكته ، فإنه استطاع أن يشدد الضغط على الأندلس من هذه الناحية ، وأن يرد تيار الغزوات الإسلامية . وفي سنة ٨٧٨ م حاول المسلمون غزو ليون وأسترة ، فبادر ألفونسو إلى لقاءهم وهزمهم في موقعين على مقربة من سمورة ، وأرغم أخاه برمند على الفرار من أسترة والالتجاء إلى المسلمين . وفي سنة ٨٨١ م غزا ألفونسو أراضي المسلمين وعبر دويرة والتاجه ، ووصل في زحفه حتى أحواز ماردة ووادي أنة ، وهو مدى لم يبلغه أحد من أسلافه . وتقول الرواية النصرانية

إنه التقى بالمسلمين عند سفح جبل أريفير من جبال سيرامورينا (جبل الشارات) وهزمهم وقتل منهم عدة آلاف وهي موقعة لم تشر إليها الروايات الإسلامية^(١). وكانت ربيع الثورة تهب يومئذ على معظم جنبات الأندلس ، وتشغل حكومة قرطبة بمقارعة بنى قسى في الثغر الأعلى . وتحالف محمد بن لب زعيم الأسرة الثائرة مع ألفونسو الثالث ، ليستعين به على قتال المسلمين ، ولكن المسلمين نجحوا في انتزاع سرقسطة معقل ابن لب وزحفوا على ألبه لمقاتلة النصارى ، وعندئذ آثر ألفونسو أن يعقد السلم مع المسلمين ، وعقدت بالفعل بينه وبين الأمير محمد بن عبد الرحمن حسبا فصلنا من قبل ، معاهدة صلح استمرت ردحا طويلا .

ذلك أن ملك النصارى رأى بالرغم مما كان يشغل حكومة قرطبة من ثورات متعاقبة ، أن يقنع بتأمين حدوده وأراضيه من خطر الغزو الإسلامي ، وأن يتفرغ لشئون مملكته الداخلية ، وكانت هذه الشئون تستغرق جل اهتمامه ، وكانت الأزمات والفتنة السياسية والاجتماعية تتعاقب ، لأسباب وبواعث تتعلق بنظم المجتمع النصراني وظروفه . وقد وقعت في عهد ألفونسو عدة ثورات محلية ترجع بالأخص إلى المبالغة في فرض الضرائب على الضياع ، وثار أصحاب الضياع لهذا الحور غير مرة في أنحاء مختلفة ، وطالبوا بالحد من تغريمهم على هذا النحو لصالح الكنيسة ورجال الدين ، ولكن هذه الثورات الإقطاعية أخذت تباعا ، وصدورت معظم الضياع لصالح الكنيسة ، واستمر العرش في الإغداق على الأديار ورجال الدين .

ومما تجدر ملاحظته أن الملوكية الإسبانية ، كانت تدين منذ نشأتها بمنتهى الولاء والطاعة للكنيسة وللكرسى الرسولى . وكانت البابوية تتمتع في توجيهها بأعظم نفوذ . وكان العرش الإسباني يشعر دائما بأنه يستمد سلطانه من الكنيسة ويرجع إلى البابوية في كل أمر يمس شئون السلطة الروحية . ومن ذلك أن ألفونسو الثالث كتب إلى البابا يوحنا الثامن يستأذنه في عقد المؤتمر الكهنوتي وتعيين الأساقفة ، فأذن له ، وطلب إليه أن يبعث إليه بفرقة من الفرسان للمعاونة في محاربة المسلمين في صقلية وجنوبي إيطاليا . وعقد المؤتمر الكهنوتي بالفعل في أوغيدو سنة ٨٧١ م ونظمت فيه شئون الكنيسة الإسبانية . وكان ألفونسو الثالث ملكا تقياً ورعاً ، وكانت

الكنيسة ورجال الدين يحظون منه بأوفر قسط من الرعاية والإغداق ، وكان هذا الجود المغرق يحمله على الإسراف في فرض الضرائب على الطوائف المدنية . وبذا يثبت إليها بذور السخط والانتقاض (١) .

وفي أواخر عهد ألفونسو نشبت الحرب بينه وبين قسى سادة الثغر الأعلى ، وأغار زعيمهم محمد بن لب غير مرة على أراضي المملكة النصرانية وناغار . وكذلك نشبت الحرب بين ألفونسو وبين ابن القط المعروف بالمهدى الذي تزعم البربر في منطقة سمورة حسبنا فصلنا ذلك في موضعه . ولكن هذه المعارك التي وقعت يومئذ بين المسلمين والنصارى لم تتسم بالطابع الرسمي ، وكان يضطلع بها الزعماء الخوارج على حكومة قرطبة ، ومن ثم فقد استمر التهادن بين حكومة قرطبة وبين المملكة النصرانية طوال عهد الأمير محمد ، فإبنة الأمير المنذر ، ثم أخيه الأمير عبد الله . وبالرغم من أن ألفونسو لم يكن يترك فرصة لإذكاء الفتنة في المملكة الإسلامية وتعصيد الخوارج عليها ، فإنه التزم عهده المعقود معها ، ولم يتم بغزوات ذات شأن في الأراضي الخاضعة لها .

ودبرت عدة مؤامرات لخلع ألفونسو وانتزاع العرش منه . وكان المتآمرون من خاصة أسرته . وحاول المتآمرون لأول مرة تمكين أولاده وزوجه خمينا من الحكم ، ولكن ألفونسو استطاع أن يقف على المؤامرة وأن يقضى عليها . وقبض على ولده غرسية واعتقله في قلعة أوفيدو . ولكن هذا الفشل لم يفت في عضد المتآمرين ، فدبروا مؤامرة جديدة برياسة الملكة خمينا ، وهي امرأة ذات أطماع تهم بالسلطان ، واشترك في تدبيرها الكونت نونيو صاحب برغش وأولاد الملك الثلاثة وهم : أردونيو وفروبيلا وجند سالقوس ، وانضم إليهم قسم من الجيش وفريق كبير من الشعب ، وسيطروا على كثير من المعاقل . وخشي ألفونسو عاقبة الحرب الأهلية فقبل شروط الثوار ، ونزل عن العرش لولده الأكبر غرسية ، وعين أردونيو حاكماً لجليقية ، وفروبيلا حاكماً لأشتوريش ، ووقع ذلك في سنة ٩١٠ م ، وبدا اختتم ألفونسو عهده الذي استطال أربعة وأربعين عاماً . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفي في شهر أكتوبر من نفس العام وقد جاوز الثامنة والخمسين من عمره . وتشيد الرواية لخلع ألفونسو الثالث ، وتصفه بالحزم والشجاعة ، وتقول لنا

إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين شديد الوطأة في محاربتهم ، ولكنه حينما عقد السلم مع حكومة قرطبة احترام عهده والتزم الوفاء به . وكان ألفونسو في الوقت نفسه نصيراً للآداب والعلوم يجزل صلواته لأهل العلم ، وكان من سعة أفقه أن عهد بتربية ولده أردونيو إلى بعض العلماء المسلمين^(١) ، وكان حسماً أسلفنا تقياً ورعاً يحرص الكنيسة بأوفر رعايته وعطائه ، وقد أنشأ كثيراً من الكنائس والأديار ، وابتنى كنيسة شنت ياقب الشهيرة . وقد رأينا كيف حمّله إسرافه في الإغداق على الكنيسة ورجال الدين ، على المبالغة في فرض الضرائب على الضياع ، فكان ذلك من عوامل الإنتفاض والثورة على سياسته ؛ وبذل ألفونسو جهوداً كبيرة في تحصين مدن الحدود ، وفي مقدمتها برغش وسمورة وسمانقة (شنت منكش) ، وزودها بالسكان والجنود ، لكي تغدو سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين .

ومنذ وفاة ألفونسو تسمى المملكة الإسبانية النصرانية مملكة ليون ، بعد أن كانت تسمى مملكة أشتوريش وجليقية ؛ وقد نقل ابنه وخلفه غرسية قاعدة المملكة من أوفيدو إلى مدينة ليون لتوسط موقعها بين جليقية وأشتوريش ؛ وتسبغ الرواية النصرانية على ألفونسو الثالث لقب (ألفونسو الكبير) ، لما امتازت به المملكة النصرانية في عهده من القوة والنهوض والاتساع ، وما تمتعت به خلال عهده الطويل من السلم والرخاء .

إلى جانب مملكة أشتوريش أو مملكة ليون الإسبانية الشمالية ، كانت تقوم في غربي البرنيه في بلاد البشكنس الجبلية ، إمارة أو مملكة نصرانية أخرى هي مملكة نافار (نبرة) . ويحيط الغموض بأصل هذه المملكة الصغيرة ونشأتها . وكل ما نعرفه من ذلك هو أن قبائل البشكنس ، كانت حتى أواخر القرن الثامن الميلادي تخضع لبعض السادة الإقطاعيين التابعين لمملكة الفرنج ، وربما حكمها دوقات كانتابريا أو أمراء أشتوريش . وكانت قاعدتهم مدينة بنبلونة الحصينة ، التي حكمها المسلمون ردهاً من الزمن ، ثم فقدوها في أواخر القرن الثامن أيام غزوات الفرنج لاسبانيا الشمالية . وكانت بلاد البشكنس أو نافار منذ الفتح ميداناً للغزوات الإسلامية والفرنجية . وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وضمها إلى

المملكة النصرانية . ولكن قبائل البشكنس كانت تتفانى دائماً في الذود عن استقلالها . ولما شغلت المملكة النصرانية بمنازعاتها الداخلية ، لبثت ناغار مدى حين مقصد الصوائف الإسلامية ، واجتاحها المسلمون مراراً .

وفي نهاية القرن الثامن الميلادي في نحو سنة ٧٩٩ م ، ظهر في ناغار زعيم من السادة يدعى أزوار وجعل نفسه أميراً مستقلاً . ولما توفي سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه سانشو . ولكن أميراً آخر من الزعماء البشكنس هو غرسية إنيجيز بن إنيجو أريستا تغلب عليه وانتزع منه الإمارة . وتعرف الرواية الإسلامية إنيجو أريستا هذا وتسميه « ونقه بن شاخه ملك البشاكسة »^(١) . وهنا تبدو ناغار لأول مرة في صورة المملكة المستقلة ، ويبدأ ثبت ملوكها المتعاقبين . ومما يجدر ذكره أن مملكة ناغار الناشئة رأت أن ترتبط برباط التحالف والمصاهرة مع إمارة إسلامية مجاورة هي إمارة بني قسي سادة الثغر الأعلى ، وهم حسبنا قدمنا يرجعون إلى أصل نصراني أوقوطي . وقد تزوج إنيجو أريستا رأس الأسرة الناغارية بأرملة موسى بن فرتون بن قسي ، وتزوج موسى بن موسى من ابنة غرسية إنيجيز ، وتزوج غرسية وإخوته من بنات لب بن موسى بن فرتون ، وتزوج بعض إخوة موسى وأبنائه من بنات أمراء ناغار^(٢) .

وهكذا كانت وشائج التحالف والمصاهرة تربط بين الأسرتين المسلمة والنصرانية ، وتوثقت هذه الوشائج واستطالت دهوراً . وكذلك رأى غرسية إنيجيز أن يتحالف مع عمر بن حفصون زعيم الفتنة في الأندلس . وكانت علائق ناغار بجارتها المملكة النصرانية الكبيرة أو مملكة ليون يشوبها الكدر . ذلك أن مملكة ناغار الصغيرة كانت دائماً تخشى مطامع مملكة ليون وغدرها ، وقد حارب غرسية إنيجيز أردونيو ملك ليون ، إلى جانب صهره موسى بن موسى ، في موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م حسبنا أسلفنا .

وخلف غرسية ولده فرتون الذي لبث أسيراً في قرطبة ردحاً طويلاً . ثم خلفه ولده سانشو غرسية . وفي رواية أن سانشو هذا لم يكن ولداً لفرتون أو لغرسية ولم يكن من أمراء البيت المالك ، ولكنه متغلب من فرع آخر انتزع الملك لنفسه .

(١) راجع بجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٨ .

(٢) بجمهرة أنساب العرب ص ٤٦٨ .

وعلى أى حال فقد استقر سانشو غرسية ملكاً على نافار . وهو أول من تلقب من أمراء نافار بألقاب الملك ، وبه تبدأ مملكة نافار الحقيقية . وقد حكم سانشو حتى سنة ٩٢٦ م ، وخاض مع المسلمين أيام الأمير عبد الله عدة حروب ووقائع ، وشغل حيناً بقتال بنى قسى الذين تصرمت علائقهم مع مملكة نافار ، وهاجم لب ابن محمد بن لب زعيم بنى قسى نافار غير مرة ، ونشبت بينه وبين سانشو على مقربة من بنبلونة وقائع متوالية انتهت بهزيمة لب ومقتله فى سنة ٩٠٧ م ، فخلفه أخوه عبد الله فى رياسة تطيلة وما جاورها ، واستمر فى محاربة نافار وهزم سانشو فى سنة ٩١١ م . وشغل سانشو أيضاً بقتال الطويل وغيره من زعماء الثغر الأعلى حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وسنعرض فى فصل قادم إلى حروبه مع عبد الرحمن الناصر .

الفصل الثاني

ولاية عبد الرحمن الناصر

وقيام الخلافة الأندلسية

ولاية عبد الرحمن حفيد الأمير عبدالله . نشأته وحدثه . أخذ البيعة له . حزمه في معالجة الثورة . غزو قلعة رباح وإخضاعها . خروج عبد الرحمن لغزو الثوار . غزوة المتلون . غزوه لمعاقل ابن حفصون في ريه وإلبيرة . سحق الثورة في إشبيلية . عوده لغزو كورة ريه . محاصرته لقرمونة وإخضاعها . القحط بالأندلس . إخضاع أوريولة ولبلة . وفاة عمر بن حفصون . مبالغة النقد الغربي في تصوير شخصيته . أبنائه يخلفونه في معاقله . مطاردتهم وإخضاع ببشر آخر معاقلمهم . استخراج جثة الناصر وصلها . إعدام ابنته أرختنا . محاصرة طليطلة وإخضاعها . إخضاع بطليوس ونهاية بني الخليقي . تمزيق الثوار في شرق الأندلس . إسبانيا النصرانية وتربصها بالأندلس . عيث النصارى في أراضي المسلمين . غزو أردونيو لماردة وبتليوس . غزو المسلمين لأراضى ليون . موقعة شنت إشتين وهزيمة المسلمين . عود المسلمين إلى غزو ليون . موقعة مطونية وهزيمة النصارى . مسير عبد الرحمن إلى ليون . استيلاؤه على أوسمة وشتت إشتين . توغله في أراضى نافار . موقعة جونكيراه وهزيمة النصارى . إستيلاء النصارى على بقيرة وفتحهم بالمسلمين . مسير عبد الرحمن إلى الثغر الأعلى . غزوه لنافار واستيلاؤه على بنبلونة . هزيمة النصارى . وفاة أردونيو وولاية ولده راميرو . راميرو يشجع ثوار طليطلة . محاصرة الناصر لطليلطة . محاولة راميرو إنجادهها . سقوطها في يد الناصر . غزو الناصر لقشتالة . تحالف بني هاشم أصحاب الثغر الأعلى مع النصارى . مسير عبد الرحمن إلى مقاتلة الثوار . محاصرته لسرقسطة . خروج أمية بن اسحاق والتجأوه للنصارى . سقوط سرقسطة وانتهاء ثورة بني هاشم . غزو عبد الرحمن لنافار وخضوع ملكها طوطه . تأهب عبد الرحمن لمحاربة راميرو . نفوذ الصقالبة في القصر والجيش . مسير عبد الرحمن إلى ليون . تحالف ليون ونافار . زحف عبد الرحمن على سمورة . موقعة الخندق وهزيمة المسلمين . أقوال الروايات العربية والفرنجية . آثار الموقعة . عود المسلمين لغزو ليون . وفاة راميرو وجلسوس أردونيو . الصلح بين الأندلس وليون . الدعوة الفاطمية واجتياحها للمغرب . جزع حكومة قرطبة . استيلاء عبد الرحمن على سبتة . خضوع المغرب الأقصى لعبد الرحمن . خطر الفاطميين على الأندلس . السفن الفاطمية تغزو ألمرية . غزوات عبد الرحمن لشواطئ المغرب . أثر الدعوة الفاطمية في بعث فكرة الخلافة الأندلسية . عبد الرحمن يتخذ سمة الخلافة . الوثيقة الخاصة بذلك .

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بني أمية بالأندلس ، وتوطدت أسس الدولة الجديدة ، وأخذت تزدهر وتزدهر في عهد عبد الرحمن بن الحكم . ولكن عوامل

الإنتفاض والتفكك سرت فجأة إلى هذا الصرح القوي ، ولبثت الأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي) تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن ، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بني أمية أضحى على وشك الانهيار .

توفي الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢ م) بعد حكم طويل عاصف ، مزقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها ، فخلفه في نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد ، غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه . وكان الأمير عبد الله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده ، فوجد عليه أخوه المطرف وقتله حسبما تقدم . وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل في ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (ديسمبر سنة ٨٩٠ م) وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريًا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية ، فنشأ الطفل اليتيم في كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية ، وأسكنه جده معه بالقصر دون ولده . وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من حدائته تفوقاً في العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه ؛ ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع في النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص في فنون الحرب والفروسية ، وأقبل عليه جده الأمير نخصه بحبه وثقته ، ويرشحه لمختلف المهام ، ويندبه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد لتسليم الحند عليه ؛ وهكذا تعلق آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه ، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً واضحاً مقضياً ، بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده وذلك بأن برئ نخاتمه إليه ، حينما اشتد عليه المرض إشارة منه باستخلافه^(١) وما كاد الأمير عبد الله يسلم أنفاسه الأخيرة حتى بويع حفيده عبد الرحمن بالملك . وجلس عبد الرحمن للبيعة ، يوم الخميس غرة ربيع الأول في قاعة « المجلس الكامل » بقصر قرطبة ، فكان أول من بايعه أعمامه ، وأعمام أبيه ، وتلاهم أخوة جده ، وقد مثلوا أمامه وعليهم الأردية والظواهر البيض عنوان الحزن على الأمير

(١) وردت هذه التفاصيل الأخيرة في أوراق مخطوطة عن بداية عهد الناصر ، نشرت بعناية

الأستاذ ليثي بروثنسال بعنوان : Una Crónica Anónima de Abd Al-Rahman III,

Al-Nasir (Madrid 1950) p. 29-30

الراحل ، وتكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبد الله فقال : « والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام ، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ، فأسأل الله إيزاع الشكر ، وتمام النعمة ، وإلهام الحمد » . وتتابع للبيعة بعد ذلك وجوه الدولة والموالى ، ثم أهل قرطبة من الفقهاء والأعيان ، ورؤساء البيوتات ، واستمرت بيعة الخاصة على هذا النحو حتى الظهر ؛ وعندئذ نهض الأمير الحديد فصلى على جثمان جده ، ثم وراه في مدفنه بالروضة ، ومعه الوزراء ورجال الدولة . وجلس لتلقى البيعة في المسجد الجامع صاحب المدينة الوزير موسى بن محمد بن حدير ، والقاضي أحمد بن زياد اللخمي ، وصاحب الشرطة العليا ابن وليد الكلبي ، وصاحب الشرطة الصغرى ، أحمد بن محمد بن حدير ، وصاحب أحكام السوق محمد بن محمد بن أبي زيد ، فاستمرت بضعة أيام . وكذلك أنفذت الكتب بأخذ البيعة إلى العمال في سائر الكور ، وأخرج الأمناء إلى البلاد لأخذها ، وتتابع الردود بإنجازها من جميع النواحي^(١) . وساد البشر يوم البيعة في القصر والمدينة ، وتوسم الجميع في الأمير الفتي آيات العظمة واليمن ، وعلقوا على ولايته أكبر الآمال . وفي ذلك يقول شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، يوم أن تولى عبد الرحمن الملك في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ :

بدا الهلال جديداً والملك غض جديداً
يا نعمة الله زیدی ما كان فيك مزید
إن كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد
إمام عدل عليه تاجان : بأس وجود
يوم الخميس تبدى لنا الهلال السعيد
فكل يوم خميس يكون للناس عيد

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة إلى الأعماق ، وتجاوزتها الأعاصير من كل صوب ، وكان الأمير الفتي يرى أن خطة التردد والرفق التي اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطيرة ، ولم تكن ناجحة ، وأنه لا بد لاستباب الأمن واستقرار السكينة ، من سحق الثورة وزعمائها بأى الوسائل . ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع فلائل حتى بعث حملته الأولى إلى

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بمهد الناصر ص ٣١ .

المناطق الثائرة بقيادة الوزير عباس بن عبدالعزيز القرشي فقصدت إلى منطقة قلعة رباح وكان قد ثار بها الفتح بن موسى بن ذى النون من زعماء البربر ، ومعه حليفه الرياحي المعروف بأرذبلش ، فوقعت بين جند الأمير وبين العصاة معارك شديدة ، هزم فيها الفتح بن موسى ، وارتد مغلولاً إلى معاقله ، وقتل أرذبلش ، وبعثت رأسه إلى قرطبة ، فرفعت فوق باب السدة ، وطهرت قلعة رباح وأحوازها من الثورة ، وذلك في شهر ربيع الآخر^(١) . وسارت حملة أخرى نحو الغرب ، واستردت مدينة إستجة من أيدي العصاة أتباع ابن حفصون (حمادى الأولى) ، وهدمت أسوارها وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل ، حتى تعزل وتغدو بذلك عاجزة عن التمرد والخروج .

وفي شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٣ م) خرج عن الرحمن للغزو وتولى القيادة بنفسه ، فأثار اظهور الأمير الفتي في الصفوف حماسة الحند وأكبروا شجاعته وإقدامه . وسار عبد الرحمن أولاً إلى الجنوب الشرقى ، ومعه جند كورة لإبيرة وزعمائها ، وكان ابن حفصون قد نزعهم حصونهم ومعاقلمهم ، فالتجأوا إلى الأمير ، وألقوا بطاعتهم إليه ، واتجه صوب كورة جيان في وسط الأندلس ، حيث كانت الثورة على أشدها ، وحيث كان ابن حفصون أخطر الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من الحصون القوية ؛ فاستولى على حصن مَرْتَشْ الواقعة في طريق جيان ، وسير في نفس الوقت بعض قواته إلى مالقة لإنجادها وكان يهددها الزعيم الثائر ، فاحتلتها وأمنتها . وقصد عبد الرحمن بعد استيلائه على مرتش ، إلى حصن مونت ليون (حصن المتلون) القريب منها ، وكان يمتنع به زعيم من المولدين هو سعيد بن هذيل ، فضربه بشدة ، وهاجمه حتى اقتحمه ، وأذعن الزعيم الثائر إلى التسليم والطاعة ومنح الأمان (رمضان سنة ٣٠٠ هـ) . واتجه عبد الرحمن بعد ذلك إلى حصن شمنتان ، الواقع على مقربة من بياسة ، وبه عبد الله بن الشالية ، فاستسلم الثائر دون مقاومة ، وطلب الأمان ، ونزل عن جميع حصونه ومعاقله . واستولى عبد الرحمن بعد ذلك على حصن منتيشة من يد صاحبه ابن عطاف . وافتتح سائر الحصون التي كانت بيد ابن حفصون من كورة جيان ، وطهرها من آثار الخروج والعصيان . وقدم إليه سائر الزعماء الخوارج طاعتهم فتقبلها وعفا عنهم .

(١) الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ص ٣٣ .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك جنوباً إلى كورة ريبه ، فاحتل منها سائر الحصون التي تدين بالطاعة لابن حفصون ، واقتحم أمنع هذه الحصون ، وهو حصن شبليس بعد قتال عنيف ، وقتل من كان به من أصحاب الثائر ، وفر أمامه جعفر ابن حفصون ليلاً ولحق بأبيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن أشتبين على مقربة من البيرة . واتجه بعد ذلك إلى وادي آش فاحتل حصونها ، ثم توغل في شعب جبل الثلج (سيرا نقادا) وافتتح ما هنالك من المعقل والحصون . وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة ، فخرج إليه أهل البيرة ومعهم مدد من جيش عبد الرحمن فردوه على عقبه . وما زال عبد الرحمن يجول في تلك الأنحاء يخضع حصونها وينتسف أراضيها ، حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها ، وبلغ ما استولى عليه في تلك الغزوة من الحصون زهاء سبعين حصناً من أمهات المعقل النائرة ، ثم ارتد عائداً إلى قرطبة فوصلها في يوم عيد الأضحى بعد أن قضى في غزوته زهاء ثلاثة أشهر (١) .

على أن هذه الحولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير الذي كان على عبد الرحمن أن يضطلع به . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع ، وتتخفز ، وعاد ابن حفصون ينظم خططه وقواته . وكانت إشبيلية في مقدمة القواعد التي رفعت لواء الثورة ، وقام بها منذ أيام الأمير عبدالله ، بنو حجاج حسباً تقدم ، وأنشأوا بها إمارة مستقلة . وقد كانوا بالرغم من انحذارهم من أصل عربي ينتمون إلى المولدين من ناحية الأم ، ويشاطرونهم شعور الحفيظة ضد حكومة قرطبة . وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين ومن يمالئهم ، وقد أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية التي لم تدخر وسعاً في الرفق بهم ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل . وكان زعيم إشبيلية إبراهيم بن حجاج قد توفى وخلفه في حكمها ولده عبد الرحمن ، وخلفه في حكم قرمونة ولده محمد . ولما توفى عبد الرحمن في المحرم سنة ٣٠١ هـ ، تطلع أخوه محمد إلى أن يحكم إشبيلية من بعده ، ولكن أهل إشبيلية اجتمعوا حول زعيم قوى آخر هو أحمد بن مسلمة وهو أيضاً من بني حجاج وقدموه لحكمها ، وسبق محمداً إلى الاستيلاء عليها . فسار محمد إلى قرطبة ، وقدم طاعته إلى عبد الرحمن ،

(١) وردت تفاصيل هذه الغزوة في الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣٥ - ٣٨ .

فتقبلها وأوفد معه الجند بقيادة الحاجب بدر ، فحاصر إشبيلية ثم استولى عليها في جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ وهدم أسوارها، وندب لها عبد الرحمن والياً من قبله ، وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين في إشبيلية .

وفي شوال سنة ٣٠١ هـ (مايو سنة ٩١٤ م) خرج عبد الرحمن في غزوته الثانية وقصد إلى كورة ريه والحزيرة . وكان ابن حفصون زعيم ثورة المولدين قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء ، وعادت الثورة تضطرم فيها . وبدأ عبد الرحمن بحصار قلعة « طرُش » في شرقي مالقة ثم سار إلى حصون ريه ومعاقلها يفتتحها تباعاً ؛ وهنا قدم ابن حفصون على رأس قواته والتقى بعبد الرحمن أمام قلعة طرُش ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها كثير من جند ابن حفصون وحلفائه النصارى ، وارتد النائر بفلوله صوب الغرب ، واستطاع أسطول عبد الرحمن أن يضبط عدة سفن محملة بالموئن كانت قادمة من عدوة المغرب لإمداد ابن حفصون وأن يحرقها . وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى شذونة ثم إلى قرمونة ، وكان حاكمها حبيب بن سودة قد ثار بها ، فحاصرها حتى سلم النائر واستأمن ، ففتح الأمان ، وانتقل بأهله إلى قرطبة . بيد أنه نكث بعهدده فيما بعد . ودخلت في طاعته سائر المعاقل والحصون التي مر بها ؛ ثم عاد إلى قرطبة في شهر ذى الحجة بعد أن أصاب جبهة الثورة في تلك المرة بضربة شديدة وإن لم تكن قاضية . ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل ، فإنه لم يلجأ إلى قسوة لامبرر لها ، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء والثوار الذين قدموا خضوعهم وطاعتهم ، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية ، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح^(١) .

وفي أواخر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) حل بالأندلس قحط شديد ، فغزت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وعمت المحنة سائر القواعد والثغور ، واستمرت خلال العام التالى ، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً وانتشر الوباء مع القحط ، وكثر الموت ، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء ، وكانت محنة قاسية شديدة للوطاة . ولم يدخر عبد الرحمن خلال تلك الآونة العصبية ، وسعاً في بذل المعونة

والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة . وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة ، فكان لمجهودهم أثر كبير في التلطيف من آثار المحنة . وكان لهذا الظرف أثره في تهدئة الثورة ، والفت في عضد الثوار ، ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك متيقظاً يرقب حركاتهم بحذر وأهبة .

وما كادت تنقش هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير قائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة غازياً إلى أرض النصارى . وسوف نتبع غزوات عبد الرحمن لاسبانيا النصرانية مجتمعة فيما بعد . وسير وزيره إسحق بن محمد القرشي إلى كورتى تدمير وبلنسية ، فطارد فيهما أهل الخلاف ، وافتتح حصن أوريولة من يد الثوار ، ثم أخضع الثوار في مدينة الحامة . وغزا الحاجب بدر مدينة لبلة ، وأسر بها الثائر عثمان بن نصر ، وأرسله مع صحبه مصفدين إلى قرطبة (سنة ٣٠٤ هـ - ٩١٧ م) : وكان حبيب بن سواده الثائر بقرمونة قد نكث بعهدده ، وعاد إلى قرمونة ، وأظهر الامتناع بها ، فسير إليه عبد الرحمن الحاجب بدرأ في حملة قوية ، فحاصر بدر قرمونة وضربها بالمجانيق بشدة ، ثم دخلها عنوة ، وقبض على حبيب وولده وأرسلهما في الأصفاد إلى قرطبة (ربيع الأول ٣٠٥ هـ) (١) . وفي شهر ربيع الأول من العام التالي ، في سنة ٣٠٦ هـ (سبتمبر ٩١٨ م) وقع حادث كان له أكبر الأثر في تفكك عرى الثورة وانحلالها ، ذلك هو وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة الكبرى ومثير ضرامها في غربي الأندلس . وكان ابن حفصون في الواقع أخطر نائر عرفته الأندلس منذ الفتح ، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التي لا تدين بالولاء لحكومة قرطبة وفي مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى إليهم ، وهم سلالة القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية . وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من ضروب الرعاية والتسامح ، يضمرون لها الحصومة والكيد ، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها . وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين رعايا الحكومة الإسلامية . وقد رأينا كيف دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته في المناطق الجنوبية الغربية ، فيما بين رندة ومالقة ، وقد كانت فضلاً عن وعورتها ومناعتها الطبيعية ، تضم كثرة من المولدين والنصارى ، وكان من هؤلاء معظم

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بمعهد الناصر ص ٥٥ و ٥٦ .

أنصاره وجنده . ولم ير ابن حفصون نفسه وهو يرجع إلى أصل نصراني ، بأساً من أن ينبذ الإسلام ويرتد إلى النصرانية لكي يذكي حماسة أنصاره . وهكذا كانت وفاة هذا الثائر الخطر ضربة شديدة للثورة ، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً .

وقد بالغت التواريخ النصرانية في تصوير ثورة عمر بن حفصون الطويلة المدى ، واعتبارها ثورة قومية تهدف إلى غاية وطنية سامية ، وهى تحرير وطنه - إسبانيا - من نير المتغلبين عليه ، وأنه كان في مناوآته لحكومة قرطبة الإسلامية يجيش بهذه النزعة ، ويهدف إلى هذه الغاية . وعمل النقد الحديث على إبراز هذه الصورة ، وعلى اعتبار ابن حفصون بطلاً قومياً ، جديراً بالتقدير والاحترام . وهذا ما نقرأه في تعليقات بعض أكابر النقدة المحدثين أمثال دوزى وسيمونيت ، وذلك بالرغم من كونهم لم ينسوا أن يذكروا في نفس الوقت أن ابن حفصون قد نشأ سفاحاً وقاطعاً للطرق ، لا تحدوه أية نزعة وطنية أو غاية مثلى . بيد أن سيمونيت ، وهو مؤرخ النصارى المستعربين ، يحاول أن يبرر حسن تقديره وتصويره لحركة ابن حفصون بأن قيامه اتخذ فيما بعد « شكلاً أكثر نبلاً ، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة »^(١) . ويصفه دوزى بأنه « البطل الإسباني الذى لبث أكثر من ثلاثين عاماً يتحدى المتغلبين على وطنه ، والذى استطاع مراراً أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم » وأنه « كان بطلاً خارقاً لم تنجب إسبانيا مثله منذ أيام الرومان »^(٢) . أما نحن فترى في مثل هذه الآراء مبالغة وإغراقاً ، وأنها ليست إلا ثمرة نزعة من التعصب الدينى والجنسى ، الذى يطبع النقد الغربى ، فى كثير من المواطن ، وأن ابن حفصون بالرغم من صلابته وقوة عزمه ، وبراعة خططه ، لم يكن سوى قاطع طريق ، وثائر من طراز قوى عنيف . أجل إن ابن حفصون ، كان يدعو منذ اشتد ساعده ، إلى ما يسميه قضية الاستقلال والحرية ، وتحرير مواطنيه من نير المسلمين ، بيد أنه لم يكن فى هذا الزعم سوى مخادع سياسى ، يسعى إلى كسب الصاحب والأنصار لتقوية مركزه ، ودعم سلطانه ، ولم يكن يصدر فى مغامراته وحروبته أو فى أعماله خلال ثورته الطويلة ، عن أية

(١) راجع : F.J. Simonet : *Histoire de los Mozarabes de Espana* (Madrid : 1897) p. 516

(٢) Dozy : *Histoire* ; V. II. p. 106

ترعة نبيلة ، أو تصرف تطبعه الشهامة ، والعزة القومية ، بل كانت أعماله وتصرفاته كلها ، بغى صراح ، وإجرام في إجرام ، وامتهان لكل المبادئ الأخلاقية ، وكل مقتضيات الشرف والمروءة والشهامة . ومن كان هذا شأنه ، فإنه من التعسف أن تُسبغ عليه صفات البطولة ، وثوب التحرير والوطنية .

وترك ابن حفصون أربعة بنين ، هم سليمان وعبد الرحمن وجعفر وحفص ، وابنة هي « أرختا » ؛ وكان له ولد آخر هو أيوب آتاهم أبوه عند ما اعتل ذات مرة ، بمحاولة الفتك به وقتله^(١) . فقام سليمان في أبدة ، وقام جعفر مكان أبيه في ببشتر بعهد منه ، بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى سير عبد الرحمن قواته إلى أبدة فاقحمها وأسر سليمان ، وأخذ إلى قرطبة حيث عفا عنه عبد الرحمن وضمه إلى جيشه ؛ وكذا استسلم عبد الرحمن بن حفصون ، وكان ممتنعاً بحصن طرُش ، وكان أخوه جعفر صاحب ببشتر ، قد ضايقه ، وحاول أن ينتزع منه طرُش ، فالتجأ عندئذ إلى الأمير ، وأذعن للطاعة ، على أن يسلم حصنه ويمنح الأمان لنفسه وأهله فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وتسلم منه الحصن ، واستقدمه إلى قرطبة وأجرى عليه الصلوات ، وكان أديباً شاعراً . واستبد جعفر بحكم ببشتر وما حولها ، وآثر عبد الرحمن أن يهادنه مدى حين ، وأن يقره على أعماله . وفي سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) قتل جعفر في ببشتر ضحية مؤامرة قيل أنها من تدبير أخيه سليمان ، وقيل من جهة أخرى إنه رأى أن يعود إلى الإسلام اكتساباً لمودة السكان والحند المسلمين ، فاغتاله نفر من جنده النصارى^(٢) . فقام أخوه سليمان مكانه في ببشتر ، وأقره عبد الرحمن على ولايته ، ولكنه نكث عهد الطاعة ، فسار عبد الرحمن لقتاله وحاصره مدى حين ، وكان أصحاب سليمان بحصن طرُش ، قد نبذوا الطاعة مثله ، فسار عبد الرحمن إلى طرُش ، ونازلهم ، ثم ترك قوة استمرت في حصارهم ، حتى أذعنوا إلى الطاعة ، وسلموا الحصن بالأمان ، وأمر عبد الرحمن بتخريبه وتسويته بالأرض . ثم سار عبد الرحمن لحصار سليمان مرة أخرى في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، وخرب سائر المناطق التي يسيطر عليها الثائر ، وأخضع معظم حصونها ، واعتصم سليمان بجبل ببشتر ، فنازله عبد الرحمن ، واشتد في محاصرته ، حتى ضاق الثائر وصحبه

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٢ ؛ ونقط العروس لابن حزم ص ٧٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٩ ، وراجع : Dozy : Hist.

بالحصار ذرعاً ، وخرج عليه معظم أنصاره ، ونكل بالكثير منهم . ونازل عبد الرحمن بالأخص حصن الشط ، وكان من أمنع الحصون النائرة ، حتى تغلب عليه وعلى ما حوله من الحصون ، وأخيراً عرض عليه سليمان أن يعود إلى الطاعة ، وأن يسلم بعض حصونه ، فاستجاب عبد الرحمن إلى رغبته ، وتسلم حصن الشط ، وحصن منت ميور وغيرهما من الحصون كفالة بحسن الطاعة ، وانصرف عائداً إلى قرطبة ، وهو يتحين الفرصة الملائمة للقضاء على الناصر بصورة نهائية . وفي أواخر سنة ٣١٤ هـ سير عبد الرحمن وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى ببشتر ، وخرج سليمان في قواته إلى لقائه فهزم وقتل ، واحتز رأسه وقطعت أشلاؤه وأرسلت إلى قرطبة فرفعت على باب السدة (يونه سنة ٩٢٧ م) . وقام أخوه حفص مكانه في ببشتر ، واستمر على المقاومة حيناً . وفي ربيع الأول سنة ٣١٥ هـ ، سار عبد الرحمن بنفسه إلى ببشتر ومعه ولي عهده الحكم ، وكان يومئذ صبياً في الثانية عشرة من عمره ، ونزل على مدينة ببشتر ذاتها ، وبها حفص ، وشدد عليها الحصار ، وابتنى إزاءها حصناً للتضييق عليها ، وفرق قواته لمنازلة بقية الحصون النائرة ، ثم ترك قوة لمتابعة الحصار . واستمر الحصار بضعة أشهر حتى اضطر حفص أن يدعن أخيراً إلى التسليم ؛ فسلم المدينة بالأمان إلى القائد سعيد بن المنذر ، وذلك في أواخر شهر ذي القعدة سنة ٣١٥ هـ (يناير سنة ٩٢٨ م) وأخذ حفص ابن عمر وأهله وأصحابه ، أسرى إلى قرطبة ، فعفا عبد الرحمن عنهم ، وأحسن مثواهم ، وضم حفصاً إلى جيشه .

وفي العام التالي سنة ٣١٦ هـ ، سار عبد الرحمن إلى ببشتر لتنظيم شئونها ، وعين لها والياً من قبله ، وعمد إلى تطهيرها من آثار ابن حفصون ، فصلى في مسجدتها المهجور ، وأمر بإخراج جثة ابن حفصون وفحصها ، فتبين من هيئتها ، وشبك ذراعيه على صدره ، واستقبلها للمشرق ، أنه دفن على دين النصرانية ، فأمر عبد الرحمن بحملها إلى قرطبة ، حيث علقت في أعلى الجذوع على باب السدة ، يكتنفها أشلاء ولديه المصلوبين قبله ، وهما حكم^(١) وسليمان ؛ واستمرت أشلاؤهم معلقة على جذوعها أعواماً طويلة ، وأمر عبد الرحمن ، فعمرت سائر مساجد

(١) لم نجد ذكر لهذا الإبن من أبناء عمر بن حفصون إلا في هذه المناسبة ، وفي رواية الأوراق المخطوطة (ص ٧٧) .

ببشر المهجورة ، وهدمت سائر الكنائس والأديار ، التي ابتناها الثائر في تلك المنطقة ، واستولى عبد الرحمن على سائر معاقلها وحصونها ، وطهرها من آثار الثورة الأخيرة^(١) . ثم أمر بعد ذلك بالقبض على « أرختنا » ابنة عمر بن حفصون وإعدامها ، لارتدادها عن الإسلام وتمسكها باعتناق النصرانية ، فأعدمت في سنة ٩٣١ م ، أو في سنة ٩٣٧ وفقا لرواية أخرى ، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية في سلك القديسين والشهداء^(٢) .

ولم يغفل عبد الرحمن في الوقت الذي كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه في جنوب الأندلس ، تشغل معظم عنايته ، عن مطاردة الثورة في الأنحاء الأخرى . وكانت طليطلة من أمنع معاقل الثورة ، فسير عبد الرحمن جنده لحصارها ، وفيها لب بن الطريشة وهو من زعماء المولدين ، واستمر الحصار زهاء عامين حتى نضبت موارد المدينة ، وخبث عزائم أهلها واضطرت في النهاية إلى التسليم والإذعان . وسار لب مع الأمير بقواته إلى الغزو في أرض النصارى (سنة ٣٠٨ هـ) . وكانت بطليوس وأحوازها منذ أكثر من أربعين عاماً معقلا من معاقل ثورة المولدين . وكان بنو مروان الحلقي ما يزالون يسيطرون على تلك المنطقة ، وكانوا من أخطر الحوارج وأشدهم مراساً ، يمالئون الأمراء النصارى ويحالفونهم على حكومة قرطبة . ففي سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، هلك عبد الله بن مروان الحلقي صاحب بطليوس قتيلا بيد بعض المخالفين من أصحابه ، فقام مكانه ولده عبد الرحمن ، واستبد بمدينة بطليوس وما حولها ، واستمر بضعة أعوام على خروجه وتحديه لحكومة قرطبة . وفي سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، سار الناصر بنفسه إلى بطليوس ، وحاصرها ، واقتحم ما حولها من الحصون ، ثم ضربها بالمجانيق بشدة ، حتى أذعن الحلقي إلى الطاعة ، وانتهى بالتسليم ، وبعث به الناصر إلى قرطبة . وسار الناصر ، بعد افتتاح بطلوس ، إلى مدينة باجة ، وفيها الثائر سعيد بن مالك ، فحاصرها ، وضيق عليها حتى أذعن الثائر إلى طلب الأمان ، فأمنه الناصر وبعثه مع أهله وولده إلى

(١) تراجع تفاصيل المعارك الأخيرة بين عبد الرحمن وأبناء ابن حفصون ، وخاتمة هذه المعارك في الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٢ و ٦٥ و ٦٩ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ . وكذلك في البيان المغرب ج ٢ ص ١٩١ و ١٩٣ و ١٩٤ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ .

(٢) Dozy: Hist., Vol. II. p. 109 . وكذلك R.M. Pidal : Origines del Espanol,

قرطبة . وقضى الناصر في هذه الغزوة زهاء ثلاثة أشهر ، طهر خلالها أنحاء ولاية الغرب من آثار الحروج والثورة ، ثم قفل إلى قرطبة (١) . وكان الناصر قد سار بنفسه إلى تدمير وبلنسية وذلك في سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) فطارد الخوارج والعصاة في شرقي الأندلس ، واستولى على معاقلمهم ومزق شملهم . وهكذا أخذت الثورة في سائر النواحي ، بعد أن لبثت زهاء نصف قرن تستنفد قوى الأندلس ومواردها ، وتفت في عضدها وتقعدها عن الكفاح ضد عدوها الحقيقي المتربص بها ، ونعني إسبانيا النصرانية .

كانت إسبانيا النصرانية في خلال تلك الفترة التي اضطرت فيها الأندلس بالفتن ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة في النواحي ، تسير قدماً في سبيل القوة والتوطد ، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس ، وممالة ثوارها والعيث في أراضيها . وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين ، هما مملكة ليون (أو مملكة جليقية) ، ومملكة ناغار (نبرّه أو بلاد البشكنس) . وكانت ليون وهي الواقعة في الشمال الغربي بين المحيط ونهر دويرة ، أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة ، وكانت بذلك تتولى قيادة إسبانيا النصرانية ، في ميدان الكفاح الخالد بينها وبين إسبانيا المسلمة . وكانت قواعد الأندلس الشمالية التي تتاخم مملكة ليون ، مثل أسترقة وسمورة وشلمنقة وشقوبية وميراندا ، قد خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين ، واستوحش العرب والبربر لقلتهم في تلك الأنحاء ، وكثر اعتداء النصارى عليهم ، وتوالى القحط في تلك الربوع ، فهاجروا إلى الجنوب ، وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث (أواخر القرن التاسع) ، فعاث في تلك المنطقة وفتك بمن بقي فيها من المسلمين ، ثم ارتد إلى جباله . ولبثت هذه المنطقة قفراً خالية تقريباً ، يتبادلها المسلمون والنصارى من وقت إلى آخر ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء ، وانتهز ألفونسو الثالث تلك الفرصة ، فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة ، واختط هنالك عدة قلاع منيعة ، كان يتخذها النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية ، واجتياح المسلمين العزل بالنار والسيف ، وقتل النساء والأطفال والشيوخ ، ونهب الأموال والمتاع . وجري ولده غرسية على هذه السياسة الدموية .

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٨١ .

الغاشمة . وكانت اسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ، ومواردها الضئيلة ، وفقرها المدقع ، إلى وديان الأندلس النضرة ، وإلى نعمائها الوافرة وحضارتها الزاهرة ، بعين المقت والحسد ، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة . وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها ، من هذا العدوان المخرب الذي أخذ يشتد يوماً عن يوم . وكان عبد الرحمن حينما ولي الملك ، يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة النصارى ، لكي يكرس كل جهوده وقواه لقمع الثورة ، وتطهير الأندلس من عناصر الفتنة . ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرصة ، وإذكاء نار الفتنة والفوضى في الأندلس . فكااد عبد الرحمن يلي الملك حتى بادر أردونيو الثاني (أردون) ملك ليون في سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) بالإغارة على الأراضي الإسلامية ، وزحف على مقاطعة ماردة وعاث فيها ، وقتل وسبي كثيراً من سكانها ، واستولى على بعض قلاعها^(١) ؛ ثم قصد إلى مدينة بطليوس ، فارتاع أهلها واسترضوه بالمال والحلى ، وعبر النصارى نهر دويرة قافلين إلى ديارهم مثقلين بالغنائم والسبي دون أن يعترض سبيلهم معترض .

وكانت هذه المنطقة التي غزاها النصارى وهي منطقة ماردة ، من المناطق الثائرة . ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع في صميم الأراضي الإسلامية . هذا إلى أنه رأى أن يأسر قلوب الثوار ، بإنجادهم والانتقام لهم ، وأن يرد عدوان النصارى بمثله . ففي فاتحة سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) سير عبد الرحمن وزيره وقائده أحمد بن أبي عبدة في جيش قوى ، غازياً إلى أراضي مملكة ليون ، فالتقى بالنصارى وهزمهم في عدة وقائع محلية ، وعاث في أراضيهم وسبي وغنم غنائم كبيرة^(٢) . وفي العام التالي أراد أردونيو الثاني الانتقام لهزائمهم ، فعاث في منطقة طلبيرة^(٣) ، وأحرق مدينتها وانتسف ضياعها ، فضج المسلمون لهذا البلاء ، وتضرعوا إلى مليكهم أن ينقذهم من هذا العدوان الصارخ . فسير عبد الرحمن قائده أحمد بن أبي عبدة ثانية إلى أرض النصارى في جيش ضخم ، وزحف المسلمون إلى قلعة شنت إشتين الواقعة على نهر التاجه ، وكانت

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) وهي بالإسبانية Talavera ، وهي تقع على نهر التاجه غرب طليطلة .

تسمى أيضاً قلعة قاشترو مورش^(١)، وهى من أمنع قلاع النصارى على الحدود ، وضربوا حولها الحصار الصارم ، وكادت تسقط فى أيديهم لولا أن هرع إلى إنجادهها أردونيو فى جموع ضخمة من النصارى ؛ وكان الجيش الإسلامى بالرغم من تفوقه فى الكثرة مختل النظام ، مفكك العرى ، يتألف سواده من البربر والمرزقة الذين لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم ، وكانوا يحرصون على غنائمهم أكثر من حرصهم على مقاتلة العدو ، فلما انقض أردونيو بقواته على المسلمين ، تسلت منهم وحدات كثيرة ، وارتدت أمام المهاجمين ، ودب الهرج إلى صفوف المسلمين . ولكن قائدهم الشجاع فضل الموت على الارتداد ، فصمد فى مكانه فى نفر من أشجع ضباطه وجنده ، فقتلوا جميعاً وهلك معهم عدة من أكابر الفقهاء والمجاهدين . وكانت هزيمة مروعة . وكان ذلك فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩١٧ م) . وتقول الرواية الإسلامية إن فلول الجيش الإسلامى ، استطاعت أن تترد بعنادها ومتاعها سالمة إلى الأراضى الإسلامية^(٢) . ولكن الرواية الإسبانية تقول العكس إن هزيمة المسلمين كانت ساحقة ، وبلغ من روعتها أن غصت سائر التلال والسهول والغابات الممتدة جنوباً من دويرة إلى أنتيسة^(٣) ، بقتلاهم وأشلاتهم^(٤) .

وكان لذلك الخطب وقع عميق فى بلاط قرطبة . وكان عبد الرحمن يعترم المبادرة إلى غزو ليون بنفسه ، لولا أن شغلته عندئذ حوادث إفريقية ، على أنه اضطر غير بعيد أن ينهض لرد اعتداء النصارى . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد أردونيو الثانى وحليفه سانشو (شانشجه) ملك ناغار ، إلى غزو الأراضى الإسلامية فى ربيع سنة ٩١٨ م . وكانت موقعة شنت إشتين قد ضاعفت من جرأة النصارى واستهتارهم ، فعاثوا فى أحواز ناجرة وتطيلة . واستولى سانشو على مدينة بلتيرة^(٥) وأحرق مسجدها ونكل بأهلها . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام

(١) San Esteban أو Castro Moros .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٨ .

(٣) هى بالإسبانية Atienza .

(٤) Dozy : Hist ; Vol. II. p. 117 .

(٥) ناجرة هى بالإسبانية Najera ، وبلتيرة هى Valtierra ، وكلتاها تقع فى أحواز

لهزيمة الفادحة ومقتل قائده الشهم ، ولم ينس أن أردونيو سمر رأسه في جدران شنت إشتين ، فحشد جيشاً ضخماً لمقاتلة النصارى بإمرة حاجبه بدر بن أحمد ، وبعث الأوامر والكتب إلى أهل الثغور بالهوض لتأييده ، ومعاونته على معاقبة النصارى ورد عدوانهم والإيقاع بهم . وخرج بدر في جيشه الضخم من قرطبة في المحرم سنة ٣٠٦ هـ (أوائل يولييه سنة ٩١٨) وهرع إليه أهل الثغور (الأطراف) من كل ناحية ، ظمئين إلى الجهاد والانتقام . وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لرد الغزاة . ونفذ المسلمون كالسيل إلى حدود ليون ، فاعتصم النصارى بالجبال لما رأوا من كثرة العدو وأهبتة . ولكن المسلمين هاجمهم في مواقعهم ، ونشبت بين الفريقين موقعتين دمويتين على مقربة من مكان يسمى « مطونية » ، فهزم النصارى هزيمة ساحقة ، وأمعن المسلمون فيهم قتلاً وأسراً ، ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة ، وكان ذلك في الثالث والخامس من ربيع الأول سنة ٣٠٦ هـ (١٣ و ١٥ أغسطس سنة ١٩١٨ م) (١) .

على أن هذه الهزيمة الساحقة لم تفت في عضد النصارى ، فلم يمض سوى قليل حتى عادوا إلى الاحتشاد والإغارة على الأراضي الإسلامية ، واستمر القتال سجالاً بين المسلمين والنصارى مدى أشهر ، وكثر العيث والسبي في مناطق الحدود . فاعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى مقاتلة النصارى بنفسه ، فخرج من قرطبة في المحرم سنة ٣٠٨ هـ (أوائل يونيه ٩٢٠ م) في جيش ضخم ، وانضم إليه أثناء سيره كثير من أهل الثغور . واخترق أراضي الثغر الأوسط من طليطلة شمالاً ، حتى وادي الحجارة ومدينة سالم ، واتجه إلى طريق ألبة والقلاع (قشتالة) ثم عبر نهر دويرة وزحف على مدينة أوسمة (وخشمة) وأحرقها، وفر منها النصارى ولأذوا بالجبال . ثم سار إلى قلعة شنت إشتين (قاشترو مورش) ، وهي التي كانت مسرحاً لهزيمة المسلمين المروعة ، ففرت حاميتها النصرانية ، واستولى عليها وخرّبها ، وغنم ما فيها . وسار منها إلى مدينة قلونية وهي مدينة قديمة لم تبق منها اليوم سوى أطلال دارسة ، فاجتاح تلك المنطقة كلها وانتسف أراضيها وخرّب قلاعها ، وهدم قلونية وخرّب دورها وكنائسها ، ولم يعترض سبيله أحد من النصارى . وعرج عبد الرحمن بعد ذلك على مدينة تطيلة إستجابة لصريخ أهلها ، حيث أزعجها النصارى باعتدائهم

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٩ و ١٨٠ .

المتكرر ، وبعث بعض قواته بقيادة محمد بن لب بن قسى صاحب تطيلة لاحتلال قلعة قلقره^(١) التي كانت سانشو يتخذها قاعدة للإغارة عليها ، فألفوها خالية ، وزحف عبد الرحمن في الوقت نفسه على حصن قلهره وكان به سانشو في قواته ، ففر عند اقترابه ، واحتله المسلمون وغنموا كل ما فيه ، وانتسفوا الأراضي المحيطة به ، ولجأ سانشو إلى حصن أرنيط (أورنيديو) الواقع جنوب غربي قلهره . والظاهر أن النصارى اعتزموا ألا يعترضوا سبيل المسلمين في تلك المنطقة كلها ، وفقاً لحطة وضعوها لاستدراج المسلمين . فلما عبر عبد الرحمن بقواته نهر إيبرو (إبرة) فاجأه سانشو في قواته ، وهاجم مقدمة المسلمين ، ولكن عبد الرحمن كان يقظاً متأهباً ، فتعاون الفرسان والرماة المسلمون على النصارى ، وأثخنوا فيهم ، فارتدوا إلى شعب الجبال واعتصموا بها . ولجأ سانشو إلى حليفه أردونيو ملك ليون ، وجمع الملكان قواتهما من سائر النواحي وتربصا للقاء المسلمين في مواقع منيعة ، فلما نفذ الجيش الإسلامي إلى شعب الجبال انحدر النصارى لمهاجمته واشتبكوا بمؤخرته وأحدثوا بها اضطراباً وخسائر ، فشرع عبد الرحمن بخاطر المأزق ، وبادر بالخروج من الشعب الضيقة إلى السهل المنبسط . وهناك عسكر بجيشه في مكان يسمى « چونكيرا » Junquera على مقربة من غربي بنبلونة ، واستعد للقاء النصارى . وهنا طمع النصارى في محاربة المسلمين فأنحدروا إلى السهل بعد أن كانوا في حمى الجبال ، ولكنهم دفعوا ثمن جرأتهم هزيمة فادحة ، وأمعن المسلمون فيهم قتلاً وأسراً ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، وقتل وأسر كثير من أكابر فرسانهم وزعمائهم ، ومن بينهم أسقفان هما أسقف شلمنقة وأسقف توى كانا يحاربان كجنديين ، ولجأ نحو ألف من النصارى إلى قلعة مويش القريبة ، فاقتحمها المسلمون وقتلوهم جميعاً ، ومزق النصارى كل ممزق ، وانهارت كل مقاومة ، وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم . وحدثت هذه الواقعة الساحقة على النصارى ، في اليوم السادس من ربيع الأول ٣٠٨ هـ (٢٦ يولييه ٩٢٠ م) . وهدم عبد الرحمن حصون العدو ، وأصلح حصون المسلمين ، وفي مقدمتها حصن بقيرة Viguera المشرف على حدود نافار ، وزودها بالعتاد والمؤن . ثم قفل راجعاً إلى قرطبة ، فوصل إليها في أواخر

(١) وهي بالإسبانية Carcar وهي تقع على مقربة من شمالى قلهره .

سبتمبر سنة ٩٢٠ م ، بعد أن قطع في غزوته زهاء ثلاثة أشهر (١) .
وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر في ردع النصارى
ووقف عدوانهم . ولكنه أخطأ الظن . ذلك أنه لم يمتص سوى عامين حتى أغار
أردونيو على ناجرة واستولى عليها ، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة ، وكان يتولى
الدفاع عنها عبد الله بن محمد بن لب ، ومعه نفر من زعماء بني لب وبني ذى النون
وغيرهم من الوجوه الأكابر ، فحاصرها سانشو واستولى عليها وقتلهم جميعاً .
فضجت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، ووجهت سهام اللوم إلى عبد الرحمن
لقصوره أو تقصيره ، في حماية الثغور وحماية الزعماء والقادة ، ولم يك ثمة مناص
من العمل على تهدئة الخواطر ، والانتقام لذلك الاجترار . وسير عبد الرحمن وزيره
عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى في جيش قوى ، ريثما يتم هو أهفته (ربيع
سنة ٣١١ هـ - ٩٢٣ م) ، فقصده إلى تطيلة وجاز منها إلى أراضي ناغار ، وعاث
فيها . ولم تمض بضعة أشهر أخرى ، حتى أتم عبد الرحمن أهفته ، ولم يصبر على
انتظار الربيع وهو موعد الصوائف ، بل غادر قرطبة في المحرم سنة ٣١٢ هـ (إبريل
سنة ٩٢٤ م) في قوى جرارة ، وهو يعتزم التنكيل بالنصارى والانتقام الذريع
لخناية بقيرة . ولما وصل إلى تطيلة هرع إليه زعماء الثغر بقواتهم ، ودخل أراضي
ناغار في أوائل ربيع الآخر (يوليه) . فساد الذعر بين النصارى ، وترك العدو
معظم قلاعه وحصونه دون دفاع ، واستولى عبد الرحمن على حصن قلقر ، ومحلة
بيطر الله (بيرالتا) الواقعة شمال شرق قلقر وما حولها من الحصون ، وقتل وسبي كل
من وجد بها من النصارى ؛ ثم سار إلى حصن فالجش القريب منها وأحرقه ، وخرب
ما حوله من الضياع والزروع ، واستولى بعد ذلك على حصن قرقشتال (كاركاستيلو)
في وادي أراجون شرق بيرالتة ، وشمال شرق تطيلة ، وهدم سائر القلاع في تلك
المنطقة أو أحرقها . ثم نفذ عبد الرحمن إلى قلب ناغار وزحف على عاصمتها بنبلونة ،
وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه في شعب الجبال ، فكان يرد
في كل مرة بخسارة فادحة . ودخل عبد الرحمن بنبلونة ، وقد فر سكانها رعباً ،
فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها . وجد سانشو في جمع قواته ووافته الأمداد
من قشتالة ، وحاول لقاء المسلمين في مفاوز ناغار الوعرة مرتين ، الأولى على

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٣ و٦٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٧ -

مقربة من شنت إشتبن ، والثانية على مقربة من قلهرّة ، ولكن عبد الرحمن كان على حذر ، وكان يعرف تلك المفاجآت الخطرة ، فهزم النصارى في كلتا الموقعتين ومزقوا شر ممزق ، وانهارت كل مقاومة وبذلك تم إخضاع ناغار وسحق قواتها (ربيع الثاني ٣١٢ هـ - أغسطس ٩٢٤ م) (١) .

ولم يمض سوى قليل حتى توفي أردونيو الثاني ملك ليون (سنة ٩٢٥ م) ، فخلفه في الملك أخوه « فرويلا » ، فلم يحكم سوى عام ثم توفي ؛ فتنازع العرش سانشو وألفونسو ولدا أردونيو ، وشغلت ليون بحرب أهلية استمرت بضعة أعوام ، وانتهى طورها الأول بوفاة سانشو . ثم نشبت ثانية بين ألفونسو وأخيه راميرو ، وانتهت بفوز راميرو ، وجلسه على عرش ليون باسم راميرو الثاني ، وذلك سنة ٩٣٢ م .

ولم يتدخل عبد الرحمن في تلك الحرب الأهلية ، فترك النصارى يمزق بعضهم بعضاً ، وانتهز الفرصة ليتم سحق الثورة ، وتوطيد السكينة داخل مملكته ، حسبما فصلنا في موضعه ، وليقضى على دعوة الفاطميين في المغرب الأقصى .

وكان راميرو الثاني أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً مقداماً شديد البأس . فما كاد يلي العرش حتى نشط إلى استئناف الصراع القديم ضد المسلمين ، وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة في المملكة الإسلامية هو خير السبل إلى تبديد قوى المسلمين ؛ وكانت مدينة طليطلة قد عادت تضطرم بعوامل الفتنة والثورة ، وشجع راميرو بدسائسه ووعوده ، زعماءها على التمادي في غيهم ، فأرسل إليهم عبد الرحمن وفداً من العلماء يخطب ودهم ويحثهم على الخضوع والطاعة ، فرفضوا نصحه بكبرياء وصلف ، معتمدين على مؤازرة ملك ليون . فبادر الناصر (٢) بالسير إلى طليطلة في قوات ضخمة وذلك في ربيع الثاني سنة ٣١٨ هـ (مايو سنة ٩٣٠ م) وضرب حولها الحصار وانتسف ما حولها من المروج ، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع ، وترك لحصارها بعض قواته ، ثم عاد فسار إليها بعد ذلك بعامين في صيف سنة ٣٢٠ هـ (يونيه سنة ٩٣٢ م) معتماً في هذه المرة أن ينزل بها الضربة القاضية . وهنا حاول راميرو أن يسعى إلى إنقاذ المدينة المحصورة ، استجابة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ - ٢٠١ ؛ وكذلك 145-144 Dozy : Hist , V. II .

(٢) كان عبد الرحمن قد اتخذ سمة الخلافة وتلقب بالناصر لدين الله منذ سنة ٣١٧ هـ حسبما بين بعد.

لنداء أهلها ، فسار لإنجادها في بعض قواته ، واستولى في طريقه على حصن مجريط^(١) . ولكن القوات الإسلامية استطاعت أن ترده قبل أن يصل إلى طليطلة ، فاضطر أن يترك المدينة النائرة لمصيرها ، وفقد الثوار بذلك كل أمل في المقاومة ، وأضنتهم مصائب الحصار ، فاضطروا في النهاية إلى الإذعان والتسليم ، ودخل الناصر طليطلة ظافراً (رجب سنة ٣٢٠ هـ) ، وشهد مبلغ منعها وكثافة أسوارها ، وأمر بهدم حصونها ، وفقدت الثورة في الأندلس بسقوط طليطلة أمنع معاقبتها .

وفي العام التالي (سنة ٩٣٣ م) سار ملك ليون إلى مدينة أوسمة (وخشمة) التي كان يهددها المسلمون ، فردهم عنها واحتلها ؛ فسار الناصر في صيف العام التالي إلى محاربتة ، وزحف توالاً على أوسمة فتركها النصارى ، واستعصموا بالحصون والجبال ، وعبثاً حاول عبد الرحمن أن يحمل راميرو على مغادرة قلاعه ، والاشتباك مع المسلمين في معركة فاصلة ، فعندئذ سار بجنده شمالاً ، وعاث في أراضي قشتالة ، وأفنى جموعاً كثيرة من النصارى ، ثم زحف على مدينة برغش عاصمة قشتالة وخربها ، وقتل على مقربة منها عدداً كبيراً من أحرار الأديار المجاورة (سنة ٩٣٤ م)^(٢) .

ولما توفي سانشو ملك نافار (نبرة أو بلاد البشكنس) قامت بالأمر من بعده أرملته تيودا (طوطه) وصية على ولده غرسية ، فلزمت السكينة حيناً ، ثم تحرك البشكنس بعد ذلك وأغاروا على بعض الحصون الإسلامية (٩٣٧ م) . وظهرت في الوقت نفسه في الولايات الشمالية أعراض فتنة خطيرة . ذلك أن بني هاشم التجيبين سادة سرقسطة ، لم يكونوا دائماً على وفاق مع حكومة قرطبة ، وكانت تحذوهم أطماع كثيرة . وكانوا يخشون عواقب السياسة التي يتبعها الناصر في إخضاع الولاة المحليين ، وسحق سلطان الأسر القديمة ، وكان وجودهم في الشمال بين الممالك النصرانية يفسح لهم مجال التآمر والخروج . فلما اضطرت نار الحرب بين ملك ليون وبين الناصر ، رأوا الفرصة سانحة لتنفيذ مشاريعهم ، فتحالف محمد بن هشام التجيبى صاحب سرقسطة ، وقريبه مطرف بن مندف التجيبى صاحب قلعة أيوب^(٣) ، سرّاً مع راميرو ، وتعهد محمد لراميرو أن يعترف بطاعته ، نظير

(١) هو حصن ومحلة منيعة بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وعلى موقعها أقيمت مدينة مدريد الحديثة .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ؛ وكذلك : Dozy : Hist. : Vol. II. p. 148

(٣) Calatayud وهي تقع جنوب غرب سرقسطة في منتصف الطريق بينها وبين مدينة سالم .

معاونته إياه في الخروج على عبد الرحمن ومحاربتة ؛ وظهرت آثار هذه التحالف في سنة ٩٣٤ م حينما كان الناصر يغزو أراضي ليون ، ولم يتقدم بنو هشام لمعاونته ، بل بالعكس جاهر محمد بالخروج عليه وخلع طاعته ، ثم اعترف بسيادة ليون على سرقسطة وأحوازها ، ولما أبى بعض قواد الحصون مجاراته في خيانتة ، سار سار إليهم راميرو وأخضعهم ، وسلم قلاعهم إلى الزعيم الثائر ، ثم عقد محمد وراميرو محالفة مع طوطه ملكة ناغار ، وغزا البشكنس الأراضي الإسلامية ، وبذا تحالف الشمال كله ضد عبد الرحمن .

فسار عبد الرحمن إلى مقاتلة أعدائه في جيش ضخم في ربيع سنة ٩٣٧ م . وبدأ بقلعة أيوب فحاصرها ثم اقتحمها ، وقتل صاحبها مطرف ، ومن معه من حلفائه النصاري ، الذين أرسلهم راميرو لإنجاده . واتجه بعد ذلك إلى ولاية ألبه فافتتح عدة من حصونها ، ثم سار إلى سرقسطة وعهد بحصارها إلى أحمد بن إسحاق قائد الفرسان ، وهو من قرابته ، وعينه حاكماً للثغر . ولكنه تهاون في الحصار وتوانى لمرض في قلبه ، ولأطماع كانت تجيش بها نفسه ، فأنبه عبد الرحمن وعزله ، فاتفق مع أخيه أمية على التآمر والخروج ، فوقف عبد الرحمن على أمرهما واكتفى بنفيهما من الأندلس . فسار أمية إلى مدينة شترين^(١) في ناحية الغرب ، واستولى عليها ورفع بها علم الثورة ، وتحالف مع ملك ليون ، ولكنه لم يلبث بها طويلاً إذ قام بها أحد الزعماء المحليين الذين يدينون بطاعة الأمير وانتزعها منه ، فالتجأ أمية إلى راميرو . أما أخوه أحمد فحاول أن يتصل بعمال الفاطميين في عدوة المغرب ، وأن يأتمر معهم على حكومة قرطبة ، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه ثم أمر بإعدامه^(٢) ، ولكن سئرى أن مغامرات بني إسحاق لم تنته عند هذا الحد .

أما سرقسطة فقد لبثت تعاني شدائد الحصار مدى حين ، ثم انتهى الأمر بتسليمها وسقوطها ، مع سائر الحصون المجاورة لها ، في أيدي جند الناصر ، وأسر صاحبها محمد بن هشام ؛ وكذا سقط في أيديهم حصن روضة أمنع حصونها في الغرب ، وأسر به يحيى بن هشام أخو محمد ، وبذا انهارت ثورة التجييين في الشمال . والتمس محمد العفو فعفا الناصر عنه ورده إلى منصبه ، لما كان يتمتع به

(١) وهي بالإنجليزية Santarem .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

من مقدرة إدارية ، ولما كان لبني هاشم في الشمال من العصابة والأنصار :
ولم ينس عبد الرحمن أن يعاقب البشكنس على عدوانهم . ففي الوقت الذي
كانت فيه جنوده تحاصر سرقسطة ، سار في بقية الجيش إلى بنبلونة عاصمة ناغار ،
وخرّب معاهدها وحصونها ، ومزق جموع البشكنس وسحق كل مقاومة .
وهرعت إليه طوطه ملكة ناغار تقدم إليه خضوعها وطاعتها ، فقبل الناصر خضوعها
وأقر ولدها غرسية ملكاً على ناغار في طاعته وتحت حمايته ؟

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر ، وأن يخضع
الشمال الشرقي من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته ؛ ولم يبق عليه إلا أن يحطم
خصمه القوى العنيد رامرو الثاني ملك ليون ، وهو محور النضال الحقيقي . فلم
يمض سوى عامين حتى تآهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون ، فحشد جيشاً
ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف ، وعهد بقيادته إلى نجدة الصقلبي : وكان الأجانب
والصقالبة قد تبوأوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ في بلاط قرطبة ، وسيطروا على
معظم المناصب الكبيرة في القصر والجيش . وكان لهذه السياسة التي أسرف الناصر
في اتباعها أسوأ الأثر في نفوس الزعماء العرب ، وفي انحلال قوى الجيش المعنوية .
وفي صيف سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم ،
وعبر نهر التاجه من عند طليطلة ، ثم عبر نهر دويرة متجهاً نحو قلعة شنت منكش
(سيانقة) دون أن يفطن إلى ما يفت في عضد هذه القوة العظيمة من العوامل
الخفية ؛ وكان رامرو الثاني يرابط على مقربة منها في حشود عظيمة ، متأهباً
لقتال المسلمين بكل ما وسع ، وزوده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بنصائح
ومعلومات ثمينة ، وانضمت إليه طوطه ملكة ناغار ناكثة لعهداها ، وبذا اتحدت
قوى اسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى .

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً في شأن الواقعة التي نشبت
بين المسلمين والنصارى ؛ وبينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل
الواضحة ، إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والتحفّظ ؛ وبالرغم من أن الرواية
الأندلسية تشير إليها في غير موضع وتصفها « بغزاة القدرة » تنوياً بأهميتها وما كان
يعلق عليها من رغبة في سحق المملكة النصرانية ، وتسميها بموقعة « الخندق » وهو
نفس الإسم الذي تقدمه الرواية الفرنجية ، فإنها لا تقدم إلينا أى تفصيل شاف

عن مكانها وظروفها^(١) . وفي موطن واحد فقط تقدم إلينا الرواية الإسلامية تفصيلاً للموقعة تقرب فيه من أقوال الرواية الفرنجية، وتلك هي رواية ابن الخطيب وسنعود إليها فيما بعد . ويقدم إلينا المسعودي عن الموقعة رواية يطبعها لون القصة . فيقول لنا إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمورة عاصمتها ، وكانت في غاية المناعة ، يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان ، قد أحكمها الملوك السابقة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتفى النصراني بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإغيا من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصراني بشدة وحماسة ، فساد الاختلال بين المسلمين وهزموا هزيمة شديدة ، وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً ، وكان ذلك في شوال سنة ٣٢٧ هـ (يولييه ٩٣٩ م) . وسميت الموقعة بموقعة الخندق لنشوبها على خنادق سمورة^(٢) .

على أن رواية ابن الخطيب ، هي أقرب الروايات الإسلامية إلى الدقة والحقائق التاريخية ؛ فهو يحدد تاريخ الموقعة ، ومكانها بدقة ، ويصفها « بالوقعة الشهيرة التي ابتلى الله بها عبد الرحمن ومحضه ، والتي أوقعه بها عدو الله رذيم ابن أردون » . فأما تاريخ الموقعة فهو يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ (أول أغسطس سنة ٩٣٩ م) ، وقد وقعت على باب شانت منكش^(٣) ، بعد قتال استمر أياماً ، تراوحت فيه المقالة بين الفريقين بأشد ما يكون وأصعبه . ثم كانت للعدو الكرة ، فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله ، وألجأ العدو المسلمين إلى التراجع إلى خندق عميق ، هو الذي تنسب إليه الموقعة (فهى تسمى موقعة الخندق)^(٤) . فتساقط فيه المسلمون حتى ساووا بين ضفتيه ، وانكشف الناصر ، واستولى العدو على

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٦ ؛ ويشير ابن خلدون إلى الموقعة بإشارات عابرة (ج ٤ ص ١٣٧ و ١٤٠) . وكذا ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٥٠ . ولم يذكرها ابن عذارى في البيان المغرب .

(٢) مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ ؛ ونقلها المقرئ في نفع الطيب ج ١ ص ١٦٥ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

(٣) شنت مانكش هي بالإسبانية Simancas (سيانقة) . وهى تقع على مقربة من نهر دويرة شرق مدينة سمورة وجنوب غربى بلد الوليد . وما تزال هذه القلعة قائمة حتى اليوم بصورتها النصرانية المجددة . وهى اليوم مقر دار المحفوظات الإسبانية .

(٤) وتعرف الموقعة بالإسبانية Alhandega محرفة عند كلمة « الخندق » .

محلته ، وما فيها من عدة ومتاع ، وضاع فيها مصحفه ودرعه^(١) .
وتقول الرواية النصرانية إن عبد الرحمن سار بجيشه في اتجاه سيانقة الواقعة على
مقربة من نهر دويرة شرق مدينة سمورة ، فلقية راميرو وحليفته طوطه في قواتهما ،
ونشبت بين الفريقين موقعة في ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م ، فأبدى رؤساء العشائر
العربية في القتال فتوراً وتراجعوا أمام النصارى . ولكن حدث ما لم يتوقعه
المسلمون . ذلك أن النصارى طاردوهم وألحوا في قتالهم ، فارتد المسلمون أمامهم
نحو الجنوب الغربي ، حتى محلة صغيرة في جنوبي مدينة شملنقة تسمى الأنديجا
(الحندي) . ثم وقفوا وكرروا على النصارى بفتور وتخاذل ، وهجم النصارى
عليهم بجرأة وشدة ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة ، وأمعن النصارى فيهم قتلاً
وأسراً . فساد الخلل في الجيش الإسلامي ، ومزقت منه فرق برمتها ، وقتل قائده
نجدة الصقلي ، وأسر محمد بن هشام حاكم سرقسطة ومزق جيشه ، وكان يحارب
إلى جانب عبد الرحمن في هذه الغزوة ، وحمل مصفداً إلى ليون . وأثنى عبد الرحمن
نفسه جراحاً ، ولم ينج من الموت والأسر إلا بأعجوبة . فولى شطر قرطبة في نفر
من الفرسان^(٢) . ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين ، ويقال
إن الذي منعه من مطاردتهم هو أمية بن اسحاق إذ حذره من الكمين ورغبه
فيما خلفوه من الأسلاب والغنائم الضخمة . ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامي
بأسره^(٣) . وكان لانتصار راميرو وقع عظيم في أوروبا وفي العالم الإسلامي ، بيد
أن الموقعة على روعتها لم تكن بعمدة الأثر في قوة الأندلس ومنعتها ، ولم يدخر
عبد الرحمن منذ عودته إلى قرطبة جهداً في تنظيم الجيش وإصلاحه ، وتطهيره من
العوامل الخطيرة التي أدت إلى هذه الكارثة . ويحاول ابن الخطيب أن يوضح لنا
أسباب هذه الكارثة في قوله : « وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند
الناصر لدين الله حسدته ما هياً الله من الصنع ، ولم تناصحه في الحرب حق النصح ،
فحالت ثانية للأعنة ، واختل مصاف القتال » . ثم يقول لنا إن الناصر ، قرر أن
يبطش بأولئك الخونة المهاونين ، فأمر قبيل وصوله إلى قرطبة ، أن تقام المصالب

(١) أعمال الأعلام ص ٣٦ و ٣٧ .

(٢) Dozy : Hist.; Vol. II. p. 155—156 وكذلك : Aschbach : Geschichte der .

Omajaden in Spanien. B. II. p. 50 حيث يورد الروايات النصرانية .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

على ضفة نهرها ، وما كاد يصل إلى قرطبة ، حتى قبض على نحو ثلاثمائة من الفرسان ، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم : « هذا جزاء من غش الإسلام ، وكاد أهله ، وأخل بمصاف الجهاد »^(١) . بيد أن موقعة الخندق كانت خاتمة أعمال الناصر الحربية فلم يغز من بعدها بنفسه . واستأمن أمية بن اسحاق بعد ذلك عبد الرحمن فلم ير بأساً من تأمينه والعفو عنه . وكانت سياسة عبد الرحمن ترمى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء بالعفو والإغضاء . وسعى عبد الرحمن إلى افتداء محمد بن هشام ، فأفرج عنه النصارى بعد أن لبث في سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام . وشغل النصارى مدى حين بعد موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهلية ، واستطاع عبد الرحمن خلال ذلك أن يعنى باصلاح شئون المملكة وتقويتها .

على أن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع في الأعوام التالية . ففي سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) غزا المسلمون أراضي ليون وعاثوا فيها ؛ وفي سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) غنى الناصر بتجديد مدينة سالم^(٢) وهي أقصى مدن الأندلس الشمالية الغربية على حدود ليون ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدد ، وكانت قد خربت من جراء غزوات العدو المتكررة . وتوالت غزوات المسلمين لأراضي ليون في الأعوام التالية . وفي أواخر سنة ٣٣٩ (يناير ٩٥٠ م) توفي راميرو الثاني ملك ليون ، فتارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو ، وانتهز المسلمون هذه الفرصة فعاثوا في أراضي ليون غير مرة ، وانتهى الأمر بفوز أردونيو وجلوسه على العرش . ورأى أردونيو أن يعقد الصلح مع الناصر ، فأرسل إليه سفيراً يخطب وده ، فاستجاب الناصر إلى دعوته ، وعقد معه معاهدة صلح تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود . وأن يهدم البعض الآخر (سنة ٩٥٥ م) ، ولكن أخاه سانشو رفض هذه المعاهدة وحال دون تنفيذها . فاضطر الناصر إلى استئناف الحرب ، وسير قائده أحمد بن يعلى في جيش إلى ليون ، فهزم النصارى وعقد الصلح بين الفريقين مرة أخرى ، واستقرت بينهما علائق السلم مدى حين .

(١) أعمال الأعلام ص ٣٧ .

(٢) هي بالإسبانية **Medinaceli** وترجع تسميتها بذلك الاسم إلى أنها كانت منزل بني سالم ، وهم بطن من بطون قبيلة مصمودة البربرية (راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم - القاهرة - ص ٤٦١) .

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التي اجتاحت شمالى إفريقيا ، وامتدت بسرعة إلى عدوة المغرب وإلى سبتة ، وأخذت تهدد شواطئ الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج دينى وسياسى معاً . وكانت فى قوتها وعنفوانها تهدد طرفى إفريقيا أعنى مصر والمغرب ، فنذ عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ، تتردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها فى تونس نحو مصر والمغرب ، غازية . وكات اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة قرطبة ؛ ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً ، قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول . وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العدو ، ويفاوضون الفاطميين ، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس ، فكان على عبد الرحمن أن يغالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله . ففى سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) سير عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولا قوياً استولى عليها من يد ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين ، وبادر زعماء البربر من الأدراسة وزناتة إلى طاعته ومهادنته ، وامتدت دعوته إلى فاس . وبعث إليه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يطلب مخالفته والدخول فى طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى رغبته ، وأمده بالأموال والهدايا ، وقوى أمره فى المغرب . وفى سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) استطاع موسى أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمى لغزو المغرب ، والقضاء على دعوة الناصر ، بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت . ثم توفى عبيد الله فى العام التالى . وفى سنة ٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى ، بقيادة ميسور الصقلبي ، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء ، واستولى الأدراسة حلفاء الفاطميين على مملكته . وجازت جيوش عبد الرحمن بعد ذلك مراراً إلى المغرب لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدراسة وغيرهم من أمراء البربر ، واضطر الأدراسة فى النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته (٣٣٢ هـ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هنالك مدى حين ، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم ، وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المخالفين له .

ولما تولى المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين الملك ، وبدت الدولة الفاطمية

في أوج قوتها في إفريقية ، وأخذت أساطيلها القوية تزعج الدولة البيزنطية ، بغزو شواطئ قلورية^(١) في جنوبي إيطاليا ، كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح قوياً في الأفق . والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز ، بل يبدو فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد هذه النية . وفي سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجمت ثغر ألمرية ، وأحرقت ما فيه من السفن ، وعاثت في ألمرية . فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب ، إلى شواطئ إفريقية (تونس) ، فعاثت فيها ، وأمر عبد الرحمن في الوقت نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس . ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام ، فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى ، تهديداً للقوات الفاطمية ، التي زحفت بقيادة جوهر الصقلي حذاء الشاطئ إلى عدوة المغرب ، وكان المعز قد سير قائده جوهر في سنة ٣٤٧ هـ ، في جيش عظيم إلى المغرب الأقصى ، ومعه زعيم صنهاجة زيري بن مناد في قواته ، فاجتاح شمالي المغرب كله حتى المحيط ، ونازل فاس واقتحمها عنوة . وكان الناصر يرقب تقدم الفاطميين على هذا النحو في أراضي العدو مجزع ، ويجعل أساطيله على أهبة دائمة . وعبرت في نفس الوقت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ، ولبثت هنالك حتى ارتد الفاطميون أدراجهم^(٢) .

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية في الضفة الأخرى من البحر ، وانسياب دعوتها إلى المغرب الأقصى ، على مقربة من شواطئ الأندلس ، في مقدمة البواعث التي حدت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحية ، بعد أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس . وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد أمر بمنع الدعاء لبني العباس ، ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة واكتفى بالقب الإمارة وسار بنوه على أثره . وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غير مرة ، أن تستعيد مجدها السالف . في عهد الحكم بن هشام وولده عبد الرحمن الأوسط ، فإن

(١) وهي بالإفريقية Calabria .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ و ١٤١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧ ، ٢٣٨ ؛ وراجع Dozy; Hist.; Vol. II. p. 164 & 165

أمراء بني أمية لم يفكروا في الإقدام على منافسة بني العباس في ألقاب الخلافة .
وقيل في تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت ، ويدركون
قصورهم عن ذلك « بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن
دار الخلافة التي هي مركز العصبية » وأنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة
تكون لمن يملك الحرمين^(١) . بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى
بواعث الحكمة والسياسة ، والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية .
فلما ظهرت الدعوة الفاطمية في إفريقية ، ونمت بسرعة في أوائل القرن الرابع
المهجري ، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى ، عما انتهت إليه الدولة العباسية
في المشرق من الإضطراب والفوضى ، وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر
وحجرهم على الخلفاء ، رأى عبد الرحمن أن يتسم بسمه الخلافة ، وأن يسترد
بذلك تراث أسرته الروحي ، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية
وتوطيد أركانها ، أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة . ونفذ
الأمر بذلك في مستهل ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ . وإليك نص الوثيقة الرسمية التي
صدرت بذلك وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعد فإننا أحق
من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، وليس من كرامة الله تعالى ما ألبسه
فنحن للذي فضلنا الله به ، وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على
أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا ، وأعلى في
البلاد من أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انخراطهم إلينا ،
واستبشارهم بما أظلمهم من دولتنا إنشاء الله ، فالحمد لله ولى الإنعام بما أنعم به ،
وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ،
وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك - إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا ،
منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا التماذى على
ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الخطيب
بموضعك ، أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان :

(١) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ١٩٠ ؛ والمسعودى في مروج الذهب (بولاق)

ج ١ ص ٧٨ ؛ وابن الأبار في الحلة السراء ص ٩٩ .

وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (١) .

وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة عن يقين بأفضليته ، وأولوية حقه وحق أسرته ، وتسمى بأمر المؤمنين الناصر لدين الله ، وذلك في الثاني من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير سنة ٩٢٩ م) فكان أول أمير من بني أمية بالأندلس ينعت بأمر المؤمنين . وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبني أمية بألقاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصى ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة . ويضع بعض المؤرخين اتخاذ لقب الناصر لسمة الخلافة في سنة (٣٢٧ هـ) أي بعد وقوعه بنحو عشرة أعوام ، وهو تحريف واضح تنقضه وثيقة الدعوة الرسمية (٢) .

(١) اعتمدنا في نقل هذا النص على ما ورد في الأوراق المخطوطة الخاصة بمعهد الناصر ، ص ٧٨ و ٧٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) هذه رواية ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣٧) . والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التي أثبتنا نصها .

الفصل الثالث

خلال الناصر ومآثره

عصر الناصر أعظم عصور الإسلام بالأندلس . منشآت الناصر . مشروع بناء الزهراء . البدء في إنشائها . قصر الزهراء وفخامته وروعته . منشآت الزهراء الأخرى . بعض أوصاف وأرقام عن الزهراء . نهاية الزهراء كقاعدة ملوكية . تخريبها أيام الثورة . بعض ما قيل في رثائها . أطلال الزهراء واختفائها . جهود العلماء الإسبان للكشف عن مواقعها . وصف لما ظهر من آثارها ومعالمها . منشآت الناصر بالمسجد الجامع . تنظيم الناصر للجيش والأسطول . الأحوال المالية في عهد الناصر . غنى الدولة الأموية وبذخها . قرطبة وعظمتها . اصطفاء الدولة الأموية للموالي والصقالبة . حرص الناصر على السلطان المطلق . الصقالبة ونفوذهم . أثر هذا الاصطفاء . قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية . تقدم الصلات الدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية . سفارة قيصر قسطنطينية إلى الناصر . حفل استقبال السفراء وروعته . هدايا قيصر إلى الناصر . خطاب القاضي منذر بن سعيد . سفارات ملوك النصرانية سفارة إمبراطور ألمانيا . سفارة الناصر إلى الإمبراطور . موضوع المفاوضات بين العاهلين . رأى الناصر في نظام الحكم . سفارات نصرانية أخرى إلى الناصر . مرض الناصر ووفاته . خلا له وصفاته . حجابيه ووزراؤه وقواده . تنويه الشعر بعظمة عصره . صفة الناصر . أبناؤه . إشادة النقد الحديث بمناقبه .

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحي عصر الناصر .

كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة ، عصر عظمة ورخاء ومجد ، بل كان في الواقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، ولا سيما من نواحيه المعنوية والحضارية . وإذا كانت الأندلس قد بلغت فيما بعد في عصر المنصور بن أبي عامر ، ذروة تفوقها السياسي والحربي في شبه الجزيرة الإسبانية ، فإن الدولة الأموية بالأندلس بلغت في عهد الناصر ذروة القوة والبهاء ؛ وكان هذا العهد حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها ، ومراحل انحلالها وسقوطها .

ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة ، وكان في مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحى تفوق بغداد منافستها في المشرق بهاء وفخامة . وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر

وهو مقام الملك ، قصرأً جديداً سماه دار الروضة . جلب إليه الماء من فوق الجبل ، واستدعى المهندسين والبنائين من كل فج ، وأنشأ في ظاهر قرطبة متنزهاً عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة . ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر من استكمال الفخامة الملوكية ، والقصور والميادين والرياض الشاسعة ، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، حيث أنشأ الرصافة في ظاهرها لتكون له منزلاً ومنتزهاً ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة . فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه ، وسحق أعدائه في الداخل والخارج ، عني بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى في أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة ، فأنشأ مدينة الزهراء . ولإنشاء الزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التي ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذي رآه قسطنطين ، فأوحى إليه إنشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذي أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هي جاريتته وحظيته «الزهراء» وأنه ورث من إحدى جواريه مالا كثيراً ، فأمر أن يخصص لافتداء الأسرى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسرى من يفتدى ، فأوحت إليه «الزهراء» بأن ينشئ بهذا المال ، مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكانها^(١) . بيد إننا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك والترفع بمظاهرة وخصائصه . عن المظاهر العامة ، لعاصمة مكتظة زاخرة . والظاهر أيضاً أن شغفاً خاصاً بالعمارة والبناء . كان يحفز الناصر ويذكي رغبته في إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كبر العصور مظهر الملك الباذخ ، والسلطان المؤئل ، وقد نسبت إلى الناصر في ذلك أبيات قالها في هذا المعنى :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم مسألك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاضم شأنه أضحي يدل على عظيم الشأن

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

وهكذا اختطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربي قرطبة ، على قيد خمسة أميال أو ستة منها ، في سفح جبل يسمى جبل العروس (١) . وكان البدء في بنائها في فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) . وعهد الناصر إلى ولده وولي عهده الحكم ، بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة (٢) . وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية (٣) . وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردي من المرية وريه ، ومن قرطاجنة إفريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية ، وجلب إليها من سوازي الرخام أربعة آلاف وثلثمائة أربعة وعشرين سارية (٤) . وكان يشتغل في بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ست آلاف صخرة في اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر ، أعنى مدى خمسة وعشرين عاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها في عهد الحكم (٥) . وابتنى الناصر في حضرته الجديدة قصرأ منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً في تنميته وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والحلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ، وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلاً سمي بقصر الخلافة ، صنعت جدرانها من الرخام المزين بالذهب ، وفي كل جانب من جوانبها ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبها بالتماثيل والصور البديعة ، وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة (٦) . وزود الناصر مقامه في قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقي المعروف بالمؤنس بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير المنقوش بالذهب ، الذي أهدى إليه من قيصر

-
- (١) نزهة المشتاق للادريسي (طبع رومة) ص ١٩٣ ؛ والمسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٨ .
ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلس .
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ .
(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨ .
(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .
(٦) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و٢٤٧ .

قسطنطينية ، والذي جلبه من هنالك إلى قرطبة ، ربيع الأسقف . وجلب إليه الوزير أحمد بن حزم من الشام حوضاً ثانياً رائعاً يقوم عليه ، اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر ، وهي تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من أفواهها إلى الحوض (١) . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة ، التي تشبه أوصاف قصور ألف ليلة وليلة المسحورة ، عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يكن في أمم الإسلام مثله في الروعة والأناقة والبهاء (٢) .

وأنشأ الناصر في الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً ، تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً . وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزوده بعمد وقباب فخمة ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية في الفخامة والجمال (٣) . وأنشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ، ومسارح للطير مظلمة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلي (٤) . والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك الباذخ ، ووصول السلطان المؤثر ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

واستمر العمل في منشآت الزهراء طوال عهد الناصر ، أعنى حتى وفاته في سنة خمسين وثلثمائة ، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، واستغرق بذلك من عهد الخليفين زهاء أربعين سنة (٥) ؛ ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تم بناء القصر والمسجد في سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبذا كانت (إلى جانب قرطبة) أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس .

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية المملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة ، تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والفخامة . فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٦٥ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

رومة ، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهران كان ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتي ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم في اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم ، سوى الدجاج والحجل وغيرها^(١) . وقد لا نجد في المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة ، سوى القصر البابوي أو قصر الفاتيكان الشهير برومة ، وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والحلال ، فإن هذا المقام الكنسي الملوكي الفخم ، يحتوى على أربعة آلاف غرفة ، وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة ، أسنغ عليها أبداع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير .

ويحدثنا الرحالة البغدادي ابن حوقل عن الزهران - وقد زارها أيام الحكم ولد الناصر - فيصف موقعها ، ويقول « إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وإن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلدة (قرطبة) في المحل والقدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك ، وابتدأ بالحيد الثياب والكمسي ، وفراة الكراع وكثرة التحلى ، وإن لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن بارع»^(٢) .

ولكن الزهران لم تعمر طويلاً كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، منذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، ولم يكن ذلك لأن الزهران قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولاً خطيراً قد وقع في سلطان بني أمية عقب وفاة الحكم ، إذ استطاع الوزير محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) أن يتغلب على الدولة وأن يحجر على الخليفة هشام المؤيد ولد الحكم حسباً نفصل بعد ؛ ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها لنفسه بجوار قرطبة (سنة ٣٦٨ هـ) على نهر الوادي الكبير وسماها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودور الحكومة ، واتخذ لنفسه سمة الملك وتسمى بالحاجب المنصور .

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) المسالك والممالك ص ٧٨ .

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية ، وشاعت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا في عهد مؤسسها ، وعهد خلفه الذى أكمل بناءها . وكان قيام الحاجب المنصور فى الواقع خاتمة لسلطان بنى أمية ، ولم يبق بعد ذلك من دولتهم سوى الإسم . وقد بقيت الزهراء حيناً مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه - هشام المؤيد - ولكنها فقدت من ذلك الحين أهميتها السياسية وهيتها الملوكية .

ثم كانت المحنة الكبرى بانهيار هذا الصرح البديع الذى شاده بنو أمية بالأندلس ، وانهيار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً ، وسقوط الأندلس صرعى الحرب الأهلية . ففى ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) زحف قوات البربر ومعها سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينزعها من الخليفة هشام المؤيد ، والفتى وأضح الحاجب المتغلب عليه ، واقتحموا فى طريقهم مدينة الزهراء وفتكوا بحاميتها وسكانها ، وعاثوا فى معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ولبثوا بها بضعة أشهر . والظاهر أن الضربة كانت قاضية فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة بعد أن غادروها سوى أطلال دراسة . ولا يكاد اسم الزهراء يذكر بعد ذلك فى التاريخ الأندلسى ، إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ، وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها ، وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع ، وقد أشاد بجهاها وفخامتها ، جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان ، ثم رثوها بعد ذلك فى مقطوعات مؤثرة . ومما قاله ابن زيدون وهو من أعظم شعراء العصر ، يشيد بالزهراء ، ورائع ذكرياتها :

خليلى لا فطر يسر ولا أضحى	فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى
لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل	أنخص بمخصوص الهوى ذلك السفح
معاهد لذات وأوطان صبوة	أجلت المعانى فى الأمانى بها قدحا
ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح	تقضت مبانيتها مدامعه نزحاً
مقاصير ملك أشرفت جنباتها	فخلنا العشاء الجون أثناءها صباحاً
يمثل قرطها لى الوهم جهرة	فقتبها فالكوكب الرحب فالسطحاً
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه	إذا عزأن يصدى الفتى فيه أويضحاً

هناك الحمام الزرق تنسدى خفافها ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا^(١)
ونقل إلينا الشيخ محيي الدين بن عربي^(٢) أبياتاً ، قال إنه قرأها على بعض
جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء في المدينة الشهيرة وهي :

ديار بأكناف الملاعب تلمع وما إن بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت أحياناً وحيناً يرجع
فخاطبت منها طائراً متغرداً له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ما ذا تنوح وتشتكى فقال على دهر مضى ليس يرجع

ويرثى الفتح بن خاقان معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض
الكبراء في تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم كئكالي ينحن على
خرابها ، وانقراض أطرابها ، والوهي بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب
ناعب ، وقد تحت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرفت
بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خلالها وتفيأوا
ظلالها ، وعمرؤا حدائقها وجناتها ، ونهبوا الآمال من سناتها ، وراعوا اللبوث
في آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت لها بالتداعي ترفع
واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نوئى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم
شبابها ؛ وقد يلين الحديد ، ويبلى على طيه الحديد .. »^(٣)

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجري (القرن الثالث
عشر) . وقد ذكرها الشريف الإدريسي في معجمه الجغرافي الذي وضعه في
منتصف القرن السادس (أواخر القرن الحادي عشر) ، وذكر أن بينها وبين
قرطبة خمسة أميال^(٤) ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي الذي

(١) راجع قصيدة ابن زيدون برمتها في ترجمته في «قلائد العقيان» للفتح بن خاقان ص ٧٢ .
(٢) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع
الهجري ، وقد نقل إلينا هذه الرواية والأبيات في كتابه الشهير «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» .
(٣) راجع قلائد العقيان في ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠ .
(٤) راجع نزهة المشتاق (المختصر) طبع رومه - ص ١٩٣ .

وضعه في أوائل القرن السابع الهجري^(١) . وفي سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) كانت نكبة الأندلس ونكبة الإسلام ، بسقوط قرطبة في أيدي الإسبان ؛ فطويت بذلك أسطح صحف الإسلام وصحف الخلافة في الأندلس . وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها الخلافية القديمة . ومن المرجح أن أطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة في أيدي الإسبان عصراً يصعب تحديده ، غير أن قرطبة فقدت في ظل سادتها الحدد صبغتها ومعالمها الإسلامية بسرعة ، ولم يبق اليوم من آثارها وصورها الإسلامية سوى مسجدها الجامع ، الذي ما يزال بالرغم من تحويله إلى كنيسة جامعة ، يحتفظ إلى اليوم بكثير من روعته الإسلامية السالفة .

* * *

هذا وما زالت سيرة مدينة الزهراء وذكريات فخامتها الذاهبة تحتل المقام الأول في تاريخ اسبانيا المسلمة الأثرى والفنى . وقد اهتم العلماء الإسبان منذ نحو قرن بالكشف عن معالمها وأطلالها ، لما يليق ذلك الكشف من أضواء هامة على أحوال الخلافة الأندلسية ونظمها الإدارية والاجتماعية ، وعلى تطور الفن الأندلسي في أزهى عصوره . وعينت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالى ، بإجراء الحفريات الأثرية للكشف عن صروح المدينة الخلافية . وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة التى اضطلعت بهذا العمل ، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع ، فقد استطاع الأثريون الإسبان أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء ، ومواقع صروحها ، وأبناؤها الملوكية .

وقد أتيت لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة ، خلال زيارتنا لعاصمة الخلافة القديمة^(٢) . وتقع هذه الأطلال الضخمة غربى قرطبة على بعد نحو سبعة أميال منها ، وشمالى نهر الوادى الكبير على قيد ميلين ، وتحتل منحدرأ صخرياً وعراً يقع أسفل الأكمة التى يحتلها دير سان خيرنمو San Jeronimo الشهير ، الذى يقال إنه بنى بأنقاض قصر الزهراء . وتسمى هذه المنطقة التى تحتلها أطلال الزهراء « قرطبة القديمة » Córdoba la vieja .

(١) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء (مصر) ج ٤ ص ٤٢١ .

(٢) قمنا بزيارة أطلال الزهراء لآخر مرة فى يناير سنة ١٩٦٠ .

وتشمل الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠ منطقة واسعة تمتد ١٥١٨ متراً من الشرق إلى الغرب و ٧٤٥ متراً من الشمال إلى الجنوب . ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة ، ومن نقوشها وزخارفها التي مازال بعضها قائماً في بعض الحدران ، والتي تتمثل بالأخص في مئات القطع الرخامية الزخرفية التي وجدت ، يكفي لتكوين فكرة عامة، عن هندسة المدينة الملوكية ومناعتها وفخامة صروحها الذاهبة .

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث مدرجة من أعلى إلى أسفل . وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخلفي والمقام الخاص . وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس . وتشمل المجموعة الثالثة ، وهي الواقعة أسفل الربوة ، في بسيط معتدل من الأرض ، أربعة أفنية كبيرة عالية ، هي التي يجري اليوم ضمها وإعادة تشكيلها : فيما يظن أنه البهو العظيم الذي كان مخصصاً لاستقبال الملوك وأكابر السفراء .

وقد تم الكشف عن هذا البهو الذي يعتبر أعظم ما كشف حتى اليوم من آثار الزهراء في سنة ١٩٤٤ ، ووجدت سائر حطامه وزخارفه مدفونة تحت الأنقاض . ويعكف الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة هذا الصرح وتنسيقه مما وجد من أنقاضه وأعمدته وزخارفه . وقد أقيم حتى اليوم في وسطه ما اصطلاح على تسميته « بهو السفراء » أو باسمه التاريخي « المجلس المؤنس » ، وهو عبارة عن أربعة أفنية متلاصقة تبلغ واجهتها نحو أربعين متراً ، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاث أروقة مستطيلة يتوسطها رواق رابع ذو عقود من الجانبين . ويقوم كل فناء منها على خمسة عقود ، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس وقواعد رخامية مزخرفة ، وفي وسط الرواق الثالث عقد جميل عال يفضى إلى جهوداخلي زين جانباها بالزخارف الرخامية . ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو ثمانية أمتار . وقد صنعت العقود كلها على نمط واحد ، وزينت من أعلاها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التي وجدت . وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار .

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال تقع أعلى هذه الأبناء من اليسار ، وهي عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وهو مستطيل .

وهي لا تفرق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط ، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة ، فهي المجموعة الوحيدة التي وجد بها أثر الدهان واضحاً . وقد تبين أن لون الدهان الذي كان مستعملاً في هذه المجموعات من المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر ، يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض ، يعلوه خط أحمر ، وتبين كذلك أن البلاط المستعمل في تغطية أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الواحد منها أربعين سنتيمتراً . وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة في أسفل البناء ، هي أحجار قوية كبيرة بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً وعرضه ٤٠ سنتيمتراً . وإلى جانب هذه المجموعات الحديدية من أطلال الزهراء ، توجد المجموعات القديمة ، وهي تشمل موقع القصر الخلفي والحدار الشمالي ، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر ، والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء ، ومجموعة من مساكن الحرس . وترجع منطقة الحدار الشمالي إلى عصر الناصر ذاته ، وهي من منشأته في المرحلة الأولى من بناء الزهراء ، وقد أصلحت على امتداد سبعين متراً . وهذا الجزء من الحدار آمن وأحكم صنعاً من قسمة الذي بنى فيما بعد في عهد الحكم المستنصر .

أما عن الفناءين المتماثلين أو الفناءين التوأمين ، فيقع أولهما على بعد ثمانية أمتار أسفل القصر الخلفي ، ويشتمل كل منهما على بهو كامل ، وهناك ما يدل على أن كلا منهما كان يحتوي على مجموعة من المساكن المماثلة المخصصة لسكنى طائفة هامة من البطانة أو الحند . ويشغل الفناء الغربي رقعة ضخمة مربعة تقريباً تبلغ مساحتها نحو خمسمائة متر ، وبه أيضاً بقايا أبنية سكنية . بيد أنه لم يكتشف في هذه المنطقة أبواب أو مداخل تكشف عن حقيقة نوع هذه الأبنية ، والظاهر أن الفناء الشرقي كان موقع مسكن « للحریم » ، أو بعبارة أخرى كان جناحاً للقصر الذي تسكنه النساء والأولاد حسبما تدل على ذلك آثار أبنيته ومرافقه .

وعثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعات الضخمة من أطلال المدينة الخلفية ، بطائفة كبيرة من القطع الزخرفية والعقود والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية ، ومئات من القطع والأواني الزخرفية والبللورية ، وقد جمعت كلها في متحف خاص أقيم عند مدخل « مدينة الزهراء » ، وعرضت فيه بعض القطع

والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش، وبعض الأواني الخزفية والبللورية المصححة ، وهذا إلى ما يوجد من تحف الزهراء ونقوشها الزخرفية بمتحف قرطبة الأثرى ، وفي مقدمتها الوعل البرونزي الشهير الذي يعتبر من أروع القطع الفنية . نقول ، ولعل حفائر الرهزاء المستقبلية تكشف لنا عن معالم كثيرة أخرى من ضروب الفخامة والحلال ، التي كانت تنسم بها المدينة الخلافية ، والتي تحدثنا عنها الروايات المعاصرة^(١) .

هذا ولم ينس الناصر أن يشمل المسجد الجامع بعنايته ، أسوة بسائر أسلافه من بني أمية ، فجدد واجهته ، وزاد فيه زيادات كبيرة (٣٤٦ هـ — ٩٥٧ م) . وكان قبل ذلك قد هدم منارته القديمة ، وأنشأ مكانها المنارة العظمى ، وذلك في سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) . وكانت منارة الناصر تمتاز بفخامتها وارتفاعها الشاهق ، وكانت مربعة الواجهات ، ولها أربعة عشرة شباكاً ذات عقود، وتحتوى على سلمين أحدهما للصعود ، والآخر للنزول ، وقد ركب في قممها ثلاث تفاحات كبيرة ، إثنان منها من الذهب ، والثالثة من الفضة^(٢) ، وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها ، تكاد تخطف الأبصار بريقها . وقد أزال الإسبان فيما بعد ، تلك المنارة العظيمة ، تنمة لبرنامجهم في تشويه المسجد الجامع ، وأقاموا مكانها برج الأجراس الحالى .

وما زالت اللوحة التي تنوه بما قام به الناصر من تجديد واجهة الجامع قائمة إلى اليوم ، في مكانها في الجانب الأيمن من بابه الرئيسى المسمى « باب النخيل »^(٣) وقد كتب بها ما يأتى بخط كوفى جميل .

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاءه ، ببنيان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه ، تعظيماً لشعائر الله ،

(١) رجعتنا في هذا الاستعراض لأطلال الزهراء إلى مشاهدتنا الخاصة . وكذلك إلى البحوث الأثرية الآتية :

Medina Azzahra y Alamiriya, Por D. R. Velazquez Bosco (Madrid 1912)
Excavaciones del Plan nacional en Medina Azzahra (Córdoba), Campana de 1943, por R. Castéjon y Martínez de Arizala (Madrid 1945)
Nuevas Excavaciones en Medinat Al-Zahra ; El Salon de Abd Al-Rahman III por R. Castejón (Al-Andalus, Vol. X (1945) Fsc. I.

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٣) وبالإسبانية Puerta de las Palmas

ومحافظة على حرمة بيوته ، التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ، وجزيل الذخر ، مع بقاء شرف الأثر ، وحسن الذكر ، فتم ذلك بعون الله ، في شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلاث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب» (١) .

تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب ، واستنفدت مواردها الثورة ، فتداركها بعزمه وقوة نفسه ، واستطاع أن يسحق خصومها في الداخل والخارج ، في سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصلوتها ، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء . ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك ، فعكف على إصلاح الجيش الذي أضناه الكفاح ضد الثورة ، وحشد له الجند من سائر أنحاء اسبانيا والمغرب ، واستكثر من الأسلحة والذخائر ، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته ، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً ، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف . وكان إقدام الأمير على تولى القيادة بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وعنى عبد الرحمن في الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه ، فأنشأ له وحدات جديدة قوية . وكانت ألمرية عندئذ مركز الأسطول الأندلسي الرئيسي ، وبها أكبر دار للصناعة ، وبلغ الأسطول في عهد الناصر زهاء مائتي سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا الأسطول المخصص لشئون المغرب البحرية ، وقد كان يضم كذلك عدداً كبيراً من السفن . وهكذا كان أسطول الأندلس في ذلك العهد من أقوى الأساطيل يومئذ ، وكان بضخامته وأهباته ، يسيطر على مياه اسبانيا الجنوبية والشرقية وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربي من البحر المتوسط .

وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات ، كما قدمنا عهد رخاء ويسر ، توطدت فيه مالية الدولة وامتألت خزائنها بالأموال الوفيرة ، وزاد الحراج والدخل زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن ، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثرة الأخماس والغنائم . وإن فيما احتوته الزهراء من القصور

(١) راجع الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان ص ١٨ و ١٩ و ٢٤ و ٢٧ .

والمنشآت الباذخة ، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة ، لما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس فى عهد الناصر من القوة والضحامة والغنى . وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم التى لا تحصى . وقيل إن الناصر خلف عند وفاته فى بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار . وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ، وثلث يدخر للطوارئ^(١) . ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام حتى أن العلامة دوزى ينقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب^(٢) . ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادي الذى زار قرطبة فى هذا العهد ، إن الناصر كان أغنى ملوك عصره ، وإنه وبني حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر^(٣) . وهذه أرقام وروايات تشهد بضحامة الدولة الأموية وغناها الطائل فى عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه وغزواته ، أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة :

وبلغت الأندلس فى عهد الناصر ذروة الرخاء والنعماء والأمن والعزة ، وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون ، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة ، ورخصت كلفة العيش . ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف ، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ، ومنازلها أكثر من مائة ألف ، وحماتها العامة ثلاثمائة ، وبلغت أرباضها أو ضواحيها ثمانية وعشرين ، هذا عدا المدينة الوسطى ، وازدانت بعدد كبير من القصور والمتنزهات الفخمة ، ودوت شهرتها فى الآفاق ، ووصلت إلى قاصية الشمال ، حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التى اشتهرت بنظمها فى أواخر القرن العاشر ،

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 173

(٣) ابن حوقل ، المسالك والممالك ص ٧٧ .

أشادت في قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « زينة الدنيا »^(١) .

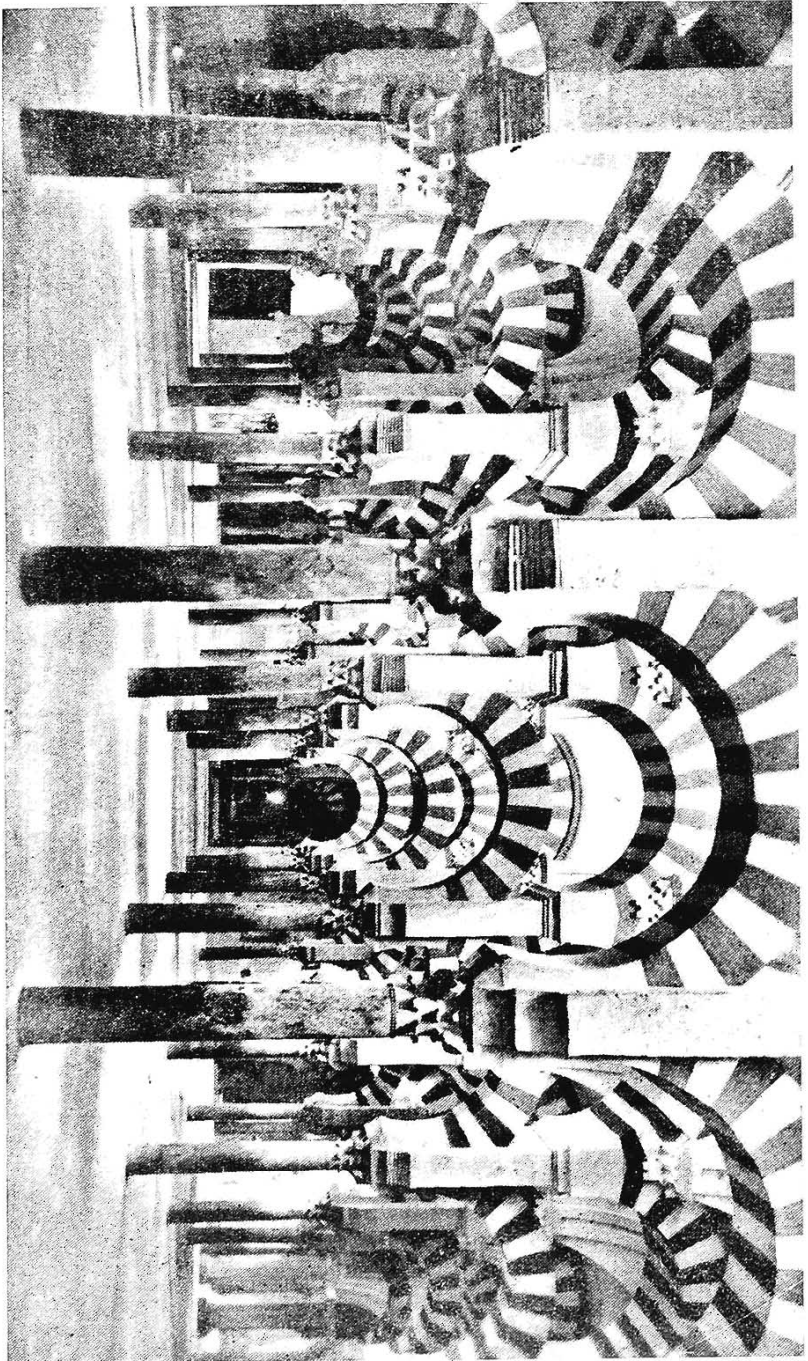
كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالي والصقالبة واتخاذهم أداة وبطانة ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد بتأثير الظروف العصبية التي أحاطت بقيام ملكه ، والخطوب والثورات الحمة التي أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، إلى الاسترابة بالعرب ، واصطناع البربر والموالي الذين آزره وقت المحنة ، ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته . وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة في جوهرها . ومنذ عهد الحكم المنتصر (١٨٨ - ٢٠٦ هـ) نرى نفوذ الموالي والصقالبة يشتد في البلاط وفي الدولة . وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك والباذح ، فغص البلاط الأموي في عهده بالخدم والحشم ، من الممالك والصقالبة ، بيد أن نفوذهم لبث مدى حين بعيداً عن شئون الدولة العليا ، قاصراً على شئون القصر والخاص .

واقتنى عبد الرحمن الناصر أثر سياسة جده الداخل ، في الاسترابة بالقبائل العربية ذات البأس والعصبية ، وفي إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ، واستأثر بكل سلطة حقيقية في الدولة ، وجمع مقاليد الحكم كلها في يده ، فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير . وكان الناصر حريصاً على سلطانه المطلق ، لا يني عن سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف في سبيله ولو كان أقرب الناس إليه . ولما نعى إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة ، لأنه آثر أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون ، وأن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة ، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه وإعدام جميع من اتجهت إليهم شبهة الاشتراك معه ، وكان ذلك في سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) . وكان عبد الله من أفضل أبناء الناصر علماً وعقلاً وبصراً بالأمور ؛ وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض أبناء عمومته وأخيه القاضي ابن محمد حين قامت الأدلة على ائثارهم به^(٢) .

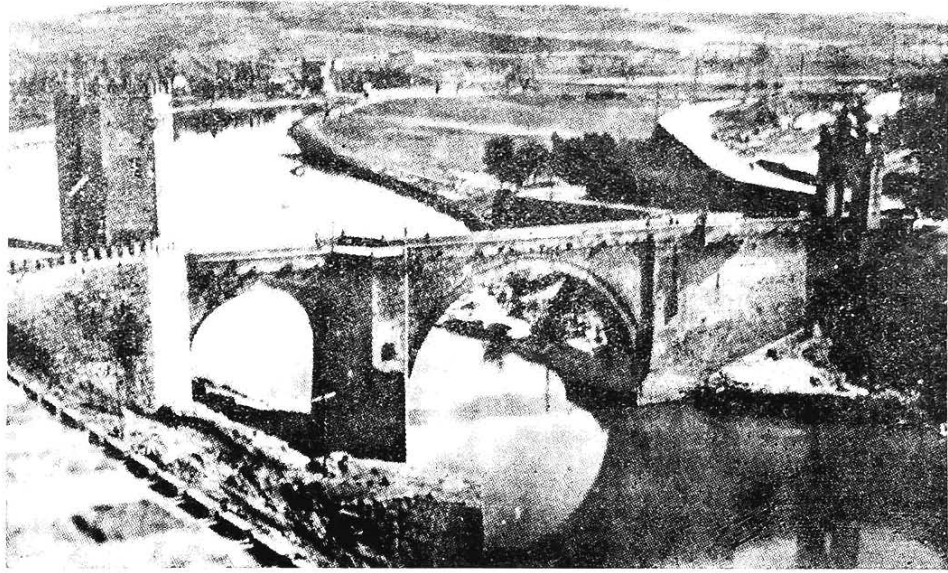
وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعي المنبت من الصقالبة والموالي المعتقين أو الأرقاء ، وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ، وكان يثق

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ . وكذلك Dozy: Hist. Vol. II. p. 174

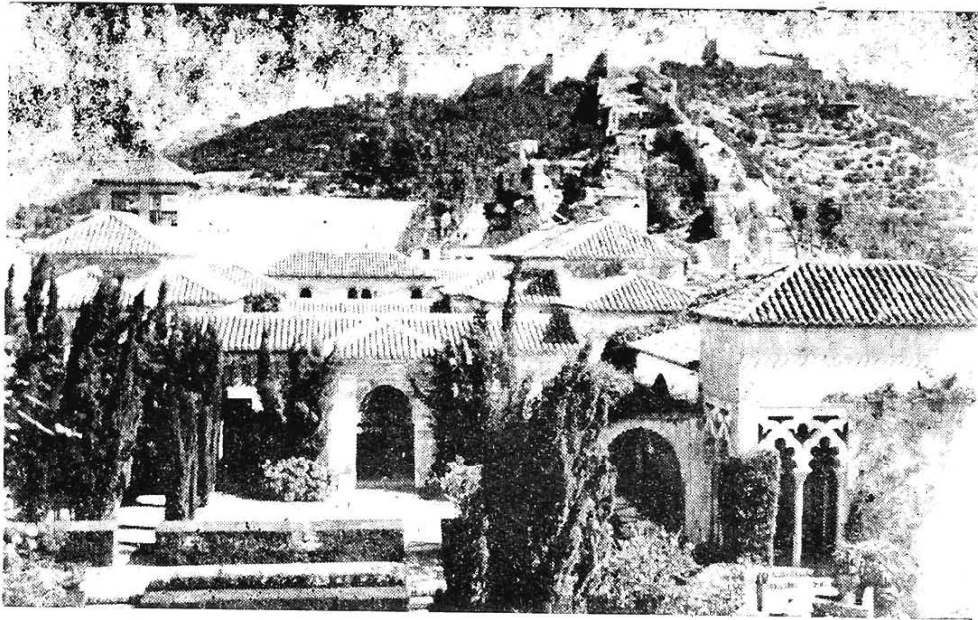
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام ص ٣٩ .



قرطبة : المسجد الجامع . الجامع القديم الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل و أولاده هشام سنة ١٧٠ - ١٧٧ هـ (٨٧٦ - ٧٩٣ م)



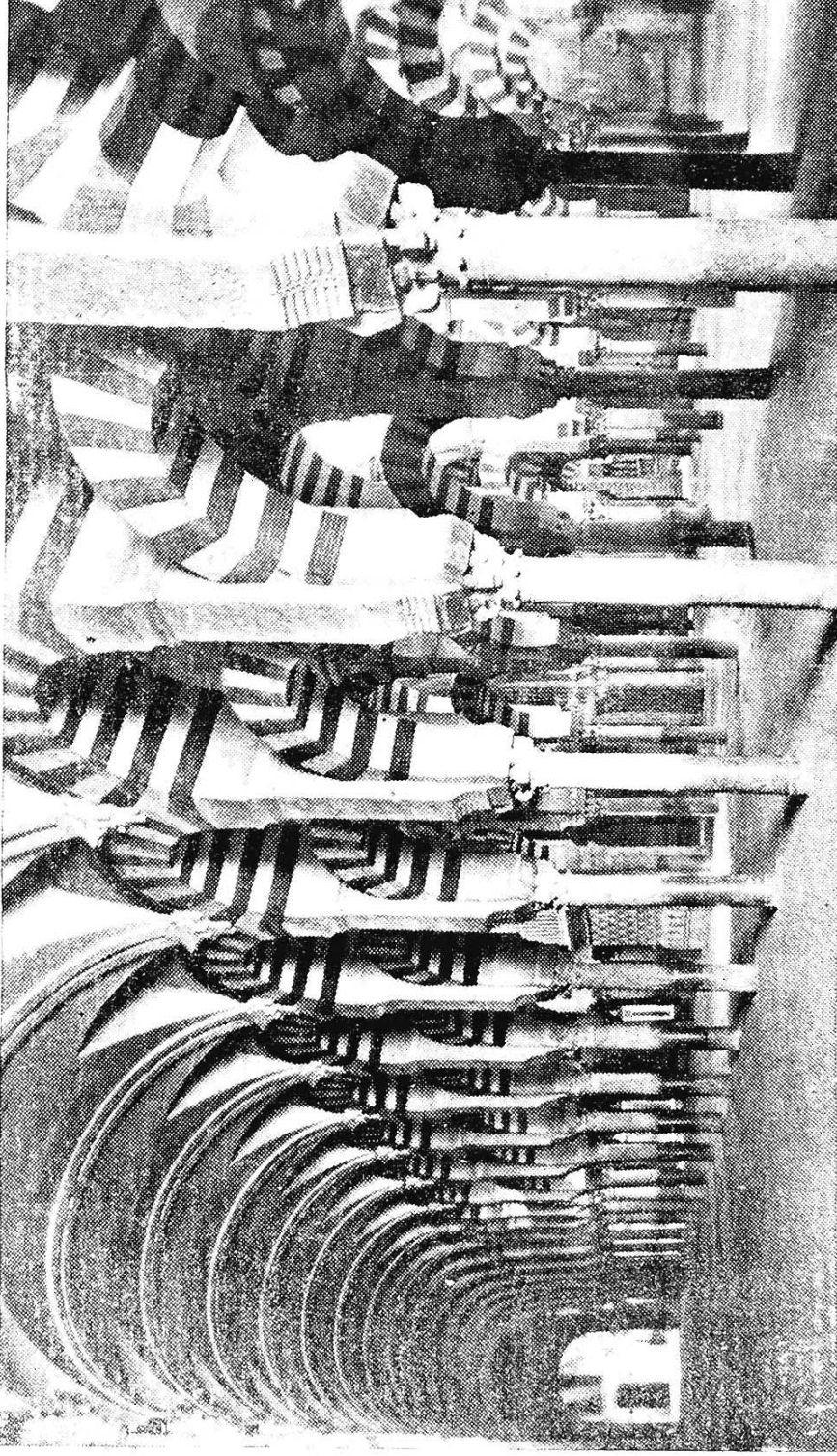
طليطلة : القنطرة الأندلسية المسماة قنطرة « القنطرة » Alcántara القائمة فوق نهر التاجه



مالقة : منظر عام لواجهة القصبه الأندلسية وقد ظهر في أيمنها بهو وعقود يظن أنها من بقايا قصر بني حمود .



مدينة الزهراء : بعض العتود والزخاف التي وجدت بين انقاض المجلس المونس بالقصر الخلفي وأبيه
تركيبها فيما يسميه الأثريون الإسبان « بهو السفراء » •



قرطبة : المسجد الجامع . الجناح الشرق المسمى « جامع المنصور » وهو الذي أنشأه المنصور بن أبي عامر شرقي جامع قرطبة الكبير سنة ٣٧٧ - ٣٨٠ هـ (٩٨٧ - ٩٩٠ م) وما يزال قائماً على حاله حتى اليوم .

بالصقالبة بنوع خاص ، ويوليه من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم (١).
وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق في الأندلس على الأسرى والحصيان من
الأجناس الصقلبية (السلافية) الحقيقية ، ثم غدت تطلق بمضى الزمن على جميع
الأجانب الذين يعملون في البطانة وفي القصر . وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من
الخليقيين (النصارى الإسبان) والألمان والفرنسيين واللونبارد والإيطاليين (٢) ،
وكان معظمهم يؤتى بهم أطفالاً بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار الرقيق ،
وكانوا يختارون من الحسنين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون
مبادئ الإسلام ، وقد نبغ بعضهم في النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد .
ومنذ عهد الناصر يشتد نفوذ الصقالبة في شئون الإدارة والحكم ، فضلاً عن
القصر والخاص ، ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى في القصر والإدارة والجيش .
ومالبت أن سماءهم وتوطد سلطانهم ، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ،
وفاق عددهم في عهد الناصر أى عهد آخر ، حتى قدر بعض المؤرخين عددهم
يومئذ في القصر والبطانة ، بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا في رواية
أخرى سبعة آلاف وثمانين . ويقول لنا ابن الخطيب إن عدد الفتيان الصقالبة
بمدينة الزهراء كان عند وفاة الناصر ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين ، وعدد النساء
بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمسين ، تجرى عليهم جميعاً رواتب الطعام بسائر
صنوفه (٣) . وعلى أى حال فقد كان من أولئك الصقالبة الحرس الخلفى ، ورجال
الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم في السلطان والنفوذ ، ويرغم أشرف العرب
وزعماء القبائل على الخضوع لهم ، لئذئذ بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم (٤) . بل كان
منهم في عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ،
وكان منهم أفلح صاحب الخيل ، ودرى صاحب الشرطة ، ومنهم ياسر وتمام
صاحبها النظر على الخاص (٥) . وكان لهذه السياسة غير بعيد ، أسوأ الأثر في انحلال
الجيش وفتور قواه المعنوية ، لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب ، من

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ .

(٢) ابن حوقل في المسالك والممالك ص ٧٥ ؛ وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 153

(٣) أعمال الأعلام ص ٤٠ و ٤١ .

(٤) Dozy : Hist. Vol. II. p. 153 . وراجع نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ ونفع الطيب ج ١ ص ١٧١ .

الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ، وكانت هزيمة الناصر في موقعة الخندق الشهيرة (الأنديجا) (٣٢٧ هـ) ، ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوي ، الذي سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية (١) .

- ٤ -

كانت الأندلس بما اجتمع لها في عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان ، قد تبوأ مركز الصدارة بين الدول الإسلامية ، وكانت الدولة العباسية قد دخلت يومئذ في دور انحلالها ، ولم تكن الدولة الفاطمية الفتية منافستها في المشرق ، قد بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها ، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة الإسلام . وكانت قرطبة مركز الحاذبية الدبلوماسية في العالم الإسلامي ، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية في طلب المودة ، وعقد العلاقات الدبلوماسية ؛ وكانت قسطنطينية مركز هذه الحاذبية الدبلوماسية بين أمم النصرانية حتى القرن الثامن . ثم نافستها في ذلك مملكة الفرنج القوية مدى حين ، فلما اضمحل شأن المملكة الفرنجية ، استردت قسطنطينية زعامتها الدبلوماسية في النصرانية . ولما قامت الإمبراطورية الجرمانية في القرن العاشر ، استطاعت أن تبسط زعامتها السياسية على أواسط أوروبا وغربها ، وهكذا كانت زعامة النصرانية تتردد في هذه الحقة بين شرقي أوروبا وغربها . هذا بينما لبثت قرطبة تستأثر وحدها بزعامة الإسلام في الغرب حتى نهاية القرن العاشر .

وقد كان هذا العصر الذي اجتمعت فيه تلك الزعامات الدينية والسياسية القوية ، أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية . فكانت ثمة معاهدات وسفارات ومراسلات وعلاقات دبلوماسية ، بين قرطبة وبين معظم الأمم النصرانية ، وقد بلغت هذه الصلات ذروتها في عصر الناصر لدين الله ، وتوالت وفود الأمم النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ، تنشده الحلف والصدقة والمهادنة ، من زعيم الإسلام في الغرب .

وكان بلاط قسطنطينية بالرغم من نأيه عن مقر الخلافة الأندلسية ، وعدم اتصالها بها ، بأية حدود أو صلات جغرافية مشتركة ، في مقدمة الساعين إلى توثيق الروابط الودية مع بلاط قرطبة . ففي سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) (٢) ، وفدت على

(١) Dozy: Hist. V. II. p. 153

(٢) هذه هي رواية ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٢) . وفي رواية أخرى أنها وقعت سنة ٣٣٨ هـ =

الناصر رسل قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف « بيورفير وچنتوس »^(١) ومعهم طائفة من الهدايا النفيسة . وتقدم الينا الرواية الأندلسية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، تلقى ضوءاً على نظم الرسوم الدبلوماسية في هذا العصر ، فتقول لنا إن الناصر بعث رسله للقاء السفراء البيزنطيين في ثغر بجاية لإرشادهم وخدمتهم ، ولما وصل الركب إلى مقربة من قرطبة ، بعث بعض قواته للاحتفاء بهم ، ثم بعث الفتيين ياسراً وتامماً فصحباهم إلى دار الضيافة ، بقصر ولى العهد الحكيم ، في رطب قرطبة ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة ، ورتب لخدمتهم طائفة من الموالي والحشم . وفي اليوم الحادى عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة ، خرج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبالهم ، وجلس في بهو المجلس الزاهر وكان يوماً مشهوداً من أيام الأندلس . فركبت الجند بالسلح في أكمل شكل ، وزين القصر الخلابى بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحفل السرير الخلابى بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقراة ، وجلس عن يمين الخليفة ولده وولى عهده الحكيم ، وجلس باقى أولاده يميناً وشمالاً ، ورتب الوزراء فى مراتبهم ، وغص المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كل ضرب . ودخل سفراء ملك الروم ، فبهرهم ما رأوا من روعة الملك وفخامة السلطان ، وقدموا الهدايا التى يحملونها . وذكر لنا الطبيب الأندلسى أبو داود سليمان بن حسان المعروف بابن « جليل » الذى عاش فى عصر هشام المؤيد حفيد الناصر ، أنه كان فى مقدمة هدايا أرمانىوس ملك الروم إلى الناصر سفران جليلان من كتب الأقدمين ، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس^(٢) عن الحشائش مكتوبة بلغة مؤلفها أى باليونانية ؛ والثانى نسخة من تاريخ أورسيوس

= (نسخ الطيب ج ١ ص ١٧١) . وذكر الطبيب الأندلسى ابن جليل وقد عاش قريباً من عصر الناصر ، أنها وقعت فى سنة ٣٣٧ هـ (راجع طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة - طبعة ميلر - ج ٢ ص ٤٤٧) . وذكر صاحب البيان المغرب أنها وقعت فى سنة ٣٣٤ هـ (ج ٢ ص ٢٣٩) . ولم نعثر فى تواريخ الدولة البيزنطية على تفاصيل هذه السفارة ، ولكن الرواية الإسلامية واضحة جلية . (١) ومعناها الأرجوانى .

(٢) ديسقوريدس Dioscorides طبيب وكيمائى يونانى ، أصله من كليكية بآسيا الصغرى . وقد عاش فى القرن الأول للميلاد واشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية . وهو ما يزال يعتبر ذا قيمة علمية حتى عصرنا ، وكان يعتبر حتى القرن السابع عشر أمثمن مرشد لخواص الأعشاب الطبية .

(هرويسيس)^(١) مكتوبة باللاتينية ، وهو المتضمن لتاريخ العالم القديم ، وأقاصيص الملوك السابقين^(٢) . وقدم الرسل كتاب القيصر قسطنطين السابع ، وقد كتب في رق ذي لون سماوى باللغة اليونانية ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبة بنفس اللغة ، فيها وصف لهدايا الإمبراطور ، وعلى الكتاب طابع ذهبي ، على إحدى وجهيه صورة للمسيح ، وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قسطنطين ، مصنوعة من الزجاج الملون البديع . وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه : « قسطنطين ورومانين المؤمنين بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم »^(٣) . وفي سطر آخر صيغة التوجيه : « العظيم الإستحقاق للفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه » . وذكر لنا ابن جلدجل أن ملك الروم كتب إلى الناصر في شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية ، وأنه لم يكن في قرطبة يومئذ من يحسن هذه اللغة ، وأن الناصر كتب في خطابه إلى « أرمانوس » فيما بعد ، أن يرسل إليه برجل يتكلم اليونانية واللاتينية ، فبعث إليه براهب يدعى نيقولا فحظى عند الناصر ، وتوفر على تفسير كتاب ديسقوريدس وشرح محتوياته لأطباء قرطبة . وأما كتاب أورسيوس المكتوب باللاتينية فقد كان في بلاط قرطبة من يجيدها^(٤) . وكان الناصر قد أمر أن يخطب الأعلام في ذلك الحفل ، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة ، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه ، وإعزاز كلمته ، وذلة أعدائه ، واستعد بعض الخطباء لذلك ، ولكن بهرهم هول المجلس فوجموا وأرتج عليهم القول ، وكان منهم اللغوى الكبير أبو على القالى وافد

(١) باولوس أورسيوس Paulus Orosius حبر ومؤرخ إسباني (قوطي) عاش في القرن الخامس الميلادى ووضع باللاتينية تاريخاً للخليفة في عصره . وقد اشتهر تاريخه بالرغم من ركاكته وكثرة خرافاته ، وانتفع به كثير من المؤرخين اللاحقين . وعرفه المؤرخون المسلمون ونقلوا عنه . وأشار إليه ابن خلدون في مواضع عديدة من تاريخه ، وتعرفه الرواية الإسلامية بهرويسيس أو هرشيوش .

(٢) راجع رواية ابن جلدجل مفصلة في كتاب طبقات الأطباء ، في ترجمة ابن جلدجل (ج ٢ ص ٤٤٧) .

(٣) رومانين هو رومانوس الثانى ابن قسطنطين السابع ، وقد حكم بعد أبيه من سنة ٩٥٩ إلى سنة ٩٦٣ م . وتسمية الرواية الإسلامية « أرمانوس » .

(٤) راجع رواية ابن جلدجل المشار إليها في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧ .

العراق وضيعف الخليفة ، ندبه الناصر لذلك تكريماً له وتقديراً لبلاغته ، ولكنه ماكاد يبدأ خطابه حتى بهت وتلعثم ثم صمت ؛ فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطي دون استعداد ولا سابق توقع ، وارتجل خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره ، ثم أعقبه بقصيدة في نفس المعنى (١) ، فأثار بذلاقتة وثبت جنانه ، أما إعجاب ، وأكبر الناصر همته وعلمه ، وكان هذا الخطاب المرتجل فاتحة مجده ، فأغدق عليه الناصر عطفه ، وولاه القضاء وأصبح من رجال الدولة المشهورين .

ومن شعر منذر بن سعيد في وصف ذلك الحفل المشهود قوله :

مقالى كحد السيف وسط المحافل فرقت به ما بين حق وباطل

(١) نقل المقرئ عن ابن حبان وغيره ، نص الخطاب الذي ألقاه منذر بن سعيد في ذلك الحفل . وإنه ليصعب علينا متى تأملنا عباراته المنمقة ، وسجماته المرتبة ، وما يتخلله من ضروب البيان والبديع ، أن نصدق أنه خطاب مرتجل ألقى عفو الساعة . ولعله صورة منقحة منمقة للخطاب الأصلي . وقد رأينا أن فنقل فقرات من ذلك الخطاب تتناول عهد الناصر بشئ من الوصف والتحليل . جاء في الخطاب بعد اللباجة ما يأتي :

« وإني أذكركم بأيام الله عنديكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التي لمت شعبتكم ، وأمنت سربكم ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم ، ومستضعفين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الأفاق ، وأحاطت بكم شمل النفاق ، حتى صرتم ، في مثل حدقة البعير من ضيق الحال ، ونكد العيش والتقتير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية ، بعد استيطان البلاء . أناشدكم بالله معشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقتها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ، ألم تكن البلاد خراباً فمصرها ، وثغور المسلمين مهتزمة فحماها ونصرها » .

ثم قال : « فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلغ أمير المؤمنين لشعبتكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الأقبصين والأدنين مستخدمة اليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق » ثم قال : « فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتمكم ، فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقق الدماء وصلاح الخاصة والدماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود ... فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، وقد علمتم ما أحاط بكم ، في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصفوف الملحدين ، الساعين في شق عصاكم ، وتفريق ملاكم الآخذين في مخالفة دينكم وتوهين دعوة نبيكم ... الخ .

راجع خطاب ابن سعيد بأكمله في نفح الطيب ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

بقلب ذكى ترمى جمراته كبارق رعد عند رعرع الأنامل
فما دحضت رجلى ولا زل مقولى ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل
وقد حدقت حولى عيون أخالها كمثل سهام أثبتت فى المقاتل
لخير إمام كان أو هو كائن لمقتبل أو فى العصور الأوائل
ترى الناس أفواجاً يؤمنون بابه وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعرش سالماً أقصى حياة مؤملا فأنت رجاء الكمل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب إلى درب قسطنطين أو أرض بابل^(١)

ولما انصرف رسل قسطنطين ، بعث الناصر معهم سفيراً هو هشام بن هذيل بهدية حافلة ، ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين قرطبة وقسطنطينية . فعاد بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء ، وعادت معه رسل قسطنطين^(٢) .

وتفويض الرواية الإسلامية فى تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة ، ولكنها لا تلقى كبير ضوء على موضوعها وغايتها الحقيقية ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس ، وتوطيداً للصداقة القديمة التى رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن ابن الحكم^(٣) لتكون شبه تحالف ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة . وربما كانت ترمى فى الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة بين الدولتين ، لمقاومة الدولة الفاطمية الفتية ، التى بدأت تزعج البيزنطيين فى أواسط البحر المتوسط ، وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها فى المغرب الأقصى .

(١) وقد نقل إلينا المقرئ عن المغرب لابن سعيد وغيره نبذة فى ترجمة القاضى منذر بن سعيد البلوطى ، وفيها أنه ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وبرع فى علوم القرآن والسنة ، وظهر بفصاحته وذلاقتة وجزالة شعره ، وكان الخطاب الذى ارتجله فى مجلس الناصر لمناسبة استقباله لرسلك الروم بدأ ظهوره وشهرته ، فولاه الناصر الصلاة والخطابة فى مسجد الزهراء ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة . وتوفى سنة ٣٥٥ هـ . (راجع نفتح الطيب ج ١ ص ١٧٤ و ١٧٥) .

(٢) راجع فى أخبار هذه السفارة البيزنطية : ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و ١٤٣ ، وفتح الطيب ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ . وراجع : *Aschbach : ibid* .

B. I. p. 95-100

(٣) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » القسم الأول ص ٢٧٨ - ٢٨٠ .

ثم توالى سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس^(١) ، فاحتفل بقدمهم كذلك وبعث معهم ربيعاً (ريفا) الأسقف سفيراً إلى ملكهم ؛ ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع في طلب الصداقة والمودة ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ ، هي سفارة أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا ، وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية ، كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام . وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة في غموض وإنجاز ، وتصف أوتو بملك الصقالبة أو ملك « اللمان » وتسمية « هوتوا » أو « هوتو »^(٢) ، ولكنها تتفق مع الرواية الفرنجية في تاريخ هذه السفارة وهو سنة ٣٤٤ هـ الموافقة سنة ٩٥٦ م . ففى ذلك العام وفد على قرطبة سفير ، وهو حبر يدعى يوحنا الجورزى نسبة إلى الدير الذى ينتمى إليه فى جورزنى على مقربة من متز ، وكان يوحنا من أكابر العلماء وأقطاب البحث والمناظرة . والظاهر أنه قد وقعت فعلا قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية ، وأن الناصر قد عرض فى بعض رسائله بالنصرانية وتعاليمها . فألقى أوتو الفرصة سانحة لأن يدافع سفيره العلامة الذلق عن قضية النصرانية لدى خليفة قرطبة^(٣) . بيد أنه يبدو من أقوال الروايات الكنسية أن هذه المهمة الحثلية ، لم تكن إلا مهمة ثانوية إلى جانب موضوع سفارته الأصلية ، وأن مهمته الحقيقية كانت تتعلق بشأن توغل المستعمرات العربية المغامرة ، فى جنوبى فرنسا وفى ليجوريا وسويسره ، وحيثما فى تلك الأنحاء ، بصورة تبث الرعب والروع إلى كثير من المدن والجماعات النصرانية ، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذى تنتمى إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية ، لوقف عدوانها وتوغلها^(٤) . وقدم يوحنا إلى قرطبة عن طريق الرون وقطلونية برفقة راهب آخر ، ومعه طائفة نفيسة من الهدايا برسم الخليفة ، فاستقبل بحفاوة ، وأنزل فى إحدى الدور الرسمية . ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته ، ولم يقبل بالأخص أن تكون المسائل الدينية موضوع جدل بينهما . ولما ألح

(١) هو بطرس بن سيمون الكبير ملك بلغاريا وقد كان يومئذ يعرف بملك الصقالبة .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٣) . Reinaud ; *Invasions des Sarrazins en France* p. 187 .

(٤) تناولنا قصة هذه المستعمرات فى الفصل التالى .

يوحنا في طلب المقابلة والمحادثة ، أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولا أسقفا إلى أوتو فاعتقله مدى ثلاثة أعوام، وأنه سيعتقله أى يوحنا ، أضعاف هذه المدة ، لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية . وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك الألمان رسولا آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه، وأن يبقى يوحنا معتقلاً حتى يعود السفير . واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة هو ربيع أو ريفا الأسقف وكان عالماً متمكناً يشغل في البلاط منصباً هاماً ، ويحبوه الناصر بعطفه وتقديره ، لعلمه وجليل خدماته^(١) ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ، ومثل لدى الامبراطور أوتو في تورنجن ، حيث كان ينفق معظم أوقاته . وكان أوتو يجوز يومئذ بعض المتاعب الداخلية من جراء ثورة ولده عليه ، فأبدى تساهلاً في قبول وجهات نظر الخليفة وأكرم مثنى سفيره ، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة ، بعد سنتين من سفره (٥٣٤٧ - ٩٥٨ م) . فارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وأذن بروية يوحنا سفير الامبراطور . واستقبله بقصر قرطبة في احتفال فخم ، ظهرت فيه روعة البلاط الأموى ، وأفضى إلى الخليفة بموضوع سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها ، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها . ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة لسفير الامبراطور ، فيما يتعلق بأمر المستعمرات العربية المغامرة ، وغزواتها في غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة ، أنها ليست لها علاقة بتلك المستعمرات ، وأنها لا تتحمل تبعه أعمالها ، ولا تستطيع أن تتدخل في شأنها ، أو تبذل نصيحها لأولئك المغامرين الخارجين عن طاعتها ، وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس ، لم تكن ذات علائق رسمية بها ولم تكن تعنى بأمرها ، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها وتوغلها في الأراضي النصرانية ، بعين العطف والرضى . ولكن لوتبراند وهو مؤرخ كنسى معاصر ، يؤكد لنا أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ، ويمدها بالتشجيع والعون^(٢) .

بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طريفاً عن آراء الناصر

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ . وهو ربيع بن زيد من زعماء النصارى المعاهدين ، وكان يجيد العربية واللاتينية .

(٢) Reinaud : ibid, p. 193

في نظم الحكم ، فقد وقف الناصر من مستشاريه أو من يوحنا نفسه على طرق نظام الحكم الإقطاعي السائد في ألمانيا ، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين في ظل هذا النظام ، من الاستقلال الداخلي ، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام ، قائلاً إن ملككم أمير حكيم ماهر ، ولكن في سياسته شيئاً لا أستسيغه ، وهو أنه بدلاً من أن يقبض بيديه على جميع السلطات ، ينزل عن بعضها لأتباعه ، ويترك لهم بعض ولاياته ، معتقداً أنه يكسب بذلك ، وهذا خطأ فادح ، فإن مداراة العظماء لا يمكن إلا أن تزيد في كبرياتهم ، وتذكي رغبتهم في الثورة^(١). وفي ذلك ما يوضح لنا فكرة الناصر في الحكم المطلق ، وسياسته في سحق أولى الشأن والعصبية من زعماء القبائل العربية ، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين . تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة التي تبادلها أوتو الأكبر وعبد الرحمن الناصر ، زعيما النصرانية والإسلام في عصرهما ، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية . فقد تلقى الناصر كذلك في سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سفارة من أردونيو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة ، فأجابه إلى طلبه ؛ وأرسل في السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون ، فعقد مع أردونيو معاهدة صادقة عليها ، ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه أردونيو . وفي سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) وفدت طوطه ملكة ناغار بنفسها إلى قرطبة ، ومعها ولدها غرسية وسانشو أمير ليون ، وطائفة من الأحرار والعظماء النصراني ، فاستقبلهم الناصر في قصره بالزهاء استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطه ، وأقر ولدها ملكاً على ناغار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه . ثم وفدت على الناصر رسل البابا يوحنا الثاني عشر في طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية فأجابهم إلى ما طلبوا^(٢) ، وكانت سفارة ذات مغزى واضح في الاعتراف بزعامة الناصر للعالم الإسلامي ، وفي أخبار هذه السفارات المتبادلة بين زعيم الإسلام وملوك النصرانية ، وفي تفاصيلها الشائقة ، ما يلقي كبير ضوء على طبيعة التقاليد والرسوم الدبلوماسية في العصور الوسطى :

- ٥ -

في أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه ، واحتجب حيناً ،

(١) Dazy: Hist. V. II p. 153

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

وأكب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً، وعاد إلى الجلوس في القصر ، ولكنه أصيب بنكسة ، وعاد إلى احتجاجه ، ولبت أشهراً تشتد به العلة حيناً ، وتخف حيناً ، حتى وافاه القدر المحتوم ، في الثاني من شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م) . وكانت وفاته بقصر الزهراء في الحادية والسبعين من عمره ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً ، وهي أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام ، إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمي بمصر .

وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام في عصره ، بل ربما كان أعظم أمراء عصره قاطبة . ولم تصل الدولة الإسلامية في الغرب ، إلى ما وصلت إليه في عصر الناصر ، من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ ، وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع في شخصية واحدة ، سياسية وعسكرية وإدارية . وكان يشبه في حزمه وصرامته وبعد نظره ، بجده الأكبر عبد الرحمن الداخل (١) . ويجمل ابن الأبار خواصه وخواص عصره في تلك العبارة : « وظهر لأول ولايته من يمن طائره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، وإقبال دولته ، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاقته ، مما تعجز عن تصوره الأوهام » (٢) . وتولى حجابته لأول ولايته مولاه بدر بن أحمد ، وما لبث أن اصطفاه وأولاه كل ثقته ، وفوض إليه الأمر والنهي ، وجعله على حد قول المؤرخ « شمساً لملكه وبدرأ » (٣) . وولى أبناءه الثلاثة عبد الرحمن وعبد الله وإسماعيل ، مناصب في القصر والخاص ، وولى حجابته بعد ذلك موسى بن محمد بن حدير . وتولى وزارته عدة من أبنه رجال العصر ، منهم أحمد بن محمد بن حدير ، وجهور ابن عبد الملك ، وعبد الله بن محمد الزجالي . وتولى إدارة الشؤون المالية عبد الملك بن جهور ، وأحمد بن عبد الملك بن شهيد (٤) . وأهدى ابن شهيد إلى الناصر هديته المشهورة ، التي أفاض في وصفها مؤرخو الأندلس ، وكان منها خمسمائة ألف مثقال من الذهب ، ومائتا أوقية من المسك والعنبر ، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب ، ومائة فرس مسرجة ، وعشرون بغلاً عالية الركاب ، وأربعون

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) الحلة السيرة ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٤ .

وصيفاً ، وعشرون جارية بكسوتهن وزينتهن ، وأصناف عديدة أخرى . قال ابن خلدون « وهى مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها » . ويجمع مؤرخو الأندلس على أنه لم تقدم هدية فى قدرها ونفاسها إلى ملك من ملوك الأندلس . قدمها ابن شهيد إلى الناصر فى سنة ٣٢٧ هـ ، ومعها خطاب رقيق يشيد فيه بعظمة الناصر ومآثره ، فوقت لديه أحسن موقع ، وزاده حظوة واختصاصاً ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء ، وأسبغ عليه لقب ذى الوزارتين ، فكان أول من حظى بهذا اللقب من وزراء الأندلس ، وضاعف له رزق الوزارة ، وجعله ثمانين ألف دينار فى العام^(١) . وولى قيادة الجيش لأول عهد الناصر أحمد بن محمد ابن أبى عبدة ، سليل الأسرة الشهيرة ، التى تولى زعمائها قيادة الجيوش الأندلسية خلال الفتنة الكبرى . وكذلك وليها الحاجب بدر غير مرة ، ووليا الفتیان الصقالبة مثل نجدة وميسور وغيرهما . وقد رأينا كيف انتهت سياسة عبد الرحمن فى إثارة الصقالبة بالقيادة إلى كارثة الخندق . وممن ولى القضاء فى عهد الناصر أحمد بن محمد بن زياد ، وأسلم بن عبد العزيز بن هشام ، ومنذر بن سعيد البلوطى^(٢) .

وكان عبد الرحمن الناصر عالماً أديباً ، يهوى الشعر وينظمه ، ويقرب الأدباء والشعراء ؛ وكان فى مقدمة شعراء دولته وأكثرهم حظوة لديه ، الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وشاعر الدولة المروانية منذ محمد بن عبد الرحمن . ويفيض ابن عبد ربه فى مناقب الناصر ويستعرض غزواته منذ ولايته حتى سنة ٣٢٢ هـ ، فى أرجوزة طويلة رتبت وفق السنين^(٣) . ومن شعره فى وصف عصر الناصر واعتزاز الإسلام بدولته قوله :

قد أوضح الله للإسلام منهاجا والناس قد دخلوا فى الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها كأنها ألبيست وشياً وديباجا
يا ابن الخلائف إن المزن لو علمت نذاك ما كان منها الماء ثجاجا

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ ؛ ونفع الطيب ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧ و ١٧٧
نقلا عن ابن حيان وابن الفرضى وغيرهما .
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦١ .
(٣) راجع هذه الأرجوزة فى كتاب العقد الفريد (طبعة المطبعة الأزهرية) ج ٣ ص ٢٠٩
إلى ٢٢٧ .

والحرب لو علمت بأساً تصول به
مات النفاق وأعطى الكفر رتمه
وأصبح النصر معقوداً بألوية
أدخلت في قبة الإسلام بارقة
بجحفل تشرق الأرض الفضاء به
يقوده البدر يسرى في كواكبه
إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت
ومما ينسب إلى الناصر من النظم قوله :

لا يضر الصغير حدثان سن
كم مقيم فازت يدها بغم
وكان الناصر سمحاً وافر الخود .
أشهل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم ،
البنين أحد عشر ولدأ منهم ولى عهده وخلفه الحكم المستنصر بالله .
وقال الوزير جعفر بن عثمان المصحفي في رثاء الناصر :

إلا إن أياماً هفت بإمامها
فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها
تأمل فهل من طالع غير آفل
وعاين فهل من عائش برضاها
كأن نفوس الناس كانت بنفسه
فطار بها يأس الأسى وتقاصرت
لحائرة مشتطة في احتكامها
وأحداثها إلا قلوب عظامها
لهن وهل من قاعد لقيامها
من الناس إلا ميت بفظامها
فلما توارى أيقنت بحمامها
يد الصبر عن أحوالها واحتدامها
ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة .
وربما كان أبلغ ما قيل في ذلك تلك العبارات القوية التي يختم بها العلامة دوزى حديثه عن
عصر عبد الرحمن الناصر : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكننا نجد إذا ما درسنا

(١) وقيل أن هذه القصيدة وجهت إلى الناصر لمناسبة عوده ظافراً من أول غزوة قام بها ضد الثوار في مستهل حكمه .

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧ .

ذلك العصر الزاهر ، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة ، بأكثر مما يثيرها المصنوع : تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التي لم يفلت شئاً منها ، والتي كانت تدعو إلى الإعجاب في تصرفها نحو الصغائر ، كما تدعو إليه في أسمى الأمور . إن ذلك الرجل الحكيم النابه الذي استأثر بمقاليد الحكم ، وأسس وحدة الأمة ، ووحدة السلطة معاً ، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسي ، والذي اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالاً من غير المسلمين ، لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث ، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى» (١) .

الفصل الرابع

غزوات المسلمين

في غاليس وشمال إيطاليا وسويسره

توقف الغزو الإسلامي عقب بلاط الشهداء . استئناف الغزو في عهد هشام . غزو الفرنج لشمالي الأندلس . الغزوات الإسلامية المغامرة . صمت الرواية الإسلامية عن ذكرها . غزو قورسقة وشواطئ فرنسا الجنوبية . غزو مرسليليا وبروفانس . غزو موسى بن موسى لسبتمانيا . غزو جزيرة كاماراج . اضطراب الأحوال في جنوبي فرنسا . غزو المسلمين لشواطئ سان تروبيه . معاقبتهم في تلك الأنحاء . تدخلهم بين النصارى . اختراق الغزاة لدوفينه . عبورهم مون سني . احتلالهم لممرات الألب . جوازهم إلى سهول پييمون . عودهم إلى غزو بروفانس . غزوهم لمرسليليا وإيكس . غلقهم لممرات الألب . تقدمهم إلى ليجوريا . غزوهم لمنطقة فاله وسافوا . وصولهم إلى قلب سويسره وشرقها . غزوهم لشغر فريجوس . اتحاد الأمراء النصارى على مقاومتهم . استنجادهم بقيصر قسطنطينية . مهاجمة المسلمين وتمزيقهم . الصلح بينهم وبين ملك بروفانس . احتلالهم لممر سان برنار . استيلاؤهم على جرينوبل . غاراتهم في پييمون . الحرب بينهم وبين المجر . وصولهم إلى سان جالن . قتالهم وهزيمتهم . صدى الغزوات الإسلامية في جنوبي أوروبا . سعى البابوية وإمبراطور ألمانيا لوقفها . محاربتهم في دوفينه وبروفانس . هزيمتهم وارتدادهم إلى الجنوب . سقوط حصن فراكسنيه . سقوط المستعمرات الإسلامية في الألب . غزوات بحرية إسلامية لشواطئ فرنسا . غزو قورسقة وسردانية . ظروف هذه الغزوات الإسلامية . خواصها وبواعثها . آثارها المادية والأدبية . أثر العرب في تقدم الزراعة في الأنحاء المفتوحة . نقلهم لكثير من المحاصيل والغراس . أثرهم في تحسين سلالة الخيل . الآثار الإجتماعية . أقوال النقد الحديث .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن غزوات العرب في غاليس (جنوبي فرنسا) منذ الفتح ، ورأينا كيف وضع ارتداد العرب في موقعة بلاط الشهداء في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) حداً لغزواتهم في غاليس ، وكيف فقدوا تبعاً قواعدهم في لانجدوك وسبتمانيا ، حتى انتهت رياستهم فيما وراء البرنيه بسقوط ثغر أبونة ، آخر قواعدهم في سبتمانيا ، في يد الفرنج في سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) (١) .

وكانت الأندلس خلال هذه الفترة تضطرم بالفتن الداخلية والحرب الأهلية . ولما استطاع عبد الرحمن الأموى أن ينتزع الرياسة لنفسه من غمر الفتنة ، وأن يعيد

(١) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » القسم الأول من العصر الأول ص ١٣٥ .

ملك الدولة الأموية بالأندلس ، لبث ببقية عهده يعمل على توطيد ملكه الفتي ، وحمايته من الثوار والحوارج ، ولم تنح له فرصة للتفكير في الغزوات الخارجية . بل لقد اضطر أن يقف موقف المدافع من مملكة الفرنج ومن عاهلها شارلمان ، الذي حاول أن يغزو الولايات الإسلامية الشمالية بمؤازرة الزعماء الحوارج في الثغر الأعلى ، واضطر أن يغضى مدى حين عن غزوات المملكة النصرانية الناشئة ، لأراضى الأندلس وقواعدها الشمالية .

فلما تولى ولده هشام الملك ، واستطاع أن يقضى على ثورة أخويه سليمان وعبد الله ، وجه عنايته إلى مقارعة المملكة الفرنجية ، ورد خطرهما عن الأندلس ، وبعث إلى الشمال في سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بجيش كثيف بقيادة حاجبه عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث . فعبر جبال البرنيه ، ونشبت بين المسلمين والفرنج في بسائط سبتمانيا عدة معارك كانت بحالا ، وجدد بذلك عهد الغزو والجهاد فيما وراء البرنيه .

وعاد الفرنج في عهد الحكم بن هشام ، فعبروا جبال البرنيه في سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) وغزوا الثغر الأعلى وافتتحوا ثغر برشلونة ، واقتطعوا بذلك جزءاً من الأندلس الشمالية . ولم تمض بضعة بضعة أعوام أخرى ، حتى عبر الفرنج البرنيه للمرة الثانية (١٩٣ هـ - ٨٠٩ م) وحاولوا الاستيلاء على مدينة طرطوشة ، ولكن المسلمين استطاعوا إنقاذها .

وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت حملة بحرية أندلسية لغزو الجزائر الشرقية ، وقد رأينا فيما تقدم كيف غدت مياه الأندلس الشرقية مركزاً لحمالات البحارة المسلمين ، يسرون منها نحو الشمال والشرق إلى الشواطئ والجزائر القريبة ، ينقضون عليها طلباً للغنيمة والسبي ، وكيف بدأت من ذلك الحين محاولات المجاهدين المسلمين ، لغزو شواطئ فرنسا الجنوبية وأحواز مصب الرون .

وقد فصلنا فيما تقدم من كتابنا أخبار الغزوات الأندلسية الرسمية فيما وراء البرنيه ، وأشرنا بإيجاز إلى بداية عهد الحملات البحرية الأندلسية الخاصة (١) . وسنحاول في هذا الفصل أن نستعرض لمحة من أخبار هذه الحملات والغزوات الإسلامية غير الرسمية البحرية والبرية ، إلى شواطئ فرنسا الجنوبية ، ومايجاورها

(١) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » العصر الأول القسم الأول ص ٢٦٢ و ٢٦٣ .

من سهول ليجوريا وهضاب سويسره ، ومما يجدر ذكره أن الرواية الإسلامية قلما تشير إلى هذه الغزوات بكلمة ؛ وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة هذه الغزوات والمغامرات غير الرسمية ، التي كانت تنظمها جماعات خاصة من المجاهدين لاتربطها بحكومة قرطبة صلة رسمية ، ولا تعتمد إلا على جهودها ومواردها الخاصة .

بدأت هذه الغزوات الأندلسية للشواطئ والثغور الفرنجية منذ أوائل القرن التاسع . وكان معظمها حملات بحرية ، قوامها جماعات من المجاهدين والزعماء المغامرين . ففي سنة ٨٠٦ م غزت إحدى هذه الجماعات البحرية المجاهدة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، وهزمت الأسطول الفرنجي الذي بعثه بين ابن شارلمان ملك إيطاليا لقتالهم ، وعادت بكثير من الغنائم والسبي . وتوالت بعد ذلك غزوات البحارة الأندلسيين لشواطئ كورسيكا وسردانية ، وهما يومئذ أغنى جزر البحر الأبيض المتوسط . وكذلك توالت غارات البحارة المسلمين على شواطئ فرنسا الجنوبية . وتعنى الرواية الكنسية والفرنجية المعاصرة بتدوين هذه الغزوات الإسلامية وتصف عصفها وغيثها ، وما كانت تحدثه من الرعب بين السكان النصارى ، وتقول لنا إن البحارة المسلمين ، ذهبوا في الجراة إلى حد التجول في مياه الأطلنطيق ، والإغارة على شواطئ فرنسا الغربية ، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت في ذلك الحين مياه الأطلنطيق حتى مصب نهر اللوار (١) .

وفي سنة ٨٣٨ م سار أسطول أندلسي من مياه طر كونة ومياه الجزائر الشرقية إلى مياه بروقانس ، وغزا ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضي ، وأثنخ فيها ، وحمل الغزاة كثيراً من الغنائم والسبي . ولم يستطع ملك فرنسا الضعيف لويس ابن شارلمان مقاتلة الغزاة . ثم عاد البحارة المسلمون وغزوا شواطئ بروقانس مرة أخرى ، ونفذوا إلى مصب نهر الرون ، واقتحموا مدينة آرل وخرّبوا كنائسها . وتوالت بعد ذلك غزواتهم لهذه المنطقة . وفي سنة ٨٥٠ م في أواخر عهد عبدالرحمن ابن الحكم ، عبر موسى بن موسى بن قسى صاحب سرقسطة وزعيم الثغر الأعلى ، جبال البرنيه ، وغزا سبانيا وأثنخ في نواحيها ، واضطر شارل الأصغر ملك فرنسا أن يهادنه ، وأن يعقد الصلح معه ، وأن يسترضيه بالهدايا والتحف . ومن

(١) جمعت أقوال الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة ، عن هذه الغزوات الإسلامية ، في موسوعة Bouquet التي سبقت الإشارة إليها غير مرة ، بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، وقد اعتمدنا عليها في كثير من حوادث هذا الفصل .

المرجح أن هذه الغزوة لم تكن ذات طابع رسمي ، ولم تكن لها صلة بحكومة قرطبة . ذلك أن بنى قسى زعماء الثغر الأعلى في ذلك الحين ، كانوا يتمتعون باستقلال محلي ، ولا يدينون بالولاء لحكومة قرطبة ، وكانوا بالعكس ينزعون إلى مقاومتها والخروج عليها . وفي سنة ٨٦٩ م هاجمت جماعة من البحارة والمجاهدين المسلمين شواطئ بروفانس مرة أخرى ، واستولت على جزيرة كاماراج الواقعة في مصب الرون ، وأسرت أسقف آرل الذي كان يقيم بها ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى .

وأذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية، في نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمي الأندلس وإفريقية ، حب التوغل في هاتيك الأنحاء ، ورغبة في استعمارها والاستقرار فيها . وكانت أحوال غاليس (جنوبي فرنسا) قد اضطرت يومئذ ، وغلب سيد من سادة هذه الأنحاء يدعى بوسون على ولايتي دوفينه وبروفانس ، وتلقب بملك آرل . وقام يناوئه بعض منافسيه ، ونشبت بينه وبينهم حرب أهلية (نحو سنة ٨٩٠ م) . ففي تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين ، في خليج جريمو أو خليج سان تروبيه ، ونزلوا إلى الشاطئ ولجأوا إلى غابة كثيفة ، تظللها الجبال ، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها . ولما رأوا منعة معقلهم من البر والبحر ، عولوا على الاستقرار فيه ، ودعوا إخوانهم من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم ، وأرسلوا في طلب العون والتأييد من حكومات الأندلس والمغرب ، فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل . ولم تمض أعوام قلائل ، حتى استقروا في ذلك المكان ، وأنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون ، أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة ، اسم (فرا كسنتم) Fraxinetum . والمظنون أنه هو المكان الذي تقوم عليه اليوم قرية «جارد فرينيه» Garde - Frinet الواقعة في سفح جبال الألب^(١) . وما زالت ثمة آثار تدل على قيام معاقل قديمة في ذلك المكان . ولما كثر جمعهم ، واشتد ساعدتهم أخذوا في الإغارة على الأنحاء المجاورة ، وأصبحوا قوة يخشى بأسها . وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم ، بعضهم على بعض ، فلبوا الدعوة ،

وانتزعوا من بعض السادة أراضيمهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة في الأنحاء المغلوبة ، وبنوا الذعر والروع في جنوب بروقانس ، حتى وصفهم كاتب معاصر « بأن واحداً منهم يهزم ألفاً ، واثنين يهزمان ألفين » (١) . وكانت هذه أول خطوة في استعمار المسلمين لجنوبي فرنسا . وفي خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون المسلمون خطوة أخرى ، فتقدموا نحو جبال الألب غرباً وشمالاً . وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت ، وخلف بوسون ولده لويس ، ولكنه ذهب إلى إيطاليا ليحارب إلى جانب حلفائه فهزم هنالك وأسر ، وتركت مملكته بلا دفاع ، وساد الإنحلال والفوضى غاليس كلها . فانتهم المسلمون تلك الفرصة واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا « مون سني » أهم ممرات الألب الفرنسية ، واستولوا على دير نوقاليس الشهير الواقع في وادي «سيس» على حدود بيمون ، وفر الأحرار إلى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) . وأغار المسلمون على القرى والضياع المحاورة ونهبوها ، وفتكوا بأهلها ، وأسر بعضهم وأخذوا إلى تورينو بإيطاليا ، وسجنوا في ديرها ، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرموا النار في الدير وفي المدينة ، وفروا عائدين إلى زملائهم . واشتد بأس المسلمين في تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على طرق المواصلة بين فرنسا وإيطاليا ، ثم انحدروا من آكام الألب إلى سهول بيمون ، وأغاروا على بعض مناطقها .

وفي سنة ٩٠٨ م نزلت سرية قوية من البحارة المسلمين في شاطيء بروقانس على مقربة من « إيج مورت » ونهبت دير بالمودى ، وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة ، لما كانت تخلص به من الذخائر والأموال . وانتشر المسلمون بعد ذلك في جميع الأنحاء المحاورة ، واجتاحوا كل ما في طريقهم من البسائط ، وهاجموا مرسليليا ، وهدموا كنيستها ، وغزوا إيكس ، وسبوا النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم إليهم كثير من النصارى المغامرين من أهل هذه الأنحاء ، وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم ، والتجأوا إلى الداخل خشية القتل والأسر ، وأغلق المسلمون طريق الألب إلى إيطاليا ، وكان يمر بها كل عام ألوف من الحجاج الذين يقصدون إلى رومة ، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور .

ثم اتخذ المسلمون خطوة جديدة في سبيل التقدم إلى أواسط أوروبا ، فدفعوا غزواتهم إلى بيمون ومونفرا تو . وتقول لنا الرواية الكنيسية المعاصرة إنهم وصلوا في أوائل القرن العاشر إلى حدود ليجوريا على شاطئ خليج جنوة . ويروي لوتبراند ، وهو كاتب معاصر ، أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ ، مدينة « آكي » من أعمال مونفرا تو الشهيرة بحماماتها (وهي على مقربة من تورينو) ، ثم غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى (ساجيتوس) ولكنهم هزموا ومزقوا . وفي هذا الوقت أيضاً نزلت جماعة قوية من البحارة الإفريقيين بساحل جنوة ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال .

وفي سنة ٩٣٩ م غزا المسلمون منطقة « قاليه » في جنوب سويسره ، ونهبوا دير « أجون » الشهير ، وغزوا في الوقت نفسه منطقة « تارانتيز » من أعمال سافوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة « قاليه » قاعدة للإغارة على الأراضي المجاورة في سويسره وإيطاليا ، و نفذوا منها إلى أواسط سويسره ، ثم إلى « جريزون » في شرق سويسره ، ونهبوا دير ديزنتي أشهر وأغنى الأديار السويسرية ، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية . وفي بعض الروايات أيضاً أن المسلمين وصلوا في غزواتهم إلى بحيرة چنيثف ، وجاوزوا إلى مفاوز چورا الواقعة في شمالها ، وكانت سويسره يومئذ من أقاليم بورجونية وملكتها يومئذ الملكة « برت » الوصية على ولدها الطفل كونراد ، فارتدت حين اقتراب العرب إلى حصن ناء في جهة نيو شاتل .

وفي سنة ٩٣٠ م غزا العرب فريچوس وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ، وغزوا أيضاً ثغر طولون ، ففر السكان إلى الجبال ، وعاث المسلمون في تلك الأنحاء ، وخرّبوا المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس . ولما اشتدت وطأة المسلمين في جنوبي فرنسا ، وبلغ السخط من غزواتهم وعيهم ذروته ، اعتزم سادة الجنوب ، وعلى رأسهم هوج ملك بروقانس أن يبذلوا كل ما في وسعهم لسحق ذلك العدو المزعج . ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فراكسنيه (فراكسنتم) الذي يمتنع به المسلمون ، ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وإفريقية ، وقاعدة للإغارة على الداخل ، وكتب إلى صهره إمبراطور

قسطنطينية ، يطلب منه أسطولاً من قاذفات النار اليونانية ، حتى يستطيع مهاجمة المسلمين من البر والبحر معاً . فلبى نداءه . وفي سنة ٩٤٣ م رسا أسطول بيزنطي في مياه سان تروبيه ، وزحف هوج في نفس الوقت بجيشه على فراكسنيه ، وهوج المسلمون من البر والبحر بمنتهى الشدة ، وأحرقت سفنهم ، ونفذ هوج إلى الحصن بعد قتال رائع ، وفر المسلمون إلى الآكام والرني ، وكاد يسحق سلطانهم في تلك الأنحاء . ولكن حدث بعد ذلك أن علم هوج أن خصمه ومنافسه بيرانجيه ، قد عاد إلى إيطاليا لينازعه في انتزاع عرشها فصرف هوج الأسطول ، واضطر أن يعقد الصلح مع المسلمين ، بشرط أن يبقوا في رؤوس الألب وممراتها ، وأن يغلقوا الطريق إلى إيطاليا في وجه خصمه ، وبذلك استعاد المسلمون قلاعهم وسيادتهم في جنوبي بروقانس .

واحتل المسلمون آكام الألب وممراتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين ، واستطاعوا بسيطرتهم على مرسان برنار الكبير الموصل بين سويسره وإيطاليا ، وغيره من الممرات والمعازل الجبلية ، أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة ، وأن يبثوا فيها الذعر والروع ، واستقرت منهم جموع في السهول والضياع القريبة من معقلهم ، وتزوجوا النساء الأسيرات ، وزرعوا الأرض ، واكتفى أمراء هذه النواحي بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب ، ونفذ المسلمون أيضاً إلى منطقة نيس ذاتها ، وما يزال في نيس إلى اليوم حتى يعرف بحى العرب Canton des Sarrazins . وأخيراً نفذ المسلمون إلى قلب ولاية دوفينه ، وغزوا جرينوبل واحتلوها مدى حين ، واحتلوا واديها الحصيب « جريزيفودان » الذي يجري فيه نهر الإيزر فرع الرون ، وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه إلى الشمال حاملين رفات قديسهم^(١) .

وهكذا انتشرت المستعمرات والمعازل الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادي في بروقانس وساقوا وييمون وسويسره ، وبسط المسلمون سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسره ، وبلغوا في تقدمهم في غاليس مدينة جرينوبل ، واحتلوا في سويسره ولاية فاله ومفاوز چورا المتاخمة لبرجونية ، واحتلوا في إيطاليا الشمالية ، ولاية

ليجوريا . وكانت معاقلمهم في بروفانس ولاسيا حصن « فراكسنيه » ، قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم . والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة في سهول بيمون ، فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية ، لتكون مركز غزواتهم في بلاد اللونبارد وفي سويسره ، فإن الرواية الكنسية التي كتبها حبر معاصر من دير نوقاليس تذكر لنا اسم حصن إسلامي في تلك الأنحاء وتسميه « فراشنديلوم » Frashendellum والمظنون أنه هو المكان الذي تعرفه الجغرافيا الحديثة باسم « فراسنيتو » ، وهو الواقع في لومبارديا على مقربة من نهر « بو » . وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانياً من سادة تلك الأنحاء يدعو إيمون دفعه شغف المغامرة والكسب ، إلى مخالفة المسلمين فانضم إليهم ، واشترك في غاراتهم الناهبة ؛ وفي ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن ، فاستبقاها إيمون لنفسه ، ولكن زعيماً مسلماً استحسناها وانتزعها منه قسراً ، فغضب إيمون والتجأ إلى كونت روتبالدرس حاكم بروفانس العليا ، وفاوضه سراً في محاربة المسلمين ، وإنقاذ البلاد منهم ، فرحب الكونت بهذا المشروع ، ودعا السادة إلى معاونته ، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة ، وهوجم المسلمون في بيمون من كل صوب ومزقوا ، وسقطت قلاعهم في أيدي النصارى ، وذهب سلطانهم في تلك الأنحاء . وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك بروجونية لإهلاك المسلمين النازلين في أملاكه في چورا وعلى حدود بروجونية ، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الإغارة والعيث في تلك الأنحاء . وذلك أنه كتب إلى المسلمين يستحثهم على قتال منافسيهم المجر ، وانتزاع ما بيدهم من الأراضي والضياح الحصبة ، وكتب مثل ذلك إلى المجر يستحثهم لقتال المسلمين والمعاونة على إجلائهم ، وعين مكاناً للقاء الفريقين ، فالتقت الجموع المتنافسة من المسلمين والمجر ، ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين ، ثم أشرف كونراد بمجموعه ، ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلاً وأسراً ، وتضع الرواية تاريخ هذه الواقعة في سنة ٩٥٢ م ، ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها^(١) ؛

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك المسلمين المستعمرين المغامرين في الأفول ، وتضمحل سيادتهم في تلك الأنحاء ، بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك .

يحتلون كثيراً من مواقع ساقوا ، ويجوبون أنحاء سويسره كلها في طلب الغنيمة والسبي ، وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها ، وبلغوا في توغلهم في سويسره مدينة سان جالن على مقربة من بحيرة كونستانس ، وأنشأوا ثمة كثيراً من القلاع والأبراج ، التي مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا ، ولبثوا حيناً في سان جالن حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء ، وفاجأوا المسلمين في جوف الليل ، ومزقوهم قتلاً وأسراً ، وبذلك خفت وطأة الغزوات الإسلامية في شمال سويسره .

واستمرت المستعمرات والمعازل الإسلامية في دوفينه وبروقانس ، وبعض جهات الألب ، وكان قربها من « فراكسنيه » أمنع المعازل الإسلامية يمددها بأسباب الحرأ والعون ، ويمدها قربها من البحر دائماً بأمداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وإفريقية .

وكان لاستقرار هذه المستعمرات الإسلامية في جنوبي أوروبا ، وعيها المستمر في الأنحاء والسهول المجاورة ، وقع عميق في الحكومات الأوربية ، وكان صريخ البابوية يتردد لدى أمراء أوروبا ، بالسعى إلى مكافحة هذا الخطر الداهم ، وكان أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا وأعظم أمراء النصرانية يومئذ ، أشد هؤلاء الأمراء اهتماماً بالقضاء على خطر المستعمرات الإسلامية ، لأنه يدنو من أملاكه ويصيدها بشره . ولهذا رأى أن يبذل في هذا السبيل سعيه ، لدى عبد الرحمن الناصر عاهل الأندلس وزعيم الإسلام الروحي والزمني ، وأوفد إليه في سنة ٩٥٦ م سفارته الشهيرة التي أتينا على ذكرها . وبحث سفيره يوحنا الجورزيني مع الخليفة مسألة اعتداء المستعمرات الإسلامية على الأراضي النصرانية ، والتمس إليه أن يعاون بنصحه ونفوذه على قمع هذا العدوان . ولكن هذا المسعى لم يسفر عن أية نتائج عملية ، إذ اعتذر الخليفة حسبا فصلنا من قبل ، بأن هذه المستعمرات الإسلامية لا تخضع له ولا تأتمر بأوامره ، وأنها تعمل مستقلة بعيدة عن حكومة قرطبة . على أن لوتبراند وهو مؤرخ كنسي معاصر ، يؤكد أن الخليفة كان يحمي هذه المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون^(١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى أخرج المسلمون من معاقلهم في آكام سان برنار

(في نحو سنة ٩٦٩ م) . ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث ، ولكن المحقق أن المسلمين أبدوا كعادتهم منتهى البسالة في الدفاع عن مواقعهم . والظاهر أيضاً أن القديس برنار (سان برنار) الذي سميت هذه الآكام باسمه ، كان من أبطال الموقعة التي نشبت وانتهت بجلاء المسلمين .

واستمر المسلمون في دوفينه وبروفانس ، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء . ولما غزا الإمبراطور أوتو بلاد اللونبارد ، وأخرج منها ملكها بيرانجيه ، التجأ ولده أدلبرت إلى عرب «فراكسنيه» ، ليعاونوه في استعادة ملكه ، وكان هذا التحالف بين السادة والمسلمين ، يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما أذنت بالانهيار . بيد أن هذه السيادة قد أخذت في الاضمحلال ، مذ فقد العرب معاقلمهم في جبال الألب . وفي سنة ٩٦٥ م أخرج المسلمون من مدينة جرينوبل ومن واديهما الخصب (جريزيقودان) وطوردوا في تلك النواحي ، وساءت أحوالهم ، وأعلن الإمبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة وهو يومئذ في إيطاليا ، أنه سيتولى طرد المسلمين من الأراضي النصرانية ، ولكنه توفي دون القيام بمشروعه . ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة . وحدث في ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت ، وهو سان ماييل أسقف دير كلوني من أعمال بروجونية ، حج إلى رومة ، ولما عاد من طريق دوفينه أسره المسلمون المرابطون في الجبال مع جماعة كبيرة من الحجاج ، واشترطوا عليهم فدى فادحة ، فدفعت بعد عناء ، وأطلق سراح سان ماييل وزملاؤه ، وأذكى الحادث حماسهم وسخطهم ، وذاعت قصة أسرهم ، وما يعانیه الحاج من شر المسلمين وعدوانهم . فهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوبون ، (أوبيفون) ، وانتز فرصة الحجاسة العامة وجمع حوله كثيراً من المقاتلة ، وبنى حصناً في سترون على مقربة من حصن كان يملكه المسلمون ، ولبت يتحين الفرصة لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم ، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب ، فتمت الخيانة ، وباغت النصارى المسلمين في حصنهم ، وقضوا عليهم قتلاً وأسراً (سنة ٩٧٢ م) .

وفي الوقت نفسه التف النصارى في دوفينه حول زعيم يدعى جيوم ، وهاجموا المسلمين في جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم في كل ناحية ، وبذا انهارت سيادتهم في دوفينه ، ولم تبق إلا في بروفانس . ولما قوى جيوم وكثر جمعه ، بسط نفوذه

على بروقانس وتلقب بألقاب الإمارة ، واعتزم أن يخرج المسلمين نهائياً من تلك الأرض . فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى المسلمون أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام إلى البسيط في صفوف مترابطة ، ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة في «تورتور» فهزم المسلمون وارتدوا إلى قلاعهم ، ولا سيما «فراكسنيه» التي غدت ملاذهم الأخير ، فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضيقوا الحصار عليهم ، فحاولوا الفرار تحت جناح الليل إلى الغابات المجاورة ، ولكن النصارى لحقوا بهم وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً ، وأبقى على من استسلم وعلى المسالمين الذين كانوا يحترفون الزرع في الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق البحر ، وتنصر كثير منهم ، وبقي نسلهم في تلك الأرض زمناً طويلاً .

وهكذا سقط حصن فراكسنتم أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م ، بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية في غاليس ، وقسمت أسلاب العرب وأرضهم بين السادة والهند ، الذين اشتركوا في هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب في تلك الأنحاء .

أما المستعمرات الإسلامية التي كانت مبعثرة في آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت في نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية . ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت في معاقلة نحو جيل آخر حتى تولى مطاردتها زعيم يدعى جيرولدوس . وعلى أي حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة المسلمين في غاليس وسويسره ، ولم يجب أحد في إفريقية والأندلس صريخ الغوث ، الذي وجهه أولئك المستعمرون البواسل إلى إخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون .

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية في تلك المياه . ففي سنة ١٠٠٣ م سارت حملة بحرية من مسلمي الأندلس ، ونزلت بحوار أنتيب في جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضي المجاورة . وفي سنة ١٠١٩ م نزلت حملة مسلمة أخرى في ظاهر أريونة وحاولت أن تستولى عليها ، ولكنها هزمت ومزقت . وفي سنة ١٠٤٧ م هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة إلى الغرب من مرسليليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر في ذلك الحين زعيم أندلسي جرىء هو مجاهد العامري

أحد أمراء الطوائف ، وصاحب ثغر دانية والجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار في أسطوله إلى مياه كورسيكا وسردانية ، وغزا سردانية واحتل بعض أنحاءها (سنة ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م) ، ولكن النصارى استردوها بعد قليل (١) . ولبت مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية «موسيتو» أو «موجيتوس» مدى حين سيد هذه المياه ، يبث فيها بحملاته الرعب والروع .

تلك هى قصة الغزوات الإسلامية فى غاليس وبلاد اللونبارد وسويسره ؛ وهى قصة تغفل الرواية الإسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ، ولكنها تشغل فراغاً كبيراً فى الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة . وهذه الروايات هى عمدتنا فيما ننقل من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة فى كثير من المواطن ، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نبين منها ، أهمية الدور الذى قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون ، فى تلك الوهاد والآكام النائية ، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور :

والآن فلنحاول أن نستعرض طرفاً من العوامل والظروف التى أحاطت بتلك الغزوات الإسلامية النائية ، وطرفاً من الآثار التى خلفتها فى البلاد والأمم التى كانت ميداناً لها .

ينكر بعض مؤرخى الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والإسلامية بوجه عام ، خاصة الاستقرار والإنشاء ، ويقولون إنها كانت فى الغالب حملات ناهية ، تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم . ولا ريب أن ظمناً المغنم وشغف المغامرة ، وما إليها من لذه الاستكشاف والسيادة ، كانت من أهم العوامل التى قامت عليها هذه الغزوات ، وتلك هى العوامل الخالدة التى تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور . ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل ، كانت تحفزهم الحاسة الدينية ، وفكرة الجهاد فى سبيل الله . وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل فى الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف

(١) ابن خلدون ؛ المقدمة ص ٢١٢ .

الحكومات والأمم الإسلامية التي تنتمي إليها . وكانت تؤدي إلى تلك الحكومات خدمات جليلة ، بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية ، وإضعاف جيوشها ومواردها . ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والإنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعماري القوي الذي دفع الأمم الغربية في العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها^(١) . وقد استقروا بالفعل واستعمروا ، حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبيل البقاء ، كما فعلوا في إقريطش (كريت) ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها زهاء قرن وثلث قرن (٨٢٧ - ٩٦١ م) ، ونشروا بها الإسلام والحضارة الإسلامية . وكذلك استقروا مدى حين في بارى وفي تارنت من ثغور إيطاليا الجنوبية وفي راجوزا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ؛ وكان لهم على شواطئ قلورية (جنوبي إيطاليا) مستعمرة زاهرة لبثت تستطع في هذه المياه عصراً .

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً ، في تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات الإسلامية ، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك . ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب ، لم تكن خاصة بالغزوات الإسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ، ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضي الإسلامية أقل عنفاً وسفكاً . ويكفي أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التي لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الإسلامية أروع صنوف الدمار والسفك ، بل يكفي أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعث الاستعمارية الحديثة ، الإسبانية والإنجليزية والفرنسية ، في الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوربية « المتمدنة » من الجرائم المروعة في إفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار .

* * *

والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الإسلامية في هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لا تكاد ترى اليوم ، ولا يشعر بها إلا الباحث المنقب . ويلاحظ أولاً أن الفتوحات العربية الأولى في غاليس وأكوتين لم يطل أمدتها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الإسلامية في اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التي فصلنا أخبارها ، والتي كانت

أقرب إلى المغامرة المؤقتة ، منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الإستقرار والعمل السلمى ، لأنهم كانوا فى مراكزهم النائية متفرقين ، يشغلون قبل كل شئ بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة وهذه المستعمرات الإسلامية النائية ، خلفت وراءها فى الأراضى المفتوحة بعض الآثار المادنة والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضى على شواطئ خليج سان تروبيه من أطلال الحصون العربية القديمة التى كانت قائمة فى تلك الأرض ، والتى ما تزال قائمة فى بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية ، وهى تدل على ما كان للغزاة من الخدق والبراعة فى فن التحصينات والمنشآت الحربية . وهناك فى جنوب فرنسا وفى بعض أنحاء إيطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربنى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية . ويرى البعض أن هذه الأبراج هى آثار عربية من مخلفات الغزاة كانت تبني لعقد حلقات الاتصال ، وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم . ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى فى سبانيا أعنى منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون فى الأراضى المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى « بالرباط » . بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأراضى المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ، ليستعينوا بها على رد الغزاة .

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (المداليات) فى أنحاء كثيرة من لانجدوك وبروفانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب والمسلمين ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل إسماً ولا تاريخاً ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع إلى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً فى العهد الأخير فى منطقة تور سيوف ودروع قيل إنها عربية ، من مخلفات الموقعة الشهيرة التى نشبت فى تلك السهول بين العرب والفرنج فى سنة ٧٣٢ م (موقعة بلاط الشهداء) .

ومن الحقائق التى لا شك فيها أثر المسلمين فى الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم ، واستقروا فى تلك الأراضى وزرعوها ، ومن المعروف أن العرب حولو وديان اسبانيا المحدبة ، إلى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا

إليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة . وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون إلى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الأنحاء . ويقال إن « القمح الأسمر » الذي هو الآن من أهم محاصيل فرنسا إنما هو من المخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره ، وكانوا أول من زرعه بفرنسا ، والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فسائل النخيل من اسبانيا وإفريقية إلى شواطئ الريفييرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج « القطران » التي تطلّى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروقانس ، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة ، وما زال اسمه الفرنسي Quitran ينم عن أصله العربي .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً ، فضل العرب في تحسين نسل الخيول في تلك الأنحاء ، وما يزال في جنوب فرنسا جهات تشتهر بجبال خيولها ونبل أرومتها ، ولاسيما في « كاماراج » في مقاطعة « لاند » من أعمال غسقونية ، ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الحميلة ، إنما هي من سلالة الخيول العربية ، التي أحضرها الفرسان المسلمون معهم إلى تلك الأنحاء .

ولا ننسى ما للدم العربي من أثر في بعض أنحاء جنوب فرنسا . فقدر رأينا أن المسلمين أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية ، وتزوجوا من نساء تلك الأراضي وتناسلوا فيها . ولما تغلب عليهم النصارى وأخرجوا نهائياً من تلك الأراضي ، تنصر كثير منهم ممن أسروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرههم بالتنصر ، وقد لبث أبناء أولئك المسلمين المتنصرين عصوراً في تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا في المجتمع النصراني ، واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية والإسلامية .

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فإنه يلاحظ في بعض جهات بروقانس التي استقر فيها المسلمون مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص يظن أنها ترجع إلى أصل عربي . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية في جنوب فرنسا ، يبدو في تطور الحركة الفكرية في العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم في تكوين النزعة الشعرية في الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً في الحركة الأدبية التي تعرف بحركة « التروبادور » Troubadour التي ظهرت في جنوبي فرنسا ، وفي شمال اسبانيا وشمال إيطاليا ، منذ القرن الحادي عشر

الميلادى ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعماءها فرسان شعراء وفنانون . أضف إلى ذلك أن تأثير الحضارة الإسلامية في سير الحضارة الأوربية ، لم يقف عند هذا العصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلاً بين مسلمى الأندلس والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية في تطورها العقلى والاجتماعى أعظم الآثار .

وقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية في فرنسا ، تثير مدى القرن الثامن في نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها الرواية الكنسية المعاصرة في أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر وغزت فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيهم وسفكهم أهوالاً لا تذكر بجانبها أهوال الغزوات الإسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب وأضحيت تقترن بكل ما هو عظيم ضخماً^(١) ، وفي ذلك يقول المستشرق رينو : «إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لا توجد إلا في الكتب . ولكن ما السر في أن ذكرى العرب ما زالت ماثلة في جميع الأذهان . لقد ظهر العرب في فرنسا قبل النورمان والمجر ، واستطالت إقامتهم بعد الغزوات النورمانية والمجرية ، وإن غزوات العرب الأولى ليطلعها طابع من العظمة ، حتى أننا لا نستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك لأن العرب^(٢) دون النورمانيين والمجر ، ساروا مدى آمامد في طليعة الحضارة ، ثم أنهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا موضع الروع في شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك التى اضطلعوا بها أيام الصليبيين في اسبانيا وإفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم بهاء جديداً ، بيد أن هذه العوامل كلها قد لا تكفى لتعليل المكانة العظيمة التى يتبوأها الاسم العربى في أوربا وفي أذهان المجتمع الأوربى . أما السبب الحقيقى لهذه الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية في العصور الوسطى ، وهو أثر لا يزال ملموساً إلى يومنا»^(٣) .

(١) Reinaud : ibid ; p. 310

(٢) يلاحظ أن كلمة « العرب » هنا يجب أن تفهم بأوسع معانيها ، فالمقصود بها هنا « انغزاة المسلمون » . ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى تغيض الصبغة العربية عن هذه الفتوحات ، وتعدو فتوحات إسلامية ، ينضوى تحت لوائها العرب وغيرهم من أبناء المجتمعات الإسلامية ، التى قامت في إفريقية واسبانيا .

(٣) Reinaud : ibid ; p. 311—312 . وقد اعتمدنا على مؤلف هذا العلامة في كثير من

هذه الملاحظات الخاصة بآثار العرب (المسلمين) في جنوب فرنسا .

الكتاب الثاني
الدولة الأموية في الأندلس

القسم الرابع

ربيع الخلافة الأندلسية

٣٥٠ - ٥٣٧٠ : ٩٦١ - ٩٨٠ م

الفصل الأول

الحكم المستنصر بالله

خلافة الحكم المستنصر . تنظيم البيعة له . عنايته بتوسيع المسجد الجامع . تحريك أمير قشتالة . وفود أردونيو الرابع على الحكم . وصف حفل استقباله . سفارة سانشو . وفاة أردونيو . تحالف الملوك النصارى . خروج الحكم إلى الغزو . استيلاء المسلمين على شنت إشتين . إفتتاح قلهرة . استرداد حصن غرماج . عناية الحكم بتعزيز الأسطول . ظهور النورمان في المياه الغربية . مقاومة المسلمين وارتداد النورمان . عود النورمان إلى المياه الغربية ثم انسحابهم . قرطبة تغدو مركز التوجيه في شبه الجزيرة . وفود الملوك النصارى وسفاراتهم على قرطبة . حوادث المغرب . انحلال دولة الأدارسة . أميرهم الحسن بن كنون . طاعته للناصر والحكم . مسير بلكين نائب المعز الفاطمي إلى قتال زناته . ولاء زناته لبني أمية . غزو بلكين لأراضهم . هزيمة زناته . نكث الحسن بن كنون . الحكم يرسل جيوشه إلى المغرب . هزيمة الحسن وفراره . عوده إلى القتال . هزيمة جند الأندلس . الحكم يرسل كبير قواده غالباً في جيش ضخيم . غالب يطارد الحسن ويرغمه على التسليم . التجاء الحسن إلى قرطبة . وصف لصفاته . مغادرته قرطبة إلى مصر . اعتداء صاحب قشتالة على الأراضى الإسلامية . مولد ولي العهد هشام . الحكم العالم . شغفه باقتناء الكتب . المكتبة الأموية الكبرى ودور الحكم في إنشائها . ذبوع الشغف باقتناء الكتب . جامعة قرطبة . تشجيع الحكم للعلماء . تقدير النقد الحديث لهذه النزعة العلمية . المكتبات العامة بالأندلس . أخذ البيعة لولي العهد الطفل . تعليق ابن حيان على ذلك . وفاة الحكم . ورعه وخلاله . الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي . هديته إلى الحكم . القائد غالب الناصرى . تكوين المجتمع الأندلسي في هذا العصر . الأرستقراطية الأندلسية . المولدون . طبقة الرقيق . النصارى المعاهدون . اليهود . نفوذهم وازدهارهم العلمى .

طويت بوفاة عبد الرحمن الناصر ، ألمع صفحة في تاريخ اسبانيا المسلمة ،
وتاريخ الخلافة الأندلسية .

استقرت الخلافة الأندلسية في عهد الناصر ، على أسس ثابتة ، وسحقت ثورة المولدين والعرب ، بعد أن كادت تقضى على ملك بني أمية ، وعلى صرح الدولة الأندلسية كلها ، ورد النصارى الإسبان إلى عقر دارهم ، فسكنوا وجلين منتظرين ، وتمتعت الأندلس بعهد من السلم والاستقرار والرخاء ، لم تعرفه من قبل ، ووصلت رقعة الوطن الأندلسي إلى أعظم ما وصلت إليه ، إذا استثنينا عهد الفتح الأول . وهكذا كان عصر الناصر بالنسبة للأندلس ، ذروة عصورها ، قوة وعظمة ومجداً .

وخلف الناصر أكبر ولده الحكم المستنصر بالله بعهد منه ، وكان الناصر قد آثره منذ حداثته على سائر إخوته وولاه عهده^(١). وقيل إنه أخذ له بيعة العهد وهو طفل لم يجاوز الثامنة . وبويع الحكم في اليوم التالي لوفاة أبيه ، في الثالث من رمضان سنة ٣٥٠ هـ (اكتوبر ٩٦١ م) ، وكان الحكم يومئذ في نحو الثامنة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده بقرطبة في جمادى الآخرة سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م)^(٢) وأمه أم ولد تدعى مهرجان . وأخذت البيعة للخليفة الحديد في قصر الزهراء . وجلس الحكم على سرير الملك في البهو الأوسط الذهبي ، واجتمع إخوته ، وسائر الوزراء ورجال الدولة ، وأكابر الفتيان الصقالبة ، ومن دونهم من رجال الخاص ، وأهل الخدمة ، وأكابر الحند ، انتظموا جميعاً وفق مراتبهم في المجلسين الشرقي والغربي ، وفي مختلف الأروقة ، وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الحند ، فيما وراء باب السدة ، صفوفاً متصلة حتى باب المدينة . ولما تمت البيعة ، أذن للناس في الانصراف ، إلا الإخوة والوزراء ورجال الخاصة ، فإنهم لبثوا بالقصر ، حتى احتمل جسد الخليفة الذهاب (الناصر) إلى قصر قرطبة ليدفن هنالك في مقبرة القصر^(٣) .

ولم يكن الحكم حين ولايته ، محدثاً في شئون الملك ، بل لقد مارسها في حياة أبيه ، وكثيراً ما ندبه أبوه لمباشرة المهام والشئون الخطيرة ، فكان عند جلوسه أميراً مكتمل النضج والخبرة .

واستهل الحكم عهده بالنظر في توسيع المسجد الجامع ، وأصدر بذلك مرسومه في اليوم التالي للجلوس . وكان المسجد الجامع قد ضاقت جنباته بمجموع المصلين ، فتقرر توسيعه من الناحية الشرقية على طول الجامع من الجنوب إلى الشمال حتى صحته . وبلغت الزيادة نحو مساحة الجامع ، فتضاعف بذلك حجمه . وابتنى الحكم محرابه الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام ، وعملت له قبة فخمة زخرفت

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (المطبوع ببيروت سنة ١٩٥٦) ص ٤١ .

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٧ ، والحلة السيرة لابن الأبار ص ١٠٢ .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ١٨١ .

بالفسيفساء البديعة . وأرسل قيصر قسطنطينية رومانوس الثاني إلى الحكم منها قدراً كبيراً ، كما أرسل إليه أستاذاً خبيراً بأعمال الفسيفساء . وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لها قبة على الطراز البيزنطي . وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد . وتشغل زيادة الحكم في الجامع اليوم قسمة الأوسط ، الواقع بين الجناح القديم ، الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل وزاد فيه عبد الرحمن الأوسط - والجناح الذي أنشأه الحاجب المنصور ، وهو يشغل نحو ثلث المسجد من الناحية الشرقية (١) .

ولم يمض سوى قليل ، حتى بدت من الأمراء النصارى نزعة إلى العدوان . وكان الناصر قبيل وفاته قد عاون سانشو الأول (شانجه) ملك ليون ابن أردونيو الثالث بالمال والجند على استرداد عرشه ، وفر ابن عمه ومنافسه أردونيو الرابع مهزوماً إلى برغش (سنة ٩٦٠ م) ، واشترط الخليفة ثمناً لهذا العون ، أن يهدم النصارى بعض حصون الحدود ، وأن يسلموا عدداً آخر منها إلى المسلمين . فلما توفي الناصر بعد ذلك بقليل ، نكث سانشو بالعهد ، وأبى تنفيذ ما وعد . ومن جهة أخرى فقد ظهر عامل جديد في عدوان النصارى . وذلك أن قشتالة ، وقد كانت يومئذ ولاية من ولايات ليون ، كانت تنزع إلى الاستقلال ، وكان زعيمها الكونت (القومس) فرنان كونثال^(٢) رجلاً مقداماً يلتف حوله مواطنوه ، فنار على سانشو ، وأعان استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً عليها ، وأخذ يغير على أراضي المسلمين المحاورة . وهي مما يلي غرب الثغر الأعلى . وشمال الثغر الأوسط ، وانضم إليه كثير من النصارى المتعصبين . فما بذلك جيشه واشتد بأسه . وكان الكونت يطمح إلى توسيع أملاكه ، ويعتمد على مناعة قلاع الواقعة على الحدود . وقد أغضى الحكم في البداية عن هذا العدوان مؤثراً الاعتصام بالناسم ، ولكنه لما رأى تمادى النصارى في بغيهم ، أخذ في التأهب للحرب ، وأنفذ الكتب إلى سائر الولاة والقواد ، بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد في سبيل الله .

وكان أردونيو الرابع الملك المخلوع ، قد لجأ إلى الحكم ليعاونه على استرداد

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٢) ويسميه ابن خلدون « فردلند القومس » (ج ٤ ص ١٤٤) وفي مكان آخر فردلند بن غند شلب (ج ٤ ص ١٨٠) . ورود اسمه في أعمال الأعلام « فران غنصالص » وهو أكثر مطابقة للاسم القشتالي (ص ٣٧٥) .

عرشه . وتفويض الرواية الإسلامية في وصف مقدمه على قرطبة ، ومثوله بين يدي الخليفة ، فتقول لنا إن أردونيو وفد على قرطبة في عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، ومعهم غالب الناصري مولى الحكم وصاحب مدينة سالم ، وذلك في آخر صفر سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) . وتلقاهم الوزير هشام المصنفي في قوات كثيفة من الجند . فلما دخلوا قصر قرطبة ، ووصل أردونيو إلى ما بين باب السدة وباب الحنان ، سأل عن مكان مدفن الناصر ، فأشير إليه في الروضة بداخل القصر ، فسار إليه وخلع قلنسوته وانحنى أمامه خاشعاً . وأنزل أردونيو وصحبه في دار الناعورة الفخمة ، وبولغ في إكرامهم . وبعد يومين استدعاهم الحكم إلى قصر الزهراء . وقد حشدت قوات عظيمة من الجند ، وبولغ في الاحتفال بالزيينات وإظهار الأساحة والعمد . وجلس الحكم فوق سرير الملك في المجلس الشرقي . ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر ، وجيء بأردونيو وأصحابه . ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس . فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة وقد بهروا بما رأوا ، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة ، وأجاسوا برهة في بهو الانتظار . ثم استدعوا للمثول بين يدي الخليفة ، فسار أردونيو ومن ورائه أصحابه ، فلما وصل إلى المجلس الخلافي كشف رأسه وخلع برنسه . ولما دنا من سرير الحكم سجد أمامه ثم قبل يده . ثم ارتد راجعاً إلى كرسي من الديباج المثقل بالذهب . وتولى الترجمة بين أردونيو والخليفة ، وليد بن خيزون قاضي الديمة بقرطبة ، وأعرب الحكم عن سروره وترحيبه بمقدم أردونيو ، ووعد برعايته . وبسط أردونيو قضيته ، وشكا مما أنزله به خصمه سانشو ، مع أن الشعب كان قد آثره باختياره ، ولكن خصمه لحاً إلى الخليفة الراحل واستجار به ، فأغاثه ونصره عليه ، ومع ذلك فقد قصر في الوفاء بعهوده ، وأنه يضع نفسه وبلاده وشعبه . تحت رعاية الخليفة وأنه يتعهد بمحاربة الإسلام ، ومقاطعة صهره فردلند التومس أمير قشتالة ، ويقدم ولده غرسية رهينة بصدق وفائه (١) . وهنا وعده الخليفة بعودته ونصرته في تملكه ما كان له . وانصرف أردونيو بعد الشكر والتحية ، وخرج من المجلس وقد بهره وأذهله ما رأى من آيات الفخامة والسطان . وقدم إليه الحاجب جعفر الهدايا التي أمر بها الخليفة له ولأصحابه . وألقى الخطباء والشعراء

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

خطبهم وقصائدهم ، منوهين بروعة هذا اليوم المشهود . فن ذلك قول عبد الملك ابن سعيد المرادى من قصيدة :

ملك الخليفة آية الإقبال وسعوده موصولة بنوال
والمسلمون بعزة وبرفعة والمشركون بذلة وسفال
ألقت بأيديها الأعاجم نحوه متوقعين لصولة الرئبال
هذا أميرهم أتاه آخذاً منه أواصر ذمة وحبال
متواضعاً لجلاله متخشعاً متبرعاً لما يرع بقتال^(١)

فلما نعى إلى سانشو ما وعد به الخليفة خصمه ومنافسه ، خشى عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم وفداً من الأكابر والأجبار ، يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن يقوم بتنفيذ ما تعهد به للناصر من تسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود وهدم البعض الآخر^(٢) . ولكن أردونيو ما لبث أن توفى ، وعاد سانشو إلى نكته بعد أن أمن شر منافسه . وهنا شعر الأمراء النصارى بخطورة أهبة المسلمين العسكرية ، وأدركوا أن لا بد لهم من الإتحاد جميعاً ، لكي يستطيعوا مواجهتهم . وهكذا عقد التحالف بين سانشو ملك ليون ، وخصمه الكونت فرنان أمير قشتالة ، وغرسية سانشيز ملك نافار ، وكونت برشلونة ، وتأهب الجميع للدفاع المسلمين .

وفى صيف سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) خرج الحكم إلى الغزو ، معلناً الجهاد ، واجتمعت إليه الجيوش فى طليطلة ، فسار محترقاً جبال وادى الرملة إلى أراضى قشتالة ، وأشرف على قلعة شنت إشتين المنيعة^(٣) فحاصرها المسلمون ، واستولوا عليها . وعبثاً حاول الكونت فرنان كونثالث ، أن يقف فى سبيل المسلمين ، واجتاح المسلمون أراضيه ، ومزقوا قواته ، حتى أذعن إلى طلب الصلح ، ولكنه نكث عهده ، فهاجمه المسلمون كرة أخرى ، واستولوا على بلدة أنتيسة الحصينة^(٤) .

(١) أورد لنا المقري (عن ابن حيان) عن هذه الزيارة تفاصيل مسببة (راجع نفع الطيب ج ١ ص ١٨١ - ١٨٤) . ولخصها ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٥) . وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ . وأنتيسة هى Atienza

وأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة يحيى بن محمد التجيبى حاكم سرقسطة فى اتجاه ناغار . وكان ملكها غرسية سانشيز ، قد أغار على الأراضى الإسلامية ناكثاً لعهدہ ، وهرع حليفه سانشو ملك ليون فى قواته لإنجاده ، ونشبت بين الفريقين وقعة هزم فيها النصرى وامتنعوا بالجلال . وفى نفس الوقت سار القائد غالب مولى الحكم فى جيش قوى إلى مدينة قلهرّة ، من قواعد ناغار الغربية ، فافتتحها ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدة ، وكان فتحاً عظيماً . وسار حاكم مدينة وشقة فى قواته شمالاً نحو أراضى ناغار مما يلي جبال البرنيه ، واستولى على حصن يبه^(١) واجتاح تلك المنطقة ، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية^(٢) . واستغرقت هذه الفتوح والغزوات العظيمة ، الصائفة فى سنتى ٣٥٢ و٣٥٣ هـ (٩٦٣ - ٩٦٤) .

ويروى لنا ابن خلدون قصة غزوة إسلامية أخرى فى أراضى قشتالة - فيقول لنا إن غالباً سار إلى بلاد ألبه ، ومعه يحيى بن محمد التجيبى ، وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فاستولى على حصن غرماج Gormaz . ويضع ابن خلدون تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) . وتقع قاعدة « غرماج » الحصينة على نهر دويرة على مقربة من شنت إشتين . وكان الناصر قد انتزعها من النصرى فى سنة ٩٤٠ م . والظاهر أن القشتاليين بقيادة فرنان كوثالث ، كانوا قد استولوا عليها فيما استولوا عليه من قواعد الحدود ، قبل أن يخرج الحكم إلى الغزو ، فاستردها المسلمون فى صائفة سنة ٣٥٣ هـ ، أو فى الصائفة التالية ، وقاموا بتحسينها لمدافعة القشتاليين فى هذه المنطقة^(٣) .

وتشير الرواية الإسلامية فوق ذلك إلى غزوات ناجحة أخرى ، قام بها المسلمون فى أراضى قشتالة فى سنتى ٣٥٥ و٣٥٦ هـ ، بيد أنها لا تقدم إلينا شيئاً عن تفاصيل تلك الغزوات^(٤) .

وفى سنة ٣٥٣ هـ وقعت بالعاصمة الخلافية مجاعة عظيمة ، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين فى سائر أرباض قرطبة والزهاء ، من النفقة ما يكفل أقواتهم ويسد عوزهم .

(١) وبالإسبانية Yerba .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

وكانت حوادث المغرب الأقصى (وسوف نتحدث عنها بعد) ، وما يتهدد الأندلس من جراء مشاريع الفاطميين وأشياعهم في تلك المنطقة ، مما يشغل حكومة قرطبة ، ويحفزها دائماً إلى اليقظة والتأهب ، وكان من أثر ذلك أن قصد الحكم في شهر رجب سنة ٣٥٣ إلى ثغر المرية (سبتمبر سنة ٩٦٤) في جماعة كبيرة من الرؤساء والقادة ، ليشرّف بنفسه على أعمال التحصين الحارية فيها ، وليتخذ ما يجب لتجديد الأسطول وتعزيزه . وكانت المرية أعظم قواعد الأسطول الأندلسي ، وكانت سفنه الراسية بها يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة (١).

بيد أنه لم يمض قائل ، حتى جاء الخطر يتهدد الأندلس من ناحية أخرى . ففي أواخر سنة ٣٥٥ هـ (٢) (أواخر سنة ٩٦٧ م) ظهرت سفن النورمان أو المحجوس في مياه الشاطئ الغربي قبالة ولاية الغرب .

وكان النورمان قد ظهروا في مياه الأندلس لأول مرة في سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣ م) أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وبدأت حكومة قرطبة تعنى بشأن الأسطول ومضاعفة أهبتها البحرية من ذلك الحين . وكان أولئك الغزاة النورمان في هذه المرة من أهل داتماركة المحجوس ، ويقودهم رتشارد الأول دوق نورماندى ، وحفيد زعيمهم الكبير رولو . وكانت عدة أسطولهم ثمانية وعشرين مركباً . ونزل الغزاة على مقربة من بلدة قصر أبي دانس (٣) ، وعاثوا في تلك المنطقة ، ثم زحفوا شمالاً إلى بسائط أشبونة الغنية اليانعة ، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً ، واجتمع المسلمون في تلك المنطقة لقتالهم . ونشبت بينهم وبين الغزاة موقعة دامية قتل فيها كثير من الفريقين . وفي تلك الأثناء خرج أسطول إشبيلية من نهر الوادى الكبير بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس وسار على عجل إلى شاطئ البرتغال الجنوبي ، وكان الغزاة قد انحدروا عندئذ جنوباً ثم شرقاً بمحاذاة الشاطئ ، ووقع اللقاء بين سفنهم وبين سفن المسلمين عند مصب نهر شلب . فحطم المسلمون عدة من سفن الغزاة ، وأنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، وقتل كثير من النورمان ، وارتدوا منهزمين عن تلك المياه ، بيد أن سفنهم لبثت تجوس خلال المياه الغربية ، والمسلمون لهم بالمرصاد أينما ظهروا . وأمر الحكم زيادة في التحوط أن تحشد بعض

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ ، والإحاطة ج ١ ص ٤٨٧ .

(٢) ويذكر ابن خلدون أنها كانت سنة ٣٥٤ هـ (ج ٤ ص ١٤٥) .

(٣) وهى بالإفريقية Alcacer do Sal

سفن الأسطول الصغرى فى نهر الوادى الكبير تجاه قرطبة ، وترتيبها على هيئة
مراكب النورمان^(١) ، وذلك خشية أن يتسرب الغزاة بطريق النهر إلى العاصمة ،
كما فعلوا حينما هاجموا إشبيلية فى غزوتهم الأولى .

ولم تمض بضعة أعوام على ذلك ، حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال
المياه الغربية (٣٦٠ - ٩٧١ م) مرة أخرى ، وتهدد شواطئ ولاية الغرب
الغنية . فأمر الحكم بتسيير الأسطول من ألمرية ومن إشبيلية ، واجتماع قوى
الأندلس البحرية كلها لمواجهة الغزاة^(٢) . بيد أنه لم تقع فيما يبدو ، أية معارك
هامة بين المسلمين والغزاة . والظاهر أنهم ارتدوا من تلقاء أنفسهم لما رأوا من
تفوق قوى المسلمين .

وفى خلال ذلك كانت قرطبة تغدو شيئاً فشيئاً ، مركز التوجيه فى شبه الجزيرة
الإسبانية كلها ، وتغدو كعبة لملوك اسبانيا النصرانية ، يفدون إليها تبعاً ، يقدمون
إليها عهود الطاعة ، ويلتمسون منها الصداقة والعون . وقد بدأ تقاطر هذه الوفود
والسفارات من سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) واستمر عدة أعوام . ويجدر بنا قبل
التحدث عنها ، أن نشير إلى ما وقع من تغييرات فى الإمارات والممالك النصرانية .
فقد توفى سانشو ملك ليون مسموماً فى سنة ٩٦٦ م . وخلفه ولده الطفل راميرو
الثالث ، تحت وصاية عمته الراهبة إلييرة ، وكان من أثر ذلك أن وقع التفكك فى
مملكة ليون ، وأعلن عدة من الزعماء المحليين استقلالهم . وتوفى الكونت فرنان
كونثالث أمير قشتالة فى سنة ٩٧٠ م ، وخلفه ولده غرسية فرناندز . وتولى عرش
نافار سانشو غرسية الثانى ، بعد وفاة أبيه غرسية سانشير .

وكان أول الوافدين على قرطبة من أمراء النصارى أمير جليقية ، وأمير
أشتوريش ، (الأسترياس) . ثم وفدت رسل سانشو غرسية ملك نافار ، وهم
جماعة من القوامس والأساقفة يسألون الصلح ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا .

ووفدت فى نفس الوقت سفارة من أمير برشلونة الكونت بوريل ، وطلبت
تجديد المودة والصداقة (٩٧١ م) . ووفدت الراهبة إلييرة الوصية على ملك
ليون راميرو الثالث ، فقبلت فى قرطبة بمظاهر الترحاب والتكريم ، واحتفل

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٧ .

الحكم باستقبالها في يوم مشهود ، وعقد السلم لملك ليون تحقيقاً لرغبتها ، وأغدق عليها الهدايا والصلوات « وحملت على بغلة فارهة بسرج ولحام مثقلين بالذهب ومأخفة ديباج »^(١) . ومما هو جدير بالذكر أنه قام بالترجمة يومئذ بين الخليفة الحكم ، وبين سفراء أولئك الأمراء والملوك النصارى ، قاضى النصارى وأسقفهم بقرطبة ، عيسى بن منصور ، وقومس أهل الذمة ، معاوية بن لب ، ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم . وكانت لغة النصارى الإسبانية يومئذ هي اللغة الرومانية Romance أو « اللاتينية » ، وهى التى تطورت فيما بعد إلى اللغة القشتالية^(٢) .

ووفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة ، وفرنان لينيز كونت شلمنقة وغيرهما . وفى سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) وفدت سفارة جديدة من سانشو غرسية ملك نافار ، ومن الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون . وكان جل هذه الزيارات والسفارات من أمراء اسبانيا النصرانية ، يقصد إلى عقد السلم والمودة مع خليفة الأندلس ، وأحياناً إلى تقديم الطاعة وطلب العون .

هذا وقد وردت إلى الخليفة رسالة ودية من يوحنا زيمسكى (الدمستق) قيصر قسطنطينية فى سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) ، ورسالة أخرى فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) من إمبراطور ألمانيا أوتو الثانى الذى خلف أباه أوتو الأول ، وفيها يحدد علائق المودة التى كانت بين أبيه وبين الناصر .
ويعلق العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال على ذلك بقوله : « وصلت الخلافة الأندلسية فى ذلك العصر إلى أوج روعتها ، وبسطت سيادتها السلمية على سائر اسبانيا ، وكفلت بذلك السكينة العامة » .

* * *

وفى ذلك الحين حدثت بعدوة المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر حوادث هامة ، شغلت الحكم ، وكدرت صفو السلام السائد فى مملكته . وقد سبق أن أشرنا إلى غزو الناصر لدين الله لثغر سبته ، وعبور جيوشه إلى المغرب لمقاومة جهود الفاطميين فى السيطرة عليه ، ومحاربة الأدارسة أمراء المغرب وحلفاء الفاطميين ، ومطاردتهم ، حتى أذعنوا فى النهاية إلى طلب الصلح ، والاعتراف

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

(٢) R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 421

بطاعة الناصر (سنة ٣٣٢ هـ - ٩٤٣ م) ، وقيام الدعوة المروانية بالمغرب منذ ذلك الحين .

وكانت دولة الأدارسة ، قد تقلصت في ذلك الحين ، عن معظم أنحاء المغرب الجنوبية والوسطى ، وارتدت إلى منطقة الريف الشمالية ، ما بين غربي بحر الزقاق والمحيط ، وجعلت قاعدتها بعد انقراض أمرهم في فاس ، في قاعة حجر النسر المنيع ، الواقعة في جنوبي تطوان . ولم تكن مع ذلك دولة مستقلة بمعنى الكلمة ، إذ كانت تنضوي تحت لواء المتغلب على المغرب ، سواء من العبيديين (الفاطميين) أصحاب إفريقية ، أو الأمويين أصحاب الأندلس . وكان أمير الأدارسة في أواخر عهد الناصر ، الحسن بن كنون (أو قنون) ، وهو القاسم بن محمد ابن القاسم ابن إدريس ، الذي قدر أن تنقضي على يده دولة الأدارسة بالمغرب ، وكان قد بايع العبيديين ، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلي على المغرب ، ناكثاً بذلك عهده للناصر . فلما انصرف جوهر إلى إفريقية في أواخر سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) عاد الحسن إلى طاعته لبني أمية . ولما توفي الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم المستنصر . ولم يكن ذلك سوى مصانعة ورياء ، إذ كان الأدارسة يبغضون بني أمية ، ويرقبون فرص الخروج عليهم ، ولم تكن طاعتهم لهم إلا خوفاً من بطشهم ، لوقوع مملكتهم في شمال العدو على مقربة من الأندلس .

وفي أوائل سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) سار بلسكّين بن زيري بن مناد الصنهاجي ، قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، من إفريقية غازياً إلى المغرب ، ليعيد هنالك سلطان الشيعة ، ولينتقم من قبيلة زناتة لمقتل أبيه زيري بن مناد . وكان زيري عامل الخليفة المعز وقائده على المغرب ، وكانت زناتة من القبائل المغربية القوية المخالفة للشيعة ، والمنضوية تحت لواء الأمويين . وكان من أشد خصوم الشيعة أيضاً ، جعفر ويحيى ابنا علي بن حمدون المعروف بالأندلسي ، وكان الأندلسي هذا قد استقر في «المسيلة» في المغرب الأوسط ، وبسط حكمه على تلك الناحية ، وخلفه ولده جعفر في إقطاعه ، ولكنه خشى سطوة الشيعة ، وسطوة عاملهم زيري ، ففر وأخوه يحيى مع الأهل والمال إلى المغرب الأقصى ، ولجأ إلى بني خزر أمراء زناتة الأقوياء ، وألد خصوم الشيعة وصنهاجة . وكان رسل الحكم يروجون الدعوة في زناتة وحلفائهم لمحاربة الشيعة ، ويمدونهم بالمال لحشد

الرجال والعدة ، فاجتمعت قوات بني خزر وجعفر ويحيى على قتال زيرى ، ودارت بينهما الحرب ، وانهزم الشيعة وقتل زيرى ، ومعظم رجاله ، واحتوى الزناتيون على معسكره ، وانهار بذلك سلطان الشيعة فى المغرب ، وكان ذلك فى رمضان سنة ٣٦٠ هـ . واحتز الظافرون رأس زيرى وروؤوس عدة من أكابر صحبه . وحمها جعفر ويحيى وأصحابهما إلى الأندلس ، وقدموها إلى الحكم ، فحفظوا لديه وغمرهم بعطفه وصلاته .

وكان لهذه النكبة التى حلت بجيش الشيعة وصنهاجة ، وقع عميق فى الخلافة الفاطمية . فأمر الخليفة المعز قائده يوسف بن زيرى بن مناد ، المسمى بلكين (بلقين) أن يسير فى الجيوش إلى المغرب حسبما تقدم . فسار بلكين ، وهو ينزل ضرباته المتوالية بأتباع زناتة حيثما وجدوا فى طريقه ، وكانت منهم جموع غفيرة فى المغرب الأوسط فى بجاية ، والمسيلة ، وبسكرة ، وتاهرت وغيرها ، فزققهم شر ممزق . ووصل بلكين فى قواته ، إلى المغرب الأقصى ، فى ربيع الثانى سنة ٣٦١ هـ ، واستعد بنو خزر وسائر أمراء زناتة للقائه ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، فهزمت زناتة شر هزيمة ، وانتحر أميرها محمد بن الخير حتى لا يقع فى يد عدوه ، ومزق بلكين زناتة كل ممزق ، وهدم مدينة البصرة ، وبسط سلطانه على معظم أنحاء المغرب ، وقطع دعوة الأمويين ، وحقق انتقامه لمقتل أبيه كاملاً (١) .

وسارع الحسن بن كنون ، القُلب مع كل تطور جديد ، إلى بيعة بلكين ، والانضواء تحت لوائه ، أو بعبارة أخرى ، تحت لواء سادته الشيعة . ولكن بلكين لم يمكث طويلاً بالمغرب . إذ سرعان ما استدعاه سيده المعز - وكان يتخذ يومئذ أهبطه للسفر إلى مصر ، مقر ملكه الحديد - فارتد عائداً بقواته إلى إفريقية . ووقف الحكم على تطور الحوادث بالمغرب ، فأزعجه ذلك وأهمه ، وبادر بإعداد جيش ضخم ، حسن الأهبة ، لغزو المغرب ، ومقاتلة الحسن بن كنون ، تحت إمرة قائده محمد بن القاسم بن طلمس . وعبر محمد بن القاسم فى قواته من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، فى شوال سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) ، وكان الحسن

(١) راجع مجموعة « نبد تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى » المنتخبة من كتاب « مفاخر البربر » لمؤلف مجهول ، والمنشور بمنابة الأستاذ ليقى بروثسال (الرباط سنة ١٩٣٤) ص ٥٦ ، ويرجع الكاتب هذه الواقعة إلى سنة ٣٦٠ هـ .

ابن كنون عندئذ في طنجة ، فخرج في جموع البربر لقتال جيش الحكم ، فوَقعت عليه الهزيمة وقتل كثير من أصحابه ، وفر هارباً تاركاً أهواله وعتاده بطنجة ، واستسلم أهل طنجة إلى محمد بن القاسم ، وأعلنوا طاعتهم للحكم ؛ ودخل محمد طنجة واحتلها ، وبعث إلى الحكم بفتحها . ثم طارد فلول الحسن بن كنون جنوباً حتى ثغر أصيلا ، ودخلها .

وفي تلك الأثناء كان الحسن قد جمع فلوله ، وأعاد تنظيم قواته ، وسار إلى لقاء جيش الحكم مرة أخرى ، فالتقى الجمعان في مكان يعرف بفحص مهران ؛ وهنا حالف الحسن حسن الطالع ، فدارت الدائرة على جند الأندلس ، وقتل منهم عدة كبيرة فرساناً ومشاة ، وفي مقدمتهم قائدهم محمد بن القاسم ، وكان ذلك في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ ، وفرت فلول الأندلسيين إلى سبتة فامتنعوا بها ، وبعثوا إلى الحكم يطلبون الإنجاد والغوث (١) .

عندئذ بادر الحكم بمحشد جيش جديد ، ندب لقيادته مولاه وكبير قواده غالباً بن عبد الرحمن « البعيد الصيت المعروف بالشهامة » . وأمدّه عدا الحند الكثيف ، والعتاد الضخم ، بأموال جلييلة لاستمالة القبائل ، وأمره أن يشتد في قتال الأدارسة ، وأن يستأصل شأفتهم ، وأن يطهر المغرب من كل القوى المناوئة لبني أمية . وقال له : « سر يا غالب مسير من لا إذن له في الرجوع إلا حياً منصوراً ، أو ميتاً معذوراً ، وابطسط يدك في الإنفاق ، فإن أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال » (٢) . فخرج غالب في قواته الحرارة من قرطبة في شوال سنة ٣٦٢ هـ ، وعبر البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة . وعلم الحسن بمقدمه ، وعظيم أهبطه ، فغادر مدينة البصرة ، الواقعة في الجنوب حيث كان يقيم ، ولجأ بأهله وأمواله وذخائره إلى قلعة حجر النسر ، الواقعة شمالها . ثم جمع قواته وخرج لقتال جيش الحكم ، ونشب القتال بين الفريقين أياماً ، وبث غالب في رؤساء البربر من غمارة وغيرهم من جند الحسن ، الأموال والهدايا ، فانفصلوا عنه ، واضطر الحسن أن يمتنع بمن بقي معه في قلعة حجر النسر ، فطارده غالب وضرب الحصار حول القلعة ، ووصلت إليه من الأندلس إمداد جديدة ، بقيادة الوزير يحيى

(١) راجع مجموعة « نبد تاريخية في أخبار البربر » التي سبق ذكرها ص ٨ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨ ، وكذلك « نبد تاريخية في تاريخ البربر » ص ٩ .

ابن محمد التجيبي ، ومعه جملة من المال (الحرم سنة ٣٦٣ هـ) فشاد الحصار على الحسن ، وقطع سائر علاقته وموارده ، وبث قواته في سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة واستئصال شأفهم . ونشبت بين جند الحكم وبينهم معارك عديدة ، قتل فيها الكثير منهم . وفي صفر سنة ٣٦٣ هـ استولى غالب على مدينة البصرة . وسلمها إليه أهلها ، بعد أن قتلوا نائبها الحسنى . وفي تلك الأثناء ، كان الحسن قد أجهد الحصار ، وأشرف على الهلاك ، ومن معه من أهله ورجاله ، فاضطر في النهاية إلى طلب الأمان والتسليم ، وأعان طاعته للحكم (جمادى الآخرة سنة ٣٦٣ هـ) ، ودخل غالب قلعة حجر النسر ، ودعى في مسجدها للحكم . ووصلت هذه الأنباء السارة إلى الحكم ، وأعلنها الحكم في جامع قرطبة ، بعد ذلك بأيام قلائل . وتبع غالب سائر من بقى من الأدارسة ببلاد الريف حتى استأصل شأفهم ، وقضى على دولتهم . وسار إلى مدينة فاس ودخلها ، وعين لها حاكماً من قبله ، وتم بذلك إخضاع المغرب للدعوة الأموية .

وفي أواخر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) عبر غالب البحر إلى الأندلس ، ومعه الحسن بن كنون وسائر شيعته ، من زعماء الأدارسة ، ومعهم الأهل والولد ، فاستقبل في قرطبة استقبالا عظيماً . وأنزل الأدارسة ، في الدور التي أعدت لهم بقرطبة . وعفا الحكم عن الحسن ، وأجزل لهم الأرزاق والصلوات ، وعين من حاشيتهم في ديوانه ، سبعمائة من أنجادهم . واستمر الحسن وذووه على ذلك زهاء عامين . ثم وقعت النفرة بينه وبين الحكم لأسباب منها ، «سوء خلق الحسن ولجاجته» . قال المؤرخ : «وكان الحسن بن قنون هذا جاهلاً متهوراً فظاً ، شديد الحرارة ، قاسى القلب» . ولم ينس الحكم ما كان من قسوته وقظاعته نحو جنده أيام الحرب بينهما ، حيث كان الحسن يلتقى بالأسرى من جند الأندلس من أعلى قلعته الشاخحة فيصلون إلى الأرض إرباً^(١) . وهكذا ثقل وجوده وذووه في قرطبة ؛ ومن جهة أخرى فقد كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي يتوجس شراً من وجود الحسن وصحبه ، ويستثقل نفقاتهم ، وينصح بإخراجهم من الأندلس . فرأى الحكم أن يقصمهم عن مملكته ، وأن يتخلص من نفقاتهم الباهظة ، وأن يبعث بهم إلى المشرق ؛ وهكذا أخرج الحسن وعشيرته من قرطبة ، وركبوا البحر من المرية

(١) «نبد تاريخية في أخبار البربر» ص ١٠ و ١٤ .

إلى تونس سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، ثم ساروا إلى مصر ، حيث نزلوا في كنف خليفته الفاطمي العزيز بالله ، فأكرم وفادتهم ، ووعدهم بنصرة قضيتهم ، واستقر الحسن بمصر بضعة أعوام ، حتى سنة ٣٧٣ هـ ، وعندئذ بعثه العزيز بعهد منه ، إلى باكين بن زيري بن مناد بالقيروان ، يطلب إليه إمداده وعونه ، على تنفيذ مشاريعه ، إلى أن كان من أمره ما سيجيء^(١) .

وكان غرسية فرناندز ، ولد فرنان كنتالث ، صاحب قشتالة وألبه ، قد خلف أباه في الحكم ، منذ وفاته في سنة ٩٧٠ م . وكان مثله يتبع سياسة النفاق والمصانعة ، في إظهار رغبته في السلم ، ثم يقوم في الوقت نفسه بالإغارة على الأراضي الإسلامية ، كلما سنحت الفرص . فلما شغل الحكم بحوادث المغرب ، وعبرت الجيوش الأندلسية وقوادها الأكبر ، إلى العدو ، بعث غرسية قواته ، فأغارت على أراضي المسلمين ، واقتحمت حصن دسة الواقع شمال شرق مدينة سالم ، والذي يتوسط أراضي بني عمرييل بن تيملت الثغرى . ووقع هذا الاعتداء في شهر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ (صيف سنة ٩٧٤ م) ، وأحرق النصارى الزروع واستاقوا الماشية . فخرج في أثرهم زروال ومضاء ، ولدا عمرييل ، واليا هذه المنطقة ، في أصحابهما ، واستنقذوا الماشية ، وقتلوا عدداً من النصارى ؛ ولكن النصارى تكاثروا عليهم بعد ذلك ، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها زروال . ومن الغريب أن غرسية فرناندز ، كان قبل هذا الاعتداء بقليل ، قد بعث رساله إلى قرطبة ، في طلب السلم والمهادنة ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا ؛ وما كادوا ينصرفون من قرطبة ، حتى جاءت الأنباء بما حدث من اعتداء القشتاليين ، فبعث الحكم لفوره أفلح صاحب الخيل ، في سرية من وجوه الخند ، للقبض على السفراء القشتاليين ، فهرعت في أثرهم واستطاعت أن تظفر بهم ، وأعيدوا إلى قرطبة حيث زجوا إلى السجن .

ووفد على الحكم في العام التالي ، أبناء عمرييل الخمسة بعد وفاة أبيهم ، وشهد القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن ، بحزمهم وحسن طاعتهم ، وأوصى بتقليدهم

(١) راجع في سرد هذه الحوادث المغربية : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢١٦ - ٢١٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٦ - ٨٨ . و« نبد تاريخية في أخبار البربر » ص ٦ - ١٢ .

عمل والدهم ، فقسمت بينهم الأراضي والحصون ، على رضا منهم ، وغمرهم الحكم بالخلع والصلوات (١) .

* * *

تولى الحكم المستنصر الملك ، حسبنا أسلفنا ، وهو كهل في الثامنة والأربعين من عمره ، ولم يكن إلى ذلك الحين قد أنجب ولداً ، وكان ذلك مما يثير قلقه وجزعه ، إذ كان يتوق أن يكون له وريث في الملك . ومن ثم فقد سر أياً سرور حينما ولدت له حظيته « جعفر » أو صبح الناقلية ، ولداً سماه عبد الرحمن (سنة ٣٥١ هـ - ٩٦٢ م) ، وكان مولده حادثاً خطيراً ، نوهت به الشعراء والأدباء . ولكن هذا الولد توفي طفلاً ، فحزن الحكم لفقده أياً حزن . على أن القدر لم يلبث أن حباه مرة أخرى ، إذ ولدت « جعفر » ولداً آخر سماه أبوه هشاماً فكان ولي عهده الملقب بالمؤيد . « فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه » (٢) وحضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وقت البشارة بولادته ، وأنشد هذه الأبيات :

أطلع البدر في سحابه وأطرف السيف من قرابه
وجاءنا وارث المعالي ليثبت الملك في نصابه
بشرنا سيد البرايا بنعمة الله في كتابه

وكان مولد هشام المؤيد سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) . وسرى أي دور عظيم تلعبه فيما بعد ، أمه جعفر أو صبح الناقلية ، على مسرح الحوادث .
وأما عن شخص الحكم ، فقد كان حسباً تصفه الرواية ، أبيض مشرباً بحمرة ، أعين ، أقي ، جهير الصوت ، قصير الساقين ، ضخم الجسم ، غليظ العنق ، عظيم السواعد ، أفقم (٣) .

* * *

(١) لخصنا ما تقدم من أقوال ابن حيان في قطعة مخطوطة من كتاب « المقتبس » محفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (ورقة ٣٦ و ٣٧ و ٣٩) . وراجع بحثاً في ذلك الموضوع للعلامة كوديرا عنوانه :

Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba de los últimos años de Alhakam II (B. R. A. H. Tom. XIV, 1889).

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٣ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ . والأعين هو ذو العينين السوداوين النجلوين ، والأقنى

ذو الأنف المرتفع الأعلى والمحدودب الوسط ، والأفقم أي الأعرج .

يمتاز عصر الحكم المستنصر بظاهرة ، من ألمع الظواهر في تاريخ الدولة الأندلسية ، هي ازدهار العلوم والآداب أعظم ازدهار ، وإنشاء المكتبة الأموية العظيمة ، التي كانت بضخامتها ، وتنوع محتوياتها ، من أعظم مكتبات العصور الوسطى .

ويرجع ذلك قبل كل شيء إلى شخصية الحكم نفسه ، وإلى صفاته العلمية الممتازة ، التي نوه بها أكثر من مؤرخ أندلسي ، وإلى شغفه العظيم بجمع الكتب ، وهو شغف كان له أكبر الأثر في مليء خزائن الأندلس بنفائس الكتب ، من كل فن ومن كل قطر ، من أقطار العالم الإسلامي .

وقد أشاد ابن حيان مؤرخ الأندلس - وقد عاش قريباً من عصر الحكم - بصفات الحكم العلمية ، وتقدمه في العلوم الشرعية ، وعنايته بتحقيق الأنساب وتأليف قبائل العرب ، واستدعاء رواة الحديث من جميع الآفاق ، وإيثار مجالس العلماء ، وشغفه بجمع الكتب بصورة لم يسمع بها .^(١) ويشاطره معاصره الفيلسوف ابن حزم ، هذا الإعجاب بصفات الحكم العلمية ، ويذكر لنا في أكثر من موضع من مؤلفه الجامع في الأنساب ، أنه ينقل من خط الحكم^(٢) . ويحمل ابن الخطيب هذه الصفات في قوله : « وكان رحمه الله (أى الحكم) عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماماً في معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جامعاً للكتب ، مبرزاً للرجال من كل عالم وجيل ، وفي كل مصر وأوان ، تجرد لذلك ، وتهتم به ، فكان حجة وقدوة ، وأصلاً يوقف عنده »^(٣) .

وقد انتهت إلينا تفاصيل مدهشة عن الدور العظيم الذي قام به الحكم في إنشاء المكتبة الأموية الكبرى . وكانت هذه النزعة الأموية ، إلى تشجيع العلوم والآداب وجمع الكتب ، قد بدت منذ عصر عبد الرحمن الداخل . وفي عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن كانت المكتبة الأموية بالقصر ، أعظم مكتبات قرطبة . وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق ، حتى أن قيصر

(١) الحلة السراء ، نقلًا عن ابن حيان ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٩٢ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٨٤ ، ٣٩٨ . وقد وضع الحكم بالفعل كتاباً في « أنساب الطالبين والعلويين القادمين إلى المغرب » (نفتح الطيب ج ٢ ص ٧٩) .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤١ .

قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة ، حرص على أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديستوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس . ولما توفي الناصر ، عني ولده الحكم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها ، لتكون بداية طيبة للمكتبة الأموية العظيمة ، التي أنفق بقية عمره في جمعها وتنسيقها^(١) . ويقول لنا ابن حيان في دهشة وإعجاب إنه « لم يسمع في الإسلام بخليفة . بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين ، وإيثارها والتهمم بها . أفاد على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس في طلبه ، ووصلت عطاياه ووصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية » . وكان الحكم يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر ، بالصلوات الجزيلة ، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم . ومن ذلك أنه بعث إلى أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب العين ، ليحصل منه على نسخة من كتابه « الأغاني » . فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة ، قبل أن يحصل عليه أحد في العراق أو ينسخه أحد منهم ، وأرسل إليه أبو الفرج أيضاً - وهو من ينتمون إلى المروانية بني أمية - كتاباً ألفه في أنساب قومه بني أمية ، يشيد فيه بمجدهم ومآثرهم ، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة^(٢) . وفعل الحكم مثله ذلك مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي ، إذ بعث إليه بمبلغ جليل ليحصل على النسخة الأولى من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم . وأسبغ الحكم رعايته على اللغوي الكبير أبي علي القالي ، الذي وفد من العراق على أبيه الناصر ، وقربه إليه ، وألف كتبه تحت كنفه ، وأورث أهل الأندلس علمه^(٣) . وأهدى إليه أبو عبد الله الحشني بعض كتبه ومنها كتاب « القضاة بقرطبة » ؛ وأهدى إليه مطرف بن عيسى الغساني ، كتابه المسمى بالمعارف في « أخبار كورة البيرة » . كما أهدى إليه كثير من علماء العصر مؤلفاتهم ، تيمناً برعايته للعلم والعلماء . وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد ، ولا سيما في بغداد والقاهرة ودمشق ، ينقبون له عن الكتب ، ويحصلون منها على النفيس والنادر ، كما كانت له في بلاطه طائفة أخرى ، من البارعين في نسخ الكتب ، وتحقيقها ، وتجليدها ، وتصنيفها . وبذل في هذا السبيل من الجهود والأموال ما لم يسمع به ، واجتمع لديه من نفائس

J. Ribera : *Disertaciones y Opusculos* (Madrid 1928) p. 191 & 192 (١)

(٢) الخلة السيرة - عن ابن حيان ص ١٠٢ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

الكتب فى مختلف العلوم ، ما لم يجتمع لأحد قبله . ولما ضاقت أمباء القصر الخليفى ، عن استيعاب العدد العظيم ، من الكتب الواردة إليها باستمرار . أنشأ الحكيم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة ، افتن المهندسون فى ترتيبه وتنسيقه ، وإنارة أمبائه . قال ابن حزم « ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم » وذكر لنا أن تليداً الفتى - وكان على خزانة العلوم بقصر بنى أمية بالأندلس - أخبره أن عدد الفهارس التى كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، فى كل فهرسة خمسون ورقة . ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط (١) .

وعهد الحكيم بإدارة المكتبة الأموية العظيمة إلى أخيه عبد العزيز . وعهد بالإشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها إلى أخيه المنذر ، وكان يقضى معظم أوقاته بمدينة الزهراء ، فى أمبائها المنيفة وظلالها الهادئة ، معتكفاً على القراءة والدرس برفقة صفيه محمد بن يوسف الحجارى ، الذى كتب له تاريخ الأندلس والمغرب ، وتواريخ أخرى لبعض المدن . وكان من أصفياه فى تلك المجالس أيضاً ، الفتى سابور الفارسى ، الذى قدم بدعوته إلى قرطبة ، واختاره ليكون وصيفاً خاصاً له ، وكان من أعلم أهل عصره (٢) .

ولم يكن هذا الشغف بجمع الكتب ، فى عصر الحكيم ، قاصراً على الأمير ، فقد عنى كثير من كبراء العصر وعلمائه ، بإنشاء مكنتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب . وشغف النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب ، وإنشاء المكنتبات ، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم ، وكانت من أبرع نساء عصرها ، علماً وأدباً وشعراً ، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكنتبات الخاصة . وكانت سوق الكتب فى قرطبة ، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة . بل لقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم ، وكان الكثير منهم يجيدون اللغة العربية ، ويتذوقون ثمرات التفكير العربى من أدب وشعر وفلسفة وغيرها . وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودى حسداى ، طبيب الحكيم الخاص ، وفى ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية ، وألغوا بها مختلف الكتب . وكان من أشهر المكنتبات الأندلسية الخاصة فيما بعد ، مكتبة يوسف بن اسماعيل

(١) جبهة أنساب العرب ص ٩٢ . ونقلها ابن الأبار فى الخلة السراء ص ١٠٣ .

(٢) Modesto Lsfuente : Historia General de Espana ; T. III, p. 337.

ابن نغالة اليهودي ، وزير باديس أمير غرناطة^(١) .

وإلى جانب هذا الشغف بالكتب والثقافة العالية ، كان التعليم العام في عهد الحكم يجوز نهضة عظيمة ، وكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة ، هذا بينما كان أرفع الناس مكانة في أوروبا - خلا رجال الدين - لا يعرفون . وأسس الحكم عدداً كبيراً من المدارس يتعلم فيها الفقراء مجاناً . أما جامعة قرطبة ، فقد كانت يومئذ من أشهر جامعات العالم ، وكان مركزها في المسجد الجامع ، وتدرس في حلقاتها مختلف العلوم ، وكان يدرس الحديث أبو بكر بن معاوية القرشي ، ويملي أبو علي القالي ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام ، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وكان ابن القوطية يدرس النحو ، وكان يدرس باقي العلوم أساتذة من أعلام العصر ، وكان الطلبة يعدون بالآلاف^(٢) .

وكان الحكم يسبغ رعايته على سائر العلماء من مختلف الملل والنحل ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين . ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريثموندو الإلبيري ، المسمى باسمه العربي ، ربيع بن زيد ، كان أثيراً لديه متمتعاً برعايته ، لتبحره في علم الفلك ، والعلوم الفلسفية ، وهي من الدراسات التي كان يعنى بها الحكم . وكان هذا الخبر القرطبي عالماً مبرزاً ، متمكناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان الناصر والد الحكم يقدر علمه ومواهبه ، ويجبوه بعطفه ورعايته بالرغم من نصرانيته ، وكان يشغل مكانة هامة في القصر^(٣) .

يقول العلامة دوزي : « وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإسبان والأجانب لم يعرف حداً ، وقد كانوا يهرعون إلى بلاطه . وكان المليك يشجعهم ويوليهم رعايته ، حتى الفلاسفة استطاعوا في ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون خوف من أن يقتلهم الأتقياء الورعون »^(٤) .

ويبدى النقد الحديث تقديره وإعجابه بتلك النزعة العلمية التي امتاز بها الحكم ، والتي سادت كل عصره . فمثلاً يقول لنا المؤرخ الإسباني موديستولا فونتي :

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (القاهرة) ج ٢ ص ٦٥٤ ، وكذلك ، J. Ribera : *ibid.* ،

p.199 — 202

(٢) Dozy : *Histoire des Musulmans d'Espagne*, Vol. II, p. 184 & 185

(٣) F. J. Simonet : *Historia de los Mozarabes de Espana* (Madrid 1897),

p. 607 & 612.

(٤) Dozy : *Histoire des Musulmans d'Espagne* ; Vol. II, p. 189.

« كانت دولة الحكم الثاني دولة الآداب والحضارة ، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء . وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر . فهل نغضى نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموي المستنير من الصفات الباهرة ، لأنه كان مسلماً ولم يكن نصرانياً ؟ إن ذلك يعنى أننا ننكر فضائل أمثال أوغسطوس وتراجان وأدريان وماركوس أوريليوس ، لأن أولئك القياصرة العظام لم يكونوا نصارى . إن السلم الذى وطده أكتافىوس فى اسبانيا الرومانية ، قد وطده الحكم فى اسبانيا العربية ؛ وقد قدم الحكم ، كما قدم أكتافىوس من قبل ، الأدلة على أن الرغبة فى السلم ، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر ، ولكن لأنه كان يؤثر إلهام القريض ، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح ، وإكليل الجامعات الحقيقى على أكليل الحروب الدموى .

لقد أعيد عصر أوغسطوس فى اسبانيا بعد ألف عام فى صورة جديدة ، وقد تحول بلاط قرطبة إلى نوع من الأكاديمية العظيمة ، وأغدق على ثمرات العبقريّة فيض الإغداق والكرم الرائع ، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة ، ومدى الصبر ، والمثابرة ، والتفقات التى أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة المدهشة ، من أربعمائة ألف إلى ستمائة ألف مخطوط ، هى محتويات مكتبة قصر بنى مروان . »

ثم يشير موديستو لافونتي بعد ذلك إلى أن هذا المستودع الزاخر من ثمرات العقل ، وتلك الحضارة التى وصل إليها العرب فى عصر الحكم ، كانت قد وضعت بذورها من قبل ، وتعاقب أمراء بنى أمية منذ عبد الرحمن الداخل فى تعهدتها بالغرس والنماء ، وقد كانوا جميعاً من أهل العلم والأدب ، ومن حماة العلوم والآداب . ثم يختتم تعليقه على عصر الحكم بقوله :

« لقد جاء هذا الخليفة الشهير الذى يعشق الآداب فى عهد سعيد من السلم ، ولما كانت بذور التمدن موجودة من قبل ، فقد تفتحت فى ظل رعايته ، وازدهر الغرس ازدهاراً عظيماً ، حتى أنه بعد الحرث الكثير ، والمطر الغزير ، بدت شمس وضاعة رائعة منعشة » (١) .

وقد اختلف في تقدير محتويات المكتبة الأموية العظيمة ، التي أنشأها الحكم المستنصر ، فقدرها بعض المؤرخين بأربعمائة ألف مجلد ، وقدرها البعض الآخر بستائة ألف (١) . وكانت توجد في قواعد الأندلس الأخرى ، عدا مكتبة قرطبة العظيمة زهاء سبعين مكتبة أخرى (٢) . وهذا وحده يكفي للدلالة على مدى التقدم العظيم ، الذي بلغته الحركة الفكرية والأدبية في الأندلس ، في هذا العصر الزاهر . ولبت المكتبة الأموية العظيمة قائمة بقصر قرطبة ، حتى وقعت الفتنة الكبرى في سنة ٤٠٠ هـ ، وحاصر البربر قرطبة ، فأخرجت معظم الكتب من خزائنها خلال الحصار ، وبيعت بأمر الفتي واضح مولى المنصور بن أبي عامر ، ثم نهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة ، حسبما نذكر بعد (٣) .

* * *

وشعر الحكم في أواخر عهده ، بأعراض الضعف والمرض تدب إليه ، فعقد العزم على تأمين ولاية العهد لولده الطفل هشام . وتم ذلك في شهر جمادى الثانية سنة ٣٦٥ هـ (٥ فبراير سنة ٩٧٦ م) حيث جلس الحكم بقصره في قرطبة ، وأعلن عزمه في تقليد ولده عهد الخلافة من بعده ، وأخذت البيعة بالفعل من الحاضرين وأخرجت كتبها لسائر الخاصة والعامة . وتولى أخذها على الناس وفق مراتبهم ، محمد بن أبي عامر ، وهو يومئذ صاحب الشرطة والمواريث ، وكان من قبل كافلا لهشام ، وميسور الفتي الكاتب مولى صبح ، ثم دعى لهشام في الخطبة بالأندلس والمغرب ، ونقش اسمه في السكة .

وينعى ابن حيان على الحكم هذه السياسة في اختيار ولده الطفل لولاية العهد ، فيقول إنه أى الحكم على ما وصف من رجاحة « كان ممن استهواهم حب الولد ، وأفرط فيه ، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده ، في سن الصبا دون مشيخة الأخوة ، وفتيان العشرة ، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة ، فرط هوى ، ووهلة انتقدها الناس على الحكم ، وعدوها الجانية على دولته . وقد كان يعيها على ولد العباس قبله ، فأتاها هو مختاراً ولا مرد لأمر الله »

وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل ، بشلل أقعده عن الخروج والحركة ، فازم

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ .

(٢) Prescott : Ferdinand and Isabella of Spain, p. 187.

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

فراشه ، وتولى تدبير الشئون خلال مرضه ، وزيره جعفر بن عثمان المصحفي .
ثم توفي بعد ذلك بأشهر قلائل ، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ (٣٠ سبتمبر
سنة ٩٧٦ م) (١) .

* * *

وكان الحكم المستنصر من خيرة أمراء بني أمية خلقاً وعلماً وعدلاً . وتنوه
الرواية الإسلامية في غير موطن بجميل خلاله وصفاته . فيقول لنا ابن الأبار :
« وكان حسن السيرة ، فاضلاً عادلاً ، مشغولاً بالعلوم » (٢) . ويقول لنا ابن
الخطيب : « وإليه انتهت الأبهة والحلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ،
والحسنيات الراقية » (٣) . وكان الحكم من ذوى الورع والتقوى ، تشهد بذلك
عنايته الفائقة بأمر المسجد الجامع ، وتوسعته وإنشاء منبره الحديد ، وترويده
بالماء بطريقة هندسية بديعة ، وما بذله في سبيل ذلك من النفقات الطائلة ،
ويشهد بذلك أيضاً تشدده في محاربة الخمر وإراقها (٤) . وكان محباً للعدل معنياً
بإقامته ، شديداً في محاسبة الطغاة من العمال والحكام ، يؤيد ذلك ما رواه صاحب
البيان المغرب من أنه أرسل غير مرة إلى الحكام الظلمة ، يحذرهم من سطوته ،
وإلى القواد والعمال ، يحذرهم من سفك الدم بلا موجب (٥) .

وكان الحكم عارفاً بأقدار الرجال ، مميزاً للناهين منهم ، وقد جمع في حكومته
وبلاطه جمهرة من أعظم رجال العصر والمعهم . وكان في مقدمة هؤلاء ، كبيرهم
وزعيمهم الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفي . وكان جعفر ينتمي إلى بطن
من بطون البربر من بلنسية ، وتولى أبوه عثمان أيام الناصر تأديب ولده الحكم ،
وهكذا نشأت بين الحكم وبين ولد أستاذه ومؤدبه جعفر مودة عميقة ، فلما أسندت
إليه ولايته العهد ، قدم جعفر في الأعمال واستخدمه في الكتابة ، ثم ولاه الناصر

(١) تضع معظم الروايات وفاة الحكم في هذا التاريخ (الحلة السيرة ص ١٠١ ، ونفح
الطيب ج ١ ص ١٨٥ ، وابن الخطيب عن ابن حيان ، في أعمال الأعلام ص ٥٦) . ولكن صاحب
البيان المغرب ينفرد بالقول بأن وفاته كانت في الثالث من رمضان سنة ٣٦٦ هـ .

(٢) الحلة السيرة ص ١٠١ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤٩ .

(٤) الحلة السيرة ص ١٠٣ .

(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

بعد ذلك حكم جزيرة ميورقة . ولما ولى الحكم الخلافة استوزره وأمضاه على كتابة الخاصة ، وضم إليه بعد ذلك ولاية الشرطة ، ثم تولى بعد ذلك منصب الحجابة أى رئاسة الوزارة ، خلفاً للحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي ، وأصبح أول رجل فى الدولة ، واجتمعت لديه سائر السلطات ، ولما رزق الحكم بولده هشام اختار جعفر كافلاً له ، واستمر جعفر هو القائم بدولة الحكم حتى وفاته . وكان المصحفى من أساطين الكتابة والشعر وله شعر حسن ، أورد لنا منه ابن الأبار مختارات رقيقة مشرقة تدل على تمكنه (١) .

وكان من أشهر أعمال المصحفى فى بداية عهد الحكم أن قدم إليه هديته الباذخة ، التى حاول أن يبر فيها هدية الوزير ابن شهيد إلى الناصر . وقد أورد لنا ابن حيان فى المقتبس وصفاً لمحتويات هذه الهدية الشهيرة وهى : مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو العدة والسلاح ، وثلاثمائة وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية ، وخمسون خوذة حبشية من حبشيات الإفرنجية ، وثلاثمائة حربة إفرنجية ، ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس (٢) . وكانت هدية المصحفى للحكم ، من أشهر الحوادث الإجتماعية فى هذا العصر .

وكان من أكابر دولة الحكم أيضاً ، القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى صاحب مدينة سالم ، وكان مولى لأبيه الناصر . وكان غالب ، فضلاً عن كونه من نصحاء الحكم ، ومستشاريه المقربين ، من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها فى هذا العصر . وكان منهم أيضاً الوزير يحيى بن محمد التجيبى ، والقائد سعيد بن الحكم الجعفرى ، وكلاهما من أعظم الوزراء والقادة ، وقد برز كلاهما فى غزوات الصوائف ، وحوادث المغرب الأقصى .

وكان من كتاب الحكم عيسى بن فطيس ، ومن قضاة منذر بن سعيد البلوطى كبير القضاة فى عهد أبيه الناصر ، ثم أبو بكر محمد بن السليم .

وكان الحكم شاعراً مطبوعاً ينظم القريض الرقيق ؛ ومما ينسب إليه قوله :
إلى الله أشكو من شمائل مسرف على ظلوم لا يدين بما دنت
نأت عنه دارى فاستزاد صدوده وإنى على وجدى القديم كما كنت

(١) راجع ترجمة جعفر المصحفى ومختارات من شعره ، فى « الحلة السراء » ص ١٤١-١٤٧ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبرج ٤ ص ١٤٤ .

ولو كنت أدري أن شوقى بالغ من الوجد ما بلغته لم أكن بنت
وقوله :
عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت وكيف اثنت بعد الوداع يدي معي
فيامقلتي العبرا عليها اسكبي دماً ويا كبدي الحراً عليها تقطعي

* * *

ويجب أن نلاحظ من ذلك الوقت التطور العظيم ، الذي حدث في تكوين المجتمع الأندلسي . فقبل عهد الناصر كانت الرياسة والأرستقراطية ، تنحصر في القبائل العربية . وكان البربر يحتلون مقاماً أدنى . وكانت المعارك يضطرم لظاها باستمرار بين السلطة المركزية أعنى بين الإمارة وبين العصبية العربية ، التي تحاول دائماً أن تقيم رياستها في الثغور والمدن على أساس الاستقلال المحلي . وقد استمرت هذه المعارك عصوراً ، منذ عبد الرحمن الداخل ، حتى جاء الناصر ، فشدد في مطاردة العصبية العربية وتحطيمها ، وآثر أن يعهد بالرياسة والسلطات المحلية إلى طوائف الصقلية حسبما شرحنا ذلك من قبل . وفي عهد الحكم المستنصر كانت الأرستقراطية العربية ، قد اضمحلت ، وغاض نفوذها ، واختفت كقوة سياسية واجتماعية تخشاها السلطة المركزية ، وإن كانت قد بقيت كطبقة من الطبقات ، وحلت محلها أرستقراطية من نوع جديد ، قوامها القادة والرؤساء العسكريون ، من الموالي والصقلية ، فكانت بذلك أرستقراطية سيف ، وليست أرستقراطية قبيل أو عصبية . وانحصرت الطبقة الوسطى ، في التجار ورجال الصناعة وغيرهم ممن استطاعوا أن يحرزوا بالتجارة والفنون في مختلف القواعد ثروات عظيمة . ويأتي بعد الطبقة الوسطى ، طبقات الشعب الكادحة ، وكانت على نحو ما يحدث في كل زمان ومكان ، تبغض الطوائف الميسورة ، وتنقم عليها نعماء العيش .

وكانت ثمة طبقة أخرى ، ذات مميزات خاصة ، هي طبقة المولدين أو بعبارة أخرى مسلمو الإسبان ، وكانت تحتل مكانها بين الطبقات المتوسطة والميسورة . وكان بينها الكثيرون ممن أحرزوا الحياه والنفوذ والثراء . بيد أن المولدين بالرغم من إسلامهم ، كانوا يعتبرون أقل مكانة من المسلمين الأصليين . وكان المعروف من أصولهم دائماً ، أنهم كانوا على الأغلب عبيداً أو مسترقين من القوط ، دخلوا في الإسلام اجتناء للحرية . وقد زاد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ عهد عبدالرحمن

ابن الحكم ، حيث دخل كثير من النصارى المعاهدين في الإسلام ، حينما اشتدت وطأة حكومة قرطبة عليهم ، أيام الفتن التي حاولوا إثارتها لإشاعة الإضطراب والفوضى ، حسبما فصلنا ذلك في موضعه . وبذلك ازداد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ أوائل القرن التاسع الميلادي ، وغدوا في ظل الخلافة أيام الناصر وولده الحكم ، يمثلون أقلية كبيرة بين الأمة الأندلسية .

وأما الطبقة المسترقة أو طبقة العبيد ، فكانت في تلك العصور تتألف من العمال العبيد ، الذين يلحقون في الغالب بالضياع . وكان هذا النظام موجوداً منذ أيام القوط ، ولكنه طبق أيام المسلمين ، بصورة أفضل بكثير مما كان عليه ، ومنح هؤلاء العمال حقوقاً إجتماعية وإنسانية ، رفعت عنهم كثيراً من صور العبودية القديمة ، التي كانت تعطى للسيد عليهم حق الحياة والموت ، والبيع والشراء . ويلحق بغير الأحرار أيضاً طبقة الصقالبة والحصيان . بيد أن هذه الطبقة كانت تحتل مكانة ملحوظة في المجتمع ، وكان لها في الحكومة والقصر ، إيما نفوذ ، وقد ظهر منها زعماء وقادة وصلوا إلى مراكز عظيمة ، وكان لهم فيما بعد شأن يذكر ، في تطور الحوادث التي أعقبت انهيار الخلافة الأندلسية .

وإلى جانب هذه الطبقات المختلفة ، التي تتألف منها الأمة الأندلسية ، كانت توجد دائماً طبقة النصارى المعاهدين ، الذين يعيشون في ظل الحكم الإسلامي ، وكانت تجتمع في القواعد الأندلسية في أقليات كبيرة . وكانت تحتل في العاصمة ، وفي بعض المدن الأخرى مكانة خاصة ، ويشغل كثير من أفرادها مراكز هامة في الحكومة والحيش ، وقد تحدثنا من قبل عن بعض أحوال هذه الطبقة وظروفها . ويجب أخيراً ألا ننسى الأقلية اليهودية . فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية ، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية ، في ظل ذلك التسامح الإسلامي المأثور ، ووصاوا في قرطبة في ظل الخلافة ، إلى ذروة النفوذ والرخاء . وفي أيام الناصر تولى أحدهم ، وهو العلامة حسداى بن شبروت ، الإشراف على الخزانة العامة ، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية ، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية ، من اليونانية إلى العربية ، وهو الكتاب الذي أهدي قيصر منه نسخة إلى الناصر . وفي ظل هذه الرعاية ، وقد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة ، أيام الناصر وولده الحكم ، وقامت

في ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية ، ومؤسسها الرابي موسى بن حنوش ،
وازدهرت في ظلها البحوث التلمودية ، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه
البحوث . واستمرت الخلافة الأموية ، ومن بعدها حكومات الطوائف على
رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها ، وكان يهود قرطبة يرتدون الزي العربي ،
ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية ، ويمتازون ببراءهم ومظاهرهم الفخمة^(١) .

R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización : (١) راجع :
Espanola, Vol. 1, p. 250 - 251.

الفصل الثاني

هشام المؤيد بالله

مؤامرة الفتیان الصقالية لإبعاد هشام وترشيح المغيرة بن الناصر. الحاجب جعفر يناهض مشرعوهم . محمد بن أبي عامر يتولى قتل المغيرة . معسكر الصقالية ومعسكر الأحرار . أخذ البيعة لهشام . وصف ابن الخطيب لأحوال الخلافة الأندلسية يومئذ . اجتماع السلطة في يدي الحاجب جعفر وابن أبي عامر . صبح البشكنسية أم المؤيد . ظهورها في بلاط قرطبة وتمكن نفوذها من الحكم . حظوة الحاجب جعفر لديها . محمد بن أبي عامر . أصله ونشأته . خلاله وطموحه . حظوته لدى صبح . طبيعة العلائق بينهما . مصانعة للحاجب جعفر . نفوذه لدى صبح . جعفر المصحفي يتولى الحجابة وابن أبي عامر الوزارة . الصراع الخفي بين الرجلين . الخليفة الصبي هشام . شغفه باللهو واللعب . حجبته والحجر عليه . دور ابن أبي عامر في ذلك . طموحه في الاستئثار بالسلطة . الفتیان الصقالية . تفاهم الحاجب وابن أبي عامر على سحقهم . ابن أبي عامر يتولى قيادة الجيش ويغزو أرض النصارى . الخلاف بين الحاجب والقائد غالب . مسير ابن أبي عامر وغالب إلى الغزو . ذبوع شهرة ابن أبي عامر . الصراع بينه وبين المصحفي . محاولة المصحفي التفاهم مع غالب . ابن أبي عامر يحبط خطته . مسير ابن أبي عامر وغالب ثانية إلى الغزو . زواج ابن أبي عامر من أسماء ابنة القائد . تولية غالب منصب الحجابة . تضاعف مكانة المصحفي . إقالته والقبض عليه وعلى أهله . اشتداد ابن أبي عامر في مطاردته . وفاة المصحفي أو قتله في سجنه . شعر له في محتته . ابن أبي عامر يسحق خصومه ومنافسيه . اهتمامه بتنظيم الجيش . اصطناعه للبربر واضطهاده للعرب .

لما توفي الحكم المستنصر بالله ، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، حرص خادماه الحصيان ، الفتیان فائق وجوذر ، على كتمان خبر موته ، وقاما بضبط القصر ، واتخاذ التدابير اللازمة ، لتسيير الأمور وفق الخطة التي وضعها . وكانت هذه الخطة ، تنحصر في تنحية ولي العهد الصبي هشام عن العرش ، واختيار عمه أخي المستنصر ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، لولاية العرش ، وكان الفتیان الصقالية داخل القصر ، زهاء ألف ، ولهم نفوذ عظيم ، وفي يدهم الحرس الخلفي ومعظمه من الصقالية والمرترقة . فكانوا بذلك قوة يحشى بأسها .

استدعى فائق وجوذر ، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، ونباة بموت الخليفة وعرضا عليه مشروعهما ، في تولية المغيرة ، فتظاهر الحاجب بالاستحسان والموافقة ، ووعدهما بالعمل وفق خطتهما ، وتنفيذ ما يشيران به . ثم خرج ،

فبادر إلى ضبط أبواب القصر ، واستدعى أصحابه من خاصة الحكم ، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم ، وقاسم بن محمد ، ومحمد بن أبي عامر ، وهشام بن محمد بن عثمان وغيرهم . واستدعى في نفس الوقت عصبته وأشياعه من زعماء البربر ، مثل بني برزال ، كما استدعى سائر القادة الأحرار ، فاجتمع له منهم ومن أجنادهم طوائف ضخمة . فنعى لهم الخليفة ، وعرض عليهم مشروع الفتیان الصقلية ، في تنحية هشام وتولية المغيرة ، وأوضح لهم أن هذا المشروع خطر داهم عليهم ، وأنه إذا ولي المغيرة ، واستبد الصقلية بالأمر ، قضى عليهم وعلى دولتهم ونفوذهم ، ونكل بهم المغيرة والصقلية . والأمر بالعكس إذا ولي هشام ولي العهد الشرعي ، فإنهم يستبقون سلطانهم ونفوذهم ، وتغدو الدولة دولتهم ، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم . فاقترح بعض أصحابه أن يقتل المغيرة ، فيؤمن بذلك شره في الحال والاستقبال ، وتطوع محمد بن أبي عامر لتنفيذ هذه المهمة الدموية ، حفظاً للوئام والوحدة ؛ فبعث جعفر معه سرية من الحند الأحرار الموثوق فيهم ، وسار معه بدر القائد مولى الحكم ، في سرية من غلمان الخليفة . وأحاط الحند بدار المغيرة ، ثم نفذ إليه محمد بن أبي عامر في نفر من أصحابه ، ونبأ بموت الخليفة وجلس ابنه هشام ، وأنه أتى ليتبين حقيقة موقفه ، فدعر المغيرة وأكد لابن أبي عامر ، أنه مطيع مخلص لكل ما تقرر ، وتضرع إليه أن يحقن دمه ، وأن يراجع القوم في أمره . ولكن الرد كان قاطعاً في وجوب التخلص من المغيرة ، فدفع إليه ابن أبي عامر عدة من رجاله ، فقتلوه خنقاً أمام زوجته ، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه ، ودفن في نفس مجلسه ، وكان سنه يوم قتل سبعاً وعشرين سنة . ووقع ذلك كله في يوم واحد فقط .

ولما وقف الفتیان فائق وجوذر على ما وقع ، تملكهما السخط والروع ، وبادرا إلى الحاجب جعفر ، وتظاهرا بالرضا والاستبشار بما وقع ، واعتذرا له عما سبق أن اقترحا عليه ، وأخذ الفريقان من ذلك الحين ، يتوجس كل من صاحبه ويتربص به ، وانقسم أهل القصر إلى معسكرين ، معسكر الصقلية يتزعمه فائق وجوذر ، ومعسكر الأحرار يتزعمه الحاجب جعفر ومحمد بن أبي عامر (١) .

(١) نقل إلينا ابن بسام في الذخيرة هذه التفاصيل عن ابن حيان (الذخيرة - القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٠ ، ٤١) . ونقلها أيضاً صاحب البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٨٠ .

وسنرى فيما بعد ، كيف تطورت هذه المعركة الخفية بين المعسكرين .

* * *

وهكذا وقع الاتفاق على تولية هشام ، وأخذت له البيعة في صبيحة اليوم التالى لوفاة أبيه الحكم ، وهو يوم الإثنين الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) . فأجلس الخليفة الصبي هشام ، فى كرسي الخلافة ، ولما يجاوز الثانية عشرة من عمره . وتولى أخذ البيعة له الحاجب جعفر ومحمد ابن أبى عامر ، ولم يعترض أحد على توليته . واستمر أخذ البيعة أياماً ، وكتب بها إلى الأقطار ، فلم يردها أحد . وينقل إلينا ابن الخطيب ، عن ابن حيان ، مئات من أسماء الوزراء والعلماء والقضاة والأكابر ، من مختلف الطبقات ، الذين أخذوا البيعة لهشام ، ومنهم كثيرون ، ممن اشتركوا فى أخذ البيعة له بولاية العهد ، فى حياة أبيه^(١) .

ويصف لنا ابن الخطيب حالة الخلافة الأندلسية ، وأحوال الأندلس ، عند ولاية هشام ، فيما يأتى : « بويع ولى عهده (أى الحكم) هشام الملقب بالمؤيد بالله والخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الحنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ، فكانت كمامة ثم زهرة بسامة ، ثم ثمرة بهية ، ثم فاكهة شبيهة ؛ وكان بكرسى العامرية مجلاها ، ثم تلاها ما تلاها ، وأرخص الخطوط من أعلاها ، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه ، والملك تعود بالله ، أن لا يصيبه عائنه الذى يعاينه ، والمباني قد بلغت السماء سمواً ، وزاحمت الكواكب علواً ، والبلاد وقد بلغ فيها إلى أقاصى الاهتمام ، وفرغت بناتها من لبنات التمام ، والآثار الصالحة قد تحللت ، والمآثر الواضحة قد تعددت ، والأذهان فى بسطة الإسلام قد تبلدت ، ورسم الخلاف قد أمحى ، والدولة المروانية قد بركت وسط المرعى ، والدعوة قد انتشرت فى المغرب الأقصى »^(٢) .

* * *

وهكذا تمت البيعة لهشام المؤيد ، بين يوم وليلة ، وقضى على كل معارضة ، وتوارى الأعمام وبنو العم ، واجتمعت مقاليد السلطة فى أيدي رجلين ، هما الحاجب

(١) أعمال الأعلام ص ٤٨ . وقد شغلت أسماء الذين أخذوا البيعة لهشام تسع صفحات كاملة .

(٤٨ - ٥٧) .

(٢) أعمال الأعلام ص ٤٣ و ٤٤ .

جعفر بن عثمان المصحفي ، ومحمد بن أبي عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة ، ومتولى خطة المواريث ، وناظر الحشم . بيد أنه من الخطأ أن يقال إن السلطة ، قد خلصت لهذين الرجلين وحدهما ؛ فقد كان ثمة شخصية ثالثة تشاطرهما السلطان من وراء ستار ؛ تلك هي « صبح » البشكنسية حظية الحكم وأم ولده هشام الخليفة الصبي ، وكانت قد منحت الوصاية على ولدها ، واكتسبت بذلك صفة شرعية في الاشتراك في الحكم وتدبير الشؤون .

فمن ذلك كانت تلك المرأة ، التي لبثت ردحاً طويلاً من الزمن ، تسيطر بسحرها ونفوذها ، على خلافة قرطبة ، وتشارك في تدبير شؤونها ، في السلام والحرب ، مع أعظم رجالات الأندلس ؛ لسنا نعرف الكثير عن نشأتها وحياتها الأولى . وكل ما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية في ذلك ، هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية أى نافارية . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر في بعض المواقع : أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصنفها بالحرارية والحظية ؛ وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة Aurora الفرنجية ، ومعناها الفجر أو الصباح الباكر ، وهو الاسم النصراني الذي كانت تحمله صبح فيما يظهر^(١) . وظهرت صبح في بلاط قرطبة في أوائل عهد الحكم المستنصر ، وكانت فتاة رائعة الحسن والحلال ، فشغف بها الحكم ، وأغدق عليها حبه وعطفه ، وسماها « بجعفر »^(٢) ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . ثم ازداد هذا النفوذ توطداً وتمكناً ، حينما رزق منها الحكم بولده عبد الرحمن ثم بولده هشام حسبما تقدم . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط . بل كانت ملكة حقيقية ، ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر : بعد أن كانت جارية وحظية . ولكن هنالك ما يدل ، على أن صبحاً ، كانت تتمتع في البلاط والحكومة بما يشبه مركز الملكة الشرعية . فالرواية الإسلامية تنعها بالسيدة صبح أم المؤيد^(٣) أو السيدة أم هشام . وتصنفها التواريخ الإفرنجية « بالسلطانة صبح »^(٤) . بيد أن

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 100

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٣ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ و ٢٨٢ .

(٤) Conde : Dominación, V I. p. 480 & 493 ; Dozy : Hist. Vol. II. p. (٤)

هناك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية « وأم ولد » فقط ، وأن الحكم توفى عنها دون تغيير في مركزها الشرعى (١) .

استمرت صبح أيام الحكم ، تتمتع في البلاط والحكومة ، بنفوذ لا حد له . وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، ويستمتع لرأيها في معظم الشؤون . وكانت كلمتها هي العليا ، في تعيين الوزراء ورجال البطانة ، وكان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، يجتهد في خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك ، حتى دخلت في الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط في توجيه مصائر الأندلس . تلك هي شخصية محمد بن أبي عامر الذى تقدم ذكره غير مرة ، والذى رأيناه في أواخر عهد الحكم يشغل منصب مدير الشرطة وناظر الخصاص .

كان محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافرى ، يرجع إلى أصل من أعرق الأصول العربية . وكان جده عبد الملك بن عامر المعافرى ، أول من دخل الأندلس مع الفاتحين موسى وطارق ، وظهر في الفتح بشجاعته وحسن بلائه . ونزلت أسرة بنى عامر بالجزيرة الخضراء ، وأقطعت حصن طرُش الواقع على نهر وادى يارهُ ، الذى يصب على مقربة من جبل طارق ، وظهرت بالعلم والوجاهة ، وتولى كثير من أبنائها مناصب القضاء والإدارة ؛ وولد محمد بن أبي عامر بحصن طرُش وأنفق فيه أحداثته . وكان أبوه عبد الله ، المكنى بأبى حفص من أهل العلم والتقوى ، عالماً بالحديث والشريعة ، وكانت أمه بريهة بنت يحيى تنتمى إلى بنى تميم . ونشأ محمد على تقاليد أسرته ، مؤثراً حياة الدرس ، ووفد على قرطبة حدثاً ، ودرس في معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع في الأدب والشريعة ، وكان من أساتذته العلامة اللغوى أبو على القالى البغدادي ، وأبو بكر بن القوطية ، والمحدث أبو بكر بن معاوية القرشى ؛ وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم ، رفيع المواهب والحلال . وتنوه بهذا الطموح المدهش معظم الروايات المعاصرة واللاحقة (٢) . وكان ابن أبي عامر في نحو

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ . والمعجب للمراكشى ص ٧٤ .

(٢) الحلة السيرة ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد

الأول ص ٢٤٣ . والإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ص ٤٧٤ .

السابعة والعشرين من عمره ، حينما أراد الخليفة الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب جعفر فيمن رشح لتولى هذا المنصب ، وأعجبت صبيح بذكائه وحسن روائه ، وظرف شمائله ، فاخترته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً في الشهر ، وذلك في أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)^(١) . ولما توفي عبد الرحمن طفلاً ، عين مشرفاً لإدارة أملاك أخيه هشام . وتقدم في وظائف الدولة بسرعة . فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة ، وعلى أمانة دار السكة ، ثم عين للنظر على خطة المواثيق (٣٥٨ هـ) ، فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة . ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى (٣٦١ هـ) . وفي أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (الخاص) .

وهكذا وصل محمد بن أبي عامر إلى أرفع وظائف الدولة والقصر في أعوام قلائل . ويرجع الفضل في تقدمه بتلك السرعة ، أولاً إلى مواهبه وكفائاته الباهرة ، ثم يرجع بالأخص إلى عطف صبح وحماتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية . كانت صبح امرأة حسناء ، لا تزال في زهرة العمر ، وما زال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين ، وهدمه الإعياء والمرض ؛ أما ابن أبي عامر فقد كان فتى في نضرة الشباب ، وسيم الحيا ، حسن القدر والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان من جهة أخرى يفتن في خدمة صبح وإرضائها ، ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة نموذج قصر من الفضة ، بديع الصنع والزخرف ، أنفق عليه مالا عظيماً ، ولم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمل من دار ابن أبي عامر إلى القصر ، فكان منظرًا يخاب اللب ، ولبثوا يتحدثون بشأنه حيناً ؛ فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع ، وتزيدها عطفاً على ابن أبي عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد السحر الذي ينفثه ابن أبي عامر إلى حظيته ، وإلى نساء القصر جميعاً ، ويعجب له . ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذي استلطف به هذا الفتى حرماناً حتى ملك قلوبهن ،

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . وينقل إلينا المقرئ رواية أخرى عن اتصال ابن أبي عامر بصبح ، خلاصتها أنه كان يجلس في دكان عند باب القصر ، ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان ، إلى أن طلبت صبح من يكتب عنها ، فعرفها به بعض من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر ، فاستحسن كتابته ، وعينته أميناً لبعض شؤونها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧) .

مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب ، وإني خائف على ما بيده» (١) . ولم تلبث علائق صبح وابن أبي عامر أن ذاعت ، وغدت حديث أهل قرطبة ، ولم يك ثمة ريب في أنها استحوالت غير بعيد إلى علائق غرامية . وربما ارتاب الحكم في طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأى في نكبة ابن أبي عامر ، وسعى لديه بعض خصومه ، واتهمه بأنه يبدد الأموال العامة ، التي عين للنظر عليها ، في شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ، ليتحقق من سلامتها ، وقد كان بالخزانة في الواقع عجز كبير ، فهرع ابن أبي عامر إلى صديقه الوزير ابن حدير ، وكان وافر الوجاهة والثراء ، فأغاثه وأعانته بماله على تدارك هذا العجز ، وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ، فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه .

واستمر ابن أبي عامر متمتعاً بنفوذه وسلطانه ، يندبه الحكم لعظائم المهام والشئون ، وكان آخرها ما عهد إليه من تنظيم البيعة بولاية العهد لولدة هشام حسبما تقدم ؛ وابن أبي عامر خلال ذلك كله ، يحرص على عطف صبح ويستزيده ، ويصانع الحاجب جعفر ، ويجتهد في إرضائه وكسب ثقته ؛ وكان بين الرجلين تباين يفيد منه ابن أبي عامر ، فقد كان الحاجب جعفر على ما يبيده من التواضع والبشر والترفق بالناس ، قابل الجود ، موثراً لجمع المال . وكان ابن أبي عامر على نقيضه في ذلك ، فكان واسع البذل والجود ، حريصاً على اصطناع الرجال ، وكانت داره الفخمة بضاحية الرصافة ، مقصد الناس من كل صوب ، وكانت مائدته معدة دائماً ، وكان بذلك كله يخلق جواً من الحب والإعجاب ، ويجتذب الصحب والأنصار ، بسحر خلاله ، ووافر بذله ومروءته ، وبارع وسائله وأساليبه (٢) .

فلما توفي الحكم المستنصر ، وأسندت الخلافة إلى ولده الطفل هشام ، اتخذت الأمور وضعاً جديداً ، يندر بتطورات جديدة . وقد رأينا أي دور قام به ابن أبي عامر عندئذ ، من الانضمام إلى الحاجب جعفر في معارضة الفتيان الصقالبة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٢) الذخيرة - القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٥ .

ومقتل مرشحهم للخلافة ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر .

* * *

وهكذا تحقق مشروع الحكم بجلوس ولده هشام ، وتحقيق مشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً كذلك أن يوازر ابن أبي عامر صاحبه المحسنة إليه ، ليستمر بواسطتها محتفظاً بسلطانه ونفوذه . أما الحاجب جعفر فقد كان له مثل ذلك الباعث فى تولية هشام ، إذ كان يخشى من تولية المغيرة ، وأوليائه الصقالية ، على نفسه وعلى سلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين أولئك الثلاثة ، الذين قدر لهم أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية . ولكن هذا التحالف الذى أملتته الضرورة المؤقتة ، لم يكن طبيعياً ولا سيما بين الحاجب جعفر ، ومنافسه القوى محمد بن أبي عامر . وكانت العلاقات بين صبح وابن أبي عامر ، تزداد كل يوم توثقاً ، ولا سيما منذ وفاة الحكم . وكان ابن أبي عامر ، يرى فى تلك المرأة ، التى تجتمع فى يدها السلطة الشرعية ، بوصايتها على ولدها الطفل ، أداة صالحة هينة ، يستطيع أن يخضعها لإرادته ، ويسخرها لمعاونته ، على تحقيق مشاريعه البعيدة المدى . وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها ، على هذا الرجل القوى الذى سحرها بخلاله ، وقوة نفسه ، وباهر كفاياته ، وتضع فيه كل أملها لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ، فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام ، حتى عين حاجب أبيه جعفر المصحفى حاجباً له ، ورقى فى نفس الوقت ابن أبي عامر من خطة الشرطة إلى مرتبة الوزارة ، وجعله معاوناً للمصحفى فى تدبير دولته^(١) . وبذلك أشرك ابن أبي عامر ، فى تولى السلطة المباشرة مع المصحفى ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار ، سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى فى هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ، ونكراناً لحميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهرأ . وكان يرى فى ابن أبي عامر بالأخص منافساً يخشى بأسه ، ويرتاب فى نياته وأطماعه . ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك فى نتيجته . وكان ابن أبي عامر هو الأقوى بلاريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه ، أو بموازرة صبح له . ولم تكن هذه الموازنة ترجع فقط

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

إلى ذلك الحب القديم ، الذى تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوى ، ولكنها كانت أيضاً ترجع إلى ثقة صبح فى مقدرته وبراعته ، وفى أنه هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحمى ملك ولدها الفتى ، وأن يوطد الأمن والسلام فى المملكة . كان ابن أبى عامر فى الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة ، تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الخليفة الفتى هشام المؤيد بالله ، ميالاً بطبيعته وسنه إلى اللهو والدعة ، ولم يكن له شىء من تلك الخلال الرفيعة ، التى تهيب الأُمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحداثق ، ويقضى كل أوقاته فى اللهو واللعب ، بين الحصيان وآلات الطرب ؛ وكان ابن أبى عامر وصبح يشجعان هذه الميول السيئة فى نفس الأمير ، ويريانها ملائمة لمقاصدهما^(١) . ومذولى هشام ، حجر عليه ابن أبى عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برويته أو مخاطبته ، وكان يحمل صبغاً بدائه وقوة عزمه ، على أن تخلق الأعدار لحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين . وفى ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسى : « حجر المنصور ابن أبى عامر على هشام المؤيد ، بحيث لم يره أحد مذولى الحجابة ، وربما أركبه بعض سنين ، وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »^(٢) . ويقدم إلينا ابن الخطيب تلك الصورة عن الخليفة هشام : « ولما كان هشام مندرجاً فى طى كافله الحاجب المنصور ، بحيث لا ينسب إليه تدبير ، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ، إذ كان فى نفسه وأصل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات ، وفى الكبر بمجالسة النساء ومحادثة الإماء ، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات »^(٣) . وفى الفرص النادرة ، التى كان يسمح فيها للأمير بالخروج ، كان ابن أبى عامر يتخذ أشد التحوطات ، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة ، بصفوف كثيفة من الحند ، تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه . وكان حجب هشام على هذا النحو ، عماد ذلك الانقلاب العظيم الذى اعتزم ابن أبى عامر ، أن

(١) Dozy : Hist. Vol. II. p. 227

(٢) راجع نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٥٨ .

يحدثه في نظم الدولة ، لتمكين ساطانه وجمع سلطات الخلافة كلها في يده .
وكان لابد لتحقيق هذه الغاية الكبرى ، أن يسحق ابن أبي عامر كل سلطة
أخرى تعترض سبيله . وكان الصقالبة وعددهم نحو ألف ، لا يزالون قوة يحسب
حسابها ، وكذا كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، ما يزال بحكم منصبه
وتأييد عصبته ، مسيطراً على السلطة العليا . وكانت الوحشة ما تزال قائمة بين
الحاجب وبين الصقالبة ، مذ تسبب في فشل مشروعهم لتولية المغيرة بن
عبد الرحمن ، وحصد شوكتهم بتوليته هشام . وكان الحاجب يخشى غدرهم
ودسائسهم . وبلغه أن فريقاً من زعمائهم ، وعلى رأسهم الفتيان جوذر وفائق ،
يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فاتخذ بعض التحولات ، ووضع الفتيان
تحت الرقابة ، وأغلق باب الحديد ، الذي كان مخصصاً لدخولهم ودخول أصحابهم
إلى القصر ، وقصر دخولهم مع بقية الناس على باب السدة ، وفصل الغلمان من
أصحاب جوذر وفائق ، وتفاهم مع ابن أبي عامر على إلحاقهم بحاشيته ، وكانوا
زهاء خمسمائة ، فقبل ابن أبي عامر خدمتهم وفخم بهم شأنه ، ثم انحاز إليه بنو
برزال . وكانوا قبلاً من أصحاب الحاجب جعفر ، فقوى بهم أمره ، ولم يمتص
سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتي جوذر ، وشعر الصقالبة بأن نجمهم
قد أفل ، وسلطانهم قد انهار ، فسرى بينهم التذمر ، واجتمع المتمردون حول
فتي من زعمائهم يدعى دري . ففتاهم الحاجب وابن أبي عامر على إزالته ، فدعى
إلى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نسبت إليه وإلى عماله من رعيته في بياسة ؛
ولما قدم دري ورأى كثرة الخند ، شعر بالشر ، وأراد العودة فنعه ابن أبي عامر ،
فهجم عليه وأراد أن يبطش به ، فصاح ابن أبي عامر بالخند ، فهرع إليه بنو
برزال وانهالوا عليه ضرباً ، ثم حمل إلى داره وقتل في نفس المساء . ورأى ابن
أبي عامر الفرصة سانحة لسحق الصقالبة ، فأمر كبيرهم فائقاً وباقي زعمائهم بالتزام
دورهم ، وفرق بذلك شملهم . ثم جد في مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وفتشى
فيهم القتل والنفي ، حتى هلك الكثير منهم ، وأبعد الفتي فائق في النهاية إلى
ميورقة فمات هناك . وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وزميله ابن
أبي عامر شرهم ، وتقلد الحاجب جعفر أمر القصر والحرم بدلا منهم .
ويبدى ابن حيان ارتياحه لسحق الصقالبة واستئصال شأفتهم على هذا النحو .

وقد كان الصقالبة في البداية زينة للدولة والبلاط ، وكان ظهورهم بمجموعهم المتألقة وأزيائهم الفخمة ، يسبغ على القصر ، وعلى مواكب الخلافة ، طابعاً من الأبهة والعظمة . ولكنهم منذ استأثروا بثقة الخليفة ، وبسطوا سلطانهم على القصر والدولة ، اشتد طغيانهم ، وثقلت وطأتهم على أهل الدولة ، وعلى الشعب قاطبة (١) .

وسنحت بعد ذلك بقليل فرصة أخرى ، لكي يوطد ابن أبي عامر قدمه في السلطة ، ويبسط نفوذه على الجيش عصب كل سلطان حقيقي . وذلك أن القشتاليين ، كانوا قد انتهزوا فرصة مرض الحكم ، وانشغال المسلمين عقب وفاته ، فدفعوا غاراتهم جنوباً ، ووصلوا إلى مقربة من العاصمة ذاتها ، ولم يبد الحاجب في ذلك ، ما كان واجباً من المهمة والنجدة ، فاهتم ابن أبي عامر ، وأشار إلى الحاجب جعفر بتجهيز الجيش واستئناف الجهاد ؛ ولكن الحاجب لم يجد من القادة من يعهد إليه بتلك المهمة ، فتقدم ابن أبي عامر للاضطلاع بها ، وجهاز المال والهند ، وأشرف بنفسه على اختيار الهند . وخرج من قرطبة في رجب سنة ٣٦٦ هـ (فبراير ٩٧٧ م) ، وسار شمالاً إلى أراضي قشتالة ، ثم عطف غرباً حتى أحواز شلمنقة ، وحاصر حصن الحامة ، ومكانه اليوم محلة تسمى بالإسبانية «لوس بانيوس» Los Baños (الحمامات) ، وتقع في جنوب بلدة (بخار) في السطح الغربي لجبال جريدوس ، ثم استولى على الحصن وربضه ، وقفل راجعاً إلى قرطبة ، متقلاً بالأسرى والغنائم ، وذلك لثلاثة وخمسين يوماً من خروجه إلى الغزو (٢) .

وكان لهذا الظفر الحربي الأول ، الذي حقق على يد ابن أبي عامر ، أكبر الأثر في نفوس الهند ، ونفوس الشعوب قاطبة ، فقد رأى الهند فيه قائدهم المظفر ، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه ، ورأى فيه الشعب حامى المملكة والمدافع عنها ، وكان لهذه البداية نتائج بعيدة المدى .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى تأهب ابن أبي عامر للسير إلى غزوته الثانية ؛ وكانت قد وقعت ثمة ظروف جديدة زادت في توطيد مركزه ، وفي إضعاف مركز الحاجب جعفر . وكان بين الحاجب ، وبين القائد غالب بن عبد الرحمن صاحب مدينة سالم ، وأعظم فرسان الأندلس ، عداء مستحکم ، زاده

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ و ٢٨١ . والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٤ .

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٥ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٢ . وكذلك

ما تقول به الحاجب على غالب ، من تقصيره في الدفاع عن الحدود الشمالية ، وعجزه عن رد النصارى ، فانتهاز ابن أبى عامر هذه الفرصة ليضم غالباً إلى جانبه ، وسعى إلى خدمته والدفاع عنه لدى صبح ، ولدى الخليفة ، حتى خرج المرسوم برفعه إلى خطة « ذى الوزارتين » ، وبأن يندب لقيادة جيش الثغر ، وأن يندب ابن أبى عامر لقيادة جيش الحضرة . وخرج ابن أبى عامر على أثر ذلك بالجيش إلى غزوته الثانية ، وذلك في يوم عيد الفطر سنة ٣٦٦ هـ (مايو ٩٧٧ م) ، فالتقى بغالب وجيشه في محلة مجريط^(٢) على طريق وادى الحجارة ، واخترق الحيشان معاً أراضي قشتالة القديمة ، واستولى المسلمون على حصن مولة ، وأصابوا كثيراً من الغنائم والسبي . وكان لجيش غالب التفوق في الأعمال الحربية في تلك المنطقة ، ولكن غالباً تنحى عن ذلك لابن أبى عامر ، وارتد بجيشه إلى الثغر ، بعد أن توثق بينهما التحالف ، والتفاهم على سحق الحاجب جعفر عدوهما المشترك ، وقفل ابن أبى عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبي ، وقد نسب إليه فخر الظفر على الأعداء ، فزاد صيته ، وارتفعت هيئته ، وتمكنت منزلته لدى الخليفة ، وازداد الشعب حوله التفافاً وله حباً^(٢) .

وهنا بدت طلائع المعركة الحاسمة بين ابن أبى عامر وجعفر المصحفى . فأكاد ابن أبى عامر يصل إلى قرطبة ، حتى خرج أمر الخليفة بعزل محمد بن جعفر ولد الحاجب عن حكمها ، وتقليده لابن أبى عامر ، وبذلك تم لابن أبى عامر السيطرة على المدينة والجيش معاً . وكانت قرطبة تعاني قبل توليه حكمها من اضطراب الأمور ، واختلال الأمن ، وذيوع الفساد والفسق ، فضبط أمرها وقمع أهل الشر والدعارة ، فساد بها الهدوء والأمن . ثم استخلف ابن أبى عامر على حكم المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبى عامر . فسار على طريقته ، في انتهاج الحزم والشدة في ضبط الأمور ، ومطاردة أهل البغى والعدوان . كل ذلك والحاجب جعفر ، يشهد ساطانه يغيض شيئاً فشيئاً ، وسلطان ابن أبى عامر في

(١) هي محلة حصينة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن فوق سفح جبال وادى الرملة على مقربة من طليطلة لصد غارات النصارى . وأنشئت بها قلعة منيعة . واستمرت تؤدي مهمتها الدفاعية ، حتى سقطت في أيدي النصارى في سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) . وعلى موقعها القديم أنشئت مدينة مدريد عاصمة اسبانيا الجديدة .

(٢) الذخيرة - القسم الرابع ج ١ ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٣ .

صعود وتمكن مستمر ، ويشهد انصراف الخليفة والشعب عنه ، ويشعر في قرارة نفسه بدنو الخاتمة المحتومة .

وخطر للحاجب جعفر أن يقف هذا التحول الخطر ، باسمالة القائد غالب ومصالحته ، فطلب يد ابنته أسماء زوجاً لابنه محمد ، فاستجاب غالب إلى طلبه ، وكادت تم المصاهرة ، ولكن سرعان ما علم ابن أبي عامر بذلك المشروع ، فثارت نفسه ، وكتب إلى غالب يناشده الولاء ، ويخطب ابنته لنفسه ، وعضده في ذلك أهل القصر ، فنزل غالب على تلك الرغبة ، وعدل إلى مصاهرة ابن أبي عامر ، وتم العقد في أوائل المحرم سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) . ولم يمض قليل على ذلك حتى خرج ابن أبي عامر إلى غزوته الثالثة فسار إلى طليطلة في أوائل صفر ، حيث التقى مع صهره غالب . وسار الإثنان في قواتهما شمالاً ، وافتتحا في طريقهما بعض الحصون ، ثم قصدا إلى مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غربي مملكة ليون فافتحها ، وعائنا في أرباضها ، واستوليا على كثير من الغنائم والسبي ؛ وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة لأربعة وثلاثين يوماً فقط من خروجه ، ومعه عدد عظيم من رؤوس النصارى . فاغتبط الخليفة بصنعه ، ورفع له إلى خطة الوزارتين أسوة بصهره غالب ، ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً في الشهر ، وهو راتب الحجابة في ذلك العصر .

وما كاد ابن أبي عامر يستقر في قرطبة ، حتى اتخذت الأهبة لإتمام زفافه . فأحضرت أسماء إلى العاصمة في موكب فخيم ، وكانت من أجمل نساء عصرها وأوفرهن ثقافة وسحراً ، وكانت قد تزوجت لأول مرة بالوزير ابن حدير أيام الحكم ، ثم طلقت منه . وزفت أسماء إلى ابن أبي عامر ، في حفلات كانت يضرب الأمثال في البذخ البهاء ، ونظم الاحتفال في قصر الخليفة ، وبإشراف أمه صبح ، وأغدقت صبح على العروس أروع الهدايا والتحف . وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة^(١) ، وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره ، حسبما نفصل بعد .

واستقدم الخليفة غالباً من الثغر ، وقلده خطة الحجابة إلى جانب جعفر ، فكانت ضربة جديدة للحاجب . ولكن جعفر لم يسعه إلا الإذعان والسكوت ، وقد

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٤

٢٨٥ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً . Dozy : Hist. Vol. II. p. 214 & 215

أضحى يشعر شعوراً قوياً بالخطر المحدق به ، وبأنه لم يبق له من الحجابة سوى الاسم ، ولم ينخدع بما كان يبديه نحوه ابن أبي عامر من التلطف والمصانعة ، وهو يقبض دونه على كل شيء في القصر والدولة .

وأخيراً وقعت النكبة المرتقبة ، ففي الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٧ هـ ، أصدر الخليفة أمره بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، والقبض عليه وعلى ولده وآله ، والتحفظ على أموالهم . وبادر ابن أبي عامر إلى محاسبتهم واستصفاء أموالهم ، وشدد في مطاردتهم ، حتى مزقهم كل ممزق ، وعوجل هشام ابن أخي الحاجب فقتل في مطبقة ، وكان من أشد الناس عداوة لابن أبي عامر ، وزج جعفر إلى ظلام السجن ، يعتقل فيه حيناً ، ثم يعتقل حيناً في داره ، واضطر إزاء التشدد في مطالبته أن يبيع داره الفخمة بالرصافة ، وكانت من أعظم دور قرطبة ، وأمعن ابن أبي عامر في نكايته ، واستجوابه بمحضر من زملائه القدماء ؛ واستطالت محنة المصحفي أعواماً ، عانى خلالها أروع آلام المهانة والذلة وهو يستعطف ابن أبي عامر فلا يرحمه ؛ واستمر سجيناً في مطبق الزهراء حتى توفي سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) . وقيل إنه قتل خنقاً في مطبقة ، وقيل إنه دست إليه شربة مسمومة كانت سبب وفاته .

وكان المصحفي حسباً تقدم شاعراً جزلاً ، وقد أذكت المحنة شاعريته ، وصدر عنه في مطبقة كثير من القصائد المؤثرة . ومن ذلك قوله :

صبرت على الأيام لما تولت وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فيا عجباً للقلب كيف اضطباره وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت تاقث وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأيت صبري على الذل ذلت
وقلت لها يانفس موتي كريمة فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ويعلق ابن حيان على محنة المصحفي بقوله : « وكانت لله عند جعفر ، في إثارة هشاماً بخلافته ، واتباع شهوة نفسه وحظ دنياه ، وتسرعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة ، دون قصاص جريرة استدركته دون إملاء ، فسلط عليه من كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه » (١) .

(١) راجع في محنة المصحفي الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٨ و ٤٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ - ٢٨٨ ، والحلة السراء ص ١٤٢ .

وهكذا سار ابن أبي عامر إلى غايته بسرعة مذهشة ، ولجأ في تحقيقها إلى أذكي الوسائل وأشدّها ، واستطاع بعزمه وصراوته وبارع خططه ، أن يسحق كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . ويجمل ابن خلدون معركة ابن أبي عامر مع خصومه في تلك العبارة القوية : « ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ، ومزق جموعهم» (١) . ولم يكن مهلك المصحفي ، بعد سحق الصقالبة ، سوى حلقة جديدة في سلسلة المطاردة الشاملة التي نظمها ابن أبي عامر لاستئصال شأفة خصومه ومنافسيه . ذلك أنه جد في نفس الوقت ، في مطاردة كل من يخشى بأسه من بني أمية أو غيرهم من زعماء القبائل ، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية والرياسة ، ومزقهم في البلاد شر ممزق ، كل ذلك تحت شعار حمايته للموئيد وللعرش ، وفي ذلك يقول شاعر من شعراء العصر :

أبني أمية أين أقمار الدجى منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

ولما خلا الجو لابن أبي عامر من أولياء الخلافة ، والمرشحين للرياسة ، اهتم بتنظيم الجيش . فأنشأ صفوفاً جديدة من المرتزقة من زنانة وصنهاجة وغيرهما من قبائل البربر ، ومن الجند النصارى من ليون وقشتالة ونافار ، وبذل لهم الأجور السخية ، واجتذب قلوبهم بعدله ورفقه وجوده . وغير أنظمة الجيش القديمة ، فقدم رجال البربر ، وأخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم ، وفرق جند القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون في صف واحد . وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت في قبائلهم حتى أيام الناصر ، ما تزال فتية قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية ، وإضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبي عامر فألقى الميدان ممهداً لخططه ، فلم تلق سياسته الجديدة كبير معارضة (٢) .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، وفتح الطيب ج ١

الكتاب الثالث
الدولة العامرية

الفصل الأول

الحاجب المنصور

ابن أبي عامر يطمح إلى حلال الملك . إنشاؤه لمدينة الزاهرة وانتقاله إليها . يؤلف حرسه من الصقالبة والبربر . تشدده في الحجر على هشام . موقف صبح من ذلك . ذبوع علاقتهما مع ابن أبي عامر . تحولها إلى خصومته والتشهير به . تفاههما مع القائد غالب . التفاف المعارضين حوله . جعفر بن حمدون الأندلسي يتولى الوزارة . تقاطر البربر من العدو . الوحشة بين ابن أبي عامر وغالب . نهوض غالب لمحاربه . استعانته بملك ليون . القتال بين غالب وابن أبي عامر . مصرع غالب وهزيمة قواته . الموقعة حسبما يصفها ابن حزم . غزوات ابن أبي عامر . غايته من القيام بها . مسيره إلى ليون ومحاصرته لسمورة . هزيمته للنصارى في شنت منكش . توغله في ليون ثم عوده إلى قرطبة . إتخاذه لسمة الملك وتسميه بالحاجب المنصور . غدره بجعفر الأندلسي . الحرب الأهلية في ليون . اعتراف برمودو بطاعة المنصور . مسير المنصور إلى الغزو . يخرق شرق الأندلس ويغزو قطلونية . اقتحامه لبرشلونة وتدميرها . حوادث المغرب . مسير الحسن بن كنون إلى غزو المغرب . المنصور يرسل جيشاً لقتاله . مطاردة الحسن وإرغامه على طلب الأمان . مسيره إلى قرطبة و اغتياله . نذب الوزير السلمى لحكم المغرب . إجتماع قبائل البربر حوله . مسير زيبرى زعيم مغراوة إلى قرطبة . القتال بين السلمى وبنى يفرن . مقتله وولاية زيبرى حكم المغرب . مسير زيبرى ثانية إلى قرطبة . عوده وخيبة أمله . غزو بنى يفرن لفاس واحتلالها . القتال بين مغراوة وبنى يفرن . اشتداد ساعد زيبرى . إنشاؤه لمدينة وجدة . غزو المنصور لليون واستيلاؤه على قلمرية . غزوه لنافار . ما تزعمه الرواية النصرانية . عود المنصور إلى غزو ليون . اقتحامه لمدينة ليون وتدميرها . استيلاؤه على سمورة . حوادث الثغر الأعلى . عبد الله ولد المنصور . تأمره مع عبد الرحمن التجيبى والى سرقسطة وآخرين . وقوف المنصور على المؤامرة في خروجه إلى الغزو . اعتقاله لعبد الرحمن التجيبى . فرار عبدالله والتجاءه إلى غرسية أمير قشتالة . غزو المنصور لقشتالة وهزيمة أميرها . غرسية يرسل عبدالله استجابة لطلب المنصور . إعدامه . تأملات عن هذا الحادث . سانشو ابن غرسية يخرج عليه بتحريض المنصور . المنصور يغزو قشتالة ويستولى على شنت إشتبين وكلونيه . قصة الأيل الذى أهده صاعد إلى المنصور . مسير المنصور إلى غزو ليون . إذعان برمودو وتعده بأداء الجزية . المنصور يرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ويوليه الحجابة . اقتصاره على التسمى « بالمنصور » . اختصاصه بالقباب السيادة . إحجامه عن المساس بالخلافة . عوامل هذا الإحجام . موقف صبح أم المؤيد . اتصالها بزيبرى حاكم المغرب . تحوطات المنصور . تفاهمه مع هشام وموكمهما المشترك . بأس صبح ووفاتها . الوحشة بين المنصور وزيبرى . مسير عبد الملك إلى العدو لمحاربة زيبرى . هزيمة البربر وسقوط فاس . عبد الملك يولى حكم المغرب . الصلح بين زيبرى والمنصور . المنصور يغزو جليقية . اختراقه لأراضى البرتغال . استيلاؤه على بازو وقلمرية . توغله في جليقية ومسيره إلى شنت ياقب . يهدم أسوارها وكنيستها العظمى . مسيره شمالاً حتى ثغر لاكرونيه . عوده من طريق لا ميجو إلى قرطبة . ملك ليون يطلب

الصلح . غزوة أخرى لقتالة . موقعة صخرة جربيرة . اقتحام المنصور لمدينة برغش . غزوه لنافار . آخر غزوات المنصور . ما تقوله الرواية الإسلامية . موقعة قلعة النصور . ما تقوله عنها الرواية النصرانية . آراء البحث الحديث في شأنها . مرض المنصور ووفاته . قبره بمدينة سالم .

أضحى ابن أبي عامر ، بعد أن قضى على كل خصومه ومنافسيه ، وحده ، سيد الميدان ، وأضحى بعد أن وضع يده على الجيش ، صاحب السلطة العليا دون منازع ولا مدافع . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد ، بعد ذلك ، سوى أداة لينة في يد المتغلب القوى ، يوجهها كيف يشاء .

على أن ابن أبي عامر لم يقنع بما حققه لنفسه من الاستئثار بالسلطة النعائية ، وعلى الرغم من أنه لم يفكر يوماً في الافتئات على شيء من رسوم الخلافة الشرعية ، فإنه اتجه إلى أن يتشج بحلل الملك في صورة من صورته ، فتكون له ثوباً خلافاً ، يتوج سلطانه الفعلي ، بمظاهر العظمة والأبهة الملوكية .

ولم يكن اتجاه ابن أبي عامر يقف عند تحقيق المظهر دون غيره ، ولكن كانت لديه أسباب عملية قوية ، تدعو إلى التحوط من أخطار التآمر والغيلة ، وقد أصبح نخشى على نفسه من الوجود في قصر الزهراء ، ومما قد يضمه بعض الخاقدين المتربصين^(١) ، ورأى أن يتخذ له مركزاً مستقلاً للإدارة والحكم ، يجمع بين السلامة ومظاهر السلطان والعظمة . فوضع أسس مدينة ملوكية جديدة أسماها الزاهرة (٣٦٨ هـ - ٩٧٨ م) . وقد اختلف في الموقع الذي كانت تحتله الزاهرة لأن البحوث الأثرية الحديثة لم تكشف شيئاً من معالمها ، مثلاً فعلت بالنسبة لمدينة الزهراء . ويقول البعض إنها كانت تحتل بسيطاً يقع جنوب شرقي قرطبة في منحني نهر الوادي الكبير ، وعلى قيد أميال قليلة منها . ويقول البعض الآخر إنها كانت تحتل بقعة تقع على مقربة من شرقي قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير^(٢) . وأنشأ المنصور بالزاهرة قصرأ ملوكياً فخماً ، ومسجداً ، ودواوين للإدارة والحكم ، ومسكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سوراً ضخماً ، ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ؛ وتم بناء المدينة الجديدة في نحو عامين ، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة ، وأكابر رجال الدولة ، فابتنوا الدور العظيمة ، وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٤ ، وأعمال الأعلام ص ٦٢ .

(٢) وهذا يستفاد من أقوال ابن حزم في « طوق الحمامة » ص ١١٠ .

وأضحى تنافس المدينة الخليفة في الضخامة والرونق .
وفي أوائل سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠ م) ، انتقل محمد بن أبي عامر إلى مدينة الزاهرة ،
واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر ، وأحاط قصره الحديد بالحراس
والحاشية ، يرقبون كل حركة وسكنة في الداخل والخارج ، وأفقرت بذلك
مدينة الزهراء الخليفة ، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخليفة ، وساد الصمت
حول مركز الخلافة الشرعي ؛ وأنشأ ابن أبي عامر في نفس الوقت حول القصر
الخلفي سوراً وخندقاً ، وأحكم غلق أبوابه ، ووكل بها من يمنع دخول أي
شخص أو نبأ إلى الخليفة دون علمه وإذنه . وبث عيون على هشام وحاشيته ،
وأشاع أنه قد فوض إليه النظر في سائر شئون المملكة ، لكي يتفرغ لشئون العبادة .
وهكذا أهمل شأن الخليفة الفتي ، وقطعت سائر علاقته مع الخارج ، ولبث
محبوباً في أعماق قصره ، يغمره الحمول والنسيان (١) .

ماذا كان موقف صبح إزاء هذا الانقلاب الحاسم في مركز ولدها ومركز
الخلافة ؟ لاريب أنها كانت بموقفها وتصرفها ، أكبر معين لابن أبي عامر على
إحداثه ، وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذي ملك عليها كل مشاعرها وعقلها ،
يدفعها دائماً إلى مؤازرته والإذعان لرأيه ، وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه
يضاعف ثقها به ، ويعمها دائماً عن إدراك الغاية الخطيرة التي يسعى إلى تحقيقها ،
هذا إذ لم نفترض أن تلك البشكنسية المضطربة الحوانح ، كانت تذهب في حبها
إلى حد الاثمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علاقته بابن
أبي عامر قد انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر
بها مجتمع قرطبة ، وتناولها بلاذع التعليق والهجو ، وظهرت بهذه المناسبة قصائد
وأناشيد شعبية كثيرة ، في التشهير بحجر ابن أبي عامر على هشام وعلاقته بصبح ،
فمن ذلك ما قيل على لسان هشام في الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه (٢)
ومن ذلك ما قيل في هشام وأمه صبح ، وقاضيه ابن السليم :

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ،
والحلة السيرة ص ١٤٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ .
(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسي .

اقترب الوعد وحان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب في مكتب أمه جبلي وقاض... (١)

وهذه الأناشيد اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان
يشير به موقف صبح وسمعتها ، من الحملات المرة . وتتفق الرواية الإسلامية في
الإشارة إلى هذه العلاقة الغرامية التي استطال أمدها ، بين صبح وابن أبي عامر ،
وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ، ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة أوردها
المقرئ لكاتب مغربي يدافع فيها عن ابن أبي عامر ، ويدفع عن صبح تهمة
شغفها به ، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب (٢) .

على أنه يبدو أن الحوادث قد بدأت تتطور من ذلك الحين ، وأن موقف
صبح قد بدأ يتخذ وجهة أخرى . فقد أدركت صبح أخيراً ما يرمى إليه ابن أبي عامر
وأدركت خطورته على مستقبل ولدها ، ومستقبل الأسرة والخلافة ، فثارت
نفسها سخطاً . وكانت صبح قد جاوزت الأربعين يومئذ ، وقد تصرم ذلك الحب
القديم ، الذي شغفها بابن أبي عامر دهرأ ، وأضححت تبغض ذلك الرجل الذي
سلب ولدها ، وسلبها كل نفوذ وسلطة ، ومن ذلك الحين تنقلب صبح إلى خصومة
ابن أبي عامر ومقاومته . وقد كان من الصعب ، إزاء عزم ابن أبي عامر ويقظته ،
وسلطانه الشامل ، أن تستطيع صبح القيام بأية عمل مباشر ، فلجأت عندئذ إلى
العمل المستتر ، وأخذت تبتث في نفس ولدها هشام ، بغض ابن أبي عامر والسعي
إلى مناوئته واسترداد سلطانه منه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ، وشهرت بواسطة
أعوانها من الناقلين ، على ابن أبي عامر ، دعاية شديدة ، وآهمته بأنه يسجن
الخليفة الشرعي ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . والظاهر أن صبحاً لم تقف
عند هذا الحد من المقاومة الأدبية ، وأنها حاولت في نفس الوقت ، أن تقوم
بمحاولة عملية لمقاومة ابن أبي عامر وإسقاطه .

وربما كان لتدبير صبح وتحريضها ، أثر فيما وقع يومئذ بين ابن أبي عامر
وصهره القائد غالب ، صاحب مدينة سالم . وكان غالب بالرغم من تقلده خطة
الوزارة ، يقيم بالثغر بعيداً عن قرطبة . وكان يتمتع في قرطبة وسائر مدن الأندلس

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٢ ص ٣٠٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢ .

بسمعة عالية في ميدان الفروسية والقيادة ، وهو ما كان ينقمه ابن أبي عامر على صهره . وكان المعارضون يرون فيه الرجل الوحيد ، الذي يستطيع أن يقارع ابن أبي عامر ويقاومه . فرأى ابن أبي عامر أن يرفع إلى مرتبة الوزارة جعفر بن علي ابن حمدون المعروف بالأندلسي ، وكان من مشاهير الفرسان والقادة البربر من زناته ، وكان مقيماً بالعدوة ، فعبّر البحر إلى الأندلس ، واستقر في الوزارة ، يكنفه ابن أبي عامر بحبه وثقته ، ويستعين به على تأليف البربر وكسب محبتهم ، ولا سيما بعد أن غدوا يولفون معظم حرسه وحاشيته . وتقاطر البربر من العدوة ، وابن أبي عامر يستقبلهم بأوفر ضروب البذل والإحسان ، ويقوى بهم صفوفه وبطانته . وكان غالب يستشعر الوحشة والريبة من تصرفات صهره ، ويتوقع منها سوء العاقبة . ولم يمض قليل حتى ساء التفاهم بين غالب وصهره ، فعمد غالب إلى مصانعة ابن أبي عامر ، ودعاه أثناء غزوه بالصائفة في أراضي قشتالة ، إلى وليمة أقامها بمدينة أنتيسة^(١) ، إحدى مدن الثغر التي تحت ولايته ، وجاء ابن أبي عامر إلى القلعة حيث أقيمت الوليمة ، في بعض أصحابه ، فانفرد به غالب وشرع في عتابه . ثم اشتد بينهما النقاش ، فشهر غالب سيفه على صهره فجأة ، فأصابه في بعض أنامله وصدغه ، واستطاع ابن أبي عامر أن يفر ناجياً بنفسه ، من مأزق بالغ الخطورة . وامتنع غالب بالقلعة ، بينما سار ابن أبي عامر لفوره إلى مدينة سالم ، حيث دار غالب وأهله ، فاستولى عليها وعلى سائر أمواله ومتاعه ، وفرقها في الجيش ، وعاد إلى الحضرة ، وهو يضمّر لغالب أسوأ النيات .

وكان غالب أعظم قادة الأندلس وأبرعهم في ذلك العصر ، وكانت لديه في الثغر قوات يعتد بها ، فنهض لقتال قوات ابن أبي عامر ، وغلب عليها في البداية غير مرة . ثم رأى أن يستعين براميرو الثالث ملك ليون ، فأمدّه ببعض قواته . وسار ابن أبي عامر لمقارعة خصمه في معركة حاسمة . ووقع اللقاء بين الفريقين أمام حصن شنت بجنث San Vicente على مقربة من أنتيسة ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، أبلت فيها غالب وقواته بلاء حسناً وكاد يحرز النصر في البداية ، ولكنه ما لبث أن سقط ميتاً عن جواده خلال المعركة ، ولم يعرف سبب مصرعه لأنه لم يقتل بيد أحد ، وحملت رأسه في الحال إلى ابن أبي عامر ، فدب الوهن

(١) وهي بالإسبانية **Atienza** . وهي تقع شمال وادي الحجارة ، على مقربة من غربي مدينة سالم .

والذعر إلى قواته ، وطاردها قوات الأندلس ، وأمعنت فيها قتلا وأسراً ، وهلك من الحند النصارى الذين كانوا يقاتلون إلى جانب غالب عدد جم . وكان بين القتلى أمير نصراى هو راميرو ابن سانشو أباركا من أمراء البشكنس^(١) . وقتل كذلك فى المعركة عدة من الكبراء والقادة المسلمين ، الذين كانوا مثل غالب يعارضون سياسة ابن أبى عامر . وكان ذلك فى الرابع من محرم سنة ٣٧١ هـ (أغسطس ٩٨١ م)^(٢) .

وقد روى الفيلسوف ابن حزم عن أبيه الوزير ابن حزم ، وزير ابن أبى عامر وكان ممن صحبه فى تلك الموقعة ، تفاصيل الموقعة حسبما شهدها . وهو يصف لنا هيئة القائد غالب خلال الموقعة فى قوله : « وهو شيخ كبير قد قارب الثمانين عاماً ، وهو على فرسه ، وفى رأسه طرطور عال ، وقد عصب حاجبيه بعصابة » قال ، وكان قد جمع جمعاً عظيماً من المسلمين والنصارى ، فبدأ بالهجوم على الميمنة ، وفيها جعفر بن على وأخوه يحيى والبربر ، وحمل عليهم حملة أزاحتهم ، عن مواقعهم ، ومزقت صفوفهم ؛ ثم حمل على الميسرة ، وكان فيها الوزير ابن حزم مع غيره من الرؤساء ، ففعل بها كما فعل بالأولى . ثم أخذ يتأهب لمهاجمة القلب ، وهو تحت قيادة ابن أبى عامر نفسه ، وهو يقول : « اللهم إن كنت أصلح للمسلمين من ابن أبى عامر فانصرنى ، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره » . ثم يصف لنا ابن حزم مصرع غالب على النحو الآتى ، قال : « ثم هز فرسه ، وترك جهة القتال وأخذ ناحية إلى خندق كان فى جانب عسكره ، فظن أصحابه أنه يريد الخلاء ، فلما أبطأ عليهم ركبت طائفة منهم نحوه ، فوجدوه قد سقط إلى الأرض ميتاً ، وقد فارق الدنيا بلا ضربة ولا رمية ولا أثر ، وفرسه واقف بجانبه يعلك لحامه ، ولا يعلم أحد سبب موته . فلما أدرك ذلك أصحابه سقط فى أيديهم ، وطلبوا حظ أنفسهم ، فبادر مبادر منهم بالبشرى إلى ابن أبى عامر ، فلم يصدق حتى وافى مواف بخاتمه ، ووافاه آخر بيده ، ووافاه آخر برأسه » .

هذا وقد بلغت القسوة بابن أبى عامر ، أن أمر بالتمثيل بجثمان خصمه الصريع

(١) وهو الذى تسمية الرواية العربية برذمير بن شانجه ويعرف « برأى قرجة » .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٦٢ ، ٦٣ . وكذلك

الباسل ، فحشى جلده بالقطن ، وصلب على باب القصر بقرطبة ، وصلب رأسه على باب الزاهرة ، ولبت كذلك دهرأ ، حتى أدركه الفيلسوف ابن حزم نفسه ، وهو فتي ، وذلك عند إنزاله يوم هدم الزاهرة في سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) (١) .

* * *

وهنا تبدأ سلسلة هذه الغزوات الشهيرة العديدة ، التي شهرها ابن أبي عامر على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستمر يضطلع بها باستمرار ودون هوادة ، والتي خرج منها جميعاً متوجاً بغار الظفر ، ولم يهزم في أية واحدة منها .
وتتحدث معظم الروايات الإسلامية عن حروب ابن أبي عامر وغزواته بإفاضة ، وتعددها بأكثر من خمسين غزوة . ولكنها لا تقدم إلينا عنها تفاصيل واضحة ، ولا سيما عن الزمان والمكان (٢) ، ويحمل ابن خلدون ذكرها في قوله : « وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا اثنين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ، ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية » (٣) .

وتجمل الرواية الإسلامية بواعث هذه الغزوات المستمرة في نزعة الجهاد . ولكن الحقيقة هي أن ابن أبي عامر ، كان باضطلاعاً بتلك الغزوات المتعاقبة يرمى إلى غاية سياسية بعيدة المدى ، لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الأندلس ، أو لم يجد لديه وسيلة أو مقدره لتنفيذها . ذلك أنه فكر في أن يسحق الممالك الإسبانية النصرانية سحقاً تاماً ، وأن يقضى على استقلالها القومي ، وأن يخضعها جميعاً إلى سلطة الخلافة . وقد خالف ابن أبي عامر في غزواته ، سنن أسلافه من الأمراء والقادة ، فقد كان هؤلاء يحاربون في معظم الأحيان للدفاع ورد غارات النصارى ، ولكن ابن أبي عامر كان هو البادئ بالحرب دائماً ، ولم يقبل من أعدائه قط صلحاً أو مهادنة ، ولم يقنع قط إلا بالنصر الكامل .

(١) راجع رواية ابن حزم في رسالة « نقط العروس » (المنشورة في مجلة كلية الآداب بالقاهرة في عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ٨١ و ٨٢ .

(٢) ذكر ابن الأبار في الحلة السيرة أن المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان قد استوعب هذه الغزوات وفضلها في كتابه الكبير الذي ألفه في أخبار الدولة العمارية . ولكن هذا المؤلف لم يصل بعد إلينا (١٤٩) .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ . وكذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٤ وج ٩ ص ١٢ .

ولكن سوف نرى أن غزوات المنصور ، بالرغم من تحرى هذه الغاية البعيدة المدى ، وبالرغم مما كان يحالفها من الظفر المستمر ، لم تخرج في مجموعها عن أساليب الصوائف والغزوات الإسلامية المأثورة ، ولم تتجه بالفعل إلى تحرى هذه الغاية الكبرى .

سار ابن أبي عامر عقب الفراغ من أمر صهره غالب ، إلى مملكة ليون ، ليعاقب ملكها راميرو الثالث على معاونته لخصمه غالب ، وتدخله على هذا النحو في شئون الأندلس ، وقصد إلى مدينة سمورة الحصينة الواقعة شمالى شلمنقة ، وضرب حولها الحصار (أوائل سنة ٣٧١ هـ الموافقة ٩٨١ م) ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة بسرعة ، فتركها وعاث فيما حولها من السهول ، وأمكنت قواته في التخريب والقتل ، وأحرقت مئات القرى والضياع ، وهام النصارى على وجوههم في الجبال والوديان ألوفاً مؤلفة . وهرع راميرو الثالث إلى غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، وسانشوملك نافار ، وعقد الثلاثة تحالفاً لمحاربة ابن أبي عامر ، وسارت قواتهم المشتركة للقائه . ونشب القتال بين الفريقين في ظاهر بلدة « روضة » في جنوب غربى « شنت منكش » (١) ، فهزم النصارى وقتل منهم عدد كبير ، واستولى المسلمون على قلعة شنت منكش الشهيرة ؛ ثم زحف ابن أبي عامر بعد ذلك شمالاً إلى مدينة ليون عاصمة المملكة ، وهناك وقف راميرو في قواته محاولاً اعتراضه ، وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ووصلوا في هجومهم بالفعل إلى أبوابها ، ولكن الشتاء كان قد دخل ، وغمرهم البرد والتلوج ، فاضطروا إلى وقف القتال ، وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بعد غزوات دامت بضعة أشهر (٢) .

وعلى أثر هذا النصر ، وفي أواسط سنة ٣٧١ هـ (أواخر ٩٨١ م) اتخذ ابن أبي عامر سمة الملك ، فتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه عن « الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر » ونقش اسمه في السكة ، وجرى الوزراء ورجال الدولة على تقبيل يده ، عند المثلول لديه ، واجتمعت حول شخصه ، وحول داره ، مظاهر الجلالة الملكية ، وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى

(١) روضة هي بالإسبانية Rueda ، وشنت منكش هي Simancas .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 234-235 ; Recherches (3ème ed.) Vol. I. p.

الاسم^(١) . هذا وسوف نجرى منذ الآن فصاعدا على تسمية ابن أبي عامر باسمه الملكي : المنصور .

وكان المنصور حين استقدم جعفرأ بن علي الأندلسي ، ورفعته إلى خطة الوزارة ليعارض به نفوذ القائد غالب ، وليوثق بوجوده مودة البربر وتأييدهم ، يتوجس مع ذلك من وجوده وسلطانه ، ويخشى أطماعه ومشاريعه ، في الناحية الأخرى من البحر ، فما كان ينتهي من أمر غالب ، ومن ترتيب رسومه الملكية ، حتى قرر أمره ، فدعاه ذات مساء إلى مأدبة حافلة ، وأغرى به السقاة حتى فقد وعيه ، ثم دس عليه في طريقه إلى منزله من قتله ، وحمل إليه رأسه سرأ (٣٧٢ هـ) . فتظاهر المنصور بالحزن على ضحيته ، وكانت هذه الجريمة المثيرة ، عنواناً لبعض النواحي القائمة ، في خلاله وفي وسائله السياسية^(٢) .

وفي ذلك الحين كانت الأحوال قد اضطربت في ليون ، وفقد راميرو الثالث من جراء هزائمه المتوالية كل عطف وتأييد ، وزاد الشعب نقمة عليه ، ومحاولاته في توسيع سلطانه ، وتمكين حكمه المطلق . وما لبثت جاسيكية أهم ولاياته ، أن اضطربت بالثورة ، وقرر أشرافها خلع راميرو ، وتولية ابن عمه برمودو (أو برمند) ملكاً مكانه . وفي أكتوبر سنة ٩٨٢ م ، توج هذا الأمير ملكاً على ليون في مدينة شنت ياقب . فسار راميرو إلى محاربتة ونشبت بينهما موقعة شديدة غير حاسمة ، في بلدة بورتليا دي أريناس ، على حدود ليون وجليقية ، ثم عاد برمودو إلى جمع قواته ، وسار لمحاربة خصمه مرة أخرى ، فهزمه واستولى على مدينة ليون في مارس سنة ٩٨٤ . فالتجأ راميرو إلى مدينة أسترقة ، والتمس مساعدة المنصور ، على أن يعترف بطاعته ؛ ولكنه توفي بعد ذلك بأشهر قلائل ؛ وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور ، فأبى المنصور أن يستمع إليها . وأدرك برمودو من جهة أخرى أنه لن يستطيع مقاومة الأشراف المعارضين لحكمه إلا بمعاونة المسلمين ، فتقدم إلى المنصور ، وعرض أن يعترف بطاعته ، فقبل المنصور وأمدته بجيش ، استطاع أن يخضع به سائر المملكة ، وأن يوطد حكمه . وبقيت بعد ذلك في مدينة ليون حامية كبيرة من المسلمين .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، و ٣٠٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٥ .

وهكذا غدت مملكة ليون الإسبانية النصرانية لأول مرة ، ولاية تابعة للحكومة قرطبة ، تؤدي لها الخزية ، وتآمر بأوامرها ، وكانت هذه أول ثمرة لسياسة الغزو المنظم ، التي سار عليها المنصور .

وتحول اهتمام المنصور بعد ذلك إلى شمال شرقي الأندلس ، فحشد جيشاً ضخماً استعداداً لغزوة هامة ، لم تخطر من قبل لأحد من أمراء الأندلس . وخرج في قواته من قرطبة في ذي الحجة سنة ٣٧٤ هـ (مايو ٩٨٥ م) ، ومعه عدة من الكتاب والشعراء ، يجتمعون في مجلسه خلال السير . وتوصف غزوة المنصور هذه بأنها الثالثة والعشرون . وسار المنصور جنوباً صوب إلبيرة (غرناطة) ، ثم اتجه شرقاً إلى بسطة ، فلورقة ، فتدمير ، فرسية ، وأقام في مرسية ثلاثة وعشرين يوماً في ضيافة أحمد بن دجم بن خطاب وولده أبي الأصبح موسى . وكان ابن خطاب من أعظم رجالات الأندلس وجاهة وثراء وجوداً ؛ ومن المدهش حقاً ، ما تنقله إلينا الرواية ، من أنه استضاف المنصور وسائر حاشيته وجيشه خلال هذه المدة ، وتكفل بسائر النفقات ، وأبدى من ضروب الجود والبذخ ما يفوق قصص ألف ليلة وليلة ، وغداً بذلك من أعظم أصدقاء المنصور وأكثرهم حظوة لديه^(١) .

وسار المنصور في جيشه بعد ذلك شمالاً . وكان يقصد ثغر برشلونة العظيم . وقد لبثت برشلونة منذ الفتح في أيدي المسلمين نحو قرن من الزمان ، وكانت أعظم ثغور الأندلس الشمالية الشرقية ، ثم افتتحها عاهل الفرنج شارلمان أو كارل الأكبر في سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) أيام الحكم بن هشام ، بعد حصار طويل ، وبعد أن دافع المسلمون عنها أروع دفاع . واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة لولاية « الثغر القوطي » ، الذي نما فيما بعد ، واستطاع حكامه الكونتات القوط مع الزمن ، أن ينزعوه من يد الفرنج ، وأن يجعلوا منه إمارة مستقلة ، هي إمارة قطلونية ، التي حافظت عسراً على استقلالها ، ثم اندمجت بعد ذلك في مملكة أراجون القوية^(٢) . واخترق المنصور بجيشه قطلونية ، وهزم قوات أميرها الكونت بوريل ، في أواخر شهر يونيه ، وأشرف على ظاهر برشلونة في اليوم الأول من يولييه ، ولم تمض

(١) الحلة السيرة عن ابن حيان وابن الفياض ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٢) راجع القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام في الأندلس » (الطبعة الثالثة)

ص ٢٣٢ و ٢٣٣ .

أيام قلائل حتى اقتحم المسلمون المدينة ، ودخلوها في يوم الاثنين منتصف صفر سنة ٣٧٥ هـ ، الموافق سادس يولييه سنة ٩٨٥ م (١) . ودمر المسلمون المدينة ، وأحرقوها ، وقتلوا معظم أهلها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكان بين الأسرى أودلرادو نائب كونت برشلونة ، فاقنيد إلى قرطبة ، حيث قضى في الأسر أعواماً طويلة . والظاهر أن المنصور لم يحاول الاحتفاظ ببرشلونة ، ولم تكن لديه نية افتتاحها بصورة دائمة ، ولكنه قصد أن يدمر قوى النصارى في هذا الطرف النائي من شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

وما كاد المنصور يرتد بجيشه إلى قرطبة ، حتى استغرقت حوادث المغرب جل اهتمامه . وقد فصلنا فيما تقدم عند الكلام على عهد عبدالرحمن الناصر ، ثم عهد ولده الحكم المستنصر ، أدوار الصراع الذي نشب في المغرب الأقصى ، بين الفاطميين مذ قامت دولتهم في إفريقية ، وبين بني أمية ، ورأينا كيف استطاع الحكم المستنصر ، بعد سلسلة من الأحداث المثيرة ، والمعارك الطاحنة ، بينه وبين الفاطميين وحلفائهم الأدارسة بالمغرب ، أن يقضى على قوى الشيعة والأدارسة ، وكيف استسلم إليه الأدارسة وكبير زعمائهم الحسن بن كنون في سنة ٣٦٣ هـ ، واستقروا حيناً في كنفه في قرطبة ، ثم خرجوا منها بعد ذلك بعامين ، وساروا إلى مصر حيث استقروا بها في كنف خليفتها الفاطمي العزيز بالله .

وكان العزيز قد شغل في أوائل ولايته ، برد خطر القرامطة عن مصر والشام ؛ فلما تمت هزيمة القرامطة ، وزال خطرهم (٣٦٨ هـ) ، عاد إلى الاهتمام بشئون المغرب ، وثاب له رأى في العمل على استعادة سلطان الدعوة الفاطمية ، وسحق الدعوة المروانية في المغرب الأقصى ، فأوعز إلى نائبه على إفريقية (تونس) بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجي ، أن يسير في قواته إلى المغرب ؛ فبدأ بلكين زحفه على المغرب سنة ٣٦٩ هـ ، فاستولى على مدينة فاس ، وهزم سائر الأمراء الذين تصدوا لمقاومته من زناتة وغيرهم ، وفر أولئك الأمراء المعارضون جميعاً إلى الشمال ، واعتصموا بسبته ، وبعثوا إلى المنصور يستغيثون به . فعهد المنصور

(١) تتفق الروايات النصرانية مع الرواية الإسلامية في تحديد تاريخ دخول المسلمين لبرشلونة على هذا النحو . راجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٧١ . وكذلك Dozy: Hist. Vol. II. p. 239 والمراجع .

يوهئذ ، إلى جعفر بن علي بن حمدون المعروف بالأندلسي ، وهو من زعماء زناته بمحاربة بلكين ، وأمده بالهند والمال ، والتف حوله باقي الزعماء . ولكن باكين استمر في تقدمه ، رغم كل معارضة ، حتى استولى على المغرب كله ، ولم يبق منه بيد خصوم الشيعة سوى القطاع الشمالي .

وفي سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) بعث العزيز بالله ، الحسن بن كنون زعيم الأدارسة ، من مصر إلى المغرب تحقيقاً لملتسمه ، ليسعى إلى استرجاع ملكه ، وقاده عهده ، وأمر نائبه على المغرب باكين أن يمدد بالقوات اللازمة ؛ وكان العزيز ، ووزيره ابن كلّس تخالجهما أيضاً رغبة في التخلص من الحسن وصحبه ، والتخفف من مؤنتهم^(١) . فسار الحسن إلى المغرب ، في جيش صغير أمده به بلكين ، ودعا لنفسه ، فالتف حوله كثير من البربر ، ولا سيما بني يفرن ، وجاهروا بطاعته ؛ وعلم المنصور بخبره ، فبعث ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن عامر المعروف بعسكلاجة ، في جيش كثيف ، إلى المغرب ، لقتاله والقضاء على دعوته . فعبر البحر إلى سبتة لقتال الحسن ، وانضم إليه زعماء مغراوة في قواتهم ، وفي مقدمتهم كبيرهم زيري بن عطية بن خزر ، ثم بعث المنصور لإمداده جيشاً آخر إلى المغرب بقيادة ولده عبد الملك ؛ وطارد عسكلاجة الحسن ، ثم أحاطه بقواته ، وحاصره حتى أرهقه الحصار ، ولم ير بداً من طلب الأمان والتسليم ، على أن يسير إلى الأندلس كسابق عهده ، فأجيب إلى طلبه ، وأرسل على عجل إلى قرطبة تحقيقاً لرغبة المنصور . ولما علم المنصور بمقدم الحسن ، آثر أن ينقض الأمان الذي منحه ابن عمه ، وأن يقضى على حياة ذلك الخصم العنيد ، الذي تكرر خروجه على حكومة قرطبة ، فأنفذ إليه من قتله في الطريق وأتاه برأسه ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ (أواخر سنة ٩٨٥ م) وانهارت بذلك دعوة الأدارسة بالمغرب الأقصى ، وتفرق أنصارهم ، وركدت ريحهم .

وعلى أثر ذلك ندب المنصور لحكم المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ، ومنحه السلطان المطلق ، وأمره أن يعمل على استمالة البربر في تلك الأقطار ، إذ يجب أن لا ننسى أن البربر كانوا للمنصور ظهيراً ، وعوناً على إخضاع القبائل العربية بالأندلس ، ومنهم اتخذ المنصور حاشيته وجنده ،

(١) « نبت تاريخية في أخبار البربر » ص ١٩ .

وكثيراً من رجالات حكومته وجيشه . فسار الوزير إلى المغرب (٣٧٦ هـ) ونزل بفاس ، وضبط شئون البلاد ، واجتمعت إليه أمراء زناتة ومغراوة ، واتخذ من زعيم مغراوة زيرى بن عطية عوناً وحليفاً ، لما أبداه من إخلاص للدعوة المروانية وتأييدها . واستدعى المنصور زيرى للوفود عليه ، فسار إلى قرطبة ، واحتفى المنصور بمقدمه ، وأسبغ عليه كثيراً من مظاهر العطف والتكريم ، وأوعز إليه بمقاتلة بنى يفرن أولياء الفاطميين ؛ فلما عاد زيرى إلى المغرب سار مع الوزير الحسن إلى قتال بنى يفرن وزعيمهم يدو بن يعلى ، ولكنه هزم ، وجرح الوزير الحسن ، ثم توفي متأثراً بجراحه (سنة ٣٨١ هـ) . فلما علم المنصور بذلك عقد لزيرى على المغرب ، وندبه لحكمه ، وأمره بضبط الأمور ، والتعاون مع جيش الخلافة ، وأصحاب الحسن ، فاضطلع زيرى بمهام الحكم بمقدرة وكفاية ، وكان حازماً ، قوى النفس والعزم ، فقوى أمره وتوطد سلطانه ، ولكنه لبث مشغولاً بأمر خصومه من بنى يفرن وغيرهم ، ولبث الحرب سجلاً بينهم مدى حين (١) .

وفى سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) استدعى المنصور زيرى بن عطية ، للقدوم عليه للمرة الثانية ، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز ، وسار إلى قرطبة ، وقدم إلى المنصور هدية عظيمة منها طيور نادرة وحيوانات غريبة ، وأسود ؛ فأكرم المنصور وفادته ، وأنزله بقصر المصحفى ، وغمره بالمال والصلوات ، ومنحه لقب الوزارة . وجدد له عهده على المغرب ، وعلى جميع ما غلب عليه ؛ ولكن زيرى لم يبتهج بلقب الوزارة ، بل بالعكس ساءه ذلك ، إذ كان يعتبر نفسه فى مرتبة الإمارة ، فعبر البحر إلى العدو وفى نفسه مرارة وخيبة أمل . وما كان يصل إلى طنجة حتى نمي إليه أن خصومه الألداء بنى يفرن وأميرهم يدو ابن يعلى ، قد انتهزوا فرصة غيبته ، فزحفوا على فاس واستولوا عليها ، وقتلوا بها كثيراً من رجال مغراوة . فأسرع بالسير إلى فاس ، وهناك جمع قواته ، ونشبت بين مغراوة وبنى يفرن معارك عديدة متوالية ، قتل فيها كثير من الطائفتين وانتهت بهزيمة بنى يفرن ومقتل أميرهم يدو ، وبعث زيرى برأسه إلى المنصور (٣٨٣ هـ) .

وأصبح زيرى بعد هزيمة بنى يفرن وركود أمرهم ، أعظم أمراء المغرب قوة

(١) راجع فى حوادث المغرب الأقصى ، ابن خلدون ج ٧ ص ٢٨ - ٣٠ ، والاستقصاء ج ١

ص ٨٨ - ٩٢ ، و« نبد تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٧ - ٢١

وبأساً ، واستقر سلطانه في سائر أنحاء المغرب ، واستمر في الظاهر على ولائه للمنصور ، وللدعوة الأموية . ولكن نفسه كانت تجيش بمشاريع أخرى . ولما كانت فاس بموقعها في الطرف الغربي للمغرب ، وعلى مقربة من مواطن القبائل الحصيمة ، أصبحت لا تصلح لمشاريعه ، فقد اعتزم أن ينشئ لنفسه قاعدة جديدة ، فأنشأ مدينة وجدة الواقعة جنوبي شرقي مليلة ، وعلى مقربة من جنوب غربي تلمسان ، وابتنى بها قصبة منيعة وقصراً ، وأحاطها بأسوار ضخمة ، ونقل إليها أمواله وذخائره ، وسكنها بأهله وحشمه ، واتخذها قاعدة الحكم (سنة ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م) لموقعها المتوسط بين المغربين الأوسط والأقصى (١) .

* * *

ولنتف الآن قليلاً في تتبع حوادث المغرب ، لنعود إلى تتبع حوادث الأندلس . ذلك أن المنصور سار على سنته من المضي في غزو الممالك النصرانية . وكانت الأحوال في ليون ما تزال بعيدة عن الإستقرار ، نظراً لما كان يضطرم بين حامية ليون المسلمة ، وبين النصارى من الشعب المستمر . وكان برمودو ملك ليون ، بعد أن استتب له الأمر ، يرقب الفرص لإخراج المسلمين من مملكته ، فجدد في جمع قواته ، وانقض ذات يوم على المسلمين ، وطاردهم إلى خارج حدوده . فاضطر المنصور أن يرد بغزو ليون ؛ فسار في قواته نحو الشمال مخترقاً أراضي ليون ، ثم سار غرباً إلى مدينة قلمرية ، الواقعة في شمالي البرتغال على مقربة من المحيط ، واستولى عليها في يونيه سنة ٩٨٧ م (٣٧٧ هـ) ، وأمعن في تخريبها حتى لبثت قاعاً صفصفاً مدى سبعة أعوام . وفي خلال ذلك كان البشكنس أو النافاريون قد أغاروا بقيادة ملكهم سانشو على أراضي الثغر الشمالي ، فسار المنصور إلى قتالهم وطاردهم حتى مدينة بنبلونة عاصمة نافار ؛ وهنا تقول الرواية النصرانية إن البشكنس انقلبوا إلى الهجوم ، وهزموا المسلمين (أواخر ٩٨٧ م) . ثم تزيد على ذلك أن جيشاً من الفرنسيين ، قد سار في نفس الوقت إلى برشلونة ، تعاونه سفن من البحر ، فاستولى عليها ، ولم تلبث طويلاً في يد المسلمين . وقد رأينا فيما تقدم أن المسلمين حين غزوا برشلونة ، لم يقصدوا إلى الاحتفاظ بها ، بل اكتفوا بتخريبها وإحراقها .

(١) الإستقصاء ج ١ ص ٩٢ .

على أن الرواية الإسلامية تحدثنا عن غزوة نافر هذه ، دون أن تشير أية إشارة إلى هزيمة المسلمين ، وهي تسميها بغزاة البياض ، وتضع تاريخها في سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) ، وتقول لنا إن المنصور عاد بجيشه إلى سرقسطة ، حيث التقى هنالك بولده عبد الملك أثر عوده من حروب المغرب (١) .

وما كادت تمضي أشهر قلائل ، حتى عاد المنصور لاستئناف الغزو ؛ فخرج في ربيع سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) في جيش ضخم ، وعبر نهر دويرة ، واخترق أراضي ليون شمالاً ، فرابط برمودو في معظم قواته بمدينة سمورة ، اعتقاداً منه أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ، ولكن المنصور سار توأً إلى مدينة ليون ، فقاومه حيناً لمناعة قلاعها ، ولكنه اقتحم أسوارها ، بعد قتال رائع ، قتل فيه قائدها الكونت جونزالفو جونثال ، ودخلها المسلمون فخرّبوا صروحها ، وأبادوا سكانها ، وغادروها أطلالا دارسة . وسار المنصور بعد ذلك جنوباً إلى سمورة ، وأحرق في طريقه عدداً من الأديار ومنها ديرى إسلونزا وسهاجون العظيمين ، وضرب الحصار حول المدينة ، فغادرها برمودو سرّاً ، واضطر السكان إلى تسليمها إلى المنصور ، فأمر بنهبها ، واضطر معظم نبلاء المملكة (الكونتات) إلى الاعتراف بطاعته ، ولم يبق بيد برمودو من مملكته ، سوى الرقعة الجبلية الشمالية الغربية من جليقية (٢) .

وفي العام التالي وقعت بالثغر الأعلى حوادث هامة . وكان الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، لوقوعه في أقصى الشمال بعيداً عن قرطبة ، يغدو في فرص كثيرة مهدداً للقلاقل والثورات المتعاقبة . وكان حكامه بنو هشام التجيبيون الذين غلبوا على بني قسى ، وانزعوا سرقسطة لأنفسهم ، منذ أيام الأمير عبد الله ، يتمتعون بنوع من الإستقلال المحلى ، ويحرصون على سلطانهم ، بالرغم من اعترافهم بالإسمى بسلطان الحكومة المركزية . وكان حاكم الثغر الأعلى وهو يومئذ عبد الرحمن بن مطرف التجيبى ، يرقب سياسة المنصور ، في القضاء على سلطان الحكام المحليين ، بتوجس وحذر ، ويلتمس السبل لحماية سلطانه ، ولم يكن بعيداً عن التفكير في التحالف مع جيرانه من النصارى ، في نافر ، وقشتالة ، كما فعل أسلافه أيام الناصر ؛ ولكن تطور الحوادث جعله يتجه اتجاهاً آخر .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 244 & 245 .

ذلك أن عبد الله ابن المنصور بن أبي عامر ، كان ناقماً على أبيه لأنه يؤثر أخاه عبد الملك عليه ويصطفيه دونه ، ويوليّه كل عطفه وثقته ، وكان عبد الله يومئذ فى فى الحادية والعشرين من عمره ، وكان يشعر أنه يتفوق فى الشجاعة والحلال على أخيه الأكبر ، ولكن المنصور كان يشك فى بنوة ولده عبد الله ، ويضن عليه بجه وثقته ، ويخشى نيّاته ومشاريعه^(١) . وكان عبد الله قد ذهب إلى سرقسطة ، ونزل عند صاحبها عبد الرحمن ، وهو متغير النفس على أبيه . فانهز التجيبي الفرصة ، واستمال عبد الله إليه ، وأذكى حقدّه على أبيه ، واثمر الإثنان على الوثوب بالمنصور فى أول فرصة والقضاء عليه ، على أن يقتسما ملك الأندلس ، فيستولى عبد الله على قرطبة وما والاها ، ويستولى عبد الرحمن على الثغر وأحوازه ، وانضم إليهما فى تلك المؤامرة بعض أكابر الحند ورجال الدولة . من المعارضين للمنصور والناقمين عليه : وفى مقدمتهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المروانى حاكم طليطلة المعروف بالربضى .

وترامت أخبار هذه المؤامرة الخطيرة إلى المنصور قبل نضجها ، فأعمل الحيلة فى استدعاء ولده عبد الله من سرقسطة . وأبدى له كثيراً من الرفق والعطف ، وصرف الوزير المروانى عن حكم طليطلة صرفاً حميلاً ، ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة . واعتقله بداره . ثم خرج بالصائفة غازياً إلى أراضى قشتالة . واستدعى إمداد الثغور ، فتوافدت إلى لقائه ، وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجاله . واجتمعت الحشود بقوات قرطبة فى مدينة وادى الحجارة . وهناك أجمع أهل الثغور بوحى المنصور ، على الشكوى من عبد الرحمن بدعوى احتباسه لأرزاقهم ، فقرر المنصور إقالته ، ولكنه رأى استمالة لبنى هاشم ، أن يعين مكانه فى حكم سرقسطة ، ولده يحيى الملقب « بسماحة » (نهاية صفر ٣٧٩ هـ) . ولم تمض على ذلك أيام قلائل ، حتى أمر المنصور بالقبض على عبد الرحمن ، ومحاسبته ، ثم أعدم بأمره فيما بعد إثر عوده إلى الزاهرة^(٢) .

واستدعى المنصور فى نفس الوقت ولده عبد الله إلى معسكره خشية مما قد يقع منه . ثم سار فى قواته شمالاً إلى شنت إشتبين ، وبينما هو مشغول بحصارها ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ .

إذ فر ولده عبد الله في نفر من غلمانه ، ولحق بغرسية فرنانديز كونت قشتالة ، فوعده بحمايته وتأييده . فطالب المنصور غرسية بتسليم ولده ، وأقسم ألا يكف عن قتاله ، حتى ينزل على رغبته ؛ فأبى غرسية ، واضطرم القتال بين الفريقين ، وسار المنصور شرقاً ، واستولى على أوسمة (وخشمة) ووضع بها حامية إسلامية ، ثم استولى على « القبة » بعد ذلك بقليل ، وتوالت الهزائم على غرسية ، حتى اضطر أخيراً إلى أن يتضرع إلى المنصور أن يكف عنه ، وتعهد بإجابته إلى سائر مطالبه ؛ فقبل المنصور ضراعتة ، وبعث غرسية ، عبد الله في جماعة من القشتاليين ، فاستقبله سعد الخادم ، مع جماعة من الفرسان ، وقبل يده ولاطفه ، ثم تركه مع بعضهم ، فأنزله عن بغله ، وأخطروه أن يتأهب للموت ، فترجل عبد الله ، وقدم نفسه للموت هادئاً ، ثبت الحنان رائع الشجاعة ، فضرب عنقه عند غروب الشمس من يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ (٩ سبتمبر ٩٩٠ م) وأنفذ برأسه في الحال إلى والده المنصور ، فبعث به المنصور مع كتاب الفتح إلى الخليفة ، ودفن شلوه في مكان مصرعه ، وكان عمره يوم إعدامه ثلاثة وعشرين عاماً . وكانت غزوة المنصور التي وقعت خلالها تلك الحوادث هي غزوته الخامسة والأربعون (١) . وقد يبدو لنا المنصور ، بإقدامه على إزهاق ولده ، في أشنع الصور وأروعها . ولكن يجب علينا أن نذكر الظروف التي اضطرت فيها المنصور ، إلى اتخاذ تلك الخطوة المؤلمة ؛ فقد كان ائثار عبد الله بأبيه ، وتحالفه أولاً مع التجيدين سادة الثغر ، وخصوم الحكومة المركزية منذ بعيد ، ثم التجاؤء بعد ذلك إلى أمير قشتالة من أقطع الدلائل على مرض نفسه ، وخطورة مقصده ؛ ولو نجحت المؤامرة ، لقضى على سلطان المنصور ، وانهارت دعائم الدولة الإسلامية العظيمة ، التي نجح المنصور في إقامتها وتوطيدها ، ولكان المنصور نفسه حسماً كان يعتقد ، من أول ضحاياها (٢) ، فما كان عبد الله ليردد عندئذ في إزهاق أبيه ليفسح المجال لنفسه . ولقد كان تصرف المنصور قبل كل شيء تصرفاً سياسياً صارماً ، خلواً من كل عاطفة ، إلا عاطفة الاحتفاظ بالنفس والسلطان ، وكان للمنصور في تصرفه المثير أسوة في كل عصر ، وفي كل قطر ، بل كانت له أسوة في بني أمية أنفسهم من أمراء وخلفاء ، فقد قام عبد الرحمن الداخل بإزهاق ابن أخيه وأبناء عمومته ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ و ٣٠٥ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 247 & 248

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ .

وأقدم الأمير عبد الله على إزهاق إخوته الثلاثة ، وإزهاق ولديه ، ثم جاء الناصر لدين الله ، فأقدم على إزهاق ولده وأبناء عمومته ، كل ذلك بتهمة التآمر ، وحرصاً على السلطان . وقد كان القتل ، ما زال على كر العصور ، سلاح الطغاة الأقوياء ، يجعلونه سياجاً لطغيانهم ودولتهم ؛ وهكذا جعل المنصور مقتل ولده سياجاً لطغيانه فاهتز له الناس ، وملئوا وحشة وروعاً^(١) .

هذا وأما عبد الله بن عبد العزيز المرواني ، أحد أركان الموائمة ، فقد استطاع الفرار في الوقت المناسب ، والتمجأ إلى حماية برمودو ملك ليون .

وكان من ذبول الموائمة أن قرر المنصور أن يعاقب غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، على ما ارتكبه في حقه ، بإغراء ولده عبد الله وحمايته ، فحرض ولده سانشو على الثورة عليه ، وأيده عدد كبير من الأشراف ، وانتهى سانشو بأن أعلن الحرب على أبيه ، وجاهر المنصور بتأييده ، ثم انتهز فرصة اضطراب هذه الحرب الأهلية ، وسار لمحاربة الكونت ، واستولى على شنت إشتين وكلونية . ثم ترك جزءاً من قواته لمتابعة الصائفة وعاد إلى قرطبة .

وهنا تقدم الرواية الإسلامية قصة حادث مدهش ، يعتبر من أغرب موافقات القدر . وهو أن شاعر المنصور أبا العلاء صاعدا بن الحسن البغدادي ، أهدى إليه أيبلاً في عنقه جبل ، وسماه غرسية باسم كونت قشتالة ، وبعث به إلى القصر يوم السبت منتصف ربيع الثاني سنة ٣٨٥ هـ ، ومعه أبيات جاء فيها :

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مذل
عبد جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهدى إليك بأيبيل
سميته غرسية وبعثته في حبله ليتاح فيه تفاؤلي

فكان من عجائب القدر ، أن تحققت نبوءة الشاعر . ففي نفس اليوم الذي قدم فيه الأيبل والقصيد إلى المنصور ، تمت الهزيمة على الكونت غرسية فرنانديز ، وجرح وأسر على ضفاف نهر دويرة ، على مقربة من بلدة « القصر » ، وذلك في يوم ٢٥ مايو سنة ٩٩٥ (منتصف ربيع الثاني ٣٨٥ هـ) . ثم توفي الكونت بعد أيام قلائل متأثراً بجراحه ، وتم الأمر لولده سانشو ، ولكنه اضطر أن يؤدى الجزية للمسلمين^(٢) .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٢) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٢٢ ، ٢٣ ، وأعمال الأعلام ص ٦٨ و ٦٩ ،

والمعجب لعبد الواحد (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

وفى خريف هذا العام سار المنصور إلى غزو ليون ومعاينة ملكها برمودو على حمايته لعبد الله بن عبد العزيز المرواني . وكانت الأحوال قد ساءت في ليون ، واستولى الأشراف الإقطاعيون على سائر أراضيها وضياعها ، ولم يبق للملكها سوى الاسم ، واضطر برمودو أن يغادر مدينة ليون عاصمة ملكه ، وأن يتخذ أسترقة عاصمة مكانها . فلما أرهقه المنصور بالحرب غادر أسترقة ، واتمس الصلح من المنصور ، وسلمه المتآمر عبد الله ، وتعهد بدفع الجزية ، فأجابه المنصور إلى ما طلب . واستولى فيما بعد على مدينة سمورة ، وأسكن بها المسلمين ، وولى عليها عاملاً من قبله هو أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي . وهكذا عادت قشتالة وليون إلى دفع الجزية لحكومة قرطبة^(١) . وأما عبد الله المرواني ، فقد ألقى به المنصور إلى السجن مصفداً ، وتركه يرزح في أصفاده ، بالرغم مما رفعه إليه من القصائد المؤثرة في طلب العفو والمغفرة^(٢) .

* * *

وقد تقدم أن ابن أبي عامر اتخذ سمة الملك منذ سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) ، وتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، وكانت هذه أول خطوة في اتخاذه ألقاب الملك بصفة رسمية ، بعد أن استأثر بكل سلطة فعلية . وفى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أى بعد ذلك بعشرة أعوام ، اتخذ المنصور خطوة أخرى في سبيل تدعيم صفته الملوكية . فرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ، وهو فتى لم يجاوز الثامنة عشرة ، ونزل له عن خطة الحجابة والقيادة العليا ، وسائر الخطط الأخرى التي كان يتقلدها ، واقتصر على التسمى بالمنصور ، وأن تنفذ الكتب عنه « باسم المنصور أبي عامر وفقه الله » كما قلده ولده عبد الرحمن خطة الوزارة . ثم كانت الخطوة الثالثة بعد ذلك بخمسة أعوام ، حينما أصدر المنصور في سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) أمره ، بأن يخص بألقاب السيادة من بين سائر الناس في المخاطبات ، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة ، ونفذت الكتب بذلك ، وخوطف المنصور من ذلك الوقت « بالملك الكريم » ، وبولغ في تكريمه وتعظيمه في سائر المخاطبات ، واستمر ذلك بقية حياته^(٣) .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وراجع Dozy : Hist Vol. II. p. 249

(٢) راجع الحلة السيرة ص ١١٣ و ١١٤ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

ولم يك ثمة شك فيما يرمى إليه ابن أبي عامر ، من وراء هذه الخطوات المتعاقبة في سبيل الانتشاح بألقاب الملك والسيادة . فهو قد حقق من الناحية العملية أمنيته الجوهريّة ، بالاستيلاء على الدولة والاستئثار بكل سلطة فعلية . ولكنه كان يرمى إلى أبعد من ذلك . فهو قد أصبح أعظم وأقوى رجل في الدولة ، وقد جمع بين يديه سائر السلطات السياسية والعسكرية . وكان الجيش وهو عماد السلطان والدولة ، يتكون معظمه من البربر والنصارى المرتزقة ، ويدين للمنصور بمنتهى الولاء والإخلاص ، وهو الذى عنى بإنشائه وتنظيمه ، وقاده إلى ميادين النصر عشرين عاماً . وإذا فقد كان يبدو من هذه الظروف كلها ، أنه لم يك ثمة ما يحول دون أن يحقق المنصور غايته الأخيرة ، فيتوج حكمه بالصفة الشرعية ، ويتنزع لنفسه ما بقى من رسوم الملك والخلافة ، ويؤسس بذلك لنفسه ولعقبه دولة جديدة ، تحل مكان الدولة الأموية المحتضرة .

وهناك ما يدل على أن المنصور ، كان يعتزم بالفعل أن يتخذ سمة الخلافة ؛ وهذا ما يقرره الفيلسوف ابن حزم ، ويروى تفاصيله نقلاً عن أبيه الوزير ابن حزم وزير المنصور ، وملخص روايته أن المنصور جمع للمشورة في ذلك الأمر قوماً من خواصه منهم ابن حزم ، وابن عياش ، وابن فطيس من الوزراء ، وبعض الفقهاء ؛ وقد صوب رأيه ابن عياش وابن فطيس ، ولكن ابن حزم عارض فيه ، وأعرب عن خوفه من أن يحرك ذلك ساكن الأحوال . وأن المنصور ليس في حاجة إلى مثله ، وببده سائر الأمور ؛ وتردد رأى الفقهاء بين الاعتراض والموافقة^(١) .

على أنه يبدو من جهة أخرى ، من تراث المنصور وتمهله في اتخاذ الخطوات المذكورة ، أنه كان يخشى نتائج العنف والتسرع . فما الذى كان يخشاه المنصور إذاً ، وقد اجتمعت في يده كل السلطات . وأضحى يسيطر على سائر القوى ؟ لقد كان نهوض المنصور وتقدمه في سبيل السلطان ، مقترناً بظروف لا تساعد على اكتساب محبة الشعب وتأييده الخالص . فقد وقع عن طريق اتصاله بصبح ، بالمرأة التى كانت تسيطر على الدولة ، والتي كانت علائقه بها تثير كثيراً من الحمس والتعليق اللاذع ، وقد وقع على حساب الخليفة الطفل هشام المؤيد ، الذى استلب

(١) راجع نقت العروس لابن حزم ص ٧٧ .

ابن أبي عامر سلطانه وحقوقه تباعاً ، ثم حجر عليه بطريقة قاسية تشبه الموت المدنى ، وقطع علائقه مع العالم ، ولم يكن يسمح له بمقابلة أحد . أو بالخروج من القصر ؛ وفي الفرص النادرة التي كان يسمح بخروجه فيها . كان يسير في موكبه وعليه برنس نحفي شخصه ، ومن حوله صفوف كثيفة من الخند . فلا يستطيع أحد أن يراه أو يقترب منه^(١) . وكان الشعب القرطبي يشهد أطوار هذه المأساة المؤلمة واحماً ناقماً ، ويعتبر الخليفة الشرعي ضحية وشهيداً . يستحق كل عطفه وراثته . ولم يكف كل ما حققه المنصور من مظاهر السلطان والمجد ، وما أحرزه من الظفر المتوالى . وما أسبغه حكمه على الأندلس من أسباب السكينة والعزة والأمن والرخاء ، لم يكف ذلك كله لحمل الشعب على نسيان قضية خليفته الشرعي . أضف إلى ذلك كله ، تلك الوسائل الدموية المثيرة ، التي لجأ إليها ابن أبي عامر للتخلص من خصومه ومنافسيه . فقد كانت تباعد بينه وبين الشعب ؛ ولم يكن الشعب ، إزاء هذه الظروف والعوامل كلها . يمنح ابن أبي عامر حبه وولاءه . وإن كان من جهة أخرى نخشاه ويرهبه . بل ويعجب بخزمه وعزمه وعبقريته في تسيير الأمور ، وفي تأمين البلاد . وإذلال العدو .

ومن ثم كان تراث ابن أبي عامر وتحوطه . فإنه لم يكن واثقاً من إغضاء الشعب ، عن انقلاب حاسم يقضى به على آخر مظاهر الخلافة الشرعية . وينتزع به تراث بني أمية . ومن جهة أخرى . فقد كانت هناك صبح أم الخليفة المعتقل ، المحروم من كل حقوقه وسلطانه ؛ وكانت صبح قد غدت بمضى الزمن ألد خصوم ابن أبي عامر وأخطرهم . وقد رأينا كيف بدأت تعمل لمقاومته . منذ شعرت بخطورة مشاريعه ، على مركز ولدها . وتحاول أن تجمع من حونها كلمة الناقلين والمعارضين لابن أبي عامر . باسم حماية الخليفة الشرعي . وإنقاذه من نير المتغلب ؛ وكيف وقعت أول محاولة حقيقية لمقاومة ابن أبي عامر . في انقلاب صهره القائد غالب عليه ومحاربه إياه ، ولم تبدل من ذلك الحين أية محاولة أخرى في هذا السبيل . هذا وسلطان المنصور على كر الأعوام يتوطد . ومركز هشام المؤيد يزداد سوءاً وانحلالاً ، وتغيض ذكريات الخلافة ورسومها شيئاً فشيئاً .

فلما عمد المنصور أخيراً إلى اتخاذ ألقاب السيادة والملك ، شعرت صبح بأن

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٤١ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

الضربة القاضية أضحت على وشك الوقوع . واعتزمت أن تصاعف العمل في سبيل حماية ولدها ، وتحريره من قبضة المتغاب . فكررت ضد المنصور دعائها القديمة : وأتمته على يد دعائها وأعوامها . باغتصاب سلطان الخلافة ، ومقاومة رغبة الخليفة في تولى الحكم بنفسه ؛ وخطر لها في نفس الوقت أن تتصل بزيري ابن عطية حاكم المغرب . وأن تدفعه إلى مناوأة المنصور ، فبعثت إليه رسالها ، وأنفذت إليه الأموال سراً . ليحشد الخند ويتأهب لعبور إلى الأندلس . وكان زيري من أولياء بني أمية ومن أشد الخاضعين لتضيتهم . وكان ينقم على المنصور سياسته في الحجر على هشام ؛ وفوق ذلك فقد كان غاضباً على المنصور ، لما أساء به في حقه حين زيارته إلى قرطبة . وإذاً فقد لبى زيري دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته . وحجره على الخليفة . ويدعو إلى مقاومته ، ورد الأمر إلى الخليفة الشرعي (١) .

وكان المنصور يتقناً . فم يفته شيء من خطط صبح وأعوامها . وكان أول همه أن يرفع يدها عن الأموال . التي أخذت تفتن في تهريبها بواسطة فتیان القصر . وكان المنصور مريضاً . فبعث ولده عبد الملك في قوة من الجيش إلى قصر الخلافة بقرطبة . ومعه جمهرة من القتهاة والنوزراء . ثم دخل بهم إلى مجلس الخليفة . وخاضبه في الأمر . فأنكر هشام ذلك . وتبرأ من خصومة المنصور . ووافق على نقل المال . فنقل فوراً إلى الزاهرة . ولم يبق منه في خزائن القصر شيء . ولم تجد توصلات صبح . ولا وعيدها . وتطاوخوا على عبد الملك شيئاً . ويقال إن ما حمه المنصور يومئذ من المال بلغ عدة ملايين (٢) .

ولما أبل المنصور من مرضه بعد ذلك بتليل . سار إلى قصر قرطبة مع ابنه عبد الملك وسائر عضاء الدولة . وانفرد بالخليفة في مجلسه . فاعترف له هشام بالفضل . وحمد اضطلاع به بشئون الدولة . وأقره على سياسته . ثم عمد المنصور إلى اتخاذ خطوة جريئة أخرى . فأخرج هشاماً من القصر . وأركبه في زى الخلافة في موكب عظيم . وركب إلى جانبه . وأمامه ولده عبد الملك . وسار الجيش أمام الموكب ومن خلفه . وتبع الموكب جموع عظيمة من طوائف الخند والفتيان

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ . و« نبد تاريخية في أخبار البربر » ص ٢٧ .

(١) الذخيرة (عن ابن حبان) المجلد الرابع النعم الأول ص ٥٢ - ٥٤ ، ونفع الطيب

الصقالبة . وشق هذا الموكب الخليفى شوارع قرطبة ، بين جموع حاشدة مستبشرة من الشعب ، وكان يوماً عظيماً مشهوداً ، وكان آية الظفر للمنصور وسياسته^(١) . وهكذا فشلت صبح في محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور ، وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح في الواقع أهلاً لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مكن له في كل شيء ، ولم يبق للخليفة الأموى من السلطان سوى الاسم . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدى ، لحأت إلى السكينة والعزلة ، فلا نسمع عنها بعد ذلك في سير الحوادث ، ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ، ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور أو بعدها ؛ وكل ما تقوله الرواية الإسلامية في ذلك ، هو أن وفاتها كانت أيام ولدها هشام . والظاهر أنها توفيت بعد ذلك بقليل قبل وفاة المنصور ، حوالى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ، لأننا لانعثر باسمها بعد ذلك في حوادث الأندلس . وقد أورد صاحب « يتيمة الدهر » لشاعر العصر أبى عمر محمد بن درّاج القسطلى ، قصيدة يرثى فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » ، ومما جاء فيها :

هل الملك يملك ريب المنو	ن أم العز يصرف صرف القضاء
ألم نر كيف استباححت يدا	ه حريم الملوك وعاق النساء
هو الرزء أودى بعزم الملو	ك مصاباً وأودى بحسن العزاء
لبيض أباديك فى الصالحا	ت تمسك وجه الضحى بالضياء
فتلك مآثرها فى التتى	وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاك بأعمالك الزاكيا	ت خيرُ المجازين خيرَ الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح	نسيم النعيم وطيب الثواء ^(٢)

هذا وأما عن موقف زيرى بن عطية ، وتطاوله على المنصور ، فقد رد المنصور بأن قطع عنه رزق الوزارة ، ومحا اسمه من ديوانه ، واعتبره خارجاً عاصياً ؛ ورد زيرى على ذلك بأن قطع ذكر المنصور من الخطبة ، وطرده عماله بالمغرب ، وأعلن الخروج والثورة . فجهز المنصور لقتاله جيشاً عظيماً بإمرة مولاه الفتى

(١) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٤ .

(٢) وردت هذه القصيدة بأكملها فى يتيمة الدهر (القاهرة ١٩٤٧) ج ٢ ص ١٠٩ و١١٠ .

واضح ، وأمدته بالأموال والذخائر ؛ وعبر واضح البحر في قواته إلى طنجة ، وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر نخمارة وصنهاجة وحالفته على قتال زيرى . وخرج زيرى في قواته والتقى الجمعان بوادى زارات جنوبي طنجة ، ونشبت بينهما معارك شديدة متصلة مدى ثلاثة أشهر ، ثم انتهت بهزيمة واضح وتمزيق جيشه ، ففر في فله إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور يستصرخ به .

فخرج المنصور من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ، وتوافدت إليه الجيوش ، ثم أجاز ابنه عبد الملك بمعظم قوات الأندلس وقوادها ، وأمره بالتشدد في محاربة زيرى والقضاء عليه ؛ فعبر عبد الملك البحر في قواته إلى سبتة ، واتصل خبره بزيرى فتأهب للقائه ، وبعث إلى جميع بطون زناتة يستصرخهم لنصرته ، فهرعت إليه الوفود والقوات من سائر النواحي ، وسار لقتال عبد الملك في جموع عظيمة . وزحف عبد الملك من طنجة ، ومعه الفتي واضح في قوات لا تحصى ، والتقى الفريقان بوادى منى من أحواز طنجة ، ونشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر في نهايتها شر هزيمة ، وقتل منهم عدد ضخم ، وجرح زيرى واستولى عبد الملك على معسكره ، ثم طارده حتى مكناسة ، ففر إلى الصحراء مع نفر من أصحابه . وقد أشاد شاعر العصر ابن درّاج القسطلي بعبقرية المنصور وأهباته العسكرية ضد زيرى بن عطية في قصيدة طويلة هذا مطلعها :

ثك الله بالنصر العزيز كفيل
هو الفتح أما يومه فمعجل
وآيات نصر ما تزال ولم تزل
سيوف تنير الحق أنى انتضيتها
ومنها :

لئن صدت الباب قوم بيغيم
فإن يحيي فيهم بغى جالوت جدهم
هدى وتقى يؤدى الظلام لديهما
يجمع له منه قائد النصر عاجل
تحمل منه البحر بحراً من القنا
بكل معالاة الشراع كأنها
فسيف الهدى في راحتك صقيل
فأحجار دواد لديك مثول
وحق يدفع المبطلين كفيل
إليه ومن حسن اليقين دليل
يروع بها أمواجه ويهول
وقد حملت أسد الحقائق غيل

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافراً ، في نهاية شوال سنة ٣٨٧ هـ (نوفمبر ٩٩٧ م) وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح ، فكتب إليه بعهدده على المغرب ، وعاد واضح بالخيبر إلى قرطبة . ولبت عبد الملك والياً للمغرب ستة أشهر فقط ، نظم خلالها شئونهم ، ووطد أمرهم ، ثم عاد إلى الأندلس ، وخلفه على المغرب عيسى ابن سعيد صاحب الشرطة ، فلبث في ولايته حتى أوائل سنة ٣٨٩ هـ . ثم أقبل وخلفه الفتي واضح .

وفي تلك الأثناء كان زيري بن عطية قد جمع فلوله من قوات زناتة ، ووافته جموع كثيرة من مغراوة ، وكانت صنهاجة قد اختلفت على أمرها ، فانتهز زيري هذه الفرصة وزحف شرقاً على بلاد صنهاجة ، وأوغل فيها ، واستولى على تاهرت وتلمسان وبعض بلاد الزاب ، وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد وللمنصور ، ثم كتب إلى المنصور يتقرب إليه ويسترضيه ، ويؤكد حسن طاعته من جديد ، فعفا عنه المنصور ، وأعاد له ولاية المغرب ، بيد أنه لم يعيش طويلاً فتوفي في سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١ م) ، متأثراً بجراحه التي أصابته في موقعة وادي منى . وخلفه في الولاية ولده المعز ، فأقره المنصور ، ولبث المعز والياً للمنصور ، مقماً على دعوة بني أمية ، يعمل على توطيدها بالمغرب ، إلى أن اضطرب جبل الخلافة بالأندلس^(١)

* * *

وبينما كان عبد الملك المنصور بالمغرب يتم إخضاع زيري وشيعته ، كان المنصور يتخذ الأبهة لأعظم غزاته . وكانت منطقة جليقية في قاصية إسبانيا الغربية ، تعتبر لنأيها ووعورتها ، أمنع مناطق إسبانيا النصرانية ، وأبعدها عن متناول الفاتحين . ولم يفكر أحد من الغزاة المسلمين ، منذ أيام طارق أن يقصد إلى تلك المنطقة الجبلية الوعرة ، لما يعترض الوصول إليها من الصعاب الهائلة . ولكن المنصور اعتزم أن يسير إلى جليقية لسببين : الأول أنها كانت ملاذاً وماجاً للملوك ليون ، يمتنعون به كلما أرهقتهم الغزوات الإسلامية ، والثاني أنها كانت مستقراً لمدينة شنتياق (أوشنت ياقب) الدينية ، كعبة إسبانيا النصرانية ومزارها المقدس ، ورمز زعامتها الروحية . وقد سبق أن عرضنا إلى نشأة هذه المدينة

(١) راجع حوادث المغرب في البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ٣٣ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٣ و ٩٤ ، و«نبذ تاريخية في أخبار البربر» ص ٣٠ - ٣٥ .

المقدسة ، وإلى أسطورة القديس ياقب (أو يعقوب الحواري) التي اتخذت أساساً لإنشائها ، وكيف زعمت الأسطورة أن قبر القديس يعقوب ، قد اكتشف بمعجزة وقعت في هذه المنطقة ، فأنشئت فوقه كنيسة ، وأنشئت حول الكنيسة مدينة مقدسة ، سميت باسم القديس ، وغدت عاصمة إسبانيا الدينية ، ومزاراً شهيراً يقصده النصارى من سائر الأنحاء^(١). وقد شاء المنصور أن يضرب إسبانيا النصرانية في صميم معقلها القاصي ، وفي صميم زعامتها الروحية ، بغزو جليقية . واقتحام مدينتها المقدسة . فخرج من قرطبة في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ هـ (٣ يولييه ٩٩٧ م) على رأس قوى الفرسان . وفي الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسي ، الذي أعده المنصور لهذه الغزوة الكبرى ، من مرساه أمام قصر أبي دانس Alcacer do Sal في مياه البرتغال الغربية ، شمالاً بحذاء الشاطئ البرتغالي ، يحمل المشاة والأقوات والذخيرة ؛ واخترق المنصور إسبانيا الغربية شمالاً ، وهو يعبر الجبال والأنهار العظيمة تباعاً ، حتى وصل إلى مدينة قورية : ثم زحف نحو الشمال الغربي ، واستولى في طريقه على مدينتي بازو وقلمرية^(٢) . وهنا وفد على المنصور عدد كبير من القوامس (الكونتات) النصارى المعترفين بطاعته ، وهم الواقعة أملاكهم في أراضي البرتغال ما بين نهري دويرة ومنيو . وانضموا مع قواتهم إلى جيشه . ثم سار المنصور شمالاً حتى وصل إلى نهر دويرة ، وهناك وافاه الأسطول . محترقاً النهر من منصبه عند ثغر بورتو ، فجعل منه جسراً مريحاً لعبور جيشه وعدده وأقواته ، واتجه الجيش الإسلامي بعد ذلك صوب جليقية ، وهو يقتحم السهل والوعر في شعب الجبال ، ثم عبر نهر منيو (منهو) ، وسار بحذاء شاطئ المحيط ، واستولى في طريقه على بعض الحصون ، وخرب عدداً من الأديرة التاريخية في تلك المنطقة . وكانت جموع كبيرة من النصارى ، قد فرت إلى الجزائر المقابلة للشاطئ ، فعبر المسلمون إليهم من بعض المخاض وأسروا معظمهم ، واخترقوا مفاوز الجبال المجاورة للمحيط ، واستخرجوا من لجأ إليها من النصارى ، واستصفوا غنائمها ؛ ثم اقتحموا الجبال إلى السهل ، وخربوا بلدة إيليا (إيريا) ونهبوها ، وهي أيضاً

(١) راجع القسم الأول من العصر الأول من دولة الإسلام في الأندلس الطبعة الثالثة ص ٢١٧

و ٢١٨ .

(٢) هما بالإفرنجية على التوالي Viseu و Coimbra

من المزارات الدينية الشهيرة . وأشرف المسلمون على مدينة شنت ياقب في يوم الأربعاء الثامن من شعبان (١١ أغسطس) . فوجأوها خالية من أهلها . وكانوا قد غادروها حين اقتراب الغزاة . فدخلها المسلمون . وهدموا أسوارها ومسرحها التاريخية . وكثرت العظمى . واستولوا على سائر ما فيها من النذخات وتحتف . وأمر المنصور بصبون قبر القديس ياقب القائم وسط الكنيسة العظمى . واخفاضة عليه . ولم يجد المنصور بالكنيسة إلا شيخاً من الرهبان يجلس على القبر فسأله عن مقامه . فقال أوانس يعقوب . فتركه وأمر بالكف عنه . وأخذ المسلمون أبواب المدينة . ونواقيس الكنيسة العظمى . وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة . فوضعت الأبواب فيما بعد . في ستمت الزيادة التي أنشأها المنصور بالمسجد الجامع . وعلقت به النواقيس رؤوساً للثريات الكبرى .

وسار المنصور بعد ذلك مخترقاً أراضي برمودو التي امتنع بها وعاث فيها . ولم يستطع أحد أن يقف في سبيله . ووصل إلى شاطئ المحيط على متربة من بلدة كرونية (قرجيطة) . ثم انحدر جنوباً حتى وصل إلى أراضي الزعماء النصارى (القوامس) الموالين له ، والذين صحبوه في غزوته . فأمر بالكف عنها . وتابع سيره حتى وصل إلى مدينة لاميجو في شمال البرتغال الحديثة (وتسميها الرواية الإسلامية لميقة) ، وهناك وزع الهدايا والكسي الفاخرة على الزعماء النصارى . وصرفهم إلى بلادهم . وكتب بالفتح إلى دار الخلافة . ثم عبر نهر دويرة على النحو الذي تقدم وصفه . وقتل راجعاً إلى قرطبة . وفي ركبته عدد كبير من الأسرى . ومقادير عظيمة من الغنائم . وكانت غزوة عظيمة . استبشر بها المسلمون . وقرت نفوسهم . واهتزت لها اسبانيا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها . ولبث أثرها العميق أعواماً بعيدة ، وكانت غزوة المنصور الثامنة والأربعين (١) .

ونظم ابن دراج القسطلي في تهنة المنصور بغزوة « شنتياقه » « شنت ياقب »
قصيدة طويلة هذا مطلعها :

اليوم أنكص أبلّيسٌ على عقبه مبرّءاً سببُ الغاوين من سببه

(١) تتبعنا حوادث هذه الغزوة حسبما أوردها ابن عذارى في البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦

- ٣١٩ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٧ و ٦٨ ، ونفح الطيب

ج ١ ص ١٩٣ - ١٩٥ .

واستيقنت شيع الكفار حيث نأت في الشرق والغرب أن الشرك من كذبه
بشنيافة لما أن دلفت له بالبيض كالبدري يسرى في سنا شهبه
وجلة الدين والإسلام عاطفة عليك كالفلك الجارى على قُطْبِهِ (١)
وعلى أثر غزوة شنت يا قب اضطر برمودو ملك ليون . بعد الذى أصاب
بلاده من الهزائم والمحن ، أن يسعى إلى طلب الصلح ، فبعث ولده بلايو صحبة
معن بن عبد العزيز حاكم سمورة المسلم ، إلى قرطبة طالباً عقد الصلح ، فأجابه
المنصور إلى ما طلب . وانصرف راجعاً إلى أبيه (٢) . ولم يعيش برمودو
طويلاً بعد ذلك ، فتوفى سنة ٩٩٩ م . وخلفه في الملك ولده الطفل ألفونسو
الخامس ، تحت وصاية أحد الأشراف ، ولزم مكانه في قاصية جليقية .
وقام المنصور بعد ذلك بعدة غزوات أخرى في أراضي النصارى ، بيد أننا
لا نظفر في شأنها بتفاصيل دقيقة واضحة . والظاهر من إشارة أوردها صاحب
البيان المغرب ، أن المنصور قام بغزوة إلى ناغار في سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) (٣) .
وفي العام التالي أعنى في سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) سار المنصور إلى أراضي قشتالة
في جيش ضخم . وذلك أن الملوك والأمراء والنصارى « من حيز بنبلونة إلى
أسترقه » ، اتفقوا جميعاً بزعامة سانشو غرسية كونت قشتالة ، على مقاومة
المنصور والتفانى في قتاله ، وحشد سائر أمراء البشكنس وقشتالة وليون قواتهم ،
وجمع سانشو غرسية سائر قواته في وسط قشتالة ، في وادي دويرة الأدنى خلف
الحاجز الجبلى الوعر المسمى « صخرة جرييرة » Peña Cervera ، وتعاهد الملوك
والأمراء النصارى على الثبات وعدم الفرار . ورأى المنصور كعادته أن يبادر
أعداءه بالقتال ، فسار في قواته تواءً إلى مدينة سالم ، ونفذ شمالاً إلى أراضي
قشتالة حيث يربط أعداؤه ، فلما أشرف على صخرة جرييرة ، هاله ما رأى من
وعورتها ، وحصانة المراكز التي يحتلها العدو ، ووفرة جموعه وعنده . ورأى
سانشو أن يعجل بمهاجمة المسلمين ، قبل أن يوطدوا مراكزهم ، فاندفع

(١) نقلت هذه الأبيات من مخطوط ديوان ابن دراج الذى أعده صديق الدكتور محمود مكى
للنشر ، وقد ورد به اسم « شنت يا قب » ، « شنيافة » وهو أقرب إلى رسمه الإسباني Santiago
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢١ .

النصارى فى هجوم عنيف خاطف على المسلمين ، فاضطربت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، ودب الخلل إليهم ، وعمد إلى الفرار كثير منهم ، وكادت تدور عليهم الدائرة . ولكن القلب ، وكان يقوده ابنا المنصور عبد الملك وعبد الرحمن ، ويتألف معظمه من فرق البربر القوية الباسلة ، صمد أمام الموجة الهائلة ، وهرع المنصور إلى رابية مشرفة على الموقعة ، ومن ورائه خاصته وحاشيته ، وهو يحث رجاله وقادته على الثبات ، فلم يمحس سوى قليل حتى انقلبت الآية ، وارتد ، العدو فى غير نظام ، وتمكن أحد الزعماء البربر من قتل أحد كونتات بنى غومس (١) وجاء برأسه ؛ فضاعف المسلمون جهودهم ، وشددوا الوطأة على النصارى ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وطاردهم إلى عدة مراحل حتى مزقوهم شر ممزق . وكانت هذه الموقعة فى اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٣٩٠ هـ (٣٠ يوليه سنة ١٠٠٠ م) . وخسر المسلمون فى الموقعة أكثر من سبعمائة قتيل .

وتابع المنصور زحفه فى أراضي قشتالة ، وهو يدمر كل شىء فى طريقه ، حتى اقتحم عاصمتها « برغش » وذلك فى يوم عيد الفطر (٤ سبتمبر) ، ثم واصل سيره إلى سرقسطة ، وقام من هنالك بغزوة فى أراضي ناغار ، حتى أشرف على عاصمتها بنبلونة . وكل ذلك دون أن يجرأ أحد من النصارى على الوقوف فى سبيله . ثم عاد إلى قرطبة وقد أنفق فى هذه الغزوات مائة يوم وتسعة أيام . ووجه على أثر عودته إلى قواده ، كتاباً ليقرأوه فى الجيش . وفيه ينحى المنصور باللائمة على جنده ، لما بدا منهم من التخاذل والنكوص ، ويذكرهم بأنه لولا شجاعة فئة قليلة ، منهم ، عاونت بثباتها على إحراز النصر ومحو العار ، لانهى بإقالتهم جميعاً (٢) .

وكان لهذه الغزوة ، وما لابسها من الظروف الدقيقة ، أعظم وقع فى الأندلس . وكان لنصر جربيرة مغزى أعمق من أى نصر أحرزه المنصور . وفيه يقول صاعد شاعر المنصور مهنتاً ، من قصيدة تعتبر من غرر قصائده :

جددت شكرى للهوى المتجدد وعهدت عندك منه ما لم يعهد
اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى غضباً وعاد الملك عذب المورد

(١) بنى غومس يسمون كذلك فى الرواية العربية ، وهم أبناء غومس دياث Gomez Diaz أحد زعماء ليون . وقد تزوج ابنة كونت قشتالة فرنان كونثالث ، وأصبحوا حلفاء له ، وكانت أملاكهم فى سالدانيا وكريون وسمورة .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه الموقعة الشهيرة : أعمال الأعلام ص ٦٩ - ٧٢ .

ووقفت في ثاني حنين وقفه فرأيت صنع الله يؤخذ باليد
من فاته بدر وأدرك عمره جربير فهو من الرحيل الأسعد
حملت هيامهم عليك نشيجة كالسيل يحطم جلمداً عن جلمد
ما ناجزوك وفي الجوانح موضع لتصبّر ومكانة لتجأد
طال الشقاء عليهم وتبرموا بالجيش في الذل المقيم المقعد
فتحالفوا لمحت وتجمعوا لمفرق وتألفوا لمبدد

وفي ربيع سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) خرج المنصور إلى الغزو لآخر مرة ،
فاخترق أراضى قشتالة شمالاً ، ووصل في زحفه حتى بلدة قتاليس الواقعة جنوبي
ناجرة ، ثم سار غرباً في اتجاه برغش وعاث في تلك المنطقة^(١) . ولا تقدم الرواية
الإسلامية عن هذه الغزوة تفاصيل أخرى ، ولا تحدثنا بالأخص عن أية موقعة
حاسمة ، وقعت بين المسلمين والنصارى . ولكن بعض الروايات النصرانية
الإسبانية القديمة ، تذكر لنا في هذا الموطن ، أن القوات النصرانية المتحدة ،
المكونة من جيوش برمودو ملك ليون ، وغرسى فرناندز كونت قشتالة ،
وغرسية سانشيز ملك ناغار ، وقفت في وجه المنصور في ظاهر بلدة صغيرة تسمى
« قلعة النسور »^(٢) ، وتقع في غربي مدينة سُرّية ، وأنه وقعت بين المسلمين
والنصارى ، موقعة هزم فيها المسلمون ، وقتل منهم عدة آلاف ، وأن المنصور
انسحب في قواته تحت جناح الظلام ، ثم توفى بعد ذلك بقليل حزناً وغماً ، أو من
الجراح التي أصابته في الموقعة .

ولا بأس من أن نقدم هنا خلاصة لما تذكره الرواية النصرانية من تفاصيل
هذه الموقعة ، وإليك ما يقوله في ذلك المؤرخ لافونتي . ومما هو جدير بالذكر أنه
يرجع بداية حوادثها إلى سنة ١٠٠١ م ، وفي هذا الوقت كان ملك ليون ألفونسو
الخامس الطفل ولد برمودو الثاني ، وكان تحت وصاية منندو كونثالث كونت
جليقية وزوجته دونيا مايور ؛ وكان يحكم قشتالة الكونت سانشو غرسييس ولد
غرسى فرناندز ، ويحكم ناغار الملك سانشو غرسييس الكبير .
يقول لافونتي : إنه في هذه السنة أعنى سنة ١٠٠١ م ، بدت في قلب إسبانيا

(١) راجع الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) وهى بالإسبانية Calatanazor

المسلمة طلائع استعدادات عظيمة ، وجمع ولاية شنترين وبطليوس وماردة كل قواتهم ، وعبرت حشود عظيمة من الجند البربر إلى الجزيرة ، وكانت هي الإمداد التي وعد بإرسالها المعز بن زيرى من المغرب إلى المنصور ، واجتمعت جيوش إفريقية والأندلس والبرتغال المسلمة في طليطلة ، فهل كان المنصور يزعم أن يضرب قشتالة التي أتعبته مقاومتها الضربة الأخيرة ؟ لقد تفاهم سانشو أمير قشتالة مع قريبه ملكي ليون ونافار على التعاون على مقاومة الجيش الإسلامي العظيم ، وأدرك الجميع ضرورة الاتحاد والتحالف . واجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة في السهل الواقع جنوب مدينة سررية عند منابع دويرة ، قريباً من مدينة نوماثيا Numacia القديمة ؛ وكان يقود جيوش ليون وجليقية والأسترياس الكونت منندو وصى الملك الطفل ألفونسو الخامس ، ويقود قوات قشتالة ونافار ، كل ملكها .

وقدم المسلمون ، وقد انقسمت قواتهم إلى شطرين ، قوات الأندلس وقوات البربر ؛ وساروا تواء نحو ضفاف نهر دويرة ، حتى التقوا بالنصارى في مكان يسمى « قلعة النسور » . ثم وقعت بين الفريقين مناوشات ختمها مقدم الليل ، وفي فجر اليوم التالي تأهب كل فريق ، وحشد قواته ، واختلط ضجيج المسلمين بصيحات النصارى ، وأصوات المزمار بدوى الطبول . واشتبك الفريقان بعنف ، وأخذ زعماء كل فريق يحث رجاله ويشجعهم . وكان المنصور يثب هنا وهناك كأنه نمر ، وقد شقت فرسانه صفوف القشتاليين ، وساءه مالتى من مقاومة ، فاندفعت قواته إلى الهجوم بعنف ، واستمر القتال تحت جو قائم من الغبار المتصاعد ، حتى دخل الليل ، فانفصل الجيشان دون أن يكتب النصر لأحدهما .

وأصيب المنصور خلال القتال بجراح عديدة ، فأوى إلى خيمته ، وقد علم أن كثيراً من قاداته قتلوا ، وأدرك مبلغ الحسارة التي حاقت بجيشه ؛ فأصدر أوامره قبل الصبح بالارتداد . وعبر دويرة ، وهو على أهبة الحرب حتى لا يطارده النصارى . ثم شعر المنصور خلال السير بالإعياء والخور ، ولم يستطع أن يستمر فوق سهوة جواده لخطورة جراحه . فحمل في محفة إلى مدينة سالم .

ثم يقول لافونتي : إن بعض مؤرخينا ومنهم ماريانا يحاول أن يرد هذه

الموقعة إلى ما قبل ذلك بثلاثة أعوام ، وأنه يوجد منهم من يقرنها بأخطاء ومغامرات خرافية بل مضحكة .

تلك هي خلاصة التفاصيل التي تسبغها الرواية النصرانية على موقعة قلعة النسور . ويلاحظ أن هذه الرواية تُرجع الموقعة إلى سنة ١٠٠١ م ، وأن المؤرخ يتحدث هنا عن طبقة جديدة من الملوك النصارى ، وهم خلفاء أولئك الذين تزعم الروايات النصرانية الأخرى تحالفهم على قتال المنصور^(١).

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ، مثل سافدرا وكوديرا التذليل على صحة هذه الرواية وقبولها . ولكن فريقاً آخر من أقطاب البحث الحديث وفي مقدمتهم دوزى ، يرون بطلان هذه الرواية ، ومخالفتها للحقائق التاريخية الثابتة . ذلك أن برمودو ملك ليون كان قد توفي في سنة ٩٩٩ م ، وتوفي غرسية فرناندز كونت قشتالة في سنة ٩٩٥ م ، وتوفي غرسية سانشيز ملك ناغار في سنة ١٠٠٠ م ، فكيف تتحدث الرواية هنا عن تحالف الملوك الثلاثة ، وقد ماتوا جميعاً قبل الموقعة المزعومة ؟ هذا ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة ، وهي لا تضمن علينا في مواطن كثيرة بالتحدث عن هزائم المسلمين ، وصمتها في هذا الموطن قرينة ، على أنه لم يك ثمة موقعة ولا هزيمة^(٢) . ويعلل مؤرخ إسباني معاصر هو الأستاذ منديث بيدال ، أصل هذه الأسطورة بكونه إنما يرجع إلى ما أحرزه سانشو غرسية كونت قشتالة ، من نجاح جزئى في بعض الوقائع ، وقد حرصت الأساطير القشتالية على تسجيل هذا النجاح ، وعمدت إلى المبالغة فيه شيئاً فشيئاً^(٣).

وعلى أثر اختتام الغزوة ، ارتد المنصور بجيشه جنوباً ، وقد لحقه الإعياء ، واشتد به المرض ، فترك جواده ، وسار نحو أسبوعين محمولا على محفة ، حتى وصل إلى مدينة سالم ، وهي معقل الثغر المنيع ؛ وكان من أعز أماني المنصور أن تدركه منيته خلال الغزو ، مجاهداً في سبيل الله ، وكان دائماً يحمل معه أكفانه

(١) Modesto Lafuente : Historia general de Espana T, III. p. 24-26

(٢) راجع : Dozy : Recherches : Vol. I, p. 193-202; Hist. V. II. p. 263

وقد لخص العلامة المستشرق كونثال بالانثيا آراء الفريقين في كتابه :

Historia de la Espana Musulmana (4a Ed.) p. 57 & 58

R.M. Fidal : Historia y Epopya p. 21 (٣)

حيثما سار إلى الغزو ، وهي أكفان صنعت من غزل بنانه ، واشترت من خالص ماله الموروث . وقد استجاب الله دعاءه ، فمكاد يحل بمدينة سالم ، حتى شعر بدنو أجله ، فاستدعى ولده عبد الملك ، وألقى إليه نصائحه الأخيرة . وفي ليلة الإثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ ، الموافق ١١ أغسطس سنة ١٠٠٢ ، توفي المنصور محمد بن أبي عامر ، ودفن كرجته في صحن قصر مدينة سالم ، وذلك لسبعة وعشرين عاماً من حكمه ، وعمره أربعة وستون عاماً ، إذ كان مولده في سنة ٣٢٨ هـ ، ونقش على شاهد قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحمي الثغور سواه^(١)

ولبت قبر المنصور بمدينة سالم عصوراً ، مزاراً معروفاً ، وذلك بالرغم من استيلاء النصارى على المدينة ، منذ أواخر القرن الحادى عشر . ويروى لنا ابن الخطيب ، أنه عهد إلى بعض رسله ممن وجههم إلى قشتالة ، لتأكيد عقد الصلح مع ملكها ، بأن يزور في طريقه مدينة سالم ، وأن يشاهد قبر المنصور ، وأن هذا الرسول قد أخبره عند عودته ، أن القبر ما يزال قائماً في مكانه إلا أن رسومه من شعر منقوش ، وتاريخ مثبت ، قد عفت ومحيت آثارها ، وقد كان ذلك فيما يبدو في وزارة ابن الخطيب الثانية فيما بين سنتي ١٣٦١ و ١٣٧٠ م^(٢).

(١) الخلة السيرة ص ١٥١ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٨١ .

الفصل الثاني

خلال المنصور وماآثره

الناصر والمنصور . المنصور يشق طريقه إلى السلطان . وسائله في ذلك . جيش المنصور وأهباته . شغفه بالجهاد . نتائج غزواته . الصوائف الإسلامية . عقمها وأثرها في إنهاء الجيوش الإسلامية . عبقرية المنصور الإدارية . استقرار الأمن والرخاء في عهده . وزراء المنصور وكتابه . أعماله الإنشائية . توسيعه للمسجد الجامع . تجديده لقنطرة قرطبة وإنشائه لقنطرة إستجة . جوده وبذله . مفاخرته بنشأته المتواضعة . صرامته في إقامة العدل . شغفه بالشراب . براعته العلمية والأدبية . رعايته للعلاء والأدباء . صاعد البغدادي شاعر المنصور . ديوان الندماء . مجالس المنصور الأدبية . شغفه بجمع الكتب . مقتنه للفلسفة والتنجيم . شعره ونثره . وصيته لابنه عبد الملك . وصيته لغلماؤه . علاقته الدبلوماسية . مصاهرته لسانشو غرسية ملك نافار . وفود سانشو إلى الزاهرة . عبد الرحمن ولد المنصور وحفيد سانشو . إشادة الروايات الإسلامية بعظمة المنصور وخلالله . إشادة النقد الغربي بعبقريته السياسية والعسكرية .

كان المنصور بن أبي عامر عبقرية فذة ، تمثل ذروة النبوغ الشعبي ، والطموح الفردي ؛ فقد خرج المنصور من صفوف الطبقة الوسطى ، وشتق طريقه بساعده وهمته إلى السلطان والرياسة ، ولم تسعفه في ذلك نشأة ملوكية ، أو انقلاب عنيف ، ولم يكن عزمه في بلوغ ذلك أقل شأنًا من تألق طالعه ، وقد وصل المنصور إلى مرتبة من السلطان والقوة ، لم يصل إليها أحد قبله من أعظم أمراء الأندلس حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه . ويمكننا أن نقول إنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة في تاريخ اسبانيا المسلمة ، من النواحي السياسية والحضارية ، فإن عهد المنصور لا يقل عنه لمعاناً وتألقاً ، بل ربما امتاز على عهد الناصر ، بما أحرزته اسبانيا المسلمة خلاله ، من تفوق عظيم في السلطان والقوى العسكرية ، في شبه الجزيرة الإسبانية . فقد استطاعت اسبانيا النصرانية في عهد الناصر ، أن تنهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس ، وأن توطد قواها العسكرية ، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة ، وقد لقي الناصر على يد النصاري غير هزيمة فادحة ؛ أما في عهد المنصور ، فقد انتهت اسبانيا النصرانية إلى حالة يرثى لها من التفكك والضعف ، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة

المتوالية . وقد وصل المنصور فى غزواته فى شبه الجزيرة الإسبانية . إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل .

بدأ المنصور حياته فى حلبة العلم والدرس . ولكن سرعان ما تفتحت مواهبه الإدارية والسياسية . فجاز مراتب المناصب السلطانية بسرعة . وظهر فى كل منها بفائق كفايته وحزمه ؛ وما كاد يختفى الحكم المستنصر من الميدان ويقوم ولده الطفل هشام فى الخلافة . حتى تبلورت مطامع المنصور . واتجهت توالاً إلى غايتها البعيدة . فكان الصراع مع الثنيان الصقلية . ثم مع الحاجب جعفر . ولم يتح بعد ذلك لأية قوة معارضة أن تقف فى سبيله . ولما اجتمعت سائر السلطات فى يده ، اتشح بثوب الحاكم المطلق . الذى لا يطبق أية مشاركة فى سلطانه أو أى اعتراض لرأيه . ولم يدخر وسعاً فى أن يخمد أية نزعة للخروج أو الثورة على حكمه . وهنا تبرز النواحي القائمة فى عبقرية المنصور ، فزاه يلجأ فى تدعيم سلطانه وحمايته إلى نفس الوسائل المكياقيلية التى يلجأ إليها الطغاة دائماً فى كل قطر ، وفى كل عصر : إلى القتل . والغيلة . والخديعة . وكل ضروب العنف المثير ، ونزاه يسير إلى تحقيق الغاية بأى الوسائل . ولا يعف فى ذلك السبيل عن ظلم يقع ، أو دم يسفك . حتى ولو كان دم ولده بالذات .

على أن هذه الوسائل المثيرة التى كانت سياجاً لسلطان المنصور ، ودعامة لدولته . والتى هى دائماً من لوازم الحكم المطلق . يجب ألا تحول أنظارنا عن حقيقة ناصعة أخرى . وهى أن المنصور لم يستخدم هذا السلطان إلا لخير دينه ، وخير الأمة التى نصب نفسه حاكماً عليها . ومشرفاً على مصايرها ؛ ولعل الإسلام فى شبه الجزيرة الإسبانية . لم يظفر قط بمجاهد فى بطولة المنصور ، وتفانيه فى الذود عن دينه . وإعلاء كلمته . ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيماً أخلص فى خدمتها ، وكرس جهوده ومواهبه فى بناء قوتها وعظمتها ، وسحق عدوها ، وتحقيق أمنها ورخائها .

وقد أدرك المنصور منذ البداية ، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها ، وردع الممالك النصرانية عن عدوانها المستمر . أن يكون للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، تكفى لإرهاب عدوها ، وإعزاز دينها . ومن ثم فقد بذل جهده لإصلاح الجيش الأندلسى ، وتقويته ، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة . وقد رأى

المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص ، لما كانوا يتصفون به من البداوة والشجاعة ، فاستقدمهم من العدو ، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء^(١) . وكذلك استخدم المرتزقة من النصارى الإسبان ، ومنحهم الأجور والحرايات السخية ؛ وكان يجمع في جيشه الكثير منهم ، ومعظمهم من المستعربين ، وكان يحرص على رضائهم بتوسيع النفقة عليهم ، ومعاملتهم بالمساواة والرفق^(٢) . واستطاع المنصور بما وضعه للجيش من أنظمة محكمة ، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعدد ، أن ينشئء للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، لم تعرفها في أية عهد آخر . وكانت هذه القوة فضلا عن كونها دعامة سلطانه وحكمه ، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع والغزو . ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسي وكفائته أيام المنصور ، متى ذكرنا أن المنصور لبث زهاء ربع قرن ، يقود قواته إلى الغزو المستمر ، في أراضي الممالك النصرانية ، كل ربيع وكل صيف ، وأنه في نفس الوقت كان يبعث الحملات العسكرية العظيمة إلى المغرب ، لتخوض سلسلة من الحروب الطاحنة . وقد بلغ من كثرة قوى الجيش النظامية وكفائتها . أن أصدر المنصور في سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو ، اكتفاء بعدد الجيش المرابط ، وقرأ الخطباء ذلك المرسوم على الناس ، إثر قراءة كتب الفتح ، وعرفوا فيه « بأن من تطوع خيراً ، فهو خير . ومن خف إليه ، فمهرور ومأجور ، ومن ثاقل فعذور »^(٣) .

وقد أورد لنا ابن الخطيب (عن التيجاني) بعض الإحصاءات الهامة عن جيش المنصور ، فذكر لنا أن الجيش المرابط (الثابت) بلغ في عهده من الفرسان اثني عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، جميعهم مرتزقون في الديوان ، يصرف لهم السلاح والنفقة والعلوفة . وكان عدد الحرس الخاص ستمائة فارس غير الأتباع . وانتهى عدد الرجال في الجيش المرابط إلى ستة وعشرين ألف راجل . وكان عدد الجيش المرابط يتضاعف وقت الصوائف بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة . وقد بلغ عدد الفرسان في بعض الصوائف ستة وأربعين ألفاً . وكان عدد المشاة يتضاعف كذلك ، وقد يبلغ المائة ألف أو تزيد .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ و ٣١٥ و ٣١٦ .

(١) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) p. 630

(٢) أعمال الأعلام ص ٦٨ .

وأورد لنا ابن الخطيب أيضاً بيانات مفصلة عما كان يقتنيه المنصور من عتاق الخيل برسم الجهاد ، ومطايا الركوب ، ودواب الحمل ، وقد بلغت وحدها أربعة آلاف جمل خصصت لحمل الأثقال .

وأما عن عُدّة الحرب ، فقد كان المنصور يحتفظ بكميات عظيمة من الخيام والسهام والدروع ، والتراس ، وعدد من المحانيق وغيرها من آلات الحصار^(١) . وكان المنصور يضطرم شغفاً بالجهاد في سبيل الله ، وكانت غزواته التي زادت على الخمسين ، فضلاً عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر ، ترمى إلى غاية عسكرية وسياسية فطنة ، هي تحطيم قوى اسبانيا النصرانية ، وردعها بذلك عن العدوان على أراضي المسلمين . وقد تحققت هذه الغاية في أواخر عهد المنصور على أكمل وجه . وقد عني مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان - وقد عاش قريباً من ذلك العصر - بتفصيل هذه الغزوات في مؤلف ضخّم سماه « بالماثر العامرية » واستخرجه من تاريخه الكبير^(٢) . وكان من نتائج هذه الغزوات أن امتلأت الأندلس في عصر المنصور بالغنائم والسبي من بنات الإسبان وأولادهم ونسائهم ، وتغالى الناس في تجهيز بناتهم بالثياب والحلى والمال ، وذلك لرخص بنات الإفرنج وركود سوق الزواج^(٣) .

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد ، أنه كان يتولى القيادة بنفسه في سائر غزواته الصائفة والشتائية ، ولم يقعه شيء عن القيادة . والإشتراك الفعلي في كثير من المعارك ، حتى أننا نراه في آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه ، ويسير محمولاً على محفة ، ثم يقضى نحبّه عقب الغزو ، بين يدي جنده وفي معتقل الثغر ، بعيداً عن قصوره ، ومهاد راحته ونعمائه . وكان يحرص في سائر غزواته ، على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار . أثناء المعارك التي يخوضها ، فكان يمسحه بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة ، كان يحملها معه دائماً ، حتى

(١) أعمال الأعلام ص ٩٩ و ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جذوة المقتبس للحميدى (القاهرة ١٩٥٢) ص ٧٤ ، والحلة السراء ص ١٤٩ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشي ص ٢١ . وذكر لنا ابن الخطيب اسم هذا المؤلف كاملاً وهو : « أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة » كما ذكر لنا أنه يحتوي على أكثر من مائة سفر (أعمال الأعلام ص ٩٨) .

(٣) المعجب ص ٢١ .

إذا وافته المنية ضمت إلى أكفانه ، ودفنت معه تنفيذاً لوصيته^(١) .
ومما يؤثر عن علائق المنصور بجيشه ، أنه كان لقوة ذاكرته ، يعرف كثيراً
من جنده بالإسم ، أو يعرف على الأقل كثيراً ممن امتاز منهم خلال المعارك بالإقدام
والشجاعة ، ويدعوهم إلى مائدته في المآدب الكبيرة ، التي اعتاد أن يقيمها لجنده
عقب كل انتصار .

بيد أننا نستطيع أن نلاحظ بعد كل ذلك ، أن سياسة المنصور العسكرية
وغزواته المتوالية المظفرة، وإن كانت في الأصل تنطوي على غاية عسكرية وسياسية
بعيدة المدى ، هي سحق اسبانيا النصرانية ، لم تؤت ثمارها إلا في حيز ضيق ، هو
ردع اسبانيا النصرانية ، وكف عدوانها عن الأراضي الإسلامية ، ولم تقصد بالفعل
إلى الغاية الحاسمة ، وهي القضاء على قوة اسبانيا النصرانية وسحقها بصورة نهائية ،
وهي غاية قصرت سياسة اسبانيا المسلمة عن العمل لها منذ البداية ، ومن ثم فقد
استطاعت الممالك الإسبانية النصرانية ، أن تعيش ، وأن تنمو قواها تبعاً ، وأن
تغزو بمضى الزمن ، مناوئاً خطراً لاسبانيا المسلمة ، يستغرق قواها باستمرار ،
ويشغلها في كفاح مدمر مستمر .

وهنا ، وعلى ضوء هذا الكفاح العقيم الذي استمر أجيالاً بين اسبانيا المسلمة
واسبانيا النصرانية ، لا نرى مندوحة ، من أن نحكم على سياسة الصوائف أو
الغزوات الإسلامية العارضة ، التي كانت تقليدًا عسكرياً إسلامياً ، في معظم
الدول الإسلامية المتاخمة للدول النصرانية ، فنقول إنها كانت من الناحية العسكرية
تقوم على أسلوب خاطيء ، وقد كانت تنهك الجيوش الإسلامية بقدر ما تنهك
جيوش العدو ، ولم يكن لها غاية محدودة مستقرة . وليس أدل عن ذلك من
تاريخ الصوائف أو الغزوات الإسلامية الموسمية أيام الدولة العباسية في أراضي
الدولة البيزنطية ، فقد كان معظمها حملات غازية تقصد إلى العيث في أرض
العدو ، وإلى إحراز الغنائم المؤقتة الإقليمية وغيرها ، ولم تنجح في تحطيم قوى
الدولة البيزنطية أو سحقها . وقد كان عقم هذه الغزوات العارضة أشد وأوضح في
الأندلس ، حيث لبثت الدولة الأندلسية ، إبان قوتها وتفوقها ، عصوراً ، تقتصر
على الصوائف وما إليها من الغزوات الموسمية برسم الجهاد أو الانتقام من العدو ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ والمعجب ص ٢١ .

وتنهك بذلك قوى الجيوش الإسلامية ومواردها بصورة مستمرة ، وذلك دون أن تحقق غاية ثابتة مستقرة ، أو توفق إلى القضاء على القوى الخصيمة بصورة حاسمة . ولقد اجتمعت لاسبانيا المسلمة في عصر المنصور أعظم القوى والموارد العسكرية التي اجتمعت لها في أى عصر سابق أو لاحق ، وكانت هذه القوى الزاخرة ، التي كان رائدها المنصور ، وهو أعظم شخصية سياسية وعسكرية ، أتيح لها أن تقود الأندلس ، وأن تسهر على مصايرها - كانت هذه القوى كفيلة بسحق الممالك الإسبانية النصرانية لو أنها وجهت نحو هذه الغاية توجيهاً صائباً . ويقدر النقد الإسباني الحديث نفسه هذه الحقيقة ، فيقول لنا إن غزوات المنصور ودفعه حدود النصراني إلى ما وراء نهر دويرة ، وافتتاحه لقللمرية وسمورة وليون وشتت ياقب وكويانسا وشتت منكش وأوسمة وبرشلونة ، دفع اسبانيا النصرانية إلى حافة الحراب تقريباً ، وقضى هذا البعث لقوة الإسلام على كل أمل في « الاسترداد »^(١) La Reconquista

ولكن غزوات المنصور على كثرتها ، وعلى ما أسبغ عليها من طابع النصر المستمر ، لم تخرج كثيراً عن حيز الصوائف والغزوات الإسلامية العارضة ، التي لم تحقق أية غاية مستقرة ثابتة .

وأما عن مقدرة المنصور في الإدارة والحكم ، فإن الكلام فيها حرى بأن يطول ، فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية مدهشة ، وظهر في سائر المناصب التي أسندت إليه ، مذ تولى وكالة هشام ولى العهد ، فأمانة دار السكّة والخزانة ، ثم خطة المواريث ، فخطة القضاء ، ثم الشرطة ، فالإشراف على الحشم والخاص ؛ ظهر فيها جميعاً براعته وحصافته ، وحسن تصريفه ؛ ثم ظهرت هذه المقدرة على أتمها مذ ولى الحجابة ، واستأثر بسائر السلطات ، واحتمل فوق كاهله سائر المسئوليات الكبرى . فقد غدا المنصور زعيم الأندلس ، وحاكمها الأوحده ، والمشرف على مصايرها في الحرب والسلم ؛ وقد أبدى المنصور في اضطلاعه بتلك المهمة العظمى ، مقدرة فائقة ، لم يبدها أحد من أسلافه ، فلم تر الأندلس من قبل استقراراً كالذى رأته في عهد المنصور ، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به في عهد المنصور ، من الأمن والطمأنينة والدعة . وكانت أيام المنصور بالأندلس كلها

أيام فخار وظفر ورخاء ورغد ، لم تعان خلالها من غزوات العدو المخربة ، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن ، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة ؛ وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب ، وعم الحصب والرخاء في جنبات الأندلس ، وفاضت خزائن قرطبة بالأموال ، ووصل محصل الجباية يومئذ إلى أربعة آلاف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم المواريث ، وسوى مال السبي والغنائم ، وما ينتج من المصادرات وأمثالها مما لا يرجع إلى قانون . وكانت النفقات السلطانية تبلغ في الشهر نحو مائتي ألف دينار ، فإذا دخل شهر يونيه ، وحلت الصائفة ، تضاعفت النفقة بسبب الاستعداد للغزو ، ووصلت إلى خمسمائة ألف في الشهر أو أكثر (١) .

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس في هذا العصر ما بين وزراء وكتاب . وكان من وزرائه ، أبو مروان عبد الملك بن شهيد ، ومحمد بن جهور ، وعيسى بن فطيس ، وأبو عبد الله بن عياش ، وأحمد بن محمد ابن حدير ، ومحمد بن حفص بن جابر ، وأحمد بن سعيد بن حزم والذ فيلسوف الشهير ، وكان من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه ، وكان المنصور قد استوزره قبل سائر أصحابه في سنة ٣٨١ هـ ، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة في أوقات معينة ، ويعهد إليه بخاتمة ؛ والظاهر أنه لما بلغ ذروة النفوذ والسلطان ، شتمخ بأنفه ، وبدرت منه بوادر الدالة والاعتداد ، فتغير عليه المنصور ، وأقصاه عن خدمة الوزارة ، وبعثه إلى كورة الغرب لينظر في شئونها ، ثم عاد بعد قليل فأعادته إلى حسن رأيه وردده إلى منصبه في الوزارة ، وكان ابن حزم من أكابر أهل العلم والبلاغة (٢) . وكان من كتاب المنصور عيسى بن سعيد القطاع ، وهو من أقدم كتابه ، وكان من أنصاره ومعاونيه منذ أيام الحَكَم ، فبلغ في ظله وتحت كنفه أرفع مكانة ، وكان فوق ذلك من أخصائه ورفاقه في مجالس أنسه ترتفع بينهما الكلفة ؛ وكان منهم ، أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولاني ، وخلف ابن حسين بن حيان والذ المؤرخ ، وغيرهم . وكانت هذه الصفوة من الوزراء والكتاب ، الذين ينتمى معظمهم إلى أسر عريقة تعاقب أبناؤها في الوزارة ، مثل آل شهيد ، وآل عبدة ، وآل جهنور ، وآل فطيس ، وآل حدير وغيرهم ،

(١) أعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٢) كتاب « إعتاب الكتاب » لابن الأبار - مخطوط الإسكوريال - لوحة ٥٣ و ٥٤ .

من حملوا عمدة الدولة الأموية ، وعملوا على توطيد دعائمها ، تعمل مع المنصور على تسيير دفة الحكم بمقدرة فائقة . وكان من هؤلاء الوزراء من يتصل بالمنصور برباط المودة الشخصية الوثيقة ، ويشاطره شغفه بالشعر والأدب ، ويغشى مجالس أنسه وشرايه ، مثل عبد الملك بن شهيد ، وأبي عبد الله بن عياش ، وعيسى ابن سعيد . هذا وكان ممن أشترك مع المنصور في الحجابة في بداية عهده ، بعد المصحفى ، على بن جعفر بن حمدون الأندلسى ، والقائد غالب بن عبد الرحمن ، الذى جمع بين القيادة والحجابة حيناً ، وقد رأينا كيف لقي كل منهما مصرعه بعد ذلك على النحو الذى تقدم ذكره (١) .

* * *

ولم يحل انشغال المنصور طوال عهده بالغزو المستمر ، عن القيام بأعمال الإنشاء العظيمة . فقد أنشأ مدينة الزاهرة ، وقصورها المنيفة ، وحدائقها الغناء ، واتخذها كما تقدم مركزاً للإدارة والحكم . ثم ابتنى إلى جانبها منية جميلة ذات قصر وحدائق رائعة ، يرتادها للاستجمام والتنزه ، سماها « بالعامرية » . وقد كان جمال هاتين الضاحيتين العامريتين ، مستقى للأوصاف الشعرية والنثرية الرائعة . ومما قيل فى العامرية أبيات لعمر بن أبى الحباب أنشدها ، وقد دخل يوماً على المنصور بقصر المنية ، والروض قد تفتحت أزهاره :

لا يوم كالـيوم من أيامك الأول	بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها فى جميع الدهر معتدل	طيباً وأن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ساحتها	بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل
كأنما غرست فى ساعة وبدا الس	وسان من حينه فيها على عجل (٢)

وكان من أعظم وأجل أعمال المنصور زيادة المسجد الجامع . وكانت قرطبة قد اتسعت رقعتها اتساعاً عظيماً منذ أيام الناصر ، واضطرد هذا الاتساع فى أيام المنصور حتى بلغت مبلغاً عظيماً ، وبلغت أرباض المدينة أعنى أحيائها يومئذ

(١) راجع فى ذكر وزراء المنصور : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٧٠ و ٧٥ و ٨٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، والذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٧ و ٥٦ .

(٢) راجع بعض هذه القصائد والأوصاف فى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ و ٢٩٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

إحدى وعشرين ربيعاً « كل ربيع فيها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس » .
وقد ذكر ابن الخطيب لنا أسماءها ومواقعها تفصيلاً ، وبلغ خندقها المحيط بها
ما عدا ناحية النهر سبعة وأربعين ألف وخمسة ذراع أى ستة عشر ميلاً^(١) ،
وزاد سكانها فى نفس الوقت زيادة كبيرة ، ولا سيما منذ مقدم طوائف البربر
الكثيرة عليها ، فى بداية عهد المنصور ، وضاعت رحبات المسجد الجامع برواده ،
ولا سيما فى أيام الجمع . فرأى المنصور أن يقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحاً
جديداً ، لأن ناحيته الغربية كانت متصلة بالقصور الملكية . وشرع فى إنشاء هذا
الجناح فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٨٧ م) ، فأقيم بجذاء الجامع من شماله إلى جنوبه ، على
رقعة شاسعة تكاد تعدل مساحته الأصلية ، وروعت فى إنشائه البساطة والمتانة
قبل الزخرفة ، كما روعى التماثل والمطابقة للصرح القديم ؛ ونزعت من أجل
ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن والدور ، حرص المنصور على أن ينصف
أصحابها فيما يستحقونه من ثمن أو معاوضة . وتضاعف حجم المسجد الجامع بهذه
الزيادة ، وأضحى يحتل رقعة عظيمة شاسعة تبلغ فى الطول مائة وثمانين متراً ،
وفى العرض مائة وخمسة وثلاثين متراً . وكان يشغل فيه عدد كبير من الأسرى
النصارى ، الذين أخذوا فى مختلف المعارك . وكان المنصور يشترك بنفسه أحياناً
فى أعمال البناء . وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة ، ألف وأربعمائة وسبعة
عشرة ، وبلغت ثرياته ما بين صغيرة وكبيرة مائتان وثمانون ، وبلغ عدد المكلفين
بالخدمة به فى عهد المنصور ، ما بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وغيرهم
مائة وخمسون شخصاً ، وكان الجامع وما حوله يعتبر وحده ربيعاً مستقلاً يتولاه
عريفه وحراسه على حدة^(٢) . وما زال جناح المنصور بمسجد قرطبة الجامع حتى
اليوم ، قائماً بسائر رحابه وعقوده وسواريه ، وذلك بالرغم من تحويل عقوده
الجانبية إلى كنائس وهياكل ، ويعرفه الأثريون « بمسجد المنصور »^(٣) .

وجدد المنصور قنطرة قرطبة القائمة على نهر الوادى الكبير ، وراء المسجد

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٣) راجع فى زيادة المنصور للمسجد الجامع ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٨ ،
ونفح الطيب ج ١ ص ٢٥٧ . وراجع كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » حيث يوصف جامع قرطبة
بجالاته الحاضرة تفصيلاً (ص ١٨ - ٢٨) .

الجامع ، وكانت في الأصل قنطرة رومانية ، فجددها السمع بن مالك أمير الأندلس ثم جاء المنصور فجددها ، وأعاد بناءها ، وذلك في سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) ، لو تم بناؤها في سنة ونصف ، وبلغت النفقة عليها مائة وأربعين ألف دينار ، وعظم بها نفع القرطيين .

وابتني المنصور كذلك قنطرة إستجة على نهر شنيل ، فرع الوادي الكبير ، واقتضى إنشاؤها كثيراً من الجهد والنفقة ، ولكنها حققت تسهيلات عظيمة ، في مواصلات قرطبة بالقواعد والولايات الغربية والجنوبية (١) .

* * *

وكان المنصور ، على الرغم من صرامته ، وما لحأ إليه لتوطيد حكمه من الوسائل المثيرة ، يتسم بصفات عديدة مؤثرة ؛ فقد كان جواداً وافر الجود والبذل يغدق صلواته على من يستحقها من العاملين معه والمتصلين به ، وعلى الفقراء وذوى الحاجات ، وله في ذلك حكايات كثيرة .

وكان يفاخر بنشأته المتواضعة ، ويقلل من شأن نفسه . ذكر المؤرخ ابن حيان في كتابه في « أخبار الدولة العامرية » عن والده خلف بن حيان كاتب المنصور ، أن المنصور لامه ذات يوم لأمر من الأمور ، فبدأ عليه الفرع ، فأشفق عليه المنصور وهدأ من روعه ، ثم خلا به بعد أيام وقال له : « رأيت من ذعرك ما استنكرت ، ومن وثق بالله يرى من الحول ، والقوة لله ، وإنما أنا آله من آلاته أسطو بقدرته ، وأعمل عن إذنه ، ولا أملك لنفسي إلا ما أملك ، ... فطأ من جأشك ، وإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت بئمن غزلها ، أغدو به إلى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ما تراه ، ومن أنا عند الله لولا عطفى على المستضعف المظلوم ، وسيرى لجهاد الطاغية » (٢) .

وكان ورعاً ، شديد الإيمان واليقين ، يخشى ربه ، ويزدجر إذا ذكر الله وعقابه . وكانت هذه أعجب الخلال في رجل كالمنصور ، لم يعف عن سفك الدماء في سبيل تحقيق أطماعه . ولكنها حقيقة تنوه بها الرواية الإسلامية وتؤكددها ، ومن دلائلها أن المنصور كان يحمل معه في سائر غزواته وأسفاره مصحفاً خطه

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩١ ، وأعمال الأعلام ص ٧٦ .

(٢) إعتاب الكتاب لابن الأبار - مخطوط الإسكوريال - لوحة ٥٦ .

بيده ، يقرأ فيه ويتبرك به في كل مناسبة^(١).

وكذلك تنوه الرواية بعدالة المنصور ، وصرامته في إحقاق الحق ، والانتصاف لذوى المظالم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب عدة أمثلة رفعت فيها الظلمات إلى المنصور ضد بعض أكابر خدمه وحاشيته ، ممن كانوا يظنون أن مراكزهم تحميهم من إجراء العدالة ، فأمر المنصور بالانتصاف منهم لذوى الظلمات . وكان يقترن بهذه الصفة ، خلة محمودة أخرى ، هي تذرعه بالحلم والصبر ، وضبط النفس في أمور كثيرة ، وذلك بالرغم مما كان عليه من الهيبة والرهبة والسلطان^(٢). ولكن الرواية تنعى على المنصور خلة سيئة ، هي شغفه بمعاقرة الحمر . وقد لازمته هذه الرذيلة طوال حياته ، ولم يقلع عنها إلا قبل وفاته بعامين . ويصف لنا ابن الخطيب كيف كان المنصور يصل في العمل يومه بليله ، وهو عاكف على الشراب ، في تلك الفقرة البليغة : « وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله ، لا يفضل لذة على تدبيره ، وحلاوة نبيه وأمره ، فينفذ الأمور ، والكأس تدور ، والجبال للطرب تمور »^(٣).

* * *

بقيت من خلال المنصور ناحية ربما كانت ألمع خلاله جميعاً ، وتلك هي الناحية العلمية .

نشأ المنصور حسبما رأينا فى بيت علم وأدب ، ودرس وفقاً لتقاليد أسرته دراسة حسنة ، وبرع فى الشريعة والأدب ، وكان حرياً به أن يتبوأ مكانه بين علماء عصره ، لولا أن شاءت الأقدار أن تدفع به إلى معترك السياسة والسلطان . على أن المنصور لبث بالرغم من مشاغل هذا المعترك السياسى الخضم ، يحتفظ طول حياته بشغفه بالعلم والأدب ، ويوثق صلته بالعلماء والأدباء والشعراء ويؤثرهم بحبه وعطفه ، ويجمعهم حوله فى أوقات فراغه وسويغات لهُوه وأنسه ، ويساجلهم البحث والمناظرة ، ويطارحهم قرض الشعر ، ذلك لأن المنصور كان شاعراً أيضاً ، وله نظم حسن سوف نورد شيئاً منه .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ - ٣١٢ ، والخلة السيرة ص ١٥١ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، وأعمال الأعلام ص ٧٥ .

وكان من أخص جاسائه الأدباء ، الكاتب البغدادي ، أبو العلاء صاعد ابن الحسن . وكان قد وفد من المشرق على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ ، والمنصور في أوج سلطانه ، فأراد المنصور أن يجعل منه قريناً لأبي على القالى ، الوافد من قبل على الناصر والحكم ، فقربه وأذن له أن يجلس بجامع مدينة الزاهرة يملئ كتابه المسمى « بالفصوص » على أدباء قرطبة ، وهو كتاب فى الآداب والأخبار والأشعار ، ولكن أدباء قرطبة أنكروا ما ورد فيه ، وكذبوه فى كثير مما يلقى به ، وفضحوا كثيراً من سرقاته الأدبية والشعرية (١) . ومع ذلك فقد كان صاعد أديباً بارعاً ، خفيف الروح ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، وكان يأتى بكثير من غريب الشعر بداهة ، فأعجب به المنصور ، وأولاه رعايته ، وألحقه بديوان الندماء ، وأجرى عليه راتباً حسناً ؛ وكان بهذا الديوان بعض أدباء العصر مثل زيادة الله بن مضر الطنبى ، وابن العريف ، وابن التيانى ، وغيرهم . وغدا صاعد شاعر المنصور ينظم له المدائح والظرف ، ويصطحبه المنصور فى نزواته برياض الزاهرة ، وينظمه فى مجالس أدبه وأنسه . وقد أورد لنا ابن بسام وصفاً مسهباً لهذه المجالس الأدبية ، التى يجتمع فيها المنصور بخلافه وندمانه ومنهم صاعد ، وأورد لنا كثيراً مما قيل فيها من النظم . وقد كان بعض الفتيان الصقالبة من بطانة المنصور ، يأخذ بقسط حسن من الشعر والأدب ، ويغشى مجالس المنصور الأدبية ويشترك فى المطارحات الشعرية ، وكان من أشهرهم الفتى فاتن ، وكان من أبرع العارفين منهم باللغة والأدب . وقد كان للفتيان الصقالبة فى الواقع تراث من الشعر والأدب ، واشتهروا بذلك أيام المنصور خاصة ، وأصدر أحدهم فى ذلك كتاباً سماه « الإستظهار والمغالبة على من أنكروا فضل الصقالبة » ، ضمنه كثيراً من أشعارهم ونوادير أخبارهم (٢) .

ولبت صاعد على مكانته حتى وفاة المنصور ، ومن بعده حتى نهاية الدولة العامرية ، ثم أفل نجمه بعد ذلك ، وساءت أحواله عند ظهور الفتنة ، فغادر الأندلس متخفياً فى سنة ٤٠٣ هـ ، وجاز البحر إلى صقلية ، واتصل بأمرها فأولاه رعايته ، وحسنت حاله ، وكانت وفاته بها فى سنة ٤١٠ هـ .

(١) الصلة لابن بشكوال (طبعة القاهرة) رقم ٤٠ .

(٢) راجع الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٧-٢٢ ، والمعجب ص ١٦ و ١٧ .

وكان للمنصور ، فضلاً عن مجالس الأدب والأنس العابرة ، مجلس أسبوعي يعقده للبحث والمناظرة ، ويشهده كثير من العلماء والأدباء^(١) . وكان في غزواته يستصحب بعض العلماء والأدباء من أصدقائه ، إذ كان شغف البحث والمناظرة ، يلازمه دائماً حتى في ميدان الحرب ؛ وإلى جانب هذا الشغف الشخصي بالحياة العقلية ، كان المنصور مولعاً بالعمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب ، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقرطبة ، وبالغ في الإنفاق عليها ، وكان يزور المدارس والمساجد ، ومجالس الطلاب أحياناً ، ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها .

وإلى جانب هذا الشغف بالآداب والعلوم ونشر الحياة العقلية ، كان المنصور بشغف أيضاً بجمع الكتب ، وكان أكابر المؤلفين يهدون إليه كتبهم ، على نحو ما كان متبعاً أيام الحكم ، ومن ذلك أن صاعداً البغدادي أهدى إليه كتاب « الفصوص » المتقدم ذكره ، فأثابه عنه بخمسمائة دينار^(٢) .

وكان المنصور يمتت الفلسفة وما إليها ، ويرى أنها مخالفة للدين ، ويكره التنجيم والمنجمين ، وقد أمر بأن يستخرج من المكتبة الأموية العظيمة (مكتبة الحكم المستنصر) سائر كتب الفلاسفة والدهريين ، وأن تحرق بمحضر من كبار العلماء ، وفي مقدمتهم أبو العباس بن ذكوان ، وأبو بكر الزبيدي ، والأصيلي وغيرهم ، وكان ذلك بلا ريب عملاً غير موفق ، وكان خسارة علمية فادحة . وينعى المستشرق سيمونيت على المنصور هذا التصرف ، فيقول : إنه إذا كان الحكم الثاني قد استطاع لنزعة العلم والأدبية أن يحمي الفلاسفة ، فقد جاء المنصور من بعده فقام بحرق كتب الفلسفة التي كانت بمكتبة الحكم ، وذلك لكي يرضى الفقهاء والدهماء^(٣) . واشتد المنصور أيضاً في مطاردة المنجمين ، وبلغه أن أحدهم وهو محمد بن أبي جمعة ، يهجس في تنبؤاته بانقراض دولته ، فأمر بقطع لسانه وقتله ، فخرست ألسن المنجمين جميعاً^(٤) .

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى ص ٧٣ ، والمعجب ص ٢٠ .

(٢) الصلة لابن بشكوال رقم ٤٠ .

(٣) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana ; p, 351

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ ، وأعمال الأعلام ص ٧٧ .

وللمنصور شعر جيد ، نظمه في مختلف مناسبات حياته ، ومن ذلك قوله
في الفخر :

رميت بنفسى هول كل عظيمة وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبي إلا جنان مشيع وأسمر خطى وأبيض باتر
وإني لزجاء الحيوش إلى الوغى أسود تلاقبها أسود خوادر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنياناً ولكن زيادة على ما بنى عبد الملك وعامر
رفعنا العوالى بالعوالى مثلها وأورثناها في القديم معافر
وقوله يتهدد الفاطميين بمصر ، ويمنى نفسه بفتح مصر والشام :

منع العين أن تذوق المناما حبا أن ترى الصفاء والمقاما
لى ديون بالشرق عند أناس قد أدخلوا بالمشعرين الحراما
إن قضوها نالوا الأمانى وإلا جعلوا دونها رقاباً وهاما
عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النيل خطوها والشاما

وأما عن نثر المنصور ، فقد رأينا أن نورد نموذجاً له ، وصيته لولده عبد الملك
حينما حضرته الوفاة ، وقد نقلها إلينا ابن حيان عن أبيه خلف بن حسين ،
وهذا نصها :

« يا بني : لست تجد أنصح لك ، ولا أشفق عليك منى ، فلا تعدّين وصيتى ،
فقد جردت لك رأى ورويتى ، على حين اجتماع من ذهني ، فاجعلها مثالا بين
عينيك . وقد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت
لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت
لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك في الإنفاق ،
ولا تقيض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً ، فكل سرّاف راجع إلى اختلال
لا محالة ، فاقصد في أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك ،
والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم منها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى
لبن الحنبة . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شيء
تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تم عن هذه الطائفة
خلة . ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع

قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه . فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيمك الحنث في يمين البيعة ، إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة . فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإني أرجو أني وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة . والمال المخزون عند والدتك ، هو ذخيرة مملكتك وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك . ومادة الحراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة . وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي ، وأخرجته عن ولاية الثغر ، لئلا يجد العدو مساعاً بينكما في خلاف وصيتي ، فيسرع ذلك في نقض أمري ، ويجلب الفاقة على دولتي . وقد كفيتك الحيرة فيه ، فاكفه الحيف منك عليه ، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم ، بحسب مما قدرت به خلاصي من مال الله الذي في يدي . وخلافتك بعدى أجدي عليهم مما صرفته . فلا تضع أمر جميعهم ، والحظهم بعيني فإنك أبوهم بعدى . فإن انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وإن اعتاصت عليك ، فلا تلقين بيدك القاء الأمة ، ولا تبطر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا مالكم في نفوس بني أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من توثب عليك منهم ، فلا تذهل عن الخزم فيهم ، وإن خفت الضعف فانتبذ لخاصتك وغللمانك ، إلى بعض الأطراف التي حصنتها لك ، واختبر غدك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك ، فإني أعرف ذنبي إليهم » .

وهذه وصيته لغلمانه نقلها إلينا أيضاً ابن حيان عن أبيه :

« تنبهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم ، في طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم ، ولا تغرنكم بوارق بني أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم ، وقدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس يرأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدي . ومالك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد ، فإنه لا يفيل فيكم » (١) .

(١) نقل إلينا ابن بسام (عن ابن حيان) هذين النصين في الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٥٦ - ٥٨ . ونقلهما ابن الخطيب أيضاً في أعمال الأعلام ص ٨١ و ٨٢ .

وفى وصية المنصور لولده وغلامه ، يرتسم برنامج سياسته كلها ، وتبدو بالأخص نواحي توجسه وتخوفه ، فهو لم يكن يأمن جانب بنى أمية قط ، وقد لبث يتوقع الشر منهم حتى وفاته . ثم توفى وهو يتوقع الشر منهم لبنيه ودولته . وقد كان المنصور فى ذلك صائب التقدير ، بعيد النظر .

* * *

هذا وأما عن علائق المنصور الدبلوماسية فإنه لم يتح له عقد الكثير منها ، ولم تفد إليه سفارات من ملوك النصارى على نحو ما حدث أيام الناصر والحكم المستنصر . ذلك لأن عهد المنصور كان كله عهد حروب مستمرة ، بين الأندلس وبين اسبانيا النصرانية ، ولم يقع بين الفريقين تهادن أو سلم طويل الأمد . وكل ما نستطيع أن نسجله من ذلك حادثان متشابهان ، أولهما قدوم برمودو الثانى ملك ليون إلى قرطبة فى سنة ٩٨٥ م ، مستجيراً بالمنصور ليعاونه على مقاومة الأشراف الخارجين عليه وتوطيد عرشه . وقد أجابه المنصور إلى طلبه وبادر بمعونته . ومما هو جدير بالذكر أن برمودو قدم ابنته تريسا Teresa بعد ذلك إلى المنصور عروساً له ، فقبلها المنصور وتزوجها أو اتخذها سرية له (١) .

والثانى ، وهو من أشهر الحوادث الشائقة التى وقعت أيام المنصور ، هو مقدم سانشو غرسية ملك نافار على المنصور ، معترفاً إليه ، لائثداً بعفوه ومهادنته . والوجه الشائق فى ذلك هو أن سانشو غرسية هذا كان صهراً للمنصور ، وكان تقريباً من المنصور ، واكتساباً لمودته قد قدم ابنته عروساً إليه (٩٨١م) فزوجها المنصور ، واعتنقت الإسلام ، وسميت باسم « عبدة » ، وكانت من أحظى نسائه لديه ، ورزق منها بولده عبد الرحمن الذى سمي أيضاً « شنجول » أو « سانشول » أى شانجيه (سانشو) الصغير نسبة لجدده ملك نافار . ثم ساءت العلائق بين المنصور وصهره وتابع المنصور غزو نافار مرة بعد مرة ، حتى اضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وسار إلى قرطبة مستصرخاً بالمنصور ولائداً بعفوه . ووصل سانشو إلى قرطبة فى الثالث من رجب سنة ٣٨٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢ م) فسر المنصور بمقدمه سروراً عظيماً ، وبعث القواد والكبراء وطوائف الجند فى موكب فخم ، وعلى رأسهم ولده عبد الرحمن وهو طفل فى مهده ، لاستقباله ومرافقته

إلى قصر الزاهرة . فلما وقعت عين سانشو على حفيده ، ترجل وقبل يده ورجله . ثم رافق الركب إلى الزاهرة ، وقد اصطفت الحند على طول الطريق في صفوف كثيفة زاهية كاملة السلاح والعدة ، واصطف الوصفاء والصقالبة من باب القصر إلى الداخل صفين . وسار سانشو ، وقد بهره كل ما رأى ، حتى وصل إلى مجلس المنصور في عصر ذلك اليوم ، وقد جلس المنصور في هيئة فخمة ، ومن حوله الوزراء وأعظم رجال الدولة ؛ فلما أبصره سانشو هوى إلى الأرض فقبلها مرات متوالية ، ثم قبل يدي المنصور ورجليه ، فأمره بالجلوس على كرسي مذهب خصص له ، ثم انصرف الناس واختلى الملك النصراني بالمنصور ، وأفضى كل إلى صاحبه بما أراد ، ثم خرج سانشو وفي أثره الخلع السلطانية ، وما انفض المجلس إلا عند دخول الليل .

وكان مقدم سانشو غرسية إلى قرطبة ، واستقبله بها ، من أيام الأندلس المشهودة ، وقد أعاد بروعته وما اقترن به من مغزى عميق بظفر الإسلام على أعدائه ، ذكرى أيام الناصر في وفود الملوك النصارى عليه ، ملتسبين منه الصلح والمودة (١).

* * *

وقد أجمعت الرواية الإسلامية ، الأندلسية والمشرقية ، على الإشادة بخلال المنصور وباهر صفاته . وهي جميعاً سواء أوجزت القول أو أفاضت ، نتم عن عميق التقدير والإعجاب . ثم هي مع ذلك لم تغفل التنويه بالجوانب القاتمة في تلك العبقرية الفذة ، على أنها على العموم أكثر ميلاً إلى إبراز محاسن المنصور ومواهبه ، والإشادة بما أسبغته على الأمة الأندلسية من ضروب العظمة والبهاء .

قال ابن الأثير يصف المنصور : « وكان شجاعاً ، قوى النفس ، حسن التدبير ، وكان عالماً محباً للعلماء ، يكثر مجالستهم ويناظرهم ، وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه ، وصنفوا لها تصانيف كثيرة » (٢) . وقال ابن خلدون : « وكان ذا عقل ورأى وشجاعة ، وبصر بالحروب ، ودين متين » (٣) . ويصفه الفتح ابن خاقان في « المطمح » في تلك العبارات الشعرية : « وكان أمضاهم (يعنى من

(١) أورد لنا ابن الخطيب في « أعمال الأعلام » وصفاً شائقاً لهذا الحادث . ص ٦٦ و٧٣ و٧٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٦١ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

تقدمه) وأذكارهم جنائناً ، وأتمهم جلالاً ، وأعظمهم استقلالاً . قام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة . وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخضوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضح به المسالك ، وانتشر الأمن في كل ضريق ، واستشعر اليمن كل فريق . وملك الأندلس بضعاً وعشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة ، ولم تزخر لمكروه بها لجة ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أشد سهام « (١) .

ويجمل ابن حيان حياة المنصور في تلك الفقرة : « وامثل رسم المتغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم في عصره . فنال بغيته ، وتمناً معيشته ، وأورثه عقبه بعده ، من غير اقتدار عليه ، بجند خاص ، ولا صيال بعشيرة ، ولا مكابرة بمال وعدة ، بل رمى الدولة من كنانها ، وعدا عليها بأعضادها ، وانتضلها بمشاقصها ، وأنفق على ضيبتها أموالها وعددها ، حتى حولها إليه وسبكها في قلبه . وسلخ رجالها برجاله ، وغنى رسومها بما أوضح من رسمه « (٢) .

هذا . وقد أشاد ابن الخطيب بخلال المنصور في مواطن وفقرات عديدة تقتطف منها ما يلي :

قال مشيراً إلى ولاية هشام : « فاستقر الأمر لهشام ، يكتفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولداً ، وأشهرهم بأساً ونداً ، وأبعدهم في حسن الذكر مدداً ، الحازم العازم ، العظيم السياسة ، الشديد الصلابة ، القوى المنة ، الثبت الموقف ، معود الإقبال ، ومبلغ الآمال ، الذي صحبته ألطاف الله الخفية في الأزمان ، واضطرده له النصر العزيز في نحو سبع وخمسين من الغزوات ، ولم تفارقه السعادة حالي الحيا والممات » .

وقال : « فقد أجمع الشيخة أنه نهض بجداً لا كفاء له ، وأصبح سعداً لا نحس بخالطه ، وأعطى لإقبالا لا إدبار معه ، قد وثق بذلك فلم يلتفت إلى غيره ... » وكان مهيباً وقوراً ، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلساً ، وأبرهم بمن يحضر منادماً وموائساً ، وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة ، والامتنان ،

(١) نقله البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٢ ، والمقرى في نفع الطيب ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) نقله صاحب الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ .

لا يغفرها زلة . ولا يخلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح في نقصان اخيبة . وحنظ الطاعة أحداً ، من ولد ولا ذى خاصة ، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف .

« وكانت الخزاة والرجولة ، ثوبه الذي لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره . الذي لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهو شأنه في يومه وليله ، لا يفضل لذة على لذة تدبيره ، وحلاوة نبيه وأمره » (١) .

ولم يكن النقد الغربي أقل تقديرًا لعظمة المنصور ، وقد أشاد بعقريته ومواجهته كثير من المؤرخين والنقادة الغربيين ، وهذه نماذج من أقوالهم :
قال المؤرخ الإسباني اليسوعي ما سديه مشيراً إلى المنصور : « وكان سياسياً كبيراً ، وقائداً عظيماً ، فقد أخذ نار الثورات التي كانت تعصف بالمملكة ، واكتسب حب الشعب بجميع طبقاته ، وتفوق في شهرته وهيبته على أكبر القواد ، بما اجتمع في أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو ، وكان يهدم المدن التي تقاوم جيوشه ويبيدها ، ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسيء معاملة مدينة سلمت طوعاً » (٢) .

ويقول المؤرخ الإسباني المعاصر الأستاذ مننديث بيدال معلقاً على عصر المنصور : « عاش الإسلام في اسبانيا أروع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت دائماً مقرونة بالحن ، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الحزبية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية » (٣) .

ويلاحظ الأستاذ بيدال في نفس الوقت أن عبقرية المنصور العسكرية والسياسية كانت من عوامل القضاء على الروح القومية النصرانية المستعربة ، وذلك لما أغدقه المنصور من عطفه ورعايته على كثير من النصارى والمستعربين (٤) .

ويختتم العلامة دوزى كلامه عن المنصور بالفقرة الآتية : « وعلى الحملة ، فإذا وجب أن نستنكر الوسائل التي لجأ إليها المنصور في اغتصاب السلطة ، فمن

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٥٨ و ٧٤ و ٧٥ .

(٢) J. F. Masdeu : Historia critica de Espana y de la Cultura Espanola

R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 72 (٣)

R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 423 (٤)

الواجب أيضاً أن نعرف بأنه استخدمها بطريقة شريفة . وما كنا لنسرف في لومه لو أن القدر خلقه على أريكة العرش ، ولعله كان يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ . ولكنه خلق في القرية ، واضطر لتحقيق أطماعه ، أن يشق لنفسه طريقاً تكتفه آلاف الصعاب . ومن الأسف أنه من أجل تذييلها ، قلما راعى شرعية الوسطة . لقد كان المنصور رجلاً عظيماً من وجوه كثيرة ، ولكن يستحيل علينا ، متى رجعنا إلى مبادئ الأخلاق الخالدة أن نحبه ، ومن الصعب أن نعجب به «^(١) .

الفصل الثالث

الممالك النصرانية الإسبانية

خلال القرن العاشر الميلادي

هُوض اسبانيا النصرانية في عهد الفتنة الأندلسية . وفاة أردونيو الثاني . الحرب الأهلية في ليون . استقرار راميرو في الملك . ولاية قشتالة . جهادها في سبيل الاستقلال . الكونت فرنان كوثالث . ثورته ضد راميرو الثاني . هزيمته وأسرته . ثورة قشتالة . الإفراج عن الكونت . طاعته لملك ليون . استمراره في العمل لاستقلال قشتالة . وفاة راميرو . الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو . معاونة فرنان كوثالث لسانشو . انتصار أردونيو وفوزه بالملك . يعقد الصلح مع الناصر . وفاته وجلس سانشو . موقف فرنان كوثالث . اضطراب الأحوال في ليون . فرار سانشو وجلس أردونيو الرابع . التجاء سانشو وجدته طوطة إلى الناصر . سانشو يسترد العرش بمعاونة الناصر . نكته لمهودة . فرنان كوثالث يعلن استقلال قشتالة . التجاء أردونيو إلى الحكم . اتحاد الأمراء النصارى . غزو الحكم لقشتالة ونافار . اضطرابها لعقد الصلح . بداية الكفاح بين قشتالة والمملكة الإسلامية . الحكم يأذن بنقل رفات القديس بلايو . الثورة في جليقية . مصرع سانشو وجلس ولده راميرو . وفاة فرنان كوثالث وصفاته . وفود الأمراء النصارى وسفاراتهم على قرطبة . عدوان النصارى على أراضي المسلمين وردهم . النزاع بين راميرو وبرمودو على العرش . تدخل المنصور في ذلك . غزو المنصور لشننت ياقب . برمودو يلتمس الصلح . وفاته وجلس ولده ألفونسو . مملكة نافار . غرسية سانثيز وأمه طوطة . ولده سانشو غرسية . غزو المنصور لنافار . وفاة سانشو وجلس ولده غرسية سانثيز . ولده سانشو الكبير . عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية . طبقة الأشراف والفرسان والملوك والزراع الأحرار . طبقة الأرقاء . رقيق الضياع . التنظيم السياسى للمملكة النصرانية . السلطة الملكية . الأشراف . القضاء واشترالك الأشراف في مزاولته . رجال الدين وسلطانهم الإقطاعى . مقارنة بين هذا النظام ونظام المملكة الإسلامية .

لما بلغت الثورات والفتن الداخلية بالأندلس ، ذروتها في النصف الأخير ، من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فيما اصطلح على تسميته بالفتنة الكبرى ، وبددت قوى الأندلس ومواردها في ذلك الصراع الداخلى المدمر ، أخذت اسبانيا النصرانية ، وقد أمنت شر الغزوات الإسلامية طوال هذه الفترة ، تنفس الصعداء ، فاشتد ساعدها ، ونمت مواردها ، وتوطدت حكوماتها . ولم تأت فاتحة القرن العاشر الميلادى ، حتى كانت مملكة ليون ، التى خلفت مملكة جليقية ، وبسطت سلطانها على ولاية قشتالة ، في أواسط اسبانيا الشمالية ، قد

بلغت مستوى من القوة والبأس ، يتيح لها أن تخوض مع المملوكة الإسلامية صراعاً عنيفاً .

وقد رأينا كيف بلغ هذا الصراع ذروته في عهد الناصر ، وكيف أنه بالرغم مما حققه الناصر من إخماد الفتنة ، وإحياء قوة الأندلس ، استطاع النصارى بقيادة ملكهم أردونيو الثاني ، أن يحرزوا على المسلمين نصرهم الخطير . في موقعة شنت إشتين في سنة ٩١٧ م .

وكانت موقعة شنت إشتين ، وما تلاها من تكرار غزو النصارى للأراضي الإسلامية ، نذيراً خطيراً للحكومة قرطبة ، ولكن وفاة أردونيو الثاني في سنة ٩٢٥ م وضع حداً مؤقتاً لتلك الثورة القومية ، التي جاشت بها اسبانيا النصرانية . ذلك أن أخاه وخلفه فرويلا ، لم يحكم سوى عام واحد ، ثم توفي ، فاضطرم النزاع على العرش بين سانشو وألفونسو ولدى أردونيو ، وانتهى بأن فاز ألفونسو بالعرش بمعاونة صهره وحبيه سانشو ملك نافار . ولكن سانشو لم يبأس ، فجمع جيشاً جديداً ، وتوج نفسه ملكاً في شنت ياقب في أقاصى جليقية ، ثم زحف على ليون فحاصرها واستولى عليها ، وارتقى العرش مكان أخيه . فعاد ملك نافار إلى موازرة ألفونسو ومعاونته ، حتى استطاع أن يهزم أخاه ، وأن يستولى على مدينة ليون مرة أخرى . بيد أن أخاه سانشو لبث محتفظاً بجليقية ، مصراً على دعواه في الملك .

واستمرت الحرب الأهلية بين النصارى أعواماً ، وانتهى طورها الأول ، حينما توفي سانشو ابن أردونيو في سنة ٩٢٩ م ، واستقر الملك لأخيه ألفونسو الرابع دون منازع . ثم بدأ طورها الثاني في سنة ٩٣١ م ، ففي تلك السنة توفيت زوجة ألفونسو ، فحزن لفقدائها أما حزن ، وغلب عليه اليأس والزهدي ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو ثاني ملوك ليون بهذا الإسم ، ولجأ إلى دير ساهاجون واعتنق الرهبانية ، ولكنه عافها بعد قليل ، فترك عزلة الدير ، ونادى بنفسه ملكاً في حصن شنت منكش Simancas . وكان عمله في نظر الرهبان عاراً كبيراً ، فأثاروا عليه دعاية شديدة ، حتى اضطروا أن يعود إلى الرهبانية . وقد كان ألفونسو في الواقع « أميراً أصلح لقلنسوة الراهب منه لتاج الملك ، وأشد شغفاً بالقدس منه بميدان الحرب » ، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو إلى نجدة

ثوار طليطلة . فغادر الدير ، وزحف في بعض أنصاره على مدينة ليون واستولى عليها ، فعاد راميرو مسرعاً ، وحاصر أخاه في ليون واستولى عليها بدوره . ثم أراد أن يضع حداً لمساعي ألفونسو ومحاولته فسمل عينيه ، وسمل كذلك أعين أبناء عمه الثلاثة ، وهم أولاد فرويلا الذين اشتركوا في الثورة عليه .

ويعلق النقد الإسباني الحديث على تلك القسوة بقوله : « وإنه ليروعنا ذكرى العقوبة التي أنزلها راميرو الثاني بأخيه ألفونسو ، وبأبناء عمه الثلاثة ، وإنه لن يكفى من القرون لمحو ذكرى عقوبة سمل العينين التي ورثت عن التشريع القوطي ، قبل أن نراها تطبق بكثرة من جانب ملوكنا نحو ذوى قرباهم »^(١).

وهكذا استقر الملك لراميرو بعد صراع عائلي عنيف . وكان راميرو الثاني أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً شجاعاً مقداماً ، نذر نفسه للكفاح ضد المسلمين ، ومقارعتهم بكل الوسائل ، فتارة يغير على الأراضي الإسلامية ، وتارة يخرض الثوار على حكومة قرطبة ، أو يسير إلى إيجادهم بالفعل ، كما حدث حينما سار لمعاونة طليطلة على مقاومة الناصر (٩٣٠ م) ، وتارة يشتبك مع المسلمين في معارك طاحنة . وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف ، الذي اضطرم بين راميرو وبين الناصر ، والذي بلغ ذروته في موقعة الخندق المشثومة ، التي دارت فيها الدائرة على المسلمين ، تحت أسوار مدينة سمورة في سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) .

١ - نشأة مملكة قشتالة

لم يكن اضطراب الأمور في مملكة ليون ، قاصراً على قسمها الغربي في جليقية ، حيث كان الزعماء (الكونتات) الحلالقة ، يثرون على العرش من آن لآخر ، بغية توطيد سلطانهم المحلي ، بل كان يشمل أيضاً قسمها الشرقي ، في منطقة قشتالة ، التي كانت تسمى يومئذ (بردوليا) ثم سميت فيما بعد « قشتالة Castilla »^(٢) ، وذلك لكثرة الحصون التي كانت تقام بها . وكانت هذه المنطقة ، التي استحالت فيما بعد إلى مملكة قشتالة ، تمتد شرقاً حتى هضاب نافار ، ومن

(١) M. Lafuente: Historia general de Espana (Barcelona 1889) T. II.p.360

(٢) كلمة Castillo الإسبانية معناها الحصن . وقد كانت تسمى في الجغرافية العربية القلاع قبل

أن تنتظم إلى مملكة قشتالة . وتسمى بالإضافة إلى ولاية « ألبه » Alava « ألبه والقلاع » .

ولاية ريونجا جنوباً ، حتى الأراضي التي سميت فيما بعد أراجون وسوبرابي ، وكان سكانها الأصليون من البشكنس وأهل ألبه . وكان ملوك الحلالقة أو ملوك أوڤييدو قد غزوها وأضافوها إلى أملاكهم ، وكانت عاصمتها يومئذ مدينة برغش . وأبدى زعماء قشتالة منذ البداية ، مقاومة عنيفة للملوك الحلالقة ، وبذلوا جهودهم للمحافظة على استقلالهم المحلي ، وثاروا بالفعل في عهد أردونيو الثاني في أوائل القرن العاشر . فحاربهم أردونيو وأخضعهم ، وقبض على كثير منهم وأعدمهم ، واضطر الباقون إلى الالتزام بطاعته ، وكانوا يتمتعون بسلطات محدودة تحت سلطان زعيم محلي ، مقره في «برغش» . وهو يخضع بدوره لملك ليون . ولكن هذا النظام المهين ، لم يرق لكونتات قشتالة ، فلبثوا يتحينون الفرص للثورة ، وتحقيق استقلالهم المنشود .

وعرضت هذه الفرصة ، وألفت قشتالة بطل ثورتها التحريرية ، في شخص زعيمها الكونت فرنان كونثالث (وفي الرواية الإسلامية فرآن غصالس) ، الذي غدت حياته مستقى للملاحم الشعرية ، والقصاص الإسباني في العصور الوسطى ، فحشد الكونت أنصاره وقواته ، وأعلن الحرب على راميرو الثاني ملك ليون ، وولد أردونيو ؛ وكان راميرو يومئذ في أوج قوته ، بعد انتصاره على المسلمين في موقعة الحندق ، فلم يلق مشقة في هزيمة الكونت وسحق قواته ، وأسر فرنان كونثالث ، وزجه راميرو إلى ظلام السجن في مدينة ليون ، وعين لحكم قشتالة أسور فرناندز كونت مونزون ، ثم عين بعد ذلك لحكمها ولده سانشو ، وأمره أن يعامل القشتاليين بالرفق والحسنى ؛ ولكن ذلك لم يخدم جذوة الوطنية القشتالية . ولبت القشتاليون مخلصين لأمرهم المأسور ، واستمروا في الثورة والقتال ، وزحفت جموعهم بالفعل على ليون ، فخشى راميرو العاقبة ، وأطلق سراح فرنان كونثالث ، ولكن بشروط فادحة ، هي أن يقسم يمين الطاعة لملك ليون ، وأن يتنازل عن كل أملاكه ، وأن يزوج ابنته أوراكا لأردونيو ولد راميرو الأكبر . وقبل فرنان كونثالث هذه الشروط مرغماً . وظل أهل قشتالة على بغضهم لملك ليون ، وولائهم لأمرهم . وفقد راميرو بذلك عون الزعماء القشتاليين ومساهماتهم المخلصة في الدفاع عن البلاد ، واستطاع المسلمون خلال ذلك الإغارة مراراً على أراضي ليون والعيث فيها ، وقام الناصر بتجديد مدينة سالم ، ثغر

الحدود بين أراضي قشتالة والأراضي الإسلامية ، وتحصينها (سنة ٩٤٦ م) .
واضطر راميرو أن يلتزم خطة الدفاع ، إزاء الغزوات الإسلامية المتوالية .
وكان فرنان كونثالث ، يعمل أثناء ذلك ، على توطيد مركزه ، وضم كونتيات
قشتالة كلها تحت لوائه ، ليجعل منها وحدة سياسية ، أو بالحري إمارة مستقلة ،
يغدو عرشها من بعده وراثياً في أسرته . وقد استطاع غير بعيد أن يحقق هذه
الغاية (١) .

٢ — مملكة ليون

وفي أوائل سنة ٩٥٠م توفي راميرو الثاني ملك ليون ، فنشبت الحرب الأهلية
مرة أخرى بسبب وراثة العرش . وذلك أن راميرو ترك ولدين أولهما أردونيو ،
وهو ولد زوجه الأولى تاراسيا ، وسانشو وهو ولد زوجه الثانية أورাকা أخت
غرسية ملك ناغار . فادعى أردونيو أنه أحق بالعرش باعتباره أكبر الأخوين ،
ولكن سانشو نازعه في ذلك ، معتمداً على عون أخواله الناغارين ، وجدته طوطة
ملكة ناغار ، وكذلك على عون الكونت فرنان كونثالث وأهل قشتالة . وكان
الكونت غير ميال إلى معاونة أردونيو ، بالرغم من كونه زوج ابنته ، إذ كان قد
أرغم على تلك المصاهرة كما تقدم ، وقد آثر أن يقف إلى جانب سانشو ، إذ وعده
بأن يرد إليه سائر أملاكه ، وأن يحقق أمانيه في الاستقلال ، ومن ثم فقد كان من
الطبعي أن يعمل على إضعاف مملكة ليون لكي يدعم بذلك استقلاله . وهكذا
نشبت الحرب بين أردونيو وبين جيش متحد من قوات سانشو ، وناغار ،
وقشتالة . ولكن أردونيو هزم أعداءه ، وأخضع سائر الخارجين عليه واستقر
في العرش ، ورأى انتقاماً لحياته صهره فرنان كونثالث أن يطلق زوجه المملكة ابنة
الكونت ، وبذلك كفرت هذه الأميرة عن خصومة أبيها للمملكة ليون .

وانتهز المسلمون فرصة الحرب الأهلية ، فتوالت غزواتهم لأراضي ليون ؛
ومن جهة أخرى فقد كان أشراف ليون في تمرد مستمر على ملكهم ؛ وخشى
أردونيو العاقبة ، فبعث سفيراً إلى قرطبة في أوائل سنة ٩٥٥م يطلب عقد الصلح مع
الناصر ، فأجابه الناصر إلى طلبه ، وبعث إليه سفيره محمد بن الحسين ، فعقد معه

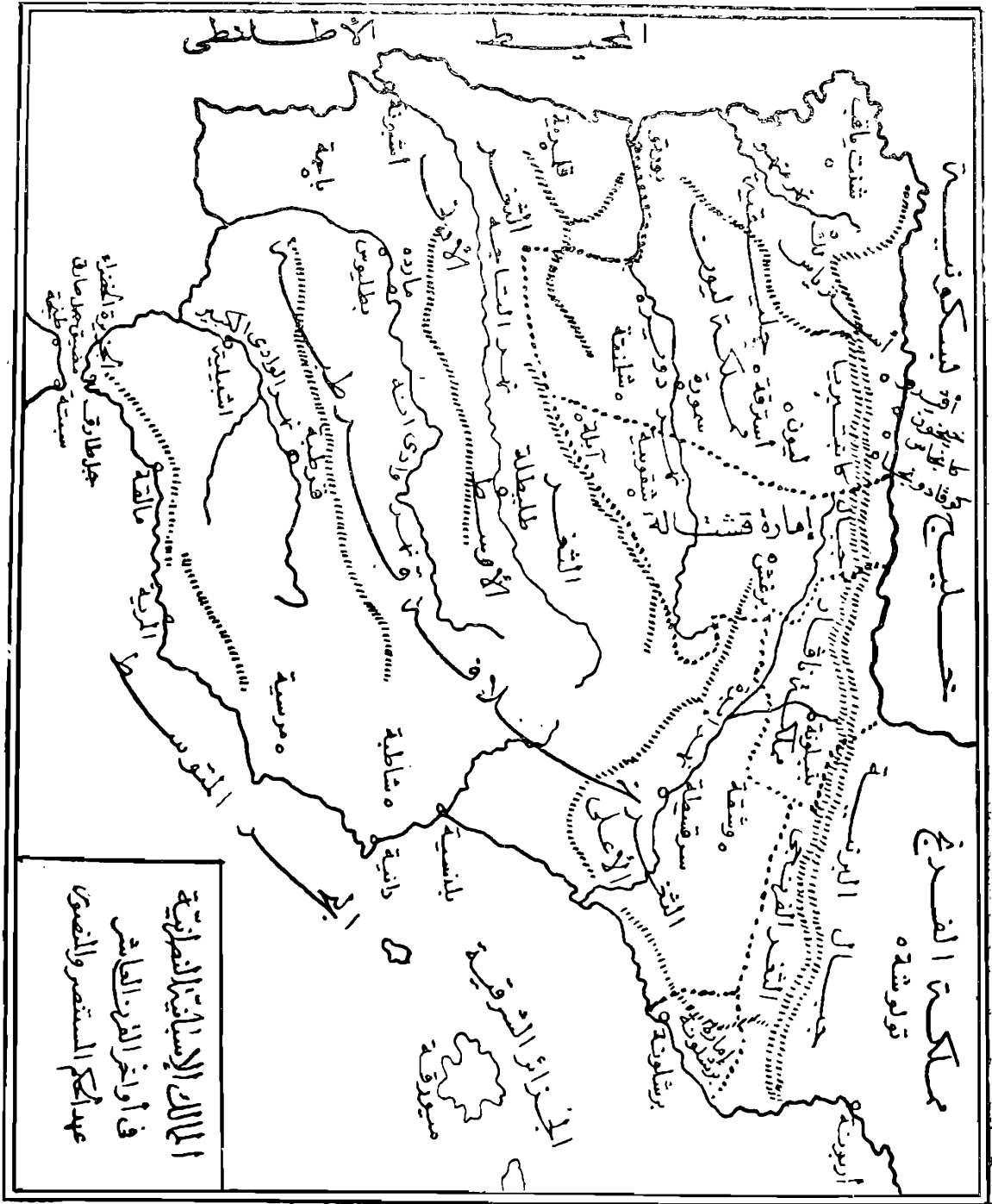
R. M. Pidal : La Espana del Cid p. 70 ; Alámiras : Historia de (١)

Espana, Vol. I. p. 241—245

معاهدة صلح ، تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر . ثم توفي أردونيو بعد ذلك بقليل ، وخلفه أخوه سانشو في الملك ؛ وكان أول ما عمل أن رفض تنفيذ المعاهدة التي عقدها أخوه مع الناصر ، فاضطر الناصر إلى إعلان الحرب ، وبعث حاكم طليطلة أحمد بن يعلى في الجيش إلى ليون ، فغزاها ، وتوغل في أراضيها ، واضطر سانشو أن يعقد الصلح . وأن يقر ما سبق أن تعهد به أخوه . وبذلك استقرت علائق السلم بين الفريقين .

ومن جهة أخرى فإن فرنان كوثالث لم يتحول عن سياسة العداء نحو ليون ؛ وقد كان قبل أن يرتقى سانشو العرش ، يؤازره ويناصره ضد أخيه أردونيو . فلما تولى عرش ليون ، انقلب إلى خصومته وفقاً لسياسته المأثورة ضد ليون ، وكان يبغى في الوقت نفسه أن تعود ابنته أورাকা مطلقاً أردونيو الثالث إلى العرش ، بعد أن تزوجت من ابن عمه الأمير أردونيو ، وقد عاونته القدر غير بعيد على تحقيق بغيته .

ذلك أن الأحوال ما لبثت أن ساءت في مملكة ليون ، فقد ثار الأشراف بسانشو ونزعوه عن العرش ، واحتجوا لخلعه بهزيمته أمام المسلمين في بعض المعارك التي خاضها ، وبأن بدانته الفاتكة تمنعه من ركوب الخيل ، ومن تولى القيادة ، ففر سانشو إلى بنبلونة ، إلى جانب جدته طوطة ملكة نافار ، وقام الأشراف في ليون وقشتالة ، باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع ، وهو ابن ألفونسو الرابع ، عم الملك المخلوع وصهر الكونت فرنان كوثالث ، وكان أحداً دميماً سيء الحلال حتى لقب بالردىء El Malo . ولحاً سانشو إلى عون الناصر ، فأرسل إليه طبيباً يهودياً من قرطبة ، يتولى علاجه من بدانته ؛ وفي سنة ٩٥٨ م (٣٤٧ هـ) قصدت طوطة إلى قرطبة ، ومعها ولدها الفتى غرسية سانشيز ، الذي كانت تحكم نافار باسمه ، وسانشو ملك ليون المخلوع ، فاستقبلهم الناصر استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على نافار ، وواعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ، وذلك مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين ، بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ؛ ثم أمده الناصر بالمال والجند ، فغزا ليون ، وغزا النافاريون في الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق ، وانتهت هذه الحرب الأهلية الجديدة ، بانتصار سانشو وجلسه على العرش مرة أخرى ، وفر أردونيو إلى برغش .



ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، وأبى تنفيذ ما تعهد به ، ثم توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، ولزمت ليون وناقار السكينة حيناً . ولكن فرنان كونثال اتجه وجهة أخرى . وكان قد انهمز فرصة الحرب الأهلية ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً مستقلاً عليها ، وأخذ يسعى إلى توسيع أملاكه بالإغارة على الأراضي الإسلامية . وكان يرى في نزول ميدان الكفاح ضد المسلمين ، وسيلة لتدعيم هيئته في نفوس النصارى المتعصبين ، فأخذ يغير على الأراضي الإسلامية مرة بعد أخرى .

وكان فرنان كونثال ، على قول المؤرخ الإسباني « ذا عبقرية تمازجها الغطرسة ، وروح تمازجها العجرفة ، معتدلاً بنفسه ، وعالملاً بما يمكن أن يجنيه من قلبه وساعده ، محبباً للاستقلال ، تملؤه فكرة تحرير بلاده قشتالة من نير ليون ، وأن يقيم لها سيادة خاصة » (١) .

وقد رأينا فيما تقدم ، كيف لجأ أردونيو الرابع ملك ليون المخلوع إلى الحكم ، وكيف استقباه الخليفة بقصر الزهراء في حفل مشهود ، ووعده بأن يعاونه على استرداد عرشه ، لقاء عهود قطعها على نفسه ، وكيف خشي سانشو عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن ينفذ ما تعهد به للناصر ، وكيف عاد بعد ذلك إلى نكته السابق حينما توفى خصمه أردونيو .

وعندئذ لم يجد الحكم بدأً من الحرب ، ولم يجد الأمراء النصارى بدأً من الاتحاد . وقد فصلنا فيما تقدم كيف اجتاحت الجيوش الإسلامية ، أراضي قشتالة ، ومزقت جيوش أميرها فرنان كونثال ، في موقعة شنت إشتين ، وأرغمته هو وحليفه سانشو ملك ليون على طلب الصلح ، وكيف اجتاحت غربي ناقار عقاباً لأمرها غرسية سانشيز على نكته ، وإغارته على إراضي المسلمين ، وكيف توالى غزوات المسلمين لأراضي قشتالة ، ما بين سنتي ٩٦٣ و٩٦٧ م .

وهنا نقف قليلاً أمام تلك الحقيقة التاريخية الهامة ، وهي أننا نجد قشتالة ، إحدى ولايات مملكة ليون القديمة ، تحارب المسلمين لأول مرة كإمارة مستقلة . ومن ذلك التاريخ تحتل قشتالة مكانتها في تاريخ الكفاح ، بين اسبانيا النصرانية

واسبانيا المسلمة ، وتغدو بالرغم من نشأتها المتواضعة شيئاً فشيئاً . أعظم الممالك النصرانية رقعة ، وأوفرها قوة ومنعة ، وأشدّها مراساً في محاربة المسلمين . وإنهاك قوى المملكة الإسلامية .

واستمر سانشو حيناً يحكم في ظروف صعبة من جراء ثورات الزعماء والأشراف الخارجين عليه ، وكان بعد أن عقد الصباح مع الحكم ، قد أرسل إليه تحقيقاً لرغبة زوجته تريسا ، وأخته الراهبة البيرة ، سفارة يطلب إليه الإذن بنقل رفات القديس بلايو إلى ليون . وكان نصارى قرطبة قد عنوا بنقل رفات هذا القديس من الوادى الكبير ، فأجاب الخليفة سؤله ، ونقلت الرفات في العام التالى في حفل فخم ، وأودعت ليون بكنيسة خاصة أقامها الملك ، وسماها دير سان بلايو . ولم يحضر سانشو هذا الحفل لانشغاله بمقاومة الخوارج عليه . وكان من أشد خصومه والمحرضين عليه الحبر سسناندو أسقف شنت ياقب ؛ وكان هذا الأسقف قد حصن مدينته وقصره الأسقفى ، بحجة حمايتها وحماية مزار القديس ياقب من غارات النورمان ، ولكنه أعلن العصيان ، وعبثاً حاول سانشو استرضاءه ، بيد أنه اضطر أخيراً أن يفتح مدينته للملك حينما رأى فشل الزعماء الخارجين في مقاومته .

وكان بين الزعماء الخارجين عليه من الأشراف وأشدّهم مراساً ، الكونت جوندسالقو (غند شلب) سانشير حاكم جليقية ، وكان قد استطاع أن يوطد استقلاله في المنطقة الواقعة بين نهري منيو ودويرة ، وأن يبسط حكمه على لاميجو وبازو وقللمرية ، الواقعة فيما وراء دويرة شمالي ولاية البرتغال ، فسار سانشو لقتاله ، ولكنه حينما عبر نهو منيو بقواته ، ألقى رسل الزعيم الثائر يعرضون عليه التسليم والطاعة ، مع رجاء واحد فقط هو أن يأذن الملك بمقابلة الكونت ، فقبل سانشو . وكان الكونت قد دبر مشروعاً دنيئاً لاغتياله . فدعاه إلى مأدبة أقامها وقدم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامرہ الريب ، وسرعان ما شعر بدبيب الموت يسرى إلى أحشائه ، فحمل في الحال إلى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ودفن بها تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك في سنة ٩٦٦ م (١) .

وهكذا توفى سانشو ملك ليون مسموماً ، بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة ، فخلفه ولده راميرو الثالث ، طفلاً في الخامسة من عمره ، تحت وصاية عمته الراهبة

إلبيرة . ولكن معظم الأشراف أبوا الاعتراف بسلطانه . ونشبت في ليون طائفة من الثورات المحلية ، ولا سيما في ولايات جليقية ، وحاول كثير من الزعماء الأقوياء الانفصال عن العرش ، وتوطيد سلطانهم المحلي . وكان مثل فرنان كونثال في الاستقلال بولاية قشتالة ، أقوى مشجع لهم ، ولبثت أخطر حركة من ذلك النوع ، هي ثورة جوندسالفو سانشير (قاتل مليكه) حيث استمر على استقلاله بحكم المنطقة الواقعة بين نهري منيو ودويرة ، وحكم القواعد الثلاثة الهامة لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء نهر دويرة .

وفي خلال ذلك ، توفي الكونت فرنان كونثال أمير قشتالة في سنة ٩٧٠ م وخلفه في الإمارة ولده غرسية فرناندز ، كما توفي غرسية سانشو ملك نافار وخلفه ولده سانشو غرسية الثاني .

ويعلق المؤرخ لافونتي على عمل فرنان كونثال مؤسس استقلال قشتالة وسياسته بقوله : « إن جميع الوسائل التي تدرع بها الكونت لتحقيق غايته لا تبدو مستحسنة في نظرنا ، فإن معاملته للملك ليون راميرو الثاني ، وأردونيو الثالث ، وسانشو الأول ، وأردونيو الرديء ، وكذلك معاملته لغرسية ملك نافار ، حليفاً وخصماً بالتوالي هوؤلاء وهؤلاء ، وساعياً في تولية وعزل هوؤلاء وهؤلاء ، ومقسماً للولاء وناقضاً له ، ولقد كانت مقتضيات السياسة وملابساتها في صالحه ، وإن كان ذلك لا يطابق حكم الأخلاق الصارم . بيد أننا نلاحظ أنه من مفاخر الكونت أنه لم يحالف المسلمين قط ، ولم يتهادن قط مع أعداء وطنه أو دينه . أما عن بدء عهد استقلال قشتالة ، فيمكن أن نضعه في منتصف القرن العاشر (الميلادي) ، وهو الوقت الذي رأينا فيه الكونت يعمل لحسابه دون خضوع للملك ليون» (١) . وأدركت الممالك النصرانية يومئذ ، وفي مقدمتها مملكة ليون ، التي شغلت بحوادثها الداخلية ، أنه لا مجال للعدوان على أراضي المسلمين ، ولزمت السكينة حيناً .

واتجه الملوك والأمراء النصارى إلى تحسن علاقتهم مع بلاط قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يسألون الصلح والمهادنة . وكان من الوافدين بأنفسهم على قرطبة أمير جليقية ، والراهبة إلبيرة الوصية على عرش ليون . وقد فصلنا من قبل قصة هذه الزيارات والسفارات في موضعها .

ولما توفى الحكم المستنصر ، وشغل المسلمون بعض الوقت بشئونهم الداخلية ، اعتقد النصارى أن الفرصة قد عرضت مرة أخرى لغزو أراضي المسلمين ، فأغار القشتاليون على الأراضي الإسلامية ، وتوغلوا فيها جنوباً وعاثوا فيها ؛ وهنا نهض محمد بن أبي عامر لرد عدوانهم ، فغزا أراضي قشتالة في أوائل سنة ٩٧٧ م (٣٦٦ هـ) ثم غزاها ثانية ، واقتحم مدينة شلمنقة في العام التالي . وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتوالية ، التي شهرها المنصور بن أبي عامر . على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستغرقت طيلة حياته ، والتي فصلنا أخبارها فيما تقدم .

ونستطيع أن نشير هنا فيما يتعلق بمملكة ليون ، إلى ما وقع من إقدام راميرو الثالث ملك ليون ، على معاونة القائد غالب الناصري ببعض قواته ، في حربه مع المنصور ، فلما سار المنصور بعد ذلك لمحاربة راميرو ومعاقبته على هذا التحدى ، استغاث راميرو بغرسية فرناندز أمير قشتالة ، وسانشو غرسية ملك نافار ، فسار المنصور ، لمقاتلة القوات النصرانية المتحدة ، وهزمها في موقعة شنت منكش في سنة ٩٨١ م .

وعلى أثر ذلك ، رأى أشراف ليون ، أن راميرو لم يعد صالحاً لحكم المملكة ، فقرروا خلعه ، وتولية ابن عمه برمودو ملكاً عليهم (٩٨٢ م) . ولكن راميرو لم يذعن لهذا القرار ، فجمع أنصاره واستعد للحرب ، واضطرت بين برمودو وراميرو حرب أهلية ، انتهت بهزيمة راميرو ، وفراره إلى مدينة أسترقة ، وامتناعه بها . وحاول راميرو بعد ذلك ، أن يلجأ إلى المنصور ، وأن يستمد عونه لاسترداد عرشه . ولكنه توفى بعد ذلك بقليل ، وتخاص برمودو بذلك من منافسته .

بيد أن برمودو ، لم يشعر مع ذلك بالطمأنينة . فقد لبث فريق كبير من الأشراف على معارضتهم لحكمه ، ولبث النضال الداخلي مؤذناً بالخطر . وعندئذ قرر برمودو أن يلجأ إلى المنصور ، فالتمس منه التأييد والعون ، على أن يعترف بطاعته ، فأجابه المنصور إلى طلبه ، وبعث إليه بقوة من جنده ، حلت بمدينة ليون عاصمة المملكة ، وبذلك أصبحت ليون مملكة تابعة تؤدى الجزية .

ولكن برمودو حينما شعر بتوطد مركزه ، واشتداد ساعده ، قرر أن يتخلص

من نير المنصور ، فهاجم الحامية الإسلامية ، واستخلص مدينة ليون من يدها . فقبض المنصور لمحاربتة ، وسار إلى مدينة ليون فاقتحمها وخرّبها ، ومزق قوى النصارى ، ثم استمر يغزو أراضى ليون تباعاً ، ويوقع الهزائم المتوالية بـرمودو ، حتى اضطر برمودو إلى طلب الصلح ، والعودة إلى الاعتراف بالطاعة (٩٩٥م) . وقد رأينا كيف سار المنصور بعد ذلك ، إلى غزو مدينة شنت ياقب عاصمة اسبانيا النصرانية الروحية (٩٩٧م) ، وكيف انضم إليه فى تلك الغزوة . أعظم أشرف جايقية . وعندئذ لم ير برمودو مناصاً فى النهاية ، من العود إلى التماس الصلح ، والاعتراف بالطاعة ، وببذكل مقاومة . فأجابه المنصور إلى طلبه . وعاش برمودو بعد ذلك عامين آخرين . قضاهما فى إصلاح الكنائس والأديار والقلاع . التى هدمت خلال الحرب . ثم توفى سنة ٩٩٩م ، فخلفه ولده ألفونسو الخامس طفلاً . وقام بالوصاية عليه الكونت مننديث كونثال أحد أشرف المملكة (١) .

٣ - مملكة نافار

أشرنا فيما تقدم إلى نشأة مملكة نافار المستقلة ، فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، وكيف تولى عرشها سانشو غرسية (الأول) ، عقب اعتزال أخيه فرتون الملك فى سنة ٩٠٥م . وقد عمل سانشو على توسيع أطراف مملكته الصغيرة ، واستطاع أن يدفع حدودها جنوباً حتى ناجرة ، وخاض مع المسلمين حروباً عديدة ، أيام الأمير عبد الله ، وفى أوائل عهد الناصر . وقد غزا الناصر نافار سنة ٩٢٠م ، ثم بعد ذلك فى صائفة ٩٢٤م ، ودخل عاصمتها بنبلونة وخرّبها ، وسحق قوى نافار ، وقضى على كل مقاومة من جانبها وكل نزعة للعدوان .

ولما توفى سانشو فى سنة ٩٢٦م ، خلفه ولده غرسية سانشو طفلاً ، وحكم أولاً تحت وصاية عمه خمينو غرسيس ، ثم بعد ذلك تحت وصاية أمه الملكة طوطة ، التى لبثت تحكم باسمه طويلاً ، حتى بعد أن بلغ سن الفتوة والنضج . وكانت نافار خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة ، مع المملكتين النصرانيتين الأخيرتين . فقد كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجاً من أوراكا ابنة الملكة طوطة وأخت غرسية . وكان فرنان كونثال كونت قشتالة متزوجاً من ابنة أخرى لطوطة هى

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨١ ؛ وكذلك Altamira : ibid, Vol. I. p. 246

سانشا . وكانت طوطة تحتل بذلك مقاماً ملحوظاً في الممالك الثلاث . ولما توفى راميرو الثانى ملك ليون فى سنة ٩٥٠ م ، واضطرت الحرب الأهلية حول وراثة العرش بين ولديه أردونيو وسانشو ، وقفت ناغار إلى جانب سانشو ، ولد الملكة أوراكا الناغارية ، ثم وقفت بعد ذلك إلى جانبه مرة أخرى . بعد أن تولى العرش عقب وفاة أخيه ، وقام أشراف ليون بخلاعه ، ولحأت الملكة طوطة فى معاونته إلى الناصر حسبما تقدم .

ثم اضطربت العلاقات بين ناغار وبين جارتها قشتالة ، ونشبت الحرب بينهما ، فهزم الكونت فرنان كوثنالث أمير قشتالة ، وأسر فى موقعة نشبت بين الفريقين على مقربة من ناجرة ، واعتقل فى ناغار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة قشتالة ولزمت السكينة حيناً .

ولما توفى الناصر ، وتولى مكانه ولده الحكم المستنصر ، طالب ملك ليون بتسليم الحصون التى تعهد بتسليمها إلى أبيه ، وطالب ملك ناغار بأن يسلمه أسيره فرنان كوثنالث أمير قشتالة ، فرفض المالكان مطالب الحكم ، وأطلق غرسية أسيره فرنان كوثنالث ، فهرع إلى برغش عاصمته ، وقبض على صهره أردونيو الرابع ، وأرسله مخفوراً إلى الحدود الإسلامية ، وهناك التجأ إلى القائد غالب حاكم الثغر ، ثم سار معه إلى الحكم مستجيراً به ، واستقبله الحكم كما تقدم فى احتفال مشهود .

واستطال حكم غرسية سانشير حتى سنة ٩٧٠ م ، واستمرت أمه الملكة العجوز طوطة ، محتفظة بإشرافها عليه ، ومشاركها الفعلية فى الحكم ، حتى وفاتها فى سنة ٩٦٠ م .

ولما توفى غرسية سانشير ، خلفه فى عرش ناغار ولده سانشو غرسية الثانى . وكانت مملكة ناغار قد اتسعت رقعتها عندئذ ، وأصبحت تشمل عدا ولاية ناغار الأصلية ، ولايات كانتبريا ، وسوبراني ، ورباجورسا ، ونمت مواردها وقواها حتى أن سانشو لم يحجم عن الإغارة على الأراضى الإسلامية ، ورد المنصور على هذه المرأة ، فغزا ناغار وتوغل فيها حتى اقتحم عاصمتها بنبلونة وذلك فى سنة ٩٨٧ م .

وخلف سانشو فى الحكم ولده غرسية سانشير الثالث ، فلم يدم حكمه سوى

خمسة أعوام ، وفي عهده غزا المنصور نافار مرة أخرى (٩٩٩ م) . ثم توفي غرسية في العام التالي ، فخلفه ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير .

٤ - عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية

سبق أن تحدثنا فيما تقدم عن عناصر المجتمع في اسبانيا المسلمة ، ويجدر بنا أن نتحدث هنا عن عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية .

لم يكن في اسبانيا النصرانية بعد الفتح الإسلامي ، ما يمكن أن يسمى بالحياة القومية العامة . وكانت كل ولاية أو مملكة ، تعيش وفق ظروفها ونظمها الخاصة ، وكان هذا التباين ذاته ، يقوم في الداخل ، ويتفاقم أحياناً بما يحدث إلى جانبه من خلافات أخرى ، تصيب النظم والحياة الإجتماعية :

وقد بقي تكوين المجتمع النصراني الإسباني عقب الفتح ، على ما كان عليه أيام القوط ، فكان يتكون من عنصرين رئيسيين ، هما الأحرار ، والعبيد ، وكان الأحرار وهم الذين يستطيعون التصرف في أشخاصهم ، والتنقل بحرية من مكان إلى آخر ، ينقسمون بدورهم إلى أشرف وعامة .

وكانت طبقة الأشراف ، تتكون أولاً من الحكام ومن خاصة الملك ، وتتوقف في تكوينها على الملك ، بمنحها الألقاب والأراضي والوظائف . ويلحق بهذه الطائفة كبار الملاك ، الذين يحصلون على أملاكهم سواء بالميراث أو الهبة . وكان للأشراف امتيازات كثيرة ، سواء بالنسبة لأشخاصهم أو أملاكهم ، فكانوا داخل أراضيهم سادة بكل معنى الكلمة ، لهم مطلق الحرية والتصرف ، بل كان لهم أن يتركوا خدمة الملك ، وأن ينتقلوا إلى مملكة أخرى ، إذا غضبوا منه لسبب من الأسباب . وكان من جراء ذلك ، أن كثيراً من الأشراف النصراني ، كانوا ينتقلون إلى الأراضي الإسلامية ، وينضون تحت لواء الأمراء والحلفاء ، ويحاربون معهم ضد مواطنيهم وأبناء دينهم .

وكان هؤلاء الأشراف معقون من الضرائب ، خلافاً لما كان عليه الأمراء في عهد القوط ، وكانوا ملزمين فقط بمساعدة الملك وقت الحرب ، فينتظمون مع أتباعهم في الجيش المحارب على نفقة الملك .

وكان يلحق بهذه الطبقة من الأشراف ، بعض طوائف أخرى أقل أهمية من الناحية الاجتماعية ، مثل الفرسان والمحاربين ، وهم الأشخاص الذين يستطيعون

أن يقتنوا لأنفسهم خيلاً وسلاحاً ، ليشاركوا في الحرب ، ثم يمنحون نظير هذا الاشتراك بعض الإمتيازات . وقد نمت هذه الطبقة فيما بعد . وكذلك كان ينتمى إلى الأشراف ، وينضوى تحت حمايتهم ، بعض الطوائف الميسورة ، مثل صغار الملاك ، وأصحاب الصناعات . ولم تكن هذه الحماية تقف عند الأشخاص أو الأسر المعينة فقط ، ولكنها كانت تشمل أحياناً بعض القرى والضياح ، فينضوى أهل القرية أو الضيعة ، تحت حماية الشريف بشروط معينة ، وكان هؤلاء يقدمون جزءاً من أملاكهم إلى السيد المتولى حمايتهم ، ويؤدون إليه إتاوات معينة ، وأعطية شخصية . بيد أنهم كانوا في حل من تركه إذا قصر في حمايتهم ، والانضواء تحت حماية سيد آخر .

ويلحق أخيراً بهذه الطبقة الشعبية الزراع الأحرار ، وهم الأشخاص الأحرار الذين لا يملكون أرضاً ، ولكن يتلقون من الملاك أرضاً لزراعها . وكذلك الأحرار الذين كانوا من قبل رقيقاً ، ثم وفقوا إلى تحقيق حرياتهم ، وكان هؤلاء عليهم أن يؤدوا إلى السيد أو المالك ضرائب وإتاوات عينية فادحة ، بيد أنه كان في وسعهم أن يتركوه متى شاءوا .

إلى جانب هذه الطبقات الحرة من المجتمع النصراني ، كانت توجد الطبقة المستعبدة أو طبقة الأرقاء ، وقد بقيت أحوالها على ما كانت عليه أيام القوط تقريباً . وكانت تتكون من عناصر عدة ، فمنهم عبيد الدولة ، وعبيد الملك ، وعبيد الكنيسة والأديار (عبيد رجال الدين) ، ثم عبيد الأفراد وعبيد الأرض الملحقين بها . وكان عبيد الأفراد على الأغلب من أسرى الحرب ، ومنهم الأسرى المسلمون . وقد استمرت هذه الطوائف من الرقيق ، قائمة حتى القرن الثاني عشر ، ثم اندمجت بعد ذلك في طائفة واحدة من الأرقاء ، هم رقيق الضياح .

وكان رقيق الضياح يعتبرون من مرافق الأرض ، وينقلون معها بانتقال الملكية . وكانوا يزرعون الأرض على نفقتهم ، ويؤدون إلى السيد ، سواء أكان هو الملك ، أو الأشراف أو الكنيسة ، جزءاً من المحصول ، وإتاوات أخرى ، ويقدمون إلى جانب ذلك خدمات شخصية كثيرة ، مثل القيام بحرث أرض السيد ، أو ضم محاصيله وعصر نبيذه وزيته ، أو المعاونة في بناء داره ، وتنحصر حقوقهم في التمتع بالسكن ، والعيش في الضيعة . وكان بيع الضيعة يغدو في معظم

الأحيان بالنسبة لهم محنة أليمة ، إذ يفرق أحياناً بين الرجل وزوجه ، أو بينه وبين أولاده .

وكانت هذه الطبقة من الأرقاء تتكون من أبناء العبيد ، ومن المحكوم عليهم بالرق ، في قضية مدنية أو جنائية ، ومن أسرى الحرب ، وقد كانوا أسوأ طوائف الرقيق حظاً .

وكان تحرير الرقيق ، يقع إما بالعتق أو بالفرار أو الثورة . على أن ثورات العبيد كانت قليلة ، وكان الأغلب أن يظفر العبيد بحرياتهم ، في أعقاب الثورات التي يشتركون فيها . أما العتق فكان يجري وفقاً لتعاليم الكنيسة . على أن هذه الطائفة من المتحررين ، لم تكن تتمتع بكامل حقوق الطوائف الحرة الأخرى ، فكان السيد يحتفظ لنفسه أحياناً قبل المعتوقين ببعض الخدمات أو الإتاوات .

وقد استمرت الطبقة الوسطى ، تنمو على كثر الزمن . بزيادة عدد المعتوقين أو الأحرار الأصائل ، حتى إذا كان القرن العاشر ، كانت هذه الطبقة ، تكون الجزء الأعظم من السكان ، وتتمتع بظروف وأحوال أفضل بكثير مما كانت عليه من قبل (١) .

٥ - تنظيم السلطات السياسية

أما من حيث التنظيم الأساسي ، وتوزيع السلطات السياسية ، في الممالك الإسبانية النصرانية . فقد كانت هذه السلطات موزعة . بين ثلاث جهات رئيسية هي الملك ، والأشراف ، ورجال الدين .

وقد كان المفروض أن تكون السلطة الملكية ، هي أعلى السلطات وأشملها ، وقد كانت كذلك من الوجهة النظرية . فقد كان الملك ، هو رئيس الدولة الأعلى ، وله الولاية على كل فرد تضمه أرض المملكة . وكان الملك مصدر التشريع ، ومنه وباسمه تصدر القوانين العامة ، وكذا كان له حق الموافقة على القوانين المحلية ، التي يصدرها الأشراف بالنسبة للمتمتمين إليهم ، وله أن يدعو رعاياه إلى الحرب ، وأن يرغمهم على الخدمة فيها ، وأن يصدر السكّة ، وأن يباشر العدالة . وهو الذي يعين الأساقفة وقيادهم ، ويؤسس الكنائس والأديار ، وهو الذي يقود الجيش ، وعلى الحملة فهو الذي يتولى سائر الوظائف السياسية والعسكرية والدينية والمدنية .

على أن هذه السلطات لم تكن متساوية في جميع الأحوال والعصور ، وقد تعدلت بمضى الزمن ، وانتقصت أطرافها . أحياناً بطريق التنازل من جانب الملوك ، وبخاصة لأن الملك لم يكن يزاول هذه السلطات بطريق مباشر .

وكان الأشراف يتمتعون داخل أملاكهم ، بقدر كبير من الاستقلال ، ويسيطون حكمهم على طائفة كبيرة من الأراضي والقرى والضياح والحصون . وكان السيد يعيش في حصنه ، وهو يتبع عادة في موقع إستراتيجي حصين ، ويحيط به عدد من المساكن المحصنة . ويخضع لسلطته سائر سكان المنطقة ، بعضهم كعبيد ، والبعض الآخر من المشمولين بحمايته . وكان يجبي منهم الضرائب ، والإتاوات العينية ، ويدعوهم للخدمة العسكرية متى دعاه الملك إلى الحرب ، ويباشر القضاء بينهم . وله أن يوقع عليهم بعض الأحكام الجنائية التي تتصل بالقانون العام . وعلى الحملة فقد كان للشريف على سكان منطقته . السيادة المطلقة . وهو الذي يوزع بينهم مختلف المناصب والأعمال .

وأما القضاء قبل الأشراف أنفسهم ، فقد كان يزاوله بالنسبة للسيد ، أشرف من طبقته . ولا يزاوله قضاء الملك . لأنهم لم يكونوا من الأشراف . وكان للشريف أن يشهر الحرب على زملائه الأشراف . إذا أصابه منهم حيف أو إهانة ، وله أن يترك خدمة الملك دون أن يخسر شيئاً من أملاكه . بل كان له أن يشهر الثورة ضد الملك . ولم يكن يحذر من هذه السلطة ، التي يمنحها الملك إياه سوى أمرين ، الأول الحيانة ، وفي هذه الحالة يجرى الشريف من أملاكه وامتيازاته ، والثاني متى ضمت لأملاكه أراض جديدة ، فإنه لا يستطيع أن يبسط عليها سلطته وامتيازاته إلا بموافقة الملك .

وكان الأشراف يشاركون في مزاولة القضاء مشاركة فعلية ؛ فقد كانوا يؤلفون جزءاً من المحاكم العادية ، ويشتركون في تشكيل المحاكم الملكية كلما اجتمعت ، ويحتلون كذلك بعض المناصب الإدارية الهامة . وكان لهذه المساهمة الخطيرة ، أثرها في إذكاء شهوتهم إلى الاستئثار بالسلطة ، وتوطيد استقلالهم المحلي . وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الثورة ، لفرض إرادتهم على العرش ، أو يتدخلون في وراثة العرش بالقوة القاهرة .

ومع ذلك فقد كان الملوك ، يعمدون إلى الإغضاء في أحيان كثيرة ، ولو كان

في ذلك إضرار بالسلطة الملكية . ذلك أن ضعف الملوكية ، وضرورات الحرب ، ثم الحاجة إلى معاونة الأشراف أيام الحرب الأهلية حول وراثة العرش ، كانت ترغم الملوك على التسامح ، بل وأحياناً على زيادة المنح والامتيازات للأشراف ، وذلك حرصاً على استتباب الأمن والسكينة ، إذ كان الأشراف في تلك العصور قوة يخشى بأسها .

وقد كانت طائفة الأشراف هذه ، بالرغم من مركزها الإجتماعي الممتاز ، تنطوى على عيوب ومثالب كثيرة ، فقد كانت تنجح إلى استغلال الرعايا ، وانتزاع ما في أيديهم ، بل وقد كانت ترتكب الجرائم جهاراً ، فتعتمد إلى نهب التجار والمسافرين ، وكان الأشراف يقتتلون فيما بينهم للفوز بثمار أمثال هذه الجرائم . وقد استمر هذا النظام الإجرامي الجائر عصوراً ، بالرغم من تدخل الملك ، والأساقفة ، لحفظ الأمن في كثير من الأحيان .

وإلى جانب الأشراف ، كان رجال الدين من الأساقفة والرهبان ومن إليهم ، يتمتعون كذلك في أراضيهم بسلطان مستقل . وكان للكنائس والأديار أراض شاسعة خاصة ، ترجع إلى الهبات والנדور وغيرها ، وفيها تزاول السلطة بطريق مطلق ، وفقاً لروح هذا العصر الإقطاعي . وكان لها أيضاً كثير من العبيد والزراع تتمتع قبلهم كالأشراف ، بالحق في تحصيل الجباية والمحاصيل وغيرها . وكان الملوك في أحيان كثيرة يهبون بدافع الورع والحماسة الدينية ، إلى الكنائس والأديار رقاعاً شاسعة من الأرض ، فتبسط سلطانها على سكان المنطقة ، وتحصل منهم الإتاوات ، وتزاول بينهم القضاء . وكانت الكنائس والأديار ، تدفع هذه السلطات أحياناً إلى حدود مرهقة ، اجتناباً لافتتات الأشراف المجاورين . وكان رجال الدين ، على مثل الأشراف ، يلبون دعوة الملك إلى الحرب هم ورجالهم ، ويحشدون الصفوف من بين رعاياهم من الأحرار والزراع والأرقاء ، أو يعهدون بذلك إلى رئيس من غير رجال الدين . والحلاصة أن الأساقفة والرهبان كانوا كالأشراف ، سادة بكل معاني الكلمة ، وكانوا يمتازون في ذلك على الأشراف ، بأن كان الملك يصدر الوثائق والمراسيم المكتوبة بامتيازاتهم ، وكان يتبع الكنيسة أحياناً مناطق كثيفة من السكان ، كما كان الشأن في شنت ياقب ، حيث قامت حول الكنيسة مدينة عظيمة ، صارت تابعة لها هي وما حولها من الأراضي الشاسعة .

وكانت سلطة الأسقف تتخذ في أحيان كثيرة صورة مطلقة في المدينة وفي الحقل .
يزاولها على يد كورنات وموظفين وغيرهم . وكان له جيشه أو جنده الخاص ،
يحمون أراضيه من الأجانب أو الأشراف المغيرين (١) .
ونلاحظ أن هذا التنظيم السياسي ، الذي تطبعه روح إقطاعية عميقة ، والذي
ينطوى على توزيع السلطة بين مختلف الطوائف والعصبيات ، بصورة تجعل دولا
عديدة داخل الدولة ، يتنافى في جملته وتفصيله مع التنظيم السياسي للدولة الأندلسية
الإسلامية . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف كان العرش يحرص منذ البداية على سلامة
السلطة المركزية ، وكيف بذل أمراء بني أمية ، منذ عبد الرحمن الداخل جهودهم ،
لإخماد النزعة القبلية ، وتحطيم رياستها ؛ ثم جاء الناصر فحطم العصبية العربية ،
وقضى على رياسة القبائل العربية بصورة نهائية ، واستخلص السلطة كلها للعرش ،
ولم يكن العرش يتسامح بعد ذلك ، مع أية رياسة محلية تنزع إلى الاستقلال ،
إلا ما كان بالنسبة لبعض الثغور النائية ، مثل طليطلة وسرقسطة ، وذلك لأسباب
عملية واستراتيجية .

الفصل الرابع

عبد الملك المظفر بالله

عبد الملك بن المنصور يتولى الحجابة وتديبر المملكة . إشادة الرواية الإسلامية بعهدده وبخلاله .
يخذو حذو أبيه في سياسته نحو المغرب . يتابع سنته في الغزو . خروجه إلى الغزو ومسيره إلى الثغر
الأعلى . عيثة في أراضي برشلونة . عوده إلى قرطبة واستقبال هشام له . جلوسه في الزاهرة . سفارة
أمير برشلونة . إحتكام أميرى قشتالة وجليقية إليه . غضب سانشو غرسية وعدوانه . مسير عبد الملك
لغزو قشتالة . غزوه لمملكة ليون . غزوة بنبلونة . استقباله لسفير القيصر في مدينة سالم . غزوة
قلونية أو غزاة النصر . إتخاذ عبد الملك لقب المظفر بالله . قصة هذا اللقب ومرسومه . استثنائه للغزو
واختراقه لقشتالة . الغزوة السابعة أو غزاة العلة . مرضه وتفرق جيشه . وفاته . ما قيل عن اغتياله
بالسم . موقفه من الخليفة هشام . إنهماكه في الشراب واعتماده على الغلمان والوزراء . الوزير عيسى
ابن القطاع . المنافسة بينه وبين الفتيان . تغلب الفتى طرفه واستثنائه بالسلطة . تغير عبد الملك عليه .
القبض عليه وإعدامه . ابن القطاع يسترد نفوذه وسلطانه . كبرياؤه وتعسفه . الواقعة في حقه .
استظهار عبد الملك بالصقالبة والبربر . سحق الأسر العربية لذلك . تأمر ابن القطاع على إزالة بني عامر .
وقوف عبد الملك على المؤامرة . بطشه بالوزير وأصحابه . استرداده لسائر
السلطات . صفات عبد الملك وخلاله .

لما توفي المنصور بن أبي عامر بمدينة سالم ، في السابع والعشرين من رمضان
سنة ٣٩٢ هـ ، بعد أن ألقى إلى ولده عبد الملك ، وصيته ونصائحه الأخيرة ، بادر
عبد الملك بالعودة إلى قرطبة ، تاركاً لأخيه الأصغر عبد الرحمن ، أمر العناية بمواراة
أبيه ، والعودة بالجيش . وما كاد يصل إلى العاصمة ، حتى بادر بروية الخليفة
هشام المؤيد ، واستصدر منه المرسوم بتوليته الحجابة ، وجلس في الحكم مكان أبيه
بالزاهرة . وتلى نص المرسوم بالمسجد الجامع ، وأنفذت الكتب إلى الجهات ،
والى عدوة المغرب ، معرفة بوفاة المنصور وتولية ابنه عبد الملك تدبير
المملكة مكانه . وكان لوفاة المنصور وقع عظيم بقرطبة ، فحزن الناس
لفقده أيما حزن ، وأدرك العقلاء أن رزءاً فادحاً نزل بالإسلام وبالأندلس .
واعتمد فريق من الفتيان المروانيين بالقصر ، وبعض الناقلين من العناصر الأخرى ،
أن الفرصة قد سنحت ، لتحرر من نير الحكم القائم ، والعود إلى النظام الخلافي ،
ولكن الساطات العامرية كانت ساهرة . فقبض في الحال على عدد من المحرضين ،

وأبعدوا إلى العدة ، واستتب الأمر لعبد الملك ، دون ما جهد أو اضطراب ، واستقبل الناس حكمه بالاستبشار والرضى .

وكان عبد الملك ، حينما خلف أباه المنصور في الحكم ، في الثامنة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بقرطبة في سنة ٣٦٤ هـ ، ويكنى أبا مروان ويلقب بسيف الدولة وبالمظفر بالله ، وأمه حرة تدعى الذلفاء ؛ وقد رأينا كيف تمرس عبد الملك في شؤون الحكم أيام أبيه ، وكيف تولى القيادة ، واشترك معه في كثير من غزواته ، ومن ثم فقد قبض عبد الملك على زمام الأمور بحزم وكفاية ، واعتزم أن يسير على خطى أبيه ، سواء في تدبير الشؤون الداخلية ، أو الاستمرار في غزو الممالك النصرانية .

وتشيد الرواية الإسلامية بعهد عبد الملك على قصره . وما بلغته الأندلس فيه من الرخاء والنعماء ، وتقدمه إليها في صور طيبة لامعة . فيقول لنا ابن حيان في قوة وحماسة : « انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً ، ما عهد مثله في دولة . وسكن الناس منه إلى عفاف ، ونزاهة ، ونقى سريرة ، ووثوق في بعد همته ، اطمأنوا بها إلى جنبه . في السرور والعلانية ، فباحوا بالنعم ، واستثاروا الكنوز ، وتناهوا في الأحوال . وتناغوا في المكاسب ، وتحاسدوا في اقتناء الأصول ، وابتناء القصور . وغالوا في الفرش والأهتعة ، واستفروها المراكب والغلمان ، وغالوا في الجوارى والقيان . فسمت أثمان ذلك في تلك المدة ، وبلغت الأندلس فيها الحد الذي فاق الكمال ؛ فهدت تلك الدولة في احتشاد النعم عندها ، وارتفاع حوادث الغير عنها ... في كنف ملك مقبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام . مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه ، ولم يدهنوا في طاعته ، ورضى بالعافية منهم ، وآتوه إياها فصفى عيشه . وانشرح قلبه ، وخلصه الله من الفتنة » .

ويشيد ابن حيان بعد ذلك ، بعفة عبد الملك ، وورعه وتواضعه وشجاعته وحيائه ، وتورعه عما يشين الملك من المحون والاستهتار ، وبره بوالديه ، وثباته على عهد أبيه . كل ذلك في عبارات تم عن عميق تأثره وإعجابه (١) .

بيد أن هذه الصور المشرفة التي تقدم إلينا عن خلال عبد الملك ، تغشاها

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٨٤ و ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

من الناحية الأخرى خلة قاتمة ، هي شغفه بمعاقرة الشراب وانهماكه في لذاته (١) .
افتتح عبد الملك المنصور عهده ، بإجراء كان له في نفوس الناس أطيب وقع ؛
وذلك أنه أسقط سدس الحباية عن سائر الناس ، في سائر بلاد الأندلس . فكان
لذلك أثره في التخفيف عن الناس ، والرفق بهم ، وبث شعور الرضى والاستبشار
بالعهد الجديد .

وحذا عبد الملك حذو أبيه المنصور نحو المغرب ، في تأييد زناتة ومغراوة ،
والإبقاء على ولائهم . وكان المنصور حينما توفي زيرى بن عطية زعيم مغراوة ،
في سنة ٣٩١ هـ ، قد أقر ولده المعز حاكماً على المغرب حسبما قدمنا . فلما تولى
عبد الملك الحباية ، أعلن المعز طاعته له ، ودعى له على منابر المغرب ، فكتب
إليه عبد الملك بعهدده ، على سائر ما يملكه من أقطار المغرب (سنة ٣٩٣ هـ) على
أن يؤدى إلى حكومة قرطبة ، مقادير معينة من المال والخيل والدرق . واستمر
المعز على الوفاء بعهوده ، أيام عبد الملك وأخيه عبد الرحمن من بعده (٢) .

واعتزم عبد الملك أن يسير على سنن أبيه في متابعة غزو الممالك النصرانية ،
وألترك لها فرصة لتذوق السلم والدعة . وكان الملوك النصارى قد تنفسوا الصعداء
عند وفاة المنصور ، واعتقدوا أن الظروف قد تتغير ، وأن أخطار الغزوات
الإسلامية قد تخبو ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل . ذلك أنه لم تمض أشهر
قلائل على تولية عبد الملك ، حتى اتخذ الأهبة لغزوته الأولى ، واستعد لها استعداداً
خاصاً ووفدت على قرطبة طوائف كبيرة ، من الزعماء والمتطوعة من العدو ،
للاشتراك فيها ، وأجزل لهم عبد الملك الصلات والأرزاق ، ووزع فيهم ما كان
مخزوناً من السلاح .

وخرج عبد الملك بالحيش من مدينة الزاهرة ، في شعبان سنة ٣٩٣ هـ (يونيه
١١٠٣ م) . وتصف لنا الرواية مشهد خروجه فتقول لنا إنه « خرج على الناس
شاكى السلاح ، في درع جديد سابغة ، وعلى رأسه بيضة جديدة مثمثة الشكل
مذهبة ، شديدة الشعاع ، وقد اصطفت القواد والموالى والغلمان الخاصة ، في
أحسن تعبئة ، فساروا أمامه ، وقد تكفنه الوزراء الغازون معه » (٣) . وسار عبد الملك

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٩٨ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٥ .

أولاً إلى مدينة طليطلة ، ثم ارتد منها إلى مدينة سالم ، وهناك انضم إليه الفتي واضح في قواته ، ووفد عليه في نفس الوقت قوة من النصارى ، أرسلها الكونت سانشو غرسية أمير قشتالة ، وفقاً لمعاهدته مع المنصور .

وتابع الحاجب عبد الملك سره بعد ذلك نحو الثغر الأعلى ، واستراح أياماً في سرقسطة ، ثم غادرها قاصداً إلى الثغر الإسباني أو بعبارة أخرى إلى إمارة يرشولونة التي بدت من أمرائها منذ أيام المنصور نزعة إلى العدوان ؛ وأشرف على سلسلة من الحصون القوية الواقعة جنوبي جبال مونسيش ، واستولت قوات الفتي واضح على حصن مدنيش^(١) ، وحاصر الحاجب بقواته حصن ممقصر^(٢) ، واستولى عليه بعد قتال عنيف ، وأباد حاميته ، وعاث المسلمون بعد ذلك في بسائط يرشولونة ، وخربوا كثيراً من حصون العدو ، واستولوا على كثير من الغنائم والسبي .

وقضى الحاجب وجيشه عيد الفطر في بسائط يرشولونة ، واحتفل بالعيد احتفالاً فخماً ، واستقبل طبقات الأجناد مهنيين ومسلمين . وبعث من معسكره رسالتين إلى قرطبة من إنشاء كاتبه أحمد بن برد يصف فيهما الفتح ، إحداهما برسم الخليفة هشام المؤيد ، والثانية لتقرأ على الكافة في جامع قرطبة .

ثم قفل عبد الملك بجيشه عن طريق مدينة لاردة . واخترق الثغر الأعلى جنوباً إلى قرطبة ، فدخلها في الخامس من ذي القعدة . وهناك تلقاه الأكابر والعلماء مهنيين مستبشرين ؛ وقصد الحاجب من فوره إلى الخليفة هشام ، فاستقبله أحسن استقبال ، وأكرم منزله ، وخلع عليه من ثيابه وسلاحه ، فشكره الحاجب وقبل يده . وفي اليوم التالي جلس بقصره الزاهرة ، واستقبل مختلف الوفود ، وكان يوماً مشهوداً^(٣) .

وقد نظم ابن دراج القسطلي في التهنئة بهذه الغزوة قصيدة هذا مطلعها :
بدا ربح السعد واستقبل النجاح فبالله فاستفتح فقد جاءك الفتح

(١) هو باسمه الإسباني حصن *Meya* .

(٢) هو باسمه الإسباني حصن *Monmagastre* ؛ ويسميه ابن الخطيب حصن منغص (أعمال الأعلام ص ٨٧) .

(٣) راجع في أخبار هذه الغزوة : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥ - ٩ ، وأعمال الأعلام

وقد قدّم النصر العزيز لواءه وقبل طلوع الشمس ينبجج الصبح ولم يمض قليل على ذلك ، حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل الثالث ، سفارة إلى قرطبة ، يطلب عقد الصلح والمهادنة ، فاستقبل السفراء الفرنج استقبالاً حافلاً ، على نمط أسلافهم من السفراء النصارى . وكانت هذه آخر فرصة من نوعها أبدت فيها أمه الخلافة وفخامتها (١) .

وكان من أثر هيبة عبد الملك في نفوس الملوك النصارى ، أن احتكم إليه أمير قشتالة الكونت سانشو غرسية ، ومننديث كونثال زعيم جليقية ، والوصى على ملك ليون الطفل . وكان ملك ليون وهو ألفونسو الخامس ، يومئذ ما يزال حدثاً في العاشرة من عمره ، وكانت أمه إليبرة أختاً لسانشو غرسية ، وكان سانشو يرى بذلك أنه أحق بالوصاية على ابن أخته الملك الطفل ، من مننديث كونثال . فلما احتكم الطرفان إلى عبد الملك ، ندب قاضى النصارى أصبغ بن سلمة ، لبحث النزاع والفصل فيه ، فقضى لمننديث كونثال بأحقية للوصاية . واستمر بالفعل وصياً على ملك ليون حتى قتل غيلة في سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) (٢) .

والظاهر أن سانشو غرسية لم يرضه هذا الحكم ، فبدت منه أعراض العدوان على أرض المسلمين ، أو هو قد اعتدى عليها بالفعل . ومن ثم فإننا نجد عبد الملك يخرج بقواته في صيف سنة ٣٩٤ (١٠٠٤ م) ويقصد إلى أراضي قشتالة ويعيث فيها ، ولم يبد سانشو أية مقاومة . فقفل عبد الملك إلى قرطبة ، واضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وقصد بنفسه إلى قرطبة . فاستقبله عبد الملك أحسن استقبال ، وأعيد عقد الصلح والتهادن بين الفريقين ، وتعهد سانشو أن يعاون عبد الملك في غزواته ضد مملكة ليون ، وضد خصومه من بنى غومس وغيرهم .

وفي العام التالى (٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م) خرج عبد الملك في قواته وسار صوب طليطلة ؛ وهناك لحق به الفتي واضح وسانشو غرسية في بعض قواته . ثم سار شمالاً نحو أراضي ليون ، وبعث واضحاً في قواته إلى مدينة سمورة ، وكانت قد خربت منذ أيام المنصور ، وليس بها سوى قليل من النصارى ، يقيمون في بعض أبراجها ، فقتل الرجال ، وسبى النساء . وعاث عبد الملك بعد ذلك في أراضي ليون ، وإلى جانبه سانشو غرسية ، واقتحم أملاك بنى غومس ،

(١) الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٠ .

ووصل في زحفه في جليقية ، إلى بلدة لونة الحصينة ، واستولى في هذه الغزوات على كثير من الغنائم والسبي . ولكنه لم يحقق خلالها نتائج حربية ذات شأن^(١) . وفي أواخر سنة ٣٩٦ هـ (صيف سنة ١٠٠٦ م) خرج عبد الملك إلى غزوته الرابعة . وتصف الرواية الإسلامية هذه الغزوة بأنها غزوة « بنبلونة » ، وبعبارة أخرى « بنبلونة » عاصمة ناغار . وتقول لنا إن عبد الملك سار بجيشه إلى سرقسطة ثم إلى وشقة ، ثم إلى بربشتر . ومنها نفذ إلى أرض العدو . ولكن هذا الإتجاه الذي اتخذته الجيش الإسلامي ، لا يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقصد إلى ناغار أو بلاد البشكنس ، وإنما يبدو بالعكس أنه اتجه شمالاً إلى أراضي ولاية « ريباجرسا » الصغيرة الواقعة شمال شرقي بربشتر ، وهي إحدى ولايات البرنيه الفرنجية . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين اقتحموا في هذه الغزوة بسيطا بنونش وشدت يوانش ، (سان خوان) وعاثوا في أرض العدو قتلاً وسبياً وحرقاً . ثم تقول لنا إن الجيش الإسلامي قد انقضت عليه يومئذ عاصفة مروعة من رعد وبرق ومطر غزير ، تخللها قصف مفرغ وبرد قارص ، وخشى أن تكون سبباً في نكبته . ولكن تداركه لطف الله . وفضل عبد الملك راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن الشعب لم يبد في استقباله شيئاً من الحماسة ، لضالة النتائج التي ترتبت على هذه الغزوة ، ولكونها لم تسفر عن شيء من الغنائم والسبي ، التي كانت تملأ أسواق قرطبة أيام أبيه المنصور^(٢) .

ومما يتصل بأخبار هذه الغزوة ، أن عبد الملك عرج في طريق العودة على مدينة سالم ، وقضى بها عيد الأضحى ، وهناك وافاه سفير من قبل قيصر قسطنطينية ، الإمبراطور بسيل الثاني ، ومعه كتاب مكتوب بالذهب يطلب فيه قيصر استئناف المودة والصداقة ، التي كانت قائمة بين ملوك بني أمية ، وبين القيصرية ، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين الذين أسروا في أطراف الجزائر التابعة لقيصر ، فسر عبد الملك لذلك ، وصرف السفير أجمل صرف^(٣) . ونمى إلى عبد الملك في تلك الأثناء ، ما كان يجيش به أمير قشتالة سانشو غرسية

(١) راجع أخبار هذه الغزوة في الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٥ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١ و ١٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢ و ١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

(٣) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ٦٥ و ٦٦ .

من قصد إلى العدوان ، فرأى أن يعاجله بالغزو . فخرج من قرطبة في صيف سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) في غزوته الخامسة ، وهي المعروفة بغزوة قلونية ، أو غزوة النصر ، وسار مخترقاً أراضي قشتالة . ويبدو من أقوال الرواية الإسلامية أن عبد الملك لم يكن يواجه يومئذ أمير قشتالة فحسب ، ولكنه كان يواجه جبهة متحالفة من الملوك النصارى ، يشترك فيها سانشو غرسية ، وألفونسو الخامس ملك ليون ، وسانشو الثالث ملك نافار ، وعدد من الزعماء النصارى في مقدمتهم بنو غومس^(١) . ويشير صاحب البيان المغرب إلى هذه الغزوة بقوله « غزاة النصر التي لقي فيها (أى عبد الملك) شانجه بجميع النصرانية على اختلافها »^(٢) . ولا تقدم إلينا الرواية الإسلامية بعد ذلك شيئاً من التفاصيل ، سوى قولها إن الحاجب عبد الملك ، قد هزم النصارى في تلك الموقعة هزيمة عظيمة في ظاهر مدينة قلونية (كلونية) ، الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت إشتين ، وأحرز عليهم نصراً ميبناً ، وافتتح الحصن صلحاً . ووصل كتاب الفتح إلى قرطبة ، وقرىء على الكافة كالعادة ، فكان له وقع عظيم ، وكان أهل قرطبة يخشون سوء العواقب من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين . وقفل عبد الملك بالجيش إلى قرطبة ، فوصل إليها في أواخر ذى الحجة من تلك السنة ، واتخذ على أثر ذلك لقبه « المظفر بالله » تنويهاً بما أحرزه من النصر العظيم^(٣) .

وقد ساق لنا المؤرخ الفقيه أبو المطرف ابن عون الله ، وهو من معاصري هذه الحوادث ، قصة هذا اللقب ، فذكر أن عبد الملك كان مثل أبيه يسمو إلى الألقاب السلطانية ، فتقدم إلى الخليفة هشام ، على أثر عودته من غزوة قلونية ، والتمس إليه إخراج الأمر له ، بأن يتسمى « بالمظفر » وهو اللقب الذى اختاره وآثره ، وأن يكنى فى سائر ما يذكر عنه « بأبى مروان » ، وأن ينعم على ابنه الغلام محمد ، الذى منح لقب الوزارة ، بلقب « ذى الوزارتين » ، ويعلى بذلك مرتبته على سائر الوزراء ، وأن يكنى بأبى عامر ، كنية جده ، وكان الخليفة يقيم يومئذ عند الحاجب بقصر الزاهرة ، فى الجناح الفخم الذى أنشئ وقتها . ففى منتصف

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤ ؛ والذخيرة ، القسم الرابع ،

المجلد الأول ص ٦٦ .

المحرم سنة ٣٩٨ هـ . تحرك الخليفة خفية إلى قصر ناصح من قصور الزاهرة ، واستدعى حاجبه ، وفاوضه فيما أراد . ولما انصرف من لدنه ، أتبعه في الحال بمرسوم التكريم الذي التمسه ، فأذاع عبد الملك نص المرسوم ، وبعث بالكتب للعمل به ، وإليك نص هذا المرسوم ، وقد زعم البعض أنه كان بخط الخليفة هشام نفسه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، أتم الله عليك نعمه ، وألبسك عفوه وعافيته ، انا أريناك ... من صنع الله الجسيم ، وفضله العظيم ، لنا عليك ما شفى الصدور ، وأقر العيون ، فاستخرنا الله سبحانه في أن سميناك المظفر ؛ فنسأل الله تعالى سؤال إلحاف وضراعة وابتهاال ، أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم ، وبحليك معناه ، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين ، فضل ما حملت منه ، وأن يخير لنا ولهم في جميع أفضيته ، ويقرنه بيمينه وسعادته ، بمنه وخفى لطفه ، وكذلك أحناك التكنى في مجالسنا ومحافلنا ، وفي الكتب الحاربية منك وإليك ، في أعمال ساطاننا ، وسائر ما يجرى فيه اسمك معنا ودوننا ، إنافة بمحلك لدينا ، ودلالة على مكانك منا ، وكذلك ما شرفنا به فتاك أبا عامر ، محمد ابن المظفر تلامذنا ، أسعده الله ، بالإنهاض إلى خطة الوزارتين ، وجمعناه بها في التكنى على المشيخة والترتيب ، وآثرك في الدولة ، وأنت الحقيق منا بذلك كله ، وبجميل المزيد عليه ، لأنك تربيتنا ، وسيف دولتنا ، وولى دعوتنا ، ونشئ نعمتنا ، وخريج أدبنا ، فأظهر ما حددناه لك في الموالى ، وأهل الخدمة ، واكتب بها إلى أقطار المملكة ، وتصدقه بشكر النعمة ، أحسن الله توفيقك ، وأمتعننا طويلا بمعافاتك ، وآنسنا ملياً بدوام سلامتك ، إنه ولى قادر عزيز قاهر » .

وكانت الكتب تخرج من قبل عبد الملك على النحو الآتى : « من الحاجب المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور » . فكان بذلك أول من اجتمع له لقبان ملوكيان من حكام الأندلس^(١) . وكان صدور هذا المرسوم حادثاً مشهوداً ، أطلق عبد الملك على أثره الصلوات والكسى ، وكثرت تهانى الشعراء ومدائحهم .

والظاهر أن عبد الملك لم يجن من هذا النصر ما كان يؤمل من إرغام أمير

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥ - ١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٨ و ٨٩ .

مستتلة على التزام السلم والهدوء ، وأن سانشو غرسية بالعكس استمر في عدوانه .
ومن ثم فإنه لم يعمض سوى قليل ، حتى تأهب عبد الملك لاستئناف الغزو ، فخرج
من قرطبة في أوائل شهر صفر سنة ٣٩٨ هـ (أكتوبر ١٠٠٧ م) واخترق قشتالة
الوسطى ، حتى ضفاف نهر دويرة ، وقصد إلى حصن شنت مرتين المنيع ،
الواقع على مقربة من غربي قلونية على الضفة اليمنى من النهر ، فحاول النصارى
في البداية أن يردوا المسلمين في ظاهر الحصن ، ولكن المسلمين صدوهم بعنف ،
فالتجأوا إلى الحصن ، وحاولوا الدفاع من وراء الأسوار ، فهاجم المسلمون
الحصن بشدة وثلّموا أسواره بالمجانيق والناير ، واضطر النصارى إلى التسليم ،
فأمر عبد الرحمن بقتل الجند وسبي النساء والذرية ، وإصلاح ما تهدم من الحصن ،
وقفل راجعاً إلى قرطبة فوصلها في أوائل شهر ربيع الآخر .

وفي شوال من نفس العام (صيف ١٠٠٨ م) ، خرج عبد الملك بالجيش ،
وكانت غزوته السابعة والأخيرة ، وتعرف « بغزاة العلة » . ذلك أنه ما كاد يصل
إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض فاستقر بها حيناً يرقب البرء . وفي أثناء ذلك
دب الخلل إلى الجيش ، وتفرق عنه أكثر المتطوعة ، وأخفق مشروع الغزو ،
واضطر عبد الملك أن يعود أدراجه إلى قرطبة ، عليلاً ضعيفاً ، وذلك في منتصف
محرم سنة ٣٩٩ هـ . ومع ذلك فما كاد عبد الملك يشعر بقليل من التحسن ، حتى
عقد العزم على التأهب لاستئناف الغزو ، وخرج بالفعل من قرطبة في منتصف
شهر صفر ، ولكن أصابته عندئذ نكسة شديدة ، صحبتها نوبة سعال عنيف ،
فحمل إلى قصر الزاهرة في محفة ، ومن حوله خاصة غلمانة ، وتوفى على الأثر ،
وكان أخوه عبد الرحمن حاضراً مع أكابر رجال الدولة ، وقيل إنه توفى مسموماً
من شربة دست له بتحريض أخيه عبد الرحمن . وكانت وفاته في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ
(٢١ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م)^(١) ، ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

* * *

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٦٦ ، وأعمال
الأعلام ص ٨٩ . وذكر المقرئ أن وفاة عبد الملك كانت في المحرم سنة ٣٩٩ (ج ١ ص ١٩٨) .
ويؤيد ابن الأثير رواية وفاة عبد الملك بالسم ويقول لنا إن أخاه عبد الرحمن سمه في تفاحة قطعها بسكين
كان قد سم أحد جانبيها فتناول أخاه مما يلي الجانب المسموم ، وأخذ هو مما يلي الجانب الصحيح فأكله
بمحضرته ، فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فات (ج ٨ ص ٢٢٥) .

حكّم عبد الملك المظفر ستة أعوام وبضعة أشهر ، قضى معظمها في متابعة الغزو ، ولم يكن لديه سعة من الوقت ليتناول تدبير الأمور بنفسه ، وكانت الدولة قد توطدت منذ أيام أبيه المنصور ، ولم يقع تبدل في طرق الحكم ، فكان الخليفة هشام ، كعهده أيام المنصور محجوباً في قصره ، وكان عبد الملك يحرص على حجبه وإخفائه بين صفوف الحند ، كلما سنحت فرصة خروجه في موكب ، بيد أنه يبدو أن عبد الملك كان أكثر تودداً للخليفة ، ورفقاً به من أبيه ، فقد كان يدعوه إلى قصوره بالزاهرة للتريض والاستجمام ، وكان هشام ينفق أوقاتاً في ضيافته (١) .

وكان عبد الملك لانهماكه في الشراب واللهو ، قد اعتمد في تدبير شئون الدولة ، على خاصته من أكابر الفتيان العامرين أمثال طرفة ، وواضح ، وزهير ، وخيران ، ومجاهد ، وعلى عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بابن القطاع ، وزيره ووزير أبيه من قبل . وكان عبد الملك لأول ولايته ، قد فوض أمره إليه ومنحه سائر السلطات العليا ، ثقة منه بإخلاصه ، واعتماداً على كفايته . ووطد حسن ظنه فيه ، ما أبداه عيسى من البراعة والحزم في تدبير الأمور ، وتوطيد النظام والأمن . وكان الفتيان الصقالبة ، ولا سيما زعيمهم طرفة ، خادم عبد الملك الأكبر ، ينقمون على عيسى ، حظوته واستنثاره بالسلطة ، ويعملون ما وسعوا للنيل من مكانته . واضطرت المنافسة بالأخص بينه وبين طرفة ، وبذل طرفة جهوداً عنيفة لإفساد الجوب بينه وبين الحاجب ، واستطاع مع استمرار الواقعة والدس أن يززع ثقة عبد الملك فيه ، وأن يصرفه عن الاعتماد عليه ، وانتهى الأمر بأن تغلب طرفة على الوزير ، وحل محله في تدبير الأمور ، واجتمعت السلطة في يده شيئاً فشيئاً ، حتى غدا كل شيء في القصر وفي الدولة ، وسما شأن الفتيان الصقالبة ، وغلبوا على من عداهم من الكبراء وأصحاب المناصب . ومرض الحاجب في أوائل سنة ٣٩٦ هـ ، واستبد طرفة بالأمر ، وأمضى كثيراً من الأمور دون علم الحاجب أو موافقته ، وأبدى كثيراً من الاستهتار والتبدل والطيش ، فلما أبل الحاجب من مرضه ، كانت نفسه قد تغيرت على طرفة ، ولما خرج إلى الغزو في شهر رمضان من هذا العام ، خرج معه الوزير عيسى ، واستطاع خلال الطريق أن يقنع عبد الملك بسوء مسلك طرفة وخطر مشاريعه ، وكان من المقرر أن يلتقى

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦ .

طرفة بسيدة في سرقسطة ، فقدم إليها في بعض القوات في نفس اليوم الذي وصل فيه الحاجب مع جيشه ؛ وما كاد يدخل إلى عبد الملك في قصره ، حتى قبض عليه ، وصُفد بالأغلال ، وحمل إلى إحدى جزر الشاطئ ، واعتقل حتى انتهى عبد الملك من غزوته ، فأمر بقتله ، وهو في طريق العودة ، وأمر الحاجب في نفس الوقت بقتل عبد الملك بن إدريس الحزيري الكاتب البليغ أمين البلاط ، وكان من خاصة طرفة ، وكان الوزير عيسى قد حذر عبد الملك من ممالأته لطرفة ومعاونته على إفساد أمور الدولة (١) .

وأضحى عيسى بن سعيد ، بعد قتل طرفة ، رجل الدولة الأول ، واسترد كامل حظوته وسلطانه ، على أنه لم ينعم طويلاً بظفره . وكان هذا الوزير قد تقلب في مناصب الدولة منذ أيام المنصور ، وحظى لديه ، وسما شأنه ، حسب رأينا ، ثم تضاعف شأنه ، واستأثر بتدبير الأمور منذ بداية عهد عبد الملك ، وجمع الأموال الطائلة ، وزاد في توطد سلطانه ونفوذه مصاهرته للحاجب حيث تزوج ابنه عبد الملك المكنى أبا عامر ، أخت عبد الملك الصغرى ، إحدى بنات المنصور . وهكذا بلغ الوزير أقصى مراتب النفوذ والثقة ، وكثر بذلك حساده والوشاة في حقه . وكان عيسى يذكى من حوله عواطف الحصومة والنقمة ، بما كان يجنح إليه من الصلف والحشونة والكبرياء ، والنكول عن قضاء حاجات الناس ، والنظر في مظالمهم ، والتعالى عليهم ؛ وكان حجابهم وعماله ، على شاكلته من الغلظة والتعسف في معاملة الناس . فكان ذلك كله سبباً في تسمم الجو حول الوزير ، وحول تصرفاته . أضف إلى ذلك أن الوزير ، لم يكن يشارك الحاجب في مجالس شرابه وأنسه إلا في القليل النادر ، لأنه كان مقللاً للشراب ، فكان تخلفه بمهد لخصومه المقربين من الحاجب ، سبب الدس والوقية في حقه . وقد كانت الذلفاء والدة الحاجب في الوقت نفسه تبغض الوزير ، لأنه أيد ولدها عبد الملك في الزواج من قينة حسناء من جواريه هام بها ، وكانت تعارضه في ذلك . والخلاصة أن عبد الملك أخذ يفقد ثقته في وزيره بسرعة ، وقد كان فيما يبدو كثير التأثر بالوشاية ، سريع القلب والغدر ، وأخذ الوزير من جانبه يشعر بهذا النقص في حظوته ويتوجس من عواقبه .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤ - ٢٦ .

والظاهر أن عيسى بن سعيد ، كانت تحدوه في نفس الوقت أطماع ومشاريع أخرى . فقد كان يشعر أنه غدا باجتماع سائر السلطات في يده ، ومشايعة رؤساء الحند له ، أقوى رجل في الدولة ، وأنه يستطيع أن يقف في وجه بني عامر ، وأن يغدو بطل المناهضة لحكمهم . والواقع أن حكم العامرين كانت تشتد وطأته على الناس يوماً بعد يوم . وكان عبد الملك جرياً على سنة أبيه المنصور ، قد مضى في الاستظهار بالفتيان الصقالبة والبربر ، وبلغ الفتیان في عهده نحو أثنى غلام ، ووفد عليه كثير من البربر ؛ وكان أهم من وفد إليه من زعمائهم زاوى بن زبرى بن مناد الصنهاجى ، عم أبى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وزعيم الفرقة الخارجة عليه ، وفد عليه مع إخوته ، فاستقبلهم عبد الملك ، وغمرهم بصلاته ، واستمروا بقرطبة حتى وقعت الفتنة ، وكان لهم في حوادثها شأن يذكر (١) . وفي رواية أخرى أن وفود زاوى وقومه على الأندلس ، كان في أواخر أيام المنصور ، وأنه هو الذى أذن لهم في الجواز (٢) . وكانت الأرسقراطية العربية تمقت هذا الإيثار للصقالبة والبربر ، والاستظهار بهم ، وترى فيه افتتاتاً على حقوقها ومكانتها ، وكان كثير من الأسر العربية الكبيرة مثل آل حدير ، وآل فطيس ، وآل شهيد ، وغيرهم ، يتوقون إلى انتهاء حكم العامرين ، ورد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عيسى بن سعيد ، وهو أيضاً من البطون العربية ، يعتنق فكرتهم ، ويعتقد أنه يستطيع أن يعمل على تحقيقها .

واعترم عيسى بالفعل أن يعمل في هذا السبيل ، واتجه ببصره إلى سليل من المروانية هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان بينهما مودة وصداقة . وكاشف عيسى هشاماً بمشروعه ، في إزالة بنى عامر ، وإزالة الخليفة هشام المؤيد لعجزه وعقمه ، وإقامته مكانه في الخلافة ، ورد الأمر بذلك إلى بنى أمية . فاستجاب هشام إلى دعوته ، وجرت بينهما المفاوضة بمنتهى التكرم والحذر . وكانت خطة عيسى ، تلخص في أن يدعو عبد الملك وأخاه عبد الرحمن وصحبه ، إلى حفل عظيم يقيمه بالمنية التى وهبه عبد الملك إياها بقرب قصر الزاهرة ، وذلك تيمناً بمولود رزق به ولده عبد الملك بن عيسى ، وأن يحيط المنية بطوائف

(١) الذخيرة عن ابن حيان القسم الرابع المجلد الأول ص ٦١ .

(٢) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٧ ، وابن

خلدون ج ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

من رجاله المسلحين ، فإذا حضر عبد الملك وأخوه وصحبه ، انقض عليهم أولئك الرجال وقضوا عليهم جميعاً ، وعندئذ يسير عيسى يصاحبه هشام إلى قصر الزاهرة فيجلسه فيه ، ويأخذ له البيعة بالخلافة ، وقد تقدم عيسى بالفعل بدعوته إلى عبد الملك فقبل الدعوة ، وحدد بالفعل يوم الحفل .

ولكن سرعان ما اتصل خبر المؤامرة بعبد الملك ، نقله رجل من ثقات عيسى إلى نظيف الفتى الصقلي ، فأبلغه فوراً إلى سيده . وفي رواية أن عبد الملك بادر في الحال فقتل عيسى . ولكن الرواية الراجحة هي أن عبد الملك وأخاه عبد الرحمن اتفقا على تدبير قتله ، في مجلس شراب ينظم لهذا الغرض ، ونظم المجلس بالفعل في هو القصر الكبير المشرف على النهر ، وذلك في ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ . واستدعى الحاجب وزيره عيسى إليه ؛ ومن غرائب القدر أن كان الوزير أيضاً يجلس مع بعض خاصته على الشراب ، ومنهم الكاتب أبو حفص ابن برد ، فبادر عيسى بالركوب إلى عبد الملك ، ومعه بعض خاصته ، فاستقبله عبد الملك بظاهر من الحفاوة . ثم أخذ بعد قليل في عتابه ومحاسبتها على ما عزي إليه ، ثم أغلظ له القول ، وعيسى يعتذر ويحتج ببطلان ما نسب إليه ، ويشدد القسم على ذلك ، ويناشد حقن دمه . وفجأة جذب عبد الملك سيفه من جانب الفراش وشهره على عيسى ، وطعنه في وجهه ، فسقط على الأرض ، فأنهال عليه الجماعة طعناً بسيوفهم ، ثم احتز رأسه ووضع جانباً ؛ وقتل الجماعة أيضاً صاحبيه خلف ابن خليفة ، وحسن بن فتح ، وألقيت جثث الثلاثة في النهر ، بعد أن وضعت في زنايل مثقلة بالحجارة ، وأمر عبد الملك بأن ينصب رأس عيسى على باب مدينة الزاهرة ، عبرة للناس . وتركت معلقة في مكانها حتى انقضت الدولة العامرية . ونفذ الحند في الحال إلى منازل عيسى وأصحابه ، وصور ما فيها ، وقبض على أبناء عيسى وزجوا إلى السجن ، وأرغم ولده عبد الملك على طلاق زوجته أخت الحاجب ؛ وجدت الشرطة في أثر هشام بن عبد الجبار ، حتى قبض عليه ، ثم حمل إلى الزاهرة فأمر الحاجب باعتقاله في سجن أعد له ، وهناك قتل خفية ، ولم يسمع له خبر بعد ذلك قط .

وكان لقتل الوزير عيسى بن سعيد أعمق وقع في قرطبة ، لما كان له من رفيع المنزلة والسلطان ، ولبثت الوفود أياماً تحضر إلى الزاهرة لمشاهدة رأسه (١) .

(١) راجع تفاصيل هذه المؤامرة وذيولها في الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ١٠٣ -

وثاب المظفر بعد مقتل وزيره إلى نفسه ، وعمل على جمع السلطة في يده ،
والحد من سلطة الوزراء والكتاب ، ومراقبتهم ومحاسبتهم ، وواظب على الجلوس
بنفسه ، وهجر اللهو والراحة ؛ وكانت الأحوال المالية قد ساءت ، بما أسرف فيه
من النفقة والصلات ، وبما أسقطه للناس من سدس الحباية ، فاقصد في النفقة ،
واجتهد في توفير المال ، وتنمية الموارد ، فنجحت المحاولة ، وتحسنت الأحوال
المالية في أواخر عهده^(١).

وقد أشرنا من قبل إلى طرف من أخلاق عبد الملك ، وما جمعت من الصفات
المشرقة والقائمة معاً . ونزيد هنا ما رواه صاحب الذخيرة عن ابن حيان ، من أن
عبد الملك كان عرياً عن العلم والمعرفة والأدب ، ولم يكن يجتمع في مجالسه سوى
الأعاجم من الحلالقة والبربر وهن إليهم . ولم يكن يؤمها أحد من أهل المعرفة ،
من الأدباء والعلماء . بيد أنه مع ذلك لبث يسبع رعايته على من كان يتصل منهم
بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم ، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت
أيام أبيه^(٢) . وكان يستمع إلى الشعر ، ويصل الشعراء ، وقد أبقى بالأخص على
شاعر أبيه صاعد البغدادي . وجعله شاعراً وندماً له . وكان من خواص شعرائه
أيضاً أبو عمر بن دراج القسطلي ، والكتاب الشاعر أبو حفص ابن برد . وقد أورد
لنا صاحب البيان المغرب نبذاً من الشعر ، نظمها صاعد وابن دراج تحقيقاً لرغبة
المظفر ، في وصف مختلف صنوف الزهر ، من الآس ، والرجس ، والبنفسج ،
والورد والسوسن . ومما جاء في قصيدة ابن دراج في وصف السوسن ومديح
الحاجب عبد الله تلك الأبيات^(٣) :

إن كان وجه الربيع مبتسماً	فالسوسن المحتلى ثناياه
ياحسنه بين ضاحك عبق	يطيب ريح الحبيب رياه
ياحاجباً مذ يراه خالقه	توجه بالعلي وحلاه
إذا رآه الزمان مبتهجاً	فقد رأى كل ما تمناه
وإن رآه الخلال مطلعاً	يقول ربي وربك الله

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٢) الذخيرة - القسم الأول المجلد الأول ص ٦٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨ - ٢١ . وكذلك الروض المعطار ص ١٦٠ .

ونظم بعضهم في وصف عهد عبد الملك الأبيات الآتية :

زمان جديد وصنع جديد ودينا تروق ونعمى تزيد
وغيث يصب وعيش يطيب وعز يدوم وعيد يعود
ودهر ينير بعبد الملك كشمس الضحى ساعدتها السعود

الفصل الخامس

عبد الرحمن بن المنصور

وسقوط الدولة العامرية

نظام الطغيان العامري . كيف كانت تطفه عبقرية المنصور . ظهور مثالبه في عهد عبد الملك . عبد الرحمن المنصور يخلف أخاه . يتقلد الحجابة . تلقية بشنجول أو شانجه الصغير . إنحرافه وسوء خلا له . تودده للخليفة هشام . تلقبه بالمأمون وناصر الدولة . شروعه في اغتصاب ولاية العهد . ضغفه على هشام لتحقيق ذلك . مرسوم ولاية العهد ونصه . جلوس عبد الرحمن في الزاهرة . عكوفه على الشراب واللهو . إرغامه الكبراء على لبس العامة . خروجه إلى الغزو . يخرق أراضي ليون . إعتصام النصارى بالجبال . إرتداد عبد الرحمن . أنباء الانقلاب في قرطبة . الاضطراب في الجيش . سيره إلى قلعة رباح . سخط أهل قرطبة على بني عامر . المؤامرة وعناصرها . الذلفاء والدة عبد الملك ودورها . ترشيح محمد بن هشام للخلافة . نضج المؤامرة وتهيؤ الظروف لتنفيذها . مهاجمة المتأمرين للقصر . مصرع عبد الله بن أبي عامر . موقف الخليفة هشام وتصرفه . إقتحام العامة للقصر . الزاهرة وتسليمها . إقتحام الجموع لها ونهبها . إستيلاء المهدي على أموالها ونفائسها ثم تدميرها . نبوة المنصور بخراب الزاهرة . وقوف شنجول على خبر الانقلاب وحيروته . يناشد أهل الثغر تأييد هشام . تخلي زعماء الجند عن نصرته . شنجول وصديقه ابن غومس . مسيره صوب قرطبة . فرار البربر تحت جنح الظلام . مسيره إلى أرملاط . التجاؤء وابن غومس إلى الدير . وقوعهما في يد فرسان المهدي . القبض على حثم شنجول ونسائه . مقتل شنجول وابن غومس . ما يقوله شاهد عيان عن هذه الحوادث . تأملات عن انهيار الدولة العامرية .

كانت وفاة عبد الملك المظفر ، فاتحة لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسي وأشدّها غموضاً واضطراباً ، وكانت نذيراً بانقلاب من أعنف ما عرفت الأندلس وأشدّها تقويضاً لبنائها وسلامها ورخائها .

مضت خمسة وثلاثون عاماً على حكم الطغيان المطبق ، الذي فرضه المنصور ابن أبي عامر على الشعب الأندلسي ، وقضى في ظله على سلطان الخليفة الشرعي ، ومحيت رسوم الخلافة ، وسخفت العصبية العربية ، وطوقت أعناق الشعب بأغلال خانقة . وبالرغم مما نعمت به الأندلس أيام المنصور من الاستقرار والعزة والرخاء ، فإن الشعب لم يكن يرى في المنصور ، سوى مغتصب للسلطة الشرعية ، وكان يتوق إلى التحرر من هذا الطغيان الذريع ، والتخلص من وطأة الصقالبية والبربر ، والعود

إلى الأوضاع الطبيعية المألوفة . وكانت شخصية المنصور العظيمة ، وعزوه الصارم ، وهيمته البعيدة ، وخلالها الرفيعة ، وتفانيه في الجهاد ، والعمل على إعزاز الأندلس وإسعادها : كانت تفرض نفسها على الناس ، وتخفف نوعاً من وطأة النظام وحدته ، وتبث في نفوس الشعب نوعاً من الإعجاب المقرون بالإغضاء والتسامح . فلما توفي المنصور ، ونهض ولده عبد الملك بأعباء الحكم ، بدأ ينقشع هذا الشعور الملطف ، وبدأت مثالب الحكم المطلق على أشدها ، وزاد إحساس الشعب بما يعانيه من ضروب الإرهاق والضغط ، وظهرت شخصية عبد الملك ضئيلة باهتة بالنسبة لشخصية أبيه العظيم ، وبدأت بالرغم مما أضطلع به من الغزوات ، وما تمتعت به البلاد في ظله من السلام والرخاء ، لا تحمل سوى الأوزار الظاهرة ، من عكوف على الشراب ، وانهماك في الملاذ ، والمضي في اغتصاب السلطة الشرعية ، وتمكين لنبر الصقالية والبربر ، والتطلع إلى ألقاب الملك ، بصورة تكشف عما وراءها من الأطماع الخطرة .

وجاء عبد الرحمن ابن المنصور إثر أخيه عبد الملك ، وقد كان أضعف منه شخصية . وأسوأ حالاً ، ليتابع حكم الإرهاب والطغيان ، وجلس غداة وفاة أخيه بقصر الزاهرة ، كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه ، في السابع عشر من صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٢ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) . ومثل في نفس اليوم لدى الخليفة هشام ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، وقلده الحجابة ، ثم أقبل إليه الأكابر والأعيان بقصر الزاهرة ، مهنيين مبايعين .

وكان عبد الرحمن وكنيته أبو المطرف ، حينما تولى الحكم ، فتي في الخامسة والعشرين من عمره . وكان يلقب منذ حداثة « بشنجول » (سانشول) أو شانجيه الصغير ، وذلك لأنه حسباً تقدم كان حفيداً لسانشو غرسية ملك نافار ، وكانت أمه الأميرة النافارية ، حينما تزوجت المنصور ، قد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم « عبدة » ، وكان ولدها عبد الرحمن « أشبه الناس بجده » . وكان لهذه الأرومة الفرنجية الواضحة ، أثرها في انصراف الناس عن محبته والعطف عليه ، وكان يزيد في هذه الوحشة بين عبد الرحمن وبين الشعب ، إنحرافه وخلالها السيئة ، فقد كان فاجراً كثير الإستهتار والمجون ، يقضى معظم وقته في الشراب واللهو « يخرج من منية إلى منية ، ومن متنزه إلى متنزه ، مع الخياليين والمغنين

والمضحكين ، مجاهرأ بالفتك وشرب الخمر» (١) .
وجرى عبد الرحمن على سنة أبيه وأخيه ، في الحجر على الخليفة هشام وحجبه ،
وفي الاستبداد بالرأى والحكم (٢) ، ولكنه نهج في معاملة الخليفة نهجاً جديداً ،
فأكثر من الإتصال به ، والتقرب إليه . وبالغ في إرضائه وإرضاء حاشيته ،
وتحقيق رغباتهم ؛ هذا في حين أن المنصور كان يقتصر في الإتصال بالخليفة على
المواقف الضرورية ، ويقتصد في رؤيته . ويؤثر التظاهر بتوقيره مع البعد عنه ،
ويحرص على عدم تدليله ، وكبح جماح حاشيته ؛ وجرى ولده المظفر على هذه
السياسة . ولكن عبد الرحمن بالغ في التودد لهشام ومخالطته ؛ ومن ذلك أنه استأذنه
في أن يقوم بالتنزه مع أهله في قصور الملك بقرطبة . ويكون الخليفة هنالك مع
خاصته وجواريه . فأذن هشام بذلك ، وخرج مع الحاجب في موكبه مستخفياً ،
وقد ارتدى برنساً كالذي يرتديه الخواري . حتى لا يعرفه أحد . واخترق الموكب
شوارع قرطبة المقفرة ومن حوله الحند . ونزل بقصر ناصح . وهناك عرض
عليه الحاجب شئون المملكة : والتمس إليه أن يأذن له في التلقب بالمأمون ، وأن
يضاف إلى اسمه ناصر الدولة . فخرجت رقعة الخليفة بذلك إلى الوزير الكاتب
جهمور بن محمد ، وتسمية عنوانها « الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف
حفظه الله » وأبلغت بعد ذلك إلى الجهات والكافة . وكان ذلك لعشرة أيام فقط
من ولاية عبد الرحمن . فعجب الناس لهذه الجرأة ، وأنكر الناس على الحاجب
هذا التسمية بألقاب الملك والخلافة ، واعتبروها افتئاتاً وغروراً ، ممن لا تؤهله
خلاله لمثل هذا التكريم . ولكن سوف نرى أنها لم تكن سوى مقدمة لما هو أخطر
وأبعد أثراً (٣) .

ذلك أنه لم تمض على هذا الإجراء فترة يسيرة ، حتى غادر الخليفة هشام
قصر ناصح بقرطبة ، إلى القصر الخليلي بمدينة الزهراء مستخفياً كعادته ، يتقدم
موكبه الحاجب عبد الرحمن ، ونزل عبد الرحمن بمدينة الزاهرة . وأقام الخليفة
بالزهراء يومين . وفي اليوم الثالث الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ، غادر
القصر الخليلي في أهله ، إلى منية جعفر الجاورة ، ومعه الحاجب . وكان عبد الرحمن

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠ - ٤٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٠ .

بعد أن حصل على ألقاب الملك ، يجيش بمشروع ضخم ، هو أن ينتزع ولاية العهد من الخليفة الضعيف الساذج ، وأن يقضى بذلك نهائياً على تراث بني أمية ، وينقل رسوم الخلافة جملة إلى أسرة بني عامر ، فتخلف أسرة بني أمية في ملك الأندلس . وقد رأينا فيما تقدم كيف أن أباه المنصور ، بالرغم من قوة نفسه ، وعريض سلطانه ، كان ينأى عن المغامرة بمثل هذه المشاريع الدقيقة ، لأنه كان يدرك بذكائه ، وبعد نظره ، أنها تنطوى على أخطر العواقب ، وأنه لم يقدم على اتخاذ ألقاب الملك إلا بعد طول روية وأناة ، وأنه كان أبداً حريصاً على الإبقاء على رسوم الخلافة وأوضاعها . وقد حذا ولده عبد الملك المظفر حذوه في حرصه وتعقله . ولكن عبد الرحمن لم يكن إلا فتي طائشاً ، متعجلاً ، كثير الغرور ، قصير النظر . وقد وصف لنا ابن حيان موقفه من المشروع في تلك العبارات القوية : « وقد تقدم القول في سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة ، عجزية من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياً ، مظلمة لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكر في عاقبة ، بل جهرها بالهجلة » (١) .

وخلا عبد الرحمن بالخليفة ، وأطال التقرب منه ، وعرض عليه مشروعه ، ويقال إنه أقنعه بأنهما على صلة رحم من ناحية الخوالة ، إذ ولد كلاهما من أم بشكنسية (نافارية) (٢) . ويقال من جهة أخرى ، إن عبد الرحمن دس إلى الخليفة من هدهد بالويل ، وأنذره بأن عبد الرحمن قد اعتزم الفتك به ، إذا لم يمنحه ولاية عهده (٣) . ويقال أيضاً إن هشاماً استفتى في ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها ، فأقروه على ما طلب . وكان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن ، قاضي الجماعة أبو العباس ابن ذكوان ، وكاتب الإنشاء أبو حفص ابن برد (٤) . وعلى أي حال فقد استجاب هشام المؤيد إلى طلب عبد الرحمن . وخرج أصحابه عشية ذلك اليوم ، يذيعون الخبر على الملأ ، ويقولون إن الخليفة قد اختاره ولياً لعهده ، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته ، وكثر الإرجاف لذلك .

(١) أعمال الأعلام ص ٩١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٤) ابن الأبار في الحلة السراء ص ١٥٠ .

وفى صباح اليوم التالى ، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ (نوفبر ١٠٠٨ م) ، أحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الخند ، وأخرج عبد الرحمن هشاماً ، وأجلسه فى الساحة الكبرى ، وجلس من حوله الوزراء والقضاة والقادة وأكابر رجال الدولة ، فكان يوماً مشهوداً ، وصدر مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب الرسائل أبى حفص أحمد بن برد ، وذيل بشهادة قاضى الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيراً ، ويلهم شهادة مائة وثمانين رجلاً ، من أكابر أهل الدولة والحكام والفقهاء وغيرهم . وإليك نص هذا المرسوم الشهير :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى عليه صفقة يمينة ببيعة تامة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين ، وخصه به من إمرة المؤمنين ، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء ، بما لا يصرف ، وخشى أن هجم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدور ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، ولم يوردها ملجأً تعطف عليه ، أن يكون يلقي الله مفرطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها . ونفض عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قریش وغيرهم ، ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول فى القيام به عليه ، ممن يستوجه بدينه وأمانته وهديه وورعه ، بعد اطراح الهوادة ، والتبرئ من الهوى ، والتحرى للحق ، والزنى إلى الله عز وجل بما يرضيه . وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص ، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه النظر فى أمر الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف همته ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر وفقه الله ، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر فى شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً فى الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبعيه إلى أرفع منازل الطاعة ، وينمو بعينه إلى أعلا درج النصيحة ،

أب منقطع القرين ، وصنو معدوم الغريم ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ في سبيل الخير مداه ، ويجوى من حلال الخد ما حواه ، مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله بما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولي عهده القحطاني ، الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأن يتحقق به ما أسنده أبو هريرة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ألا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ، ولا إلى غيره معدلاً ، خرج إليه من تدبير الأمر في حياته ، وفوض إليه النظر في الخلافة بعد مماته ، طائعاً راضياً ، ومجتهداً متخيراً ، غير محاب له ، ولا مائل له بهواه ، ولا مترك نصح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها ، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله ، عهده هذا ، وأنفذه ، وأجازاه ، وبتله ، لم يشترط فيه مشنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك في سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وذمة الخلفاء الراشدين من آله وآبائه ، وذمة نفسه ، بأن لا يبدل ولا يغير ، ولا يحول ولا يتأول . وأشهد على ذلك الله وملائكته ، وكفى بالله شهيداً . وأشهد عليه من أوقع اسمه في هذا الكتاب . وهو - أعزه الله - جائر الأمر ، ماضى القول والفعل ، بمحض من ولي عهده المأمون ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور - وفقه الله - وقبوله لما قلده ، والتزامه ما ألزمه ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ^(١) .

* * *

وعلى أثر صدور هذا المرسوم الفذ في تاريخ الخلافة الإسلامية ، خرج عبد الرحمن في موكب عظيم من الوزراء والقادة وأكابر أهل الدولة ، إلى قصر الزاهرة وهو « نختال في ثوب الخلافة ، يحسب أنها له نحلة ، وأنه مستحق لها ، وخلق بها »^(٢) . وأقبل عليه المهثون من الوزراء ورجال الدولة ، يتكلمون بالبشر ، والدعاء له بما أكرمه الله به ، وقلوبهم تفيض إنكاراً وسخطاً ، وأنفذت

(١) ورد نص هذا المرسوم في أعمال الأعلام ص ٩١ - ٩٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٨ و ١٩٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٤ - ٤٦ ؛ وقد اتبعنا نحن بالأخص النص الوارد في أعمال الأعلام لأنه أوفاه وأصحها .
(٢) البيان المغرب عن ابن عون الله ج ٣ ص ٤٦ .

الكتب في الحال إلى سائر نواحي الأندلس والعدوة ، بوجوب إذاعة المرسوم ،
والدعاء لولى العهد على المنابر بعد الخليفة .

وفي اليوم التالي جلس عبد الرحمن بقصر الزاهرة في هيئة الملك ، واصطف
من حوله رجال الدولة وفق مراتبهم ، وأقبل وجوه قرطبة لتهنئته ، وفي مقدمتهم
طائفة من المروانية المبعدين عن الخلافة ، وغيرهم من بطون قریش . يقول المؤرخ :
« وخرجوا من عنده ، وقلوبهم ذؤوبة عليه ، موقدة ببغضه » . وبادر الشعراء
وفي مقدمتهم أبو العلاء صاعد البغدادي ، برفع قصائد التهنئة . وقد أورد لنا ابن
حيان طرفاً مما قاله الشعراء في ذلك (١) .

بيد أن شاعراً آخر ، هو ابن أبي يزيد المصري ، نظم في ذم ابن ذكوان
وابن برد وهما المسئولان عن تحرير مرسوم البيعة هذين البيتين :

إن بن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عين عهد
وعاندا الحق إذ أقاما حفيد شنجئه ولي عهد (٢)

وذهب عبد الرحمن في غروره واختياله إلى أبعد مدى ، فعين ابنة الطفل
عبد العزيز في خطة الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة ، وهو لقب عمه
المظفر . واعتقد عبد الرحمن أنه حقق بذلك مشروع العظم ، في تخليد ملك الدولة
العامرية ، وأن الأمور قد دانت كلها له ، فأطلق العنان لأهوائه ، وانكب على
لهوه وشرايه ، يحيط به نفر من البطانة السيئة ، والندماء الأسافل ، يصورون
له الأحوال في أبداع الصور وأحبها إلى نفسه .

وكان من الحوادث البارزة في تلك الآونة ، حادث ظاهر البساطة في ذاته ،
ولكنه أذكى موجة جديدة من السخط . وذلك أن عبد الرحمن أصدر أمره إلى رجال
الدولة وأكابر أهل الخدمة ، بأن يتركوا قلائسهم الطويلة ، المبرقشة الملونة ، التي
كانوا يضعونها على رؤوسهم ، ويمتازون بها على باقي الطوائف ، وأن يستبدلوها
فوراً بالعمائم . وقد كانت العمائم هي غطاء الرأس عند البربر . فأنف الكبراء
لذلك ، ولكنهم رضخوا للأمر كارهين ، وحضروا إلى قصر الزاهرة بالعمائم
لأول مرة في يوم ١٤ جمادى الأولى ، وعلق جمهور الشعب على ذلك بمختلف
الأقوال والتأويلات .

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٤٦ و ٤٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٤ - ٩٦ .

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٥٠ .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك قد فكر في أن يشغل الناس بحديث الغزو أسوة
بأبيه وأخيه ، وكان سانشو غرسيه أمير قشتالة من جهة أخرى قد أبدى أنه لا يزمع
احترام السلم المعقود ، وأخذ بالفعل يغير على الحدود الإسلامية . ولم تكن أخبار
قرطبة ، وما يسودها من اضطراب الأحوال ، خافية على الملوك النصارى .
واعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى الغزو ، وأن يقصد إلى جليقية ، فاعترضه كبير الفتيان
الصقالبة ، وحذره من مغادرة قرطبة في هذا الوقت ، وأوضح له أن المروانية
(بنى أمية) يأتمرون به ، ويدبرون انقلاباً ينتزعون به الحكم ، وأن كثيراً من
الجند يميلون إليهم ، فلم يصنع إلى قوله ، وأمر بالخروج إلى الغزو (١) ، وعهد
بإدارة الحكومة في غيبته إلى ابن عم أبيه عبد الله بن أبي عامر المعروف بعسكلاجة .
وكان خروجه من قرطبة في ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (يناير سنة ١٠٠٩ م)
أعنى في أعماق الشتاء ، وسار بالحيش صوب طليطلة في طريقه إلى جليقية ،
والأمطار تنهمر والبرد يهراً الأجسام ، وهو على سجيته من اللهو والشراب . ثم
اخترق حدود مملكة ليون ، ودخل جليقية . ولكن ملك ليون ألفونسو الخامس
تحصن بقواته في رؤوس الجبال ، ولم يتقدم لقتال المسلمين ، ولم يجد عبد الرحمن
سبيلاً لقتاله لفيضان الأنهار وكثرة الثلوج ، فقرر العودة بجيشه ، فارتد راجعاً
أدراجه . وبالرغم من أنه لم يحقق في غزوته هذه أية نتائج ذات شأن ، فقد نظم
ابن دراج القسطلي ، على سجيته ، في تلك الغزوة قصيدة طويلة ، يشيد فيها
بعبد الرحمن ، وهذا مطلعها :

هو البدر في فلك المجد دارا فما غسق الخطب إلا أنارا
تجلى لنا فأرتنا السعود عيوب المنى في سناه جهارا
وأوفى فكادت صوادي القلوب تفوت العيون إليه بدارا
وحل فحلت جسام الفتو ح تبأى اختيالا وترهى افتخارا (٢)

وما كاد عبد الرحمن يصل إلى طليطلة ، حتى وافته الأنباء بأن انقلاباً حدث
في قرطبة ، وأن الثوار قد استولوا على مدينة الزاهرة ، ونهبوا ذخايرها ، وأضرموا
النار في صروحها . وتسربت الأنباء إلى الجند ، فوقع الاضطراب في الحيش ،

(١) أعمال الأعلام ص ٩٦ .

(٢) نقلت هذه الأبيات من ديوان ابن دراج المخطوط الذي سبقت الإشارة إليه .

واضطر عبد الرحمن أن يسير لفوره بالخييش إلى قلعة رباح ، في طريقه إلى قرطبة :

- ٢ -

لم يكن ذلك الهدوء الظاهر ، الذى ساد قرطبة خلال هذه الأشهر القلائل التى اضطلع فيها عبد الرحمن بالأمر ، سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة . وكان حكم الطغيان الذى فرضه بنو عامر على الأندلس قد أخذ منذ أيام عبد الملك ، يحدث آثاره المادية والأدبية ، فى نفوس الشعب ، ويبدو لهم بغيضاً مرهقاً . ولم يكن يستر هذه الآثار سوى سياج خفيف من الحذر والترقب . ذلك أن سلطان بنى عامر كان يستند دائماً إلى قوة عسكرية يخشى بأسها ، قوامها البربر والصقالبة ؛ فلما جاء عبد الرحمن ، وكشف عن نيته فى الاستئثار برسوم الملك ، واغتصاب ولاية العهد ، ألفت العناصر الناقمة ، وفى مقدمتها بنو أمية أصحاب الولاية الشرعية ، فى ذلك مادة جديدة ، للتنديد بحكم بنى عامر وطغيانهم واجترائهم ، وفى تلمس الوسائل الكفيلة بسحق دولتهم ؛ وكانت شخصية عبد الرحمن الهزيلة ، وأرومته الأجنبية ، وما أبداه من ضروب الاستهتار والمجون ، تذكى عاطفة السخط عليه ، سواء بين الخاصة أو الكافة ، وتمهد السبيل إلى الانقلاب المنشود .

وكانت خيوط المؤامرة التى اجتمعت حولها العناصر الناقمة ، تتوثق شيئاً فشيئاً ، وكان أهم مدبريها شخصيتين ، الأولى الذلفاء والدة عبد الملك المنصور ، وقد كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن ولدها قد توفى غيلة بالسم ، وأن قاتله هو أخوه عبد الرحمن ، وكانت لذلك تتوق إلى الانتقام ، والثانية هى شخصية فتى من بنى أمية هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان عبد الملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بتهمة التآمر مع الوزير عيسى بن سعيد كما تقدم .

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم ، كثيرة المال والوجاهة ، وكانت بالرغم مما أسبغه عبد الرحمن عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبد الملك ، من ضروب الرعاية والإكرام ، تسعى دائبة للإيقاع به . فلما شعرت بأن الجو قد تهيأ للسعى ، بما ثار حول تصرفات عبد الرحمن من ضروب الإنكار والسخط ، اتصلت بوجوه بنى أمية ، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم ، والانتقام من بنى عامر ، وكان صلة الوصل بينها وبينهم فتى من صقالبة العامرين يدعى بشرى

وكان من قبل من فتیان المراونة ، ثم انتقل إلى العامرين فيمن انتقل من فتیان القصر ، ولكنه بقي على ولائه لساداته الأقدمين . وتعهدت الذلفاء بأن تعاون المتآمرين بالمال والتدبير ؛ وسرعان ما استجاب بنو أمية للدعوة واختاروا من بينهم زعيماً هو محمد بن هشام بن عبد الجبار . وكان فتى جريئاً مغامراً في الثالثة والثلاثين من عمره ، وكان مذ قتل أبوه هشام ، يتحرز على نفسه ، ويختفى في أحواز قرطبة وكهوفها ، ويجمع حوله الصحب من المغامرين . فلما أجمع بنو أمية أمرهم على اختياره ، بايعوه سرّاً بالولاية والخلافة ، وكان له ولأبيه من قبل دعاة من أهل قرطبة من المروانية وغيرهم ، يدعون له ؛ واشتدت هذه الدعاية مذ أجمع المتآمرون رأيهم على اختياره . وكان خروج عبد الرحمن المنصور أو شنجول إلى الغزو فرصة سانحة للعمل ، فأخذ محمد بن هشام يحشد أنصاره ، ويجتمع بهم سرّاً في كهوف جبل قرطبة . وكثر إرجاف دعائه في المدينة أن دولة بني عامر قد قضى عليها ، وأن الأمر سيعود إلى المروانية ، وكثر تشهيرهم بعبد الرحمن وقبيح تصرفاته . وكانت هذه الدعاية تجد لدى جمهور الكافة أذناً صاغية ، لما وقر في نفوسهم من بغض عبد الرحمن وازدراؤه . وإليك كيف يصف لنا ابن الخطيب موقف الشعب القرطبي ، وحالته النفسية إزاء العامرين ، وإزاء عبد الرحمن :

« وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها ، والقلق بذوى أمرها ، والإرجاف بما يتوقع لها . وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة ، تؤثر عنهم في العامرين نواذر حارة ، واستراحات عنهم ؛ كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ، ويأمرهم بإنهاء وعيده ، ويشافههم بإنكاره ، ولا يزال حكامه يبلغون في تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور ، وقطعاً للألسنة . فلما ذهب عبد الرحمن هذا المذهب ، وأطاع هذا الحرق ، كثر الحمل وشهرت البغضة » (١) .

ولم يكن المروانية ، وحدهم في هذا التدبير الذي قصد به إلى سحق نير العامرين ودولتهم ، فقد كان إلى جانبهم سائر العناصر الناقمة من قریش ، ومن المضربة واليمنية ، أو بعبارة أخرى من البيوت العربية ، التي عمل المنصور وآله على سحق رياستها ومكانتها الاجتماعية ، وإخضاعها لنفوذ البربر والصقالبة . وقد رأينا فيما

تقدم أن هذه لم تكن أول مؤامرة أو محاولة من نوعها لتحطيم نير بني عامر ، وأن المنصور وولده عبد الملك ، استطاعا أن يقضيا على بعض المؤامرات الخطيرة ، التي دبرت لتحقيق هذه الغاية .

كانت الظروف قد تهيأت إذاً أمام المتآمرين للعمل . فقد خرجت معظم وحدات الجيش مع عبد الرحمن إلى الغزو ، ولم يبق منه سوى فرق قليلة ترابط في قرطبة والزاهرة ، وجمهور الشعب متأهب بعواطفه ونفسيته الضجيرة المتدمرة لتأييد أى انقلاب .

ولما نضجت المؤامرة ، واتسع نطاق الدعوة لمحمد بن هشام ، وكثر الإرجاف بالانقلاب المنشود ، شعر الوزراء العامريون بالخطر ، وضاعفوا الأهبة والحرس حول قصور الزاهرة . وكان محمد بن هشام وأعوانه خلال ذلك يجتمعون سراً وينظمون خططهم الأخيرة . وكان محمد هذا الذي اختاره بنو أمية زعيماً لهم ، قد فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة ، لا يخالط سوى الزعانف والأشرار . وقد وصفه ابن الخطيب في قوله : « جزار جسور ، ثائر مخاطر ، خليع ، مداخل للصقورة والفتاك ، لا يدري في أى واد يهلك » (١).

وفي يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٥٣٩٩ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م) جاءت الأنباء إلى قصر الزاهرة بأن عبد الرحمن قد عبر بجيشه إلى أرض النصارى ، فأدرك المتآمرون في الحال أن الفرصة قد سنحت للعمل ، واعتزم محمد بن هشام لفوره أن ينزل الضربة المنشودة . وكان قد بث نفراً من رجاله حول قصر قرطبة ، وقد تسلحوا تحت ثيابهم خفية . ففي عصر هذا اليوم ، كان محمد يكمن في الضفة الأخرى من النهر (نهر الوادي الكبير) قبالة القصر . وكانت خطة المتآمرين لأن يسددوا الضربة الأولى لقصر قرطبة ، وهو يومئذ المقام الشتوى للخليفة هشام المؤيد ، وحوله قلة من الحرس ، ولأن ظروف العمل في قرطبة ، كانت أدعى إلى النجاح نظراً لعطف الكافة والدهماء وتأييدهم . وفي الوقت المحدد عبر محمد النهر ، والتف حوله من أصحابه اثنا عشر فتى ، منهم طرسوس الجوسى ، وهو أشدهم جرأة وفتكاً ؛ فساروا حذرین حتى باب القصر ، ثم شهر طرسوس سيفه ، وهجم في الحال على صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر (عسكلاجة) وانتزعه من مجلسه ،

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٩ ؛ وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٥٢ .

وكان يحتسى الخمر مع قينتين من جواريه ، وجيء به مخموراً إلى محمد بن هشام ، فأمر بضرب عنقه ، ورفع رأسه على رمح ، فلما أبصرت العامة رأسه مرفوعاً ، هرعت إلى محمد بن هشام ، والتف حوله منهم جمهرة كبيرة من السفلة والغوغاء ، فقويت بذلك عصبته ، ثم بادر باقتحام سجن العامرية ، وأفرج عن فيه من القتلة واللصوص ، وتلاحق عليه أقاربه المروانية من كل صوب ، واستنهضوا الناس لنصرته ، حتى اجتمع حوله منهم طوائف غفيرة .

ونعى الخبر إلى الخليفة هشام المؤيد ، فأمر بإغلاق أبواب القصر ، وصعد إلى السطح ، ومن حوله خادمان يحمل كل منهما مصحفاً ، وحاول مخاطبة العامة ، فأسكتوه وأغلظوا له القول ، فانصرف عنهم إلى داخل القصر ، وأمر الخدم بالكف عن كل مقاومة حتى يقضى الله أمره . فأمر محمد بن هشام العامة بنقب أسوار القصر ، واقتحام أبوابه ، وبذل العامة في ذلك جهوداً فادحة ، وأتوا بالسلام ، وصعدوا إلى أعلا الأسوار ، وسيطروا على عدة نواح من سطح القصر ، وارتد الخدم أمامهم ، ووصلوا إلى خزائن السلاح فهبوها واشتد ساعدهم . ولما سمع الخليفة بذلك ، خشى البادرة على نفسه وأهله ، فبعث إلى محمد بن هشام يعرض عليه أن يقصى بني عامر عن الحكم ، وأن يشركه في أمره ، فرفض محمد ذلك ، وطلب إلى فاتن محافظ القصر أن يفتح الأبواب ، فأذعن ودخل محمد القصر ، واحتل مجلسه ، ومن حوله خاصة أصحابه ، واعتزم أن يقضى ليله بين الشموع المضيئة . ثم قام بطرد العامة عن القصر وأجلاهم عن سطحه ، وكفهم عن انتهاك حرمة ، وعين ابن عمه محمداً بن المغيرة في كرسي الشرطة ، وابن عمه الآخر عبد الجبار بن المغيرة في خطة الحجابة ، ودعا سليمان بن هشام من قرابته فسامه ولى عهده ، وبعث إلى الخليفة هشام يعاتبه على إثثار بني عامر ، ويدعوه إلى خلع نفسه ، منذراً مهدداً ، فارتاع هشام وبادر بالقبول ، واستدعى محمد في الحال بني عمومته ، وأكابر بيته ، ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة في جوف الليل ، وأعلن هشام خلع نفسه بمحضر من بعضهم ، وقدم إلى محمد بعض حلله الخلافية الفاخرة ، فتم الخلع ، وذلك بعد أن مكث هشام في الخلافة ثلاثة وثلاثين عاماً وبضعة أشهر ، وآلت الخلافة في تلك الليلة إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمهدى . وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) .

وهرعت الجموع من سائر أنحاء قرطبة إلى محمد بن هشام ، ملتفة حوله ، مؤيدة لبيعته ، واعتبروه بطلاً منقذاً ، إذ كان أول من استطاع أن يثور في وجه بني عامر ، وأن يعمل لإزالة ملكهم ، وشعروا أن كابوس الإرهاب العامري قد تقلص ، وأن عهداً جديداً سوف يبدأ ، ولم يخطر ببالهم قط ، أن هذا التحول كان نذير المحنة الغامرة ، التي سوف تطيح بكل ما نعموا به في ظل الدولة العامرية من السكينة والأمن والرخاء .

وفي الوقت نفسه كانت مدينة الزاهرة ، معقل بني عامر ، عرضة لهجوم مماثل . وكان القائمون على أمرها قد نمي إليهم ما وقع بقرطبة ، وبادر محافظ الزاهرة عبد الله بن مسلمة إلى ضبط أسوارها وأبوابها ، وحشد ما لديه من الجند ، فبلغوا سبعمائة ، وتأهب للدفاع . وبعث محمد بن هشام إلى الزاهرة جمهوراً غفيراً من العامة مع طائفة من أصحابه . فأحاطوا بها وحاولوا اقتحامها ، ولكن نظيفاً الخادم ، ونصراً المظفرى ، وهما من الفتيان العامرين ، استطاعا في قوة من الغلمان إجلاء العامة عن الأسوار ، ثم دخل الليل فحال بين الفريقين .

وفي صباح اليوم التالي ، ١٨ جمادى الأولى ، ندب محمد بن هشام أو الخليفة المهدي ، ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة المهاجمة الزاهرة ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة من العامة ، الذين أقبلوا على التطوع فرساناً ومشاة ، ووزعت عليهم الأسلحة ، وأمامهم رأس عبد الله بن أبي عامر مرفوعاً فوق رمح ، وهاجموا قصر عبد الملك المظفر ، وكان خارج الأسوار ، وكان فيه أهله وأمه الذلفاء ، فنبهوه وتحاطفوا متاعه وذخائره ، وذلك بالرغم من أن الذلفاء هي التي أمدت محمد بن هشام بعونها ومالها . فلما شعر أهل الزاهرة ، بأنه من العبث مقاومة هذه الجموع الهائلة ، عرضوا التسليم على أن يصدر لهم المهدي الأمان ، فبعث إليهم المهدي الأمان المنشود مكتوباً بخطه ، وكان ذلك وقت الظهر ، ففتحو أبواب المدينة وسلموها ، ودخل عبد الجبار لفوره قصر الزاهرة ، واقتحمته الجموع ، ونهبت منه من المتاع والنفائس ما لا يقدر ولا يوصف ، واستأثر عبد الجبار وصحبه المقربين من ذلك بأعظم نصيب ، واستولت العامة على خزائن الكسوة والمتاع والسلاح والحلى ، ولم يكف النهب إلا في مساء اليوم التالي . وحرص عبد الجبار على أن يحيط بقواته بيوت الحرّم والمال وخاص المتاع والجوهر ، وأن

يبعد العامة عنها ، وقد استولى المهدي على جميع محتوياتها ونقلها إلى قصر الخلافة بقرطبة . ويقال إنه حصل من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار من النقود ، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف . وأطلق المهدي الخرائر من بني عامر ، واصطفى الحواري لنفسه ، ووهب منهن لوزرائه وأصحابه ، وأذن للذلفاء أن تنتقل وأسرة ولدها عبد الملك وولده الصغير محمد ، مطلقة السراح إلى دورها بالمدينة ، وكانت لحرصها قد نقلت إليها معظم خزائن المال والمتاع .

ولم يكتف المهدي بذلك كله ، بل عمد بعد أن استصفى سائر ما في الزاهرة من الخزائن والأموال الطائلة ، إلى هدم صروحها وأسوارها ، واستطالت الأيدي إلى كل نفيس من مرمر قصورها وطرائفها وأنقاضها وأبوابها ، فلم تمض أيام قلائل على ذلك السيل المدمر ، حتى اختفت صروح الزاهرة ومعلمها الضاحكة ، وغدت أطلالا دارسة ، وخرائب موحشة . وكان المهدي يتعجل إزالة رسوم بني عامر بكل ما وسع ، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور ، قبل أن يتم إحكام ضربته وتوطيد مركزه .

وقد ذكرت لنا الرواية أن المنصور بن أبي عامر . كان يتوقع ذهاب دولته وخراب الزاهرة ، وكان هذا الخاطر ينتابه من آن لآخر ، ويفضي به إلى خاصته . وقد نقل إلينا الوزير أحمد بن حزم ، والد الفيلسوف الشهير ، أن المنصور كان يقول : « وحيّاً لك يا زاهرة الحسن ، لقد حسن مرآك ، وعبق ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخبرك ، وطاب تربك ، وعذب شربك ، فياليت شعري من الذي يهدمك ، ويوهن جسمك ويعدمك » ، وأنه كان يؤكّد لأصحابه صحة هذه النبوءة في مناسبات كثيرة (١) .

لما وصلت أنباء هذا الانقلاب الخطير الذي وقع في قرطبة ، إلى عبد الرحمن المنصور أو شنجول ، وهو في طليطلة ، بادر بالسير في قواته إلى قلعة رباح ، والحيرة تغلب عليه ، والاضطراب يسود صفوف الحند ، وهنالك تمهل قليلا ، وأعلن في الحال أنه ينزل عن ولاية العهد ، ويقتصر على الحجابة ، وبعث كتبه

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٦٥ .

بذلك إلى طليطلة وأعمالها ، وفيها يناشد الناس أن يهرعوا إلى نصره الخليفة المظلوم هشام ، وإلى التمسك بطاعته ، ويصف لهم ما ارتكبه محمد المهدي ودهماء قرطبة من العيث والسفك . فلم يعبأ أحد بدعوته ، وكان أول الخارجين عليه الفتي واضح مولى أبيه ، وهو يومئذ والى طليطلة . وحاول شنجول في الوقت نفسه ، أن يأخذ العهد على زعماء الجند بنصرته والقتال معه ، ولا سيما زعماء البربر الذين يؤلفون سواد الجيش ، فتظاهروا بموافقته ، ولكنهم تعاهدوا فيما بينهم ، وعلى رأسهم كبيرهم محمد بن يعلى الزناتي زعيم زناتة ، أن يتخلوا عن شنجول وألا يغامروا بمحاربة أهل قرطبة ، وفيها أسرهم وأموالهم ، وخصوصاً بعد الذي تراعى إليهم عن التفاف الناس حول محمد بن هشام ، وتفانيهم في نصرته ؛ وقوى هذا العزم لديهم ما أفضى به إليهم القاضي أبو العباس بن ذكوان — وكان قد صحب شنجول في غزاته — من أنه يتبرأ من شنجول ويقضى بفسقه ، وينكر عليه ما يدعو إليه من قتال المسلمين بقرطبة ، وفيهم العلماء والصالحون ، والنسوة والأطفال . ومما تجدر ملاحظته أن القاضي ابن ذكوان هذا ، كان من قبل من أخص رجالات الدولة العامرية ، وكان من أشد المعاونين لعبد الرحمن المنصور على انتزاع ولاية العهد من هشام .

وكان إلى جانب شنجول في معسكره ، زعيم من زعماء بني غومس سادة مقاطعة كريون في جليقية ، وكان قد صحبه يرجو عونه على بعض خصومه من الزعماء المجاورين ، فلما رأى اضطراب أحوال الجند ، نصح شنجول بأن يعدل عن السير إلى قرطبة ، وأن يعود في أصحابه إلى طليطلة فيتنق مع واضح ، فأبى شنجول نصحه ، وزعم أنه متى اقترب من قرطبة ، سارع الناس إلى نصرته . وقد بقى هذا الزعيم النصراني إلى جانب شنجول حتى النهاية^(١) .

وعلى أى حال فقد سار شنجول في قواته صوب قرطبة ، حتى انتهى إلى « منزل هاني » ، وهي أقرب محلاته إلى المدينة . وما كاد الليل يرخي سدوله ، حتى غادر معظم الجند البربر أمكنتهم تحت جنح الظلام ، وأسفر الصبح وهو صبح نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (نهاية فبراير سنة ١٠٩٩ م) فلم يبق إلى جانب عبد الرحمن سوى خاصته وحرمة وحشمه وجمع يسير من غلمانته ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٠ .

وابن غومس في نفر من أصحابه ، وغادر المعسكر تبعاً زعماء البربر ، والفتيان الصقالبة ووجوه الأندلسيين ، وهنا نصحه ابن غومس مرة أخرى بأن ينجو بنفسه وصحبه ، فأبى .

وسار شنجول في أهله حتى وصل إلى أرملاط من مشارف قرطبة ، وقد تركه النفر القليل الذي بقي معه ، فاستولى عليه اليأس ، وأدخل حرمه قصر أرملاط ، ثم خرج مودعاً والصراخ يتبعه ، وسار ومعه ابن غومس ، وقد عول على الفرار ، فالتجأ ليلاً إلى الدير القريب . وكان محمد بن هشام في تلك الأثناء يتتبع أخباره وحركاته ، فلما نعى إليه أنه يزعم الفرار ، بعث في الحال الحاجب ابن ذرى في طائفة من الفرسان ، فصار مسرعاً إلى أرملاط وداهم الدير ، وقبض على شنجول وابن غومس . وأخذ نساء شنجول من القصر ، وهن سبعون جارية ، فبعث بهن إلى قرطبة . ولما شعر شنجول بأنه هالك أعان أمام معتقله أنه يعترف بطاعة المهدي ، فاستاقه ابن ذرى هو وابن غومس ، ثم أمر بتوثيق يديه بالرغم من احتجاجه ، وفي خلال الطريق طلب شنجول أن يفك وثاق يديه قليلاً ليستريح ، فأجيب إلى طلبه ، وعندئذ أخرج من خفه سكيناً بسرعة البرق ، وحاول أن يغمده في صدره ، فتداركه الحند ، وأوثقوا يديه ، وأمر الحاجب بقتله ، فذبح في الحال ، وفصل رأسه عن جسمه ، وقتل ابن غومس ، وحمل رأس شنجول إلى المهدي في نفس المساء ، وحمل جسده معروضاً على بغل ، وأمر المهدي فحنطت الحثة ، وركب عليها الرأس ، وألبست كسوتها ، ونصبت على خشبة طويلة على باب السدة ، ونصبت رأس بن غومس على سارية إلى جانبها . وكان مقتل عبد الرحمن المنصور في اليوم الثالث من رجب سنة ٣٩٩هـ (٣ مارس سنة ١٠٠٩ م) .

وقد انتهت إلينا من تعليقات المعاصرين على تلك الحوادث المتوالية المدهشة تعليق شاعد عيان يقول فيه :

« ومن أعجب ما رأيت من عبر الدنيا ، أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من حمادى الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم الأربعاء تنمة الشهر ، وفي مثل ساعته فتح مدينة قرطبة ، وهدم مدينة الزاهرة ، وخلع خليفة قديم الولاية وهو هشام بن الحك ، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد ،

ولا وقع عليه اختيار . وهو محمد بن هشام بن عبد الحبار ، وزوال دولة آل عامر ، وكرور دولة بني أمية ، وإقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة . ونكوب وزراء جلة ، ونصب اضدادهم ، تقتحمهم العين هجئة وقماعة . وجرى هذا كله على يدي بضعة عشر رجلا من أراذل العامة ، حجامين وخرازين ، وكنافين ، وزبالين ، تجاسروا عليه ، وقد تكفل المقدور بوقوعه ، فممنه ما لم يكن في حساب مخلوق تمامه» (١).

* * *

وهكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مدهشة لم يكن يتوقعها أحد ؛ فقد تولى عبد الرحمن المنصور الحكم عقب وفاة أخيه عبد الملك في ١٧ صفر سنة ٣٩٩هـ ، والدولة محكمة النظام موطدة الدعائم ، والجيش على ولائه للدولة العامرية ، فلم تمض سوى ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ ، الذي شاده المنصور ابن أبي عامر ، والذي لبث خمسة وثلاثين عاماً معقد النظام والسلامة والأمن والرخاء للأندلس ، واستطاعت جموع يسيرة من الدهماء ، أن تحقق بسرعة البرق ما لم يجروء على تصوره أو محاولته من قبل ، أحد من أكابر خصوم الدولة العامرية والمتربصين بها . ومن الواضح أن الأسباب الجوهرية لمثل هذا الانقلاب الصاعق ، ترجع قبل كل شيء إلى العوامل الأدبية والنفسية ، فقد كان نظام الطغيان المطبق الذي فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، بالرغم من كل ما حققه للأندلس من السؤدد والرخاء ، يبدو كالكابوس المرهق ، وكان الشعب يتوق إلى التخلص من هذا النير ، الذي سلبه كل مظاهر الحرية . فلما تولى عبد الرحمن المنصور ، كانت النفوس قد أشبعت ببغض هذا النظام والرغبة في زواله ، وكان سلوك عبد الرحمن وتصرفاته ومجونه واستهتاره ، عاملاً جديداً في إذكاء هذا البغض وهذه الرغبة . وكان لاجترائه على اغتصاب ولاية العهد ، أسوأ وقع في نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية . فلما خرج عبد الرحمن إلى الغزو ، كان الشعب يضطرم سخطاً وبغضاً وازدراء ، وكان يرقب أول بادرة للانفجار . فلما وقعت هذه البادرة بوثوب محمد بن هشام ، لبي الشعب لفوره دعوة الخروج والثورة ، ولم يفكر في شيء من العواقب ، ولم يفكر إلا في تحطيم هذا النير

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٤ .

البغيض — نير بنى عامر — بأية وسيلة . وكان له ما أراد ، وقد حقق رغبته بأيسر أمر .

على أن الأمة الأندلسية لم تجن خيراً من هذا الانقلاب ، الذى حققه الشعب القرطبي دون تدبير ودون تحوط . ذلك لأن لم يقف عند القضاء على دولة بنى عامر ، بل بالعكس كان نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن ، اللذين تمتعت بهما الأندلس فى ظل الدولة المنقضية ، ودفع الأمة الأندلسية إلى معترك مروع من الفتن المضطربة ، والفوضى الشاملة ، التى انتهت بانهيار حكومتها المركزية ، وتمزيق وحدتها ، ومواجهتها لأخطر مصير عرفته منذ قيامها فى شبه الجزيرة .

الكتاب الرابع

سقوط الخلافة الأندلسية
ودولة بني حمود

٣٩٩ - ٤٢٢ هـ : ١٠٠٩ - ١٠٣١ م

الفصل الأول

الخلافة في معترك الفتنة والفوضى

غداة الانقلاب . اقتسام السلطان . الشعب القرطبي . شخصية المهدي . اضطهاده للبربر . تحامل العامة عليهم . نفى المهدي للفتيان العامريين . إخفاؤه للخليفة هشام وادعاؤه بوفاته . عيته وطغيانه . هشام بن سليمان . سعيه إلى خلع المهدي . القتال بين الفريقين . هزيمة هشام ومصرعه . تحريض المهدي على البربر والفتك بهم . مسيرهم إلى قلعة رباح . يرشحون سليمان بن الحكم للخلافة . استنصارهم بسانشو غرسية أمير قشتالة . الحرب بينهم وبين الفتى واضح . هزيمته وفراره . تأهب المهدي للدفاع . مسير البربر وحلفاؤهم النصارى إلى قرطبة . موقعة قنتش . هزيمة القرطبيين وتمزيق جمعهم . المهدي يظهر الخليفة هشام . فشل محاولته وفراره . مبايعة سليمان بن الحكم . المهدي وواضح يدبران محاولة جديدة . استنصارهما بأمرى برشلونة وأورقلة . مسير المهدي وحلفائه الفرنج إلى قرطبة . اللقاء بينهم وبين البربر . هزيمة البربر وفرار سليمان . تجديد البيعة للمهدي . مسيره لمطاردة البربر . هزيمته وارتداده إلى قرطبة . استعداده للدفاع . الوحشة بينه وبين واضح . ائثار الفتيان به ومقتله . عود هشام المؤيد إلى الخلافة . واضح يتولى الحجابة . تمسك البربر بولاية سليمان . مسير البربر إلى الزهراء واحتلالها . عيتم بأراضي قرطبة . هشام يقدم الحصون الأمامية لأمير قشتالة . حصار البربر لقرطبة . واضح يحاول الفرار . ضبطه ومقتله . ابن وداعة وابن مناو . هشام يحاول استرضاء البربر وسليمان . فشل المحاولة . اشتداد الحصار على قرطبة . مقتل حباسة بن ماكسن . هياج البربر . القتال بينهم وبين أهل قرطبة . هزيمة القرطبيين . اقتحام البربر للمدينة والفتك بأهلها . سليمان المستعين يسترد الخلافة . مصير هشام المؤيد . سليمان يتلقب بالظافر . تفكك عرى الدولة . توزيع الكور بين زعماء البربر . خلال سليمان وشعره .

ترجع محمد بن هشام الملقب بالمهدي على كرسى الخلافة ، مكان الخليفة هشام المؤيد ، في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) ، وانقضى عهد السلطة الثنائية — سلطة الخليفة الشرعي الإسمية ، وسلطة حاجبه والمتغلب عليه الفعلية — ليفسح مجالاً لعود السلطة الموحدة . ولكن الظروف التي وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم ، الذي أودى بين عشية وضحاها ، بسلطان دولة من أعظم الدول الأندلسية ، لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت وأن تستقر ؛ فقد كان الخليفة الجديد ، شخصية مغامرة رخوة ، تحركها النزعات الوضيعة ، ولا تحدها أية غاية مثلى ، وقد أطلقت سائر الأهواء المتوثبة من عقابها ، وأخذ كل حزب وكل فريق وكل طائفة ، تحاول أن تحصل نصيبها من

أسلاب الدولة المنهارة . فقد كان هناك المروانية أو بنو أمية ، يرون أنهم أصحاب السلطة الشرعية ، وأصحاب التراث المتخلف عن مغتصبيها ، بنى عامر ؛ وكان هناك الفتيان العامريون ، وأنصارهم من الصقالبة ، ومن إليهم من الجند المرتزقة وقد كانوا أولياء الدولة العامرية . وكانوا من حيث العدد والعصبية قوة يعتد بها ؛ وكان هناك البربر . وقد كانوا عماد الجيش العامري ، وكان عددهم قد تضاعف في أواخر أيام المنصور وبنيه . وتوافد كثير من زعمائهم إلى شبه الجزيرة ؛ ثم كان هناك أخيراً الشعب القرطبي ، أو بعبارة أخرى كتلة العامة والدهماء الذين آزروا الخليفة الحديد والتفوا حوله ، وقد كانوا قوة خطيرة متقلبة ، كثيرة الأهواء والنزعات ، لاتؤمن عواقبها .

استقبل الشعب القرطبي ، ولاية الخليفة الحديد ، بمظاهر السرور والرضى ، وأقاموا الحفلات والولائم ، وظنوا أنهم قد أفلتوا من أغلال النظام العامري المرهق ، ليستقبلوا عهداً أكثر تسامحاً ، وأوسع آفاقاً ، ومادروا أن القدر يربص بهم ، وأن الأندلس سوف تجوز من تلك الساعة ، عهداً مليئاً بالحن والأحداث المؤلمة .

والواقع أن الخليفة الحديد لم يكن رجل الموقف ، ولم تكن جرأته التي تذرع بها لانتزاع السلطة من هشام المؤيد ، والقضاء على سلطان بنى عامر ، جرأة زعيم مقدم يقدر المسئوليات التي أخذها على عاتقه ، ولكن جرأة مغامر متهور ، وزعيم عصابة غير مسئولة ، التفت حوله جموع الدهماء الصاخبة ، دون وعى ولا تدبر ، شأنها دائماً في كل انقلاب وكل حدث جديد . ومن ثم فإنه ما كاد يشعر باستقرار أمره ، وتمكن سلطانه ، حتى أطلق العنان لطغيانه وأهوائه ، وجمع حوله بطانة سوء ، أخذت تتنكر للناس ، وتضطهدهم ، وتسومهم سوء الخسف ؛ وأبدى الموكلون بالقصر من رجاله نحو البربر بنوع خاص منتهى الشدة والفظاظة ، وكان المهدي ورجاله يحرصون البربر بالبغض والزرارية ، لأنهم كانوا عضد المنصور ، وسند نظامه الحديدي ، وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدي في هذه العاطفة ضد البربر ، وينظرون إليهم شزراً .

وبدا سحق المهدي نحو البربر في سوء معاملتهم ، والتشدد في دخولهم القصر ، فكانوا يمنعون من الركوب عند الدخول ، وينزع سلاحهم ، ويوجه إليهم قارص

الكلام ، ولم يفرق في ذلك بين أصاغرهم وزعمائهم ، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة صنهاجة ، زاوى بن زيرى بن مناد ، عند مقدمه إلى القصر ، مع جماعة من رجاله ، ردوا عند الباب بفضاظة ، وأهينوا ، فانصرفوا وقلوبهم تضطرم سخطاً . وسرت إلى العامة عندئذ ، موجة من التحامل ضد البربر ، فهاجمت بعض جموعهم دور البربر في ضاحية الرصافة ، ونهبوا بعضها ، وبادر صاحب المدينة بضبط الحال ورد الغوغاء ، وقتل ثلاثة منهم . وأسرع زاوى بن زيرى ، وحبوس بن ماكسن ، وأبو الفتوح بن ناصر ، وغيرهم من زعماء البربر بالدخول على محمد بن هشام ، وأخبروه بما وقع ، فاعتذر لهم ، ووعدهم برد ما نهب ، وقتل عدد من الغوغاء ، ولكن البربر لم تهدأ ثائرتهم ، وبقيت نفوسهم على اضطرامها .

وكان من أعمال العنف التي قام بها محمد بن هشام ، أن نفى عدداً من الفتيان الصقالبة العامريين . فغادروا قرطبة ، ولجأوا إلى أطراف الأندلس الشرقية ، وكان من تملكهم لبعض نواحيها ومدنها ما سنذكر في موضعه . ولم يقبل منهم على مسالمة محمد بن هشام ومصادقته ، سوى الفتى واضح صاحب مدينة سالم والثغر الأوسط ، فإنه بعث إليه كتاباً يؤكد فيه طاعته ، ويبدى ابتهاجه بمصرع عبد الرحمن المنصور ، فرد عليه المهدي بالشكر ، وبعث إليه أموالاً ومتاعاً ، ومرسوماً بولاية الثغر كله .

وعمد محمد بن هشام بعد ذلك إلى مطاردة الخليفة هشام المؤيد ، فحبسه في القصر أولاً ، وأخرج جواريه وفتيانه ، ودوابه المحبوبة ؛ ثم أخرجه بعد ذلك من القصر ، وأخفاه في بعض منازل قرطبة . وتوفي في ذلك الوقت رجل نصراني أو يهودي ، قيل إنه كان يشبه هشاماً شهماً قوياً ، فأعلن محمد بن هشام ، وفاة الخليفة ، وأحضر الوزراء والفقهاء فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حقاً . ودفن هذا الخليفة المزعوم في اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ (١) .

ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له ، أطلق العنان لأهوائه ، وشهواته الوضيعة ، وانكب على معاورة الخمر ، وبالغ في الاستهتار والمجون ، والمجاهرة بالفسق والفجور ، بصورة مثيرة أفقدته عطف الكثيرين واحترامهم ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٧ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٥ .

وبطش بكثير من الناس ، وفي مقدمتهم ولي عهده سليمان بن هشام ، فقد سجنه وسجن معه جماعة من قریش ، وأخرج من الجيش نحو سبعة آلاف جندي ، أقيلوا وقطعت أرزاقهم ، وأضحوا عنصراً من عناصر التوتر والشغب ؛ وزاد في التحامل على البربر ، والتعريض بهم والظعن فيهم ، في كل فرصة وموطن ، حتى أصبح بغضه لهم ، وتربص بهم ، من الأمور الذائعة ، وأخذ كل فريق يحتز من صاحبه ، ويتوقع منه الشر والغدر .

وكان هشام بن سليمان بن الناصر ، وهو والد سليمان ولي العهد المعتقل ، قد وجد على محمد بن هشام من جراء انحرافه وطغيانه ومجونته ، وخشي سوء العاقبة على بني أمية ، وانهيار أمرهم ، فأخذ يسعى في خلع محمد بن هشام ، وانضم إليه جماعة من الناقلين عليه ، وفي مقدمتهم جماعة العبيد العامرين ، وطوائف البربر . ومن تغيرت نفوسهم على محمد بن هشام ؛ وحاصر الثوار محمد بن هشام في قصره ، فبعث إلى هشام القاضي ابن ذكوان ، وأبا عمر بن حزم يعاتبانه على تصرفه ، وأمر بالإفراج عن سليمان بن هشام ، ووقع بين الرسولين وبين هشام حوار شديد ، أعلن فيه أنه أحق من محمد بالعرش ، فانصرفا عنه . والتفت العامة من الرض الغربي حول محمد ؛ وخرج محمد المهدي في جموعه لمقاتلة خصومه ، ودار القتال بينهما يومين متوالين ، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجموعه من البربر والعامرين ، وأسر هشام وابنه وأخوه أبو بكر ونفر من الزعماء ، قتلهم المهدي جميعاً (١) . واثالث الدهماء على دور البربر ، فأعملت فيها التدمير والنهب حتى دخل الليل ، وكان ذلك في أواخر شوال سنة ٣٩٩ هـ (يونيه سنة ١٠٠٩ م) .

ودافع البربر عن أنفسهم ، ثم انسحب معظمهم إلى أرملاط (٢) ضاحية قرطبة ، ووقع القتال بقرطبة بين من تبقى منهم وبين العامة ، وحرص المهدي على قتلهم ، وجعل لروؤوسهم أثماناً ، ففتك العامة بكثير منهم ، ومن بينهم عدة من الزعماء ، ونهبوا دورهم ، واغتصبوا النساء وسبوهن ، كل ذلك في مناظر مثيرة من السفك والاعتداء الغاشم ؛ واختفى كثير من زعمائهم . وتوجس المهدي من العواقب ، فأصدر للبربر أماناً ، ونادى الكف عنهم ، ونصحهم بتغيير زيهم اتقاء

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) وهي بالإسبانية Guadimellato

الأذى ، وكتب إلى البربر في أرملاط أماناً ، فلم يلتفتوا إليه ، وغادروا أرملاط وساروا شمالاً إلى قلعة رباح ، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم ويتدبرون أمرهم . وكان ممن فر من بني أمية عقب هزيمة هشام بن سليمان ومصرعه ، ولد أخيه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وكان إماماً للبربر ، فسار معهم ، ورشحوه منذ البداية لتولى الأمر مكان المهدي ، ولقبوه بالمستعين . وكان سانشو غرسية أمير قشتالة يرقب تطور الحوادث في قرطبة باهتمام ، متأهباً لمظاهرة الفريق الخارج على الآخر ، ففاوضه سليمان وزعماء البربر في طليطلة على أن يمددهم بالجنود ، وتعهدوا إليه بتسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود ، فقبل معاونتهم ؛ وفي أثناء ذلك حاول الفتي واضح صاحب مدينة سالم أن يعرقل مسير البربر ، فأمر مدن الثغر أن تمنع المؤن عن البربر ، ولقوا من جراء ذلك شدة وإرهاقاً . وأمدّه المهدي ببعض قواته بصحبة غلامه بليق ، فجمع جموعه وسار لقتال البربر ، ولجأ البربر من جانبهم إلى حليفهم سانشو ، فأمددهم بالجنود والمؤن الوفيرة . والتقى البربر وجيش واضح في مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة النهر أو قلعة هنارس الحالية Alcalá de Henares فهزم واضح هزيمة شنيعة ، واستولى البربر على حلته وسلاحه ، وفرت فلوله صوب قرطبة . وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٣٩٩هـ (١) .

وارتاع المهدي لتلك الهزيمة ، وأخذ في تحصين قرطبة ، وحفر حول فحص السرادق ، وهو محلة البربر خندقاً ، ورتب الرجال على الأبواب والأسوار ، وأخذ ينظم قواته النظامية ومن العامة . وكان واضح قد أتاه منهزماً في أربعائة فارس من الثغر ، انضمت إلى قواته . وسار سليمان بن الحكم من جهة أخرى في جموع البربر ، ومعها القوات القشتالية بقيادة سانشو غرسية ، صوب قرطبة ، وعسكروا بشرقها في سفح جبل يعرف بجبل قنتج أو قنتش وذلك في يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ . وبرز واضح في جموعه من أهل قرطبة والثغر ، واشتبك الفريقان في القتال يوم السبت ١٣ ربيع الأول (٥ نوفمبر ١٠٠٩ م) ، واضطربت بينهما معركة شديدة ، وسرعان ما دب الخلل إلى جيش قرطبة ، فارتد منهزماً إلى الوادي ، وتبعه البربر بعنف . فضاقت بهم المسالك ، وقتل منهم عدد جم

يقدره البعض بعشرة آلاف ، بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة ، وقتل النصارى وحدهم نيفاً وثلاثة آلاف رجل ، وثبت واضح في رجاله حتى دخل الليل ، فانسل تحت جناح الظلام وفر هارباً إلى الثغر (١) .

ولما رأى محمد المهدي هزيمة جنده ، أسقط في يده ، وحاول أن ينقذ نفسه بحيلة سخيفة ، يدفع بها دعوى سليمان ، فأظهر الخليفة هشاماً المؤيد ، وكان قد أخفاه حسباً تقدم ، وزعم أنه مات ، وأجلسه في مكان بارز في شرفة القصر ، وبعث القاضي ابن ذكوان إلى البربر ، يخبرهم أن الخليفة هشاماً ما زال على قيد الحياة ، وأنه هو الإمام الشرعي ، وليس المهدي سوى نائبه وصاحبه ، فرده البربر بجفاء وسخرية ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان . ولم ير المهدي أمامه سوى الفرار والنجاة بحياته ، فغادر القصر سراً ، واخترق قرطبة متنكراً ، ولحق بطليطلة . ودخل زاوي بن زيري زعيم البربر القصر ، ودخل سليمان بن الحكم في أثره في يوم الإثنين الخامس عشر من ربيع الأول سنة أربع مائة ، وبايعه الناس بالخلافة ، وتلقب بالمستعين بالله ، واستقبله الشعب القرطبي القلّاب بحماسة ، شأنه مع كل متغلب وظافر (٢) . ووكل سليمان بعض الفتيان الصقالبة بالحفاضة على هشام المؤيد في بعض أجنحة القصر ، ونزل البربر في الزهراء انقاء للاحتكاك مع العامة . ومع ذلك فقد كانت حوادث الإعتداء تتوالى عليهم في دروب قرطبة وأزقتها . وكان من أول أعمال سليمان أن أمر بإنزال جثة عبد الرحمن بن المنصور عن خشبتها ، فغسلت ودفن في دار أبيه ؛ ووفد سانشو غرسية إلى القصر ، فاستقبل بحفاوة وخلع عليه وعلى أصحابه ، ثم عاد إلى معسكره ، ووعد البربر بتسليم الحصون التي تعهدوا بتسليمها متى استقر سلطانهم ، ثم غادر قرطبة بعد أن ترك من جنده مائة أنزلوا في ريبض منية العقاب .

أما محمد المهدي فما كاد يصل إلى طليطلة ، حتى أخذ يدبر أمره من جديد ، وكانت الثغور ما تزال باقية على طاعته ودعوته ، وانضم إليه واضح وأخذ الأمر بيده . ولما علم سليمان بما يدبره المهدي وواضح ، خرج في قواته من قرطبة ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ ؛ ويقول ابن الخطيب إن النصارى قتلوا من أهل قرطبة ثلاثين ألفاً ، وهو رقم يحمل طابع المبالغة (أعمال الأعلام ص ١١٣) .
(٢) الذخيرة لابن بسام . المجلد الأول القسم الأول ص ٣٠ و ٣١ ؛ والبيان المغرب ج ٣

وصار صوب طليطلة ، ثم دعا أهلها إلى طاعته ، فأبوا . وانصرف سليمان بقواته إلى مدينة سالم ، فلقى نفس الفشل في استمالة أهلها ، فارتد عندئذ إلى قرطبة اتقاء لأهوال الشتاء (أواخر شعبان سنة ٤٠٠ هـ) . وفي خلال ذلك كله كان الفتي واضح قد سار إلى طرطوشة من ثغور الثغر الأعلى ، واتصل بأمر برشلونه الكونت رامون بوريل وزميله أمير أورقلة الكونت أرمنجو ، واتفق معهما على أن يمداه بجيش لمقاتلة البربر في قرطبة ، فقبلا معاونته بشروط باهظة ، من تقديم الطعام والشراب ، وأن يتناول كل منهما في اليوم مائة دينار ، وأن يتناول كل جندي دينارين في اليوم ، وأن يستولى الحند النصارى على ما يغمونه من سلاح البربر وأموالهم ، وأخيراً أن يستولوا على مدينة سالم ، وقد احتلوا بالفعل في طريقهم إلى طليطلة ، بعد أن أخلاها واضح من المسلمين (١) .

وسار الجيش الفرنجى برفقة واضح إلى طليطلة ، حيث انضم إليه المهدي في قواته ، وسارت القوات المتحدة صوب قرطبة . وكان سليمان المستعين قد وقف على أهبة خصومه ، ووفرة القوات الزاحفة عليه ، فاستنفر الناس لنصرته ، فلكيت دعوته فتوراً ، فحشد ما استطاع من جموعه ، وخرج مع البربر لملاقاة خصومه . وكان اللقاء على قيد نحو عشرين كيلو متراً من شمالي قرطبة في مكان يعرف « بعقبة البقر » ، وذلك في منتصف شوال سنة ٤٠٠ هـ (أواخر مايو سنة ١٠١٠ م) ، واحتل البربر بقيادة زعيمهم زاوى بن زيرى المقدمة ، ورابط سليمان بقواته في المؤخرة . واقتتل البربر مع الفرنج قتالاً شديداً ، قتل فيه كثير منهم ، وفي مقدمتهم الكونت أرمنجو (وتسميه الرواية العربية أرمنقد) ، ولكن جانباً من فرسان الفرنج اخترقوا صفوف البربر ، فظن سليمان أن الهزيمة وقعت بهم ، فارتد منهزماً وكشف بذلك مؤخرة البربر ، فلما رأى البربر فرار سليمان بقواته ، ارتدوا لفورهم نحو الزهراء ، فأخذوا أهلهم وأموالهم وغادروها إلى الجنوب مسرعين ، وفر سليمان في بقية من صحبه شرقاً صوب شاطبة . وفي اليوم التالى دخل واضح ومحمد المهدي قرطبة ، وجدد المهدي البيعة لنفسه وعين واضحاً لحجابهته (٢) .

واعترزم المهدي أن يقضى على البربر قبل أن يعودوا لمقارعتة . فجمع الأموال

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ و ٩٥ ؛ والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٢ .

من أهل قرطبة ، وأعطى الفرنج أعطيّاتهم ، وحشد كل ما استطاع من قواته ، وخرج لمطاردة البربر . وكان البربر قد وصلوا عندئذ إلى « وادي آره » أو وادي يارو^(١) . على مقربة من مربلة في طريقهم إلى الجزيرة الخضراء . وكان جيش المهدي يتكون من نحو ثلاثين ألف من المسلمين ، وتسعة آلاف من الفرنج . وهناك التقى الجمعان ، واشتبكا في معركة طاحنة ، دارت فيها الهزيمة على المهدي وحلفائه ، وقتل من الفرنج نحو ثلاثة آلاف ، وغرق منهم عدد جم ، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم وخيلهم ومتاعهم^(٢) ، ووقعت هذه الموقعة ، في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ (يونيه ١٠١٠ م) ، وعلى أثرها ارتد المهدي إلى قرطبة ، وهناك غادره حلفاؤه النصاري عائدون إلى بلادهم . وسار البربر جنوباً إلى ناحية ريبه ، وهناك لحق بهم سليمان المستعين بمن معه . وأخذ الفريقان يدبران معاً استئناف الصراع للاستيلاء على قرطبة .

وعكف المهدي على تحصين قرطبة ، وحفر حولها خندقاً ، أقيم وراءه سور ، وأخذ يستعد للدفاع ، ويحشد الجند توقعاً لمعاودة البربر الكرة . وكانت جموع من البربر في أثناء ذلك تغير على نواحي قرطبة من آن لآخر . وفي أثناء ذلك كان واضح قد ضاق ذرعاً بتصرفات المهدي وحماقاته ، وسوء خلقه من عكوف على الشراب والحجون . وكان الفتيان العامريون وفي مقدمتهم واضح جميعاً ينقمون على المهدي ما فعله بهشام المؤيد ، وبنى عامر ؛ وكان قد وصل إلى قرطبة حملة منهم من شاطبة ، وفيهم بعض الفتيان البارزين مثل خيران وعنبر ، فأتمروا على الغدر بالمهدي ، وأخرجوا هشاماً من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة ونادوا بولايته ، وأتوا بالمهدي بين يديه ، فضرب عنقه ، واحتز رأسه ، وألقى بجسده من أعلى السطح ، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها في الشوارع ، ووقعت هذه الجريمة في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ (٢٣ يوليه ١٠١٠ م)^(٣) .

وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة ، بعد سلسلة من الخطوب والأحداث المثيرة ، وكان يومئذ كهلاً في نحو السابعة والأربعين من عمره ، وكان قد مضى

(١) وبالإسبانية **Quadiaro** .

(٢) البيان المغرب ص ٩٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٣ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٦ ؛ والذخيرة القسم الأول ،

المجلد الأول ص ٣٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ و ٩٩ و ١٠٠ .

عليه مذولى الخلافة صبيهاً لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً ، وفى تلك الفترة شهدت الأندلس طائفة من الأحداث الحسام ، لم تشهد مثلها من قبل : شهدت قيام الحاجب المنصور ودولته العامرية ، واختفاء سلطة الخلافة ، فى ظل نظام الطغيان المرهق الذى فرضه بنو عامر ، ثم شهدت الثورة الغامرة التى أطاحت بالدولة العامرية وعود الخلافة الأموية فى ثوبها الباهت المهلهل ، على يد مغامرين مثل محمد بن هشام المهدي ، وسليمان المستعين ، وشهدت وفاة هشام المزعومة ، ثم بعثه ، وعوده إلى تولى الخلافة ، شبحاً من أشباح الماضى ، وألعبه فى يد واضح وزملائه الفتيان العامريين ، أصحاب الحول والسلطان ، بعد ابتعاد البربر ومصراع المهدي .

وتولى واضح بالطبع منصب الحجابة للخليفة الذى اصطنعه . وسكنت الفتنة ، وهدأت الخواطر نوعاً . وبعث الخليفة برأس المهدي إلى سليمان المستعين وحلفائه البربر ، وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته ، وأخذ يظهر فى شوارع قرطبة خلافاً لما كان عليه فيما مضى ، إظهاراً لبيعة الخلافة وسلطانها . ولكن البربر لم يقبلوا دعوته ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان ، وكان البربر فى الواقع يضطرمون حقداً على أهل قرطبة لما أصابهم منهم من أنواع النكال ، ويزعمون الانتقام منهم بكل وسيلة . وحاول سليمان والبربر أن يحصلوا مرة أخرى على معاونة سانشو غرسية أمير قشتالة ، وعرضوا أن يسلموه سائر الحصون الأمامية التى افتتحها الحكم والمنصور ، إذا ارتضى مخالفتهم ومعاونتهم على استعادة قرطبة ، وخلع المؤيد ، ولكن سانشو لم يصغ إليهم فى تلك المرة ، معتمراً أن يوجه مطالبه إلى الخليفة القائم . وعندئذ عول البربر على السير إلى قرطبة ، فسارت جموعهم حتى وصلت إلى الزهراء غربى قرطبة ، فهاجموا وقتلوا معظم الخند الذين بها ، واحتلوها وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، واستمروا بها بضعة أشهر حتى أواخر شعبان من تلك السنة ، ثم زحفت جموعهم على أرباض قرطبة ، يعيشون فيها تخريباً ونهباً وقتلاً ، ويحتنبون الاشتباك مع جند واضح ، وضج أهل قرطبة لهذا الاعتداء ، وزادت نفوسهم حقداً على البربر ، وتحرقاً للانتقام منهم ، وانتشرت جموع البربر فى نفس الوقت جنوباً ، حتى وصلت إلى أحواز غرناطة ومالقة وهى تنشر الحراب والدمار أينما حلت .

وفي تلك الأثناء وصل سفراء سانشو غرسية أمير قشتالة إلى قرطبة ، ، يطالبون بالحصون الواقعة على الحدود ، والتي افتتحها المسلمون منذ أيام الحكم حتى نهاية عهد بني عامر . ولم ير هشام وواضح بدأ من إجابة سانشو إلى طلبه ، اتقاء لعدوانه من جهة ، واتقاء لتحالفه مع البربر من جهة أخرى . وعُقد مجلس من الفقهاء والقضاة ، وكتب محضر رسمي بتسليم عدد كبير من الحصون إلى النصارى ، يقال إنها أربت على المائتين (١) ، ومنها معاقل هامة ، كانت قواعد أمامية للمسلمين ، مثل شنت إشتين ، وقلونية ، وأوسمة ، وغرماج وغيرها ، وخسرت الأندلس بذلك خط دفاعها الأول ، وتركت حدودها الشمالية مفتوحة لغزوات النصارى . واستمر البربر على حصارهم لقرطبة ، وعيّنهم في أرباضها الخارجية ، وكانت الحالة تسوء من يوم إلى يوم ، وكان الناس في قرطبة ، جيشاً وشعباً ، يزمعون مقارعة البربر ، والقضاء عليهم بكل ما وسعوا ، ويرفضون كل رأى أو مسعى يتجه إلى مسالمتهم أو التفاهم معهم ، ولم يجد المؤيد وواضح بدأ من الانسياق مع التيار العام ، واتخاذ كل وسيلة ممكنة للدفاع عن المدينة ، ولكن الموارد كانت تقل يوماً عن يوم ، حتى اضطر المؤيد إلى إخراج سائر نفائس القصر وتحفه ورياشه ، ليقتنى بثمانها الخيل والسلاح ، وفضلاً عن ذلك فقد أرهاق القرطبيون بالمطالب والمغارم حتى ضاقوا ذرعاً ؛ وأخيراً شعر واضح بأنه يواجه حالة مستحيلة ، واعتزم أن يغادر قرطبة سراً ، إلى بعض نواحي الثغر ، ولكن بعض أكابر الجند وقفوا على مشروعه ، فهض أحدهم ، وهو على بن وداعة مع نفر من زملائه ، فعاتبوه على ما بدد من الأموال ، وما أساء من تصرف ، ثم قتلوه واحتزوا رأسه ، وطيف بها في الشوارع ، ونهبت دوره ودور أصحابه ، فوجد بها مال كثير معبأ كان يعتزم الفرار به . وهكذا كفر واضح بدمه عن جريمته في اغتيال المهدي ، وهكذا أضحت الجريمة وسيلة ذائعة في بلاط قرطبة ، لاقتناص السلطان أو التخلص من صاحبه (٢) .

وعلى أثر ذلك ولى المؤيد ابن وداعة شرطة المدينة ، فاستعمل الحزم والشدة ، في قمع الشغب وصون النظام والأمن ، فهابته العامة ، وقلت حوادث الشغب ، وتولى تدبير الأمور للمؤيد رجل من موالى العامريين يسمى ابن مناو ؛ ثم جاءت

(١) أعمال الأعلام ص ١١٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٣ و ١٠٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٧ و ١١٨ .

إلى قرطبة كتب من أهل الثغور يعتذرون فيها عن عجزهم عن إرسال الإمداد ،
وينصحون المؤيد إما بمصالحة البربر ، أو التفاوض مع أمير قشتالة ؛ فكتب
هشام إلى زاوى بن زيرى يحثه على عقد الصلح ، ويعده بما شاء من مال أو ولاية ،
فرد زاوى بأنه لا يستطيع مخالفة أصحابه ، وأنه مع ذلك لا يدخر وسعاً فى العمل
لتأليف كلمة المسلمين وحقن الدماء (١) .

ثم بذلت محاولة مماثلة لدى سليمان بن الحكم والبربر ، إذ كتب أهل قرطبة
على لسان هشام وابن مناو كتابين ، وجه أحدهما من هشام إلى سليمان ، وفيه
يرجو العمل على إخماد الفتنة ، وتسليم الأمر إليه ، وعلى أن يغدو سليمان ولى
عهده والقائم بأعباء الخلافة عنه ، ووجه الثانى من وزراء قرطبة إلى وزراء البربر ،
فلم يحفل سليمان بكتاب هشام ، وقال للرسول بل إنه هو أمير المؤمنين والخليفة ،
وأنة لا يعترف لهشام بصفة ما .

كل ذلك والأمر يشتد على أهل قرطبة . ودخل الوزراء ووجوه الحند والفتيان ،
على هشام ، وكشفوا له خطورة الحالة ، واشتداد ضغط البربر على المدينة
وأرباضها ، وتفاقم الضيق والغلاء ، وقصور الثغور عن إنجاز المدينة ، وكون
الشعب منقسم على نفسه ما بين راغب فى الكفاح ، وراغب فى الصلح ، فبكى
هشام فيما قيل ، واعتذر لعجزه وقصوره ، وقال لهم افعلوا ما ترون .

وعجل باضطرام النار حادث وقع فى آخر ذى الحجة سنة ٤٠٢ هـ ، إذ تقدم
جماعة من وجوه البربر وفى مقدمتهم حباسة بن ماكسن ابن أخى زاوى ، وكان
من أشجع قادة البربر ، ومعه جماعة قليلة من الفرسان . ونزلوا فى بقعة قريبة من
الأسوار ، فرآهم أهل قرطبة من وراء الخندق ، فاجتمع منهم عدد عظيم ،
وانقضوا على حباسة وصحبه ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً ، ولكنهم غلبوا
فى النهاية على أمرهم ، وأسر حباسة ، فلما عرفه القوم قتلوه بوحشية ، وقطعوا
جسده إرباباً لعظيم حقدهم عليه ، ولما قاسوه من شدة قتاله ونكايته ، فلما وقف
أخوه حبوس وعمه زاوى على الخبر ، اضطرب البربر ، واستعدوا للقتال ،
وفى اليوم التالى اشتبكوا مع أهل قرطبة فى عدة معارك ، وفتكوا بكثير منهم ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧ و ١٠٨ .

واستمرت المعارك من ذلك الحين بين الفريقين سجّالا . وأهل قرطبة يخرجون من المدينة مرة بعد أخرى ، ويقاتلون البربر محاولين تحطيم الحصار المرهق ، والبربر من جانبهم ينزلون بهم أشد الضربات . وفي ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣ م) نشبت بين الفريقين معركة عامة ، وقاتل أهل قرطبة قتالا شديداً ، ولكنهم هزموا بعد معارك طاحنة ، وقتل منهم عدد جم ، وساد الاضطراب أرجاء المدينة ، وفتحت أبوابها ؛ وخرج القاضي ابن ذكوان مع جماعة من الفقهاء وساروا إلى معسكر البربر ، وطلبوا الأمان من سليمان وزعماء القبائل البربرية ، فمنح الأمان لقاء مبالغ عظيمة فرضت على المدينة ، ودخل البربر المدينة دخول الوحوش المفترسة ، فقتلوا كثيراً من سكانها ، ولم يفروا الأطفال والشيوخ ، وأوقعوا بها السلب والنهب ، وأحرقوا الدور ، واغتصبوا النساء والبنات ، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم ، وكانت محنة من أروع ما قاسته عاصمة الخلافة .

وفي اليوم التالي دخل سليمان المستعين قصر قرطبة ، واستدعى هشاماً المؤيد وعنفه على موقفه ، فاعتذر بأنه مغلوب على أمره . وهنا تختلف الرواية في مصير هشام ، فالبعض يقول إن سليمان أخفاه حيناً ، ثم قتله ولده محمد بن سليمان ، والبعض الآخر بأنه فر من محبسه ، وقصد إلى ألمرية حيث عاش حيناً في خمول وبؤس حتى توفي . بيد أننا نرجح الرواية الأولى ، وإن كان اسم هشام سوف يظهر بعد ذلك على مسرح الحوادث .

ولما استتب الأمر لسليمان ، وهدأت الخواطر نوعاً ، تلقب بالظافر بحول الله مضافاً إلى المستعين ، وانتقل إلى مدينة الزهراء بحاشيته وقواد البربر وجندهم ، فاحتلوها وما حولها ؛ ونزل على والقاسم ابنا حمود قائدا فرقة العلوية بشقنادة ضاحية قرطبة ، وأخذ سليمان ينظم شئون الحكومة المضطربة . وكانت الفوضى قد سرت إلى جميع النواحي ، وتفككت عرى الدولة ، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها ، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى العرش ، على السلطة الحقيقية ، فتولوا مناصب الحجابة والوزارة ، وسائر المناصب الهامة ؛ ورأى سليمان إرضاء لهم من جهة ، وإبعاداً لهم عن قرطبة من جهة أخرى . أن

(١) راجع في سقوط قرطبة ومصير هشام ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٥١ ؛ وابن الأثير ، ج ٩ ص ٧٥ ؛ والمراكشي ص ٢٢ - ٢٥ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٣٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١٢ و١١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٨ - ١٢٠ .

يقطعهم كور الأندلس ، وكانوا ست قبائل رئيسية ، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعمائها بنى زبرى ، ولاية إلبيرة (غرناطة) ، وأعطى مغراوة جوفى البلاد ، وبنى برزال وبنى يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها ، وبنى دُمّر وازداجة منطقة شدونة ومورور ؛ وأقر المنذر بن يحيى التجيبي على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان قد انضم إلى سليمان ، وحارب مع البربر من أجل قضيته ، وولى بنى حمود الأدارسة ثغور المغرب ، فولى عليا بن حمود على ثغر سبته ، وأخاه القاسم بن حمود على ثغور الجزيرة الخضراء ، وطنجة وأصيلا ، وهكذا سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى ، وأخذوا يحتلون في شئونها مكانة لها خطرها .

وكان الفتيان العامريون لما رأوا غلبة البربر على حكومة قرطبة الجديدة ، قد توجهوا من غدرهم ، وفر معظمهم إلى شرق الأندلس ، بعيداً عن سلطان الحكومة المركزية ، وأنشأوا هنالك في القواعد الشرقية ، حكومات محلية حسبما نذكر بعد . وقضى سليمان المستعين في الحكم للمرة الثانية نحو ثلاثة أعوام ، استمرت خلالها حال الاضطراب والفوضى في قرطبة وسائر أنحاء الأندلس . ولم تهدأ الحواطر ولم تطمئن النفوس . وغلب سلطان البربر ، واشتد طغيانهم وتحكمهم ، ولبث الأهواء المتوثبة تجيش في صدور الطامعين من زعمائهم ، حتى تمخضت غير بعيد عن انقلاب جديد في مصابير الخلافة .

وكان من أبرز صفات سليمان ، مواهبه الأدبية الرفيعة ، فقد كان أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، قال فيه ابن بسام إنه « أحد من شرف الشعر باسمه ، وتصرف على حكمه » وأورد له القصيدة الآتية ، وهي الوحيدة التي عثر بها من نظمه ، وفيها يعارض قطعة الرشيد « ملك الثلاث الآنسات عناني » وفيها تبدو براعته ورقة خياله :

عجباً يهاب الليث حد سناني	وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فأقارع الأهوال لا متهيباً	منها سوى الإعراض والهجران
وتملكك نفسي ثلاث كالدمي	زهـر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظري	من فوق أغصان على كئيبان
هذي الهلال ، وتلك بنت المشتري	حسناً وهذي أخت غصن البان

حاكمت فيهن السلو إلى الصبا
فأبحن من قلبي الحمى وتركني
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى
ما ضرنى أنى عبدهن صبا
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى
وإذا الكريم أحب أمّن إلهه
وإذا تجارى في الهوى أهل الهوى
فقضى بسطان على سلطاني
في عز ملكي كالأسير العاني
ذل الهوى عز وملك ثاني
وبنو الزمان وهن من عبداني
كلفاً بهن فلست من مروان
خطب القلى وحوادث السلوان
عاش الهوى في غبطة وأمان

الفصل الثاني

دولة بني حمود

ظهور البربر في الميدان . على والقاسم ابناحمود . بنوحمود ونسبتهم . ولاية الثغور بين البربر والفتيان العامرين . استيلاء البربر على قرطبة باسم سليمان . خيران العامري ينتزع المرية ويدعوا للموئيد . على بن حمود يزعم أنه تلقى ولاية العهد من هشام . تحالفه مع خيران وعبره إلى الجزيرة . مسير القوات المتحالفة إلى قرطبة . القتال بينها وبين البربر . هزيمة البربر وسليمان . على بن حمود يدخل القصر . اشتداده في معاملة البربر . خيران يخرج عليه ويدعوا لعبد الرحمن المرتضى . انضمام الثغور الشرقية وسرقطة لهذه الدعوة . القتال بين المرتضى وصنهاجة . انتصار البربر ومقتل المرتضى . اضطهاد على لأهل قرطبة . مصرعه . أخوه القاسم يخلفه . جنوحه إلى سياسة اللين والتفاهم . غلبة البربر عليه . خروج يحيى بن على واستيلاءه على الخلافة . التجاء القاسم إلى إشبيلية . خلع المعتلى وعود القاسم . اصطفاؤه للبربر . سخط أهل قرطبة . محاربتهم وهزيمتهم للبربر . مسير القاسم إلى إشبيلية ثم إلى شريش . يحيى المعتلى يطارده ويأسره . إستقرار المعتلى في الثغور الجنوبية . رد الأمر لبني أمية . خلافة عبد الرحمن المستظهر . وصف ابن حيان لبلاطه . عطفه على البربر . فتك القرطبيين بهم . فرار المستظهر ومصرعه . خلافة المستكفي . اضطهاده للزعماء . خلعه وفراره . يحيى بن حمود يحتل قرطبة . فتك القرطبيين بالحامية البربرية . رد الأمر لبني أمية . بيعه هشام المعتد بالله . وزيره حكيم بن سعيد . سوء مسلكه ومصرعه . خلع هشام ومصيره . الإجماع على إبطال الخلافة والتخلص من بني أمية . استيلاء يحيى المعتلى على قرمونة . الحرب بينه وبين ابن عباد . هزيمة يحيى ومصرعه . خلافة إدريس المتأيد بالله . غزو إدريين وحلفائه لأحواز إشبيلية . الحرب بين زهير العامري وباديس أمير غرناطة . مصرع زهير . الحرب بين ابن عباد والبربر . هزيمة ابن عباد ومقتل ولده اسماعيل . وفاة إدريس وخلافة ولده يحيى . خروج حسن بن يحيى ومبايعته بالخلافة . مقتل الوزير ابن بقرته . مصرع حسن . محاولة الحاجب نجا ومصرعه . خلافة إدريس العالى . الثورة عليه وخلعه . خلافة محمد بن إدريس المهدي . طغيانه والسخط عليه . مصرعه . خلافة إدريس السامى . عودة إدريس العالى . خلافة المستعلى . إستيلاء باديس على مالقة . حكومة بني القاسم بن حمود بالجزيرة . إستيلاء ابن عباد على الجزيرة . إنقراض دولة بني حمود . تفكك الأندلس وانقسامها .

لما قضى على دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى أيام الحكم المستنصر ، ثم بعد ذلك أيام المنصور بن أبي عامر ، وأصبح المغرب ولاية أندلسية تخضع لحكومة قرطبة ، تفرق كثير من زعمائه في مختلف الجهات ، ولاذوا بالاختفاء ، بعيداً عن بطش السلطة الحديدية ، وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم ؛ وهاجر

عدد كبير منهم إلى الأندلس ، من البربر والمغاربة ، وانضبوا تحت لواء الدولة العامرية في أواخر عهدها ، وعاونوا في توطيد سلطانها وتدعيم جيشها .

ولما انهارت الدولة العامرية ، وعم الاضطراب والفوضى في قرطبة ، ظهر البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة ، التي اضطرت حول السلطان والخلافة ؛ ولما نجح بنو أمية في تحقيق ضربتهم الأولى على يد محمد بن هشام المهدي ، انحاز البربر للفريق المعارض لما نالهم من مطاردته واضطهاده ، وكانت الحصومة تضطرم في الواقع منذ بعيد بين الأمويين والبربر ، لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا أكبر عضد للمنصور ، في اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بني أمية . ولما فشل البربر في محاولتهم الأولى للقضاء على رياسة المهدي ، التفوا حول خصيمه سليمان المستعين ، ليكون مرشحهم الشرعي ، ووسيلتهم إلى انتزاع السلطة ، وانتهى الصراع بين الفريقين ، آخر الأمر بانتصار البربر ، واستيلاء مرشحهم سليمان على الخلافة ، وحصولهم على نصيبهم من أسلاب السلطة ، بتولى رياسة الولايات والثغور الجنوبية .

وكان من بين الزعماء المغاربة ، الذين قادوا جموع البربر في معركة قرطبة المظفرة ، رجلان من عقب الأدارسة ، هما علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون ابن حمود . ونحن نعرف أن الأدارسة يرجعون نسبتهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ؛ وإذاً ، فقد كان علي والقاسم ، وفقاً لهذا القول ، علويين من سلالة آل البيت . وهذا ما يقوله العلامة النسابة ابن حزم ، إذ يرجع نسبة علي والقاسم ، إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي^(١) ، ويقول أيضاً عبد الواحد المراكشي وابن عذارى ، وابن الخطيب^(٢) .

بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، وهذه الأرومة العربية العريقة . التي ينتحلها بنو حمود ، فإنهم ، إذا تركنا مسألة النسبة والسلالة جانباً ، كانوا ينتمون في الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير ، إلى البربر ، وكان الطابع البربري غالباً عليهم ، حتى أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية ، وإنما كانوا يتكلمون باللهجة البربرية ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك في حديثه عن علي بن حمود^(٣) .

(١) راجع جهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) المراكشي في العجب ص ٢٤ ؛ وابن عذارى في البيان المغرب ج ٣ ص ١١٩ ؛ وابن

الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٢٨ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٢١ .

وقد رأينا أن سليمان المستعين حينما استرد الخلافة ، عقب انتصار البربر على أهل قرطبة ، خص علياً والقاسم ، بولاية الثغور المغربية ، وندب علياً لحكم سبتة ، وندب القاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، وذلك في أوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) .

وفي الوقت الذي استولى فيه البربر ، على الولايات والثغور الجنوبية ، كان الفتيان العامريون ، منذ اضطرام الفتنة ، قد استقروا بشرق الأندلس ، واستولى كثير منهم على الثغور الشرقية ، وفي مقدمتهم مجاهد الذي استولى على دانية والجزائر الشرقية فيما بعد ، وخيران ، الذي استولى على ألمرية ومرسية . وكان خيران حينما استولى محمد بن هشام المهدي على الخلافة للمرة الثانية ، بموازرة واضح والحند النصارى ، وتولى واضح منصب حجابته ، قد عاد إلى قرطبة مع نفر من الفتيان العامريين ، وانضموا إلى واضح ثم اشتركوا معه في تدبير اغتيال المهدي ، وإعادة هشام المؤيد إلى كرسي الخلافة حسبما تقدم . وكان أولئك الفتيان يعتبرون هشاماً إمام دولتهم بعد ذهاب المنصور . فلما قتل واضح واستولى البربر على قرطبة ، وانتزع سليمان المستعين الخلافة من هشام المؤيد ، غادر خيران ومعه عدة كبيرة من الفتيان قرطبة ، اتقاء بطش البربر ، وسار إلى شرق الأندلس ، وانضم إليه حال سيره كثير من الناقمين من بني أمية وغيرهم ، ثم زحف على ألمرية وكانت بيد أفلح الصقلبي ، فانزعها منه ، واستولى على كثير من الأماكن المجاورة ، واشتد بأسه في تلك الناحية ، ودعا لهشام المؤيد .

وكان تمزق الأندلس على تلك الصورة ، وانتثار السلطة بين الأمويين والبربر ، والفتيان العامريين ، مما يفسح المجال لأطماع الطامعين والمتغلبين ، وكانت تلك الأطماع تجيش في الواقع ، في صدور أولئك الذين رأوا في ضعف السلطة المركزية ، وذيوع الخلاف والفوضى ، فرصة يمكن انتهازها . وكان على ابن حمود الحسني ، قدولى حكم سبتة ، وولى أخوه الأكبر القاسم ، حكم الجزيرة الخضراء ، لا يفصلهما سوى مضيق جبل طارق . وكان على يطمح إلى أكثر من حكم مدينة ، ويتطلع إلى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية . وكان يرى في الفتيان العامريين خصوم سليمان المستعين حلفاءه الطبيعيين ، فكاتب كبيرهم خيران صاحب ألمرية ، وأظهر كتاباً زعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد يوليه

فيه ولاية عهده . ويطلب إليه أن ينقذه من أسر البربر وسليمان ؛ ويقول لنا ابن حيان ، إن هشاماً المؤيد لما رأى اضطراب أمره وتصرم دولته . قد منح عليّ ابن حمود ولاية عهده . وأوصى إليه بالخلافة من بعده ، وأرسل إليه ذلك بسبته سرّاً ، وولاه طلب دمه ، واستكتمه السر حتى يحين الأوان لذلك^(١) . فذاعت دعوة علي . ولباها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل ، عامر بن فتوح الفائقى مولى الحكم المستنصر ووزير ولده المؤيد . وكان يومئذ حاكماً لمالقة . وكتب إليه خيران أن يعبر إليهم . فعبر علي من سبته إلى الجزيرة الخضراء في أواخر سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٦ م) وسار في أشياعه من البربر إلى مالقة ، فسلمها إليه عامر ابن فتوح ، ودعاه له بولاية عهد المؤيد حالة ظهوره حياً . وسار خيران في قواته والتقى بعلي في ثغر المنكب الصغير . ما بين مالقة والمرية ، فجمع الزعيمان قواتهما ونظما خطتهما لئلا يحرف علي قرطبة ، وبويع علي بن حمود على طاعة المؤيد . ثم سارت القوات المتحدة صوب قرطبة . وانضم إليها خلال السير زاوى بن زبرى وجبوس الصنهاجى فى قوة من بربر غرناطة . وكان سليمان المستعين ، قد ترامت إليه أنباء أولئك الخوارج عليه ، وزحفهم لقتاله ، فخرج من قرطبة للقائهم فى جند البربر ، والتقى الفريقان فى ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، انتهت بهزيمة سليمان ، وقتل عدد جهم من أنصاره . وكان سليمان وأبوه الحكم ، وأخوه عبد الرحمن بين الأسرى .

ودخل علي بن حمود قصر قرطبة فى الثامن والعشرين من محرم سنة ٤٠٧ هـ (أول يوليه سنة ١٠١٦م) وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده ، وكان الاعتقاد سائداً بأن سليمان أخفاه ولم يقتله ، فلما علم بأنه قتل أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه انتقاماً للمؤيد . ثم أعلن وفاة المؤيد ، ودعا إلى البيعة لنفسه ، فبويع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله ، وكانت مدة خلافة سليمان الثانية مذ دخل قرطبة إلى أن قتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر^(٢) .

وهكذا ختمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية عصر الخلافة مائتين وثمانية وستين عاماً ، وانهارت دعائم

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٤ و ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١

وج ٤ ص ١٥٣ ؛ والمراكشى ص ٢٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٢٤

الخلافة الأموية نهائياً ، بعد أن لبثت منذ عصر هشام المؤيد أربعين عاماً ، ستاراً للمتغلبين من بنى عامر ، ثم شبحاً هزيباً يضطرب في غمر الفتنة والفوضى .
ولما قبض على بن حمود على زمام الحكم ، اشتد في معاملة البربر ، وإخاد تمردهم وشغبهم ، وحماية السلطة المركزية من عدوانهم ، فهابوه ولزموا السكينة ، وقضى بمنتهى الشدة على كل نزعة إلى الخروج والعصيان ، وفتك بالمعارضين له ، سواء في ذلك العرب أو البربر ، وأذل الزعماء واستأثر بالسلطة . وحاول من جهة أخرى أن يحسن معاملة القرطبيين ، وأن يقيم العدل ، ويقمع الفوضى ، وكان من معاونيه في الحكم ، جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبي الحزم ابن جهور ، وأحمد بن برد وغيرهما .
على أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن خيران العامري ، لما دخل قرطبة مع علي بن حمود ولم يجد الخليفة هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، خشى سطوة الناصر وغدره ، فغادر قرطبة ، معلناً الخلاف ، وسار إلى شرقي الأندلس حيث يحشد معظم الزعماء العامريين وأنصارهم ، وأعاد الدعوة لبنى أمية في شخص مرشح جديد منهم ، هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، باعتباره أصلاح من بقى منهم ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فاستدعاه خيران وبايعه وجمع كبير من أصحابه بالخلافة ، ولقبوه بالمرتضى ، وانضم إليهم في تلك الحركة المنذر بن يحيى التجيبي والى سرقسطة والثغر الأعلى ومعه قوة من المرتزقة النصارى ، وكذلك ولاية شاطبة وبلنسية وطرطوشة وألبونت وغيرها . وأعلن المرتضى الخلاف على الناصر ، وسار في جموعه أولاً إلى غرناطة ليحارب جيش صنهاجة القوي ، فلقه أميرها زاوى بن زيرى في قواته ونشبت بينهما معركة طاحنة استمرت أياماً ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل المرتضى ، وتمزق جموعه ، وسقوط معسكره في أيدي البربر . وفي رواية أخرى أن المرتضى استطاع الفرار ناجياً بحياته ، فبعث خيران في أثره بعض أعوانه فقتلوه على مقربة من وادي آش ، وحملوا رأسه إلى خيران . وكان خيران والمنذر قد حقدوا عليه لما رأيا من حدته وصرامة نفسه ، وخشياً من غدره (١) . وسار خيران والمنذر فيمن بقى من أصحابهما ولحقا بالمرية . وسار الإفرنج المرتزقة حلفاء المنذر إلى الشمال . قال ابن حيان « فحل بهذه الواقعة على جماعة الأندلس

مصيبة أنست ما قبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعد ، وأقروا بالإدبار ، وباؤوا بالصغار ، واستطاع أخ للمرتضى ، وهو أبو بكر هشام بن محمد ، أن ينجو من الموقعة ، في بعض أصحابه إلى البونت ، حيث دعا لنفسه بالخلافة ، وأقام بها يرقب الحوادث (١) .

وتغفل معظم الروايات الإسلامية تاريخ هذه الموقعة ، ولكن الظاهر من سياق الحوادث ، ومما ذكره صاحب البيان المغرب ، أن سير المرتضى من شرفى الأندلس صوب قرطبة ، كان في سنة ٤٠٩ هـ (٢) ، وأن الموقعة حدثت في أواسط هذا العام ، وفي خلافة القاسم بن حمود ، بعد مقتل أخيه على حسبا يحيى .

وكان على بن حمود ، حينما ترامت إليه أنباء خروج المرتضى ومسيره لقتاله ، قد انقلب على أهل قرطبة خشية من غدرهم ، ولما آنسه من ميلهم إلى المرتضى ، وعاد فأطلق يد البربر ، واشتد على أهل قرطبة ، ونزع سلاحهم ، واعتقل كثيراً من أعيانهم ، وفي مقدمتهم وزيره أبو الحزم بن جهور ، وصادر أموالهم ، وهبت على انقراطيين ريح من الإرهاب والروع فلزموا السكينة حيناً (٣) .

ولكن القدر كان يتربص بعلي بن حمود ؛ ذلك أنه بينما كان يتأهب لقتال خصومه ، المحتتمين يومئذ في منطقة جيان حول راية المرتضى ، إذ ائتمر به نفر من فتيان القصر الصقلية من موالى بنى أمية ، وتسلسل ثلاثة منهم إليه وهو في الحمام وقتلوه ، وذلك في الثاني من ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ (٢٣ مارس سنة ١٠١٨ م) ، وكان سنه وقت مقتله خمس وخمسون سنة ، ولم يمكث في الخلافة سوى عام وتسعة أشهر .

فبعث زعماء زناته إلى أخيه القاسم نبأ موته ، وكان يكبره ببضعة أعوام ، وكان يومئذ والياً لإشبيلية ، فحضر مسرعاً ، وبويع بالخلافة في الثامن من ذى القعدة ، أعني لسته أيام من مقتل أخيه ، وتلقب بالمأمون وقبض على الفتیان الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم لوقته . وكان يحيى بن على ، ولد الخليفة القليل والياً على سبتة ، وولده الآخر إدريس والياً على مالقة ، فاختلف البربر في البداية

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ و ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ . وذكر ابن الخطيب وحده أن الموقعة حدثت بالفعل في سنة ٤٠٩ هـ (أعمال الأعلام ص ١٣١) .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ .

على مسألة الخلافة ، ولكن أكثرهم انضم إلى جانب القاسم لأنه غبن أولاً ،
وقدم عليه أخوه الأصغر .

وهكذا استتب الأمر للقاسم ، فعدل عن سياسة الشدة إلى سياسة اللين
والمسالمة ، وأحسن إلى الناس ونادى بالأمان وبراءة الذمة ممن تسور على أحد ،
وأسقط كثيراً من المكوس . فهدأت الخواطر ، واطمأن الناس نوعاً ، وكانت
حركة المرتضى قد وصلت خلال ذلك إلى ذروتها ، ووقعت الحرب بين جموع
المرتضى وحليفه خيران والمنذر بن التجيبي ، وبين قوى صنهاجة على مقربة من
غرناطة ، وانهزم أهل الأندلس وقتل المرتضى ، وبعث زاوى بن زيرى إلى
القاسم بما وقع مع سهمه من الغنائم ، ومنها سرادق المرتضى ، فسر القاسم لذلك ،
وعرض سرادق المرتضى على نهر قرطبة ليراه الناس (١) . وعمد القاسم إلى استمالة
خيران واستعطافه ، ولكنه بقي معتصماً بالمرية ، وأقطع زميله زهيراً العامرى
ولاية جيان وقلعة رباح ، محاولاً بذلك أن يعقد السلم مع الفتيان العامرين ، وأن
يأمن خصومهم وكيدهم .

واتخذ القاسم بطانة من السود ، وأسند إليهم مناصب الرياسة والقيادة ، ولكنه
لم يتخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه ، فضعف أمره وتكاثرت الصعاب
من حوله . وكان ابن أخيه يحيى بن على والى سبتة ، يرقب الفرصة للخروج عليه ،
فاتفق مع أخيه إدريس والى مالقة ، على أن يتركها له ، لتكون قاعدة للعمل ،
وأن يستقر إدريس مكانه فى سبتة . وأخذ يحيى يحشد أنصاره تبعاً فى مالقة حتى
اجتمع له جيش قوى . وفى أثناء ذلك كان عمه القاسم يشكو أمره إلى زعماء البربر ،
ولكنهم عجزوا عن التوفيق بينهما ؛ وزحف يحيى فى قواته على قرطبة ، وخشى
القاسم العاقبة فأثر الانسحاب على الحرب ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية فى ٢٢ ربيع
الثانى سنة ٤١٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٢٢ م) ، وضبط البربر القصر حتى مقدم
أخيه يحيى .

ودخل يحيى بن على بن حمود قرطبة بعد ذلك بأيام قلائل ، فى مستهل جمادى
الأولى سنة ٤١٢ هـ . وبويع بالخلافة ، وتلقب بالمعتلى بالله ، وكان فى الثانية
والأربعين من عمره . واستقبل البربر والأندلسيون معاً رياسته بالاستبشار والرضى ،

(١) أعمال الأعلام ص ١٣١ .

وكان المعتلى فارساً بارعاً يتحلى بخلال الفروسة ، وبجانب العصبية ، ويؤثر العدل ، ويجزل العطاء لمن وفد عليه ، أو مدحه بشعره ، فأحبه الناس ؛ وكان من وزرائه أبو العباس أحمد بن برد ، والكاتب محمد بن الفرضي ، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم ، فاستبدوا به ، وضيقوا عليه .

وكان القاسم بن حمود أثناء ذلك قد استقر في إشبيلية ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالمستعلى ، وأخذ يرقب سير الحوادث . ومن الغريب أن القاسم وابن أخيه يحيى ، تهادنا وانفقا على أن يعترف كلاهما بصفة صاحبه . ويعلق الفيلسوف ابن حزم على ذلك بأنه لم يسمع بخليفتين تصالحا « وهو أمر ، لم يسمع في الدنيا بأشنع منه ، ولا أدل على إدبار الأمور » (١) .

على أن هذا الوضع الشاذ لم يدم طويلاً . ذلك أن البربر أعلنوا خلع يحيى المعتلى في الثاني عشر من ذي القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى عام ونصف ، فبادر يحيى بمغادرة قرطبة إلى مالقة . وفي الحال تحرك عمه القاسم من إشبيلية لتلبية لدعوة البربر ، ودخل قرطبة في الثامن عشر من ذي القعدة المذكور ، وجددت له البيعة وتسمى بأمر المؤمنين .

ولكن القاسم لم يوفق في سياسته أيضاً في تلك المرة . ذلك أنه اصطفى البربر ، ومكثهم من أهل قرطبة ، فاشتدوا في معاملتهم ومطاردتهم ، وضاق أهل قرطبة في النهاية ذرعاً بتلك الحالة ، فناروا بالبربر ، واستعدوا لقتالهم ، وأعلنوا خلع القاسم ، واستمرت المعارك حيناً حتى استطاع القرطبيون إرغام القاسم على مغادرة القصر ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ (سبتمبر سنة ١٠٢٣ م) . فانقلب البربر إلى محاصرة المدينة بعد أن أغلق القرطبيون أبوابها . واستمر الحصار خمسين يوماً ، والمعارك في كل يوم تتجدد ، وأخيراً خرج القرطبيون واشتبكوا مع البربر في معركة كبيرة حاسمة ، وقاتلوا قتال اليائسين ، حتى هزموا البربر ومزقوا جموعهم ، وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم ، فسار القاسم في نفر من صحبه إلى إشبيلية ، وكان بها ابنه محمد والحسن ، فأغلقت المدينة أبوابها دونه ، وأخرج منها ابنه ومن معهم من البربر ، وقام أعيان المدينة ، وعلى رأسهم قاضيها محمد بن اسماعيل بن عباد ، بضبط الأمور فيها ، وسار القاسم وصحبه إلى بلدة شريش (٢) .

(١) راجع نقط العروس ص ٨٠ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٤ ، ١٣٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٣ .

وفي تلك الأثناء كان يحيى المعتلى ، قد سار من مالقة إلى الجزيرة الخضراء ، وكانت بها أموال عمه القاسم وأسرتة فاستولى عليها ، واستولى أخوه إدريس والى سبتة ، على ثغر طنجة ، وكانت أيضاً من أعمال القاسم ، وكان يعدها ملجأً له وملاذاً يحتتمى به إذا ما ذهب سلطانه بقرطبة ؛ ولما انقلب القاسم في فلوله إلى شريش سار يحيى المعتلى لقتاله ، وحاصر شريش حتى سلمت ، وقبض على عمه وبنيه ، وحملهم في الأصفاد إلى مالقة ، وهناك أودعهم السجن ، وانفرد يحيى برياسة البربر ، وبسط سيادته على شريش ومالقة ، وسبتة وطنجة من ثغور المغرب ، وبايعه البربر بالخلافة ، وسموه المعتلى بالله ، وبقي القاسم يرسف في سجنه ردحاً طويلاً من الزمن ، حتى قتل خنقاً في سنة ٤٣١ هـ ، وهو في نحو الثمانين من عمره (١).

وكان أهل قرطبة قد سئموا عندئذ حكم البربر وأشياعهم ، وأجمعوا على رد الأمر إلى بنى أمية . وكان ثمة ثلاثة من المرشحين الذين اعتبروا أصلح من بقى من بنى أمية لتولى الخلافة ، هم سليمان بن المرتضى ، ومحمد بن العراقي ، وعبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ، فقرر القرطبيون أن يختاروا أحدهم بطريق الشورى ، وعقدت لذلك جلسة كبرى بالمسجد الجامع ، حضرها الوزراء والأكابر والخاصة والعامّة . وحضر سليمان المرتضى ومحمد العراقي في البداية ، وكاد الاختيار يقع على أولهما ، وبدئاً بالفعل في تحرير مرسوم البيعة ، لولا أن حضر عندئذ عبد الرحمن بن هشام في ككببة عظيمة ، ومن حوله طائفة كبيرة من الحند شاهرة السلاح ، فدخل المقصورة ، وعقدت له البيعة في الحال ، بين دهشة الحضور واضطرابهم ، وذلك في السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٢٣ م) . ثم خرج من المسجد إلى القصر وقد اصطحب معه ابني عمه سليمان والعراقي ، فاعتقلهما لديه . ويصف لنا ابن حيان هذا الحفل الشهير ، وكان من شهوده ، بإفاضة ممتعة (٢) .

واتخذ عبد الرحمن لقب المستظهر بالله ، وكان يوم جلوسه قتي في الثالثة والعشرين

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ و ١٤٤ ؛ والمراكشي ص ٢٩ .

(٢) راجع الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٣٥ و ٣٦ . ويقول لنا ابن حيان إن الحفل عقد في الرابع من رمضان ، والظاهر أن هناك تحريفاً ، لأنه يقول لنا بعد ذلك عند مقتل المستظهر إن خلافته كانت سبعة وأربعين يوماً ، ومقتله في الثالث من ذى القعدة . وهو ما يرد تاريخ البيعة إلى السادس عشر من رمضان (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥) .

من عمره ، وندب للوزارة بعض القدامى من وزراء بني أمية السابقين مثل أحمد ابن برد ، وجماعة من الفتيان الطامحين الأغمار ، مثل أبي عامر بن شهيد ، وأبي محمد ابن حزم (وهو الفيلسوف المستقبل) ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم ، وقد كانا على قول ابن حيان « من أكمل فتيان الزمان فهماً ومعرفة ، ونفاذاً في العلوم الرفيعة » . فقدمهم على سائر رجاله ، وأولاهم منتهى النفوذ والثقة ؛ ويورد لنا ابن حيان ثبت المناصب الوزارية والرئيسية يومئذ على النحو الآتي :

خدمة المدينتين ، الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناض والطعام ، وخدمة موارد الخزانة الخاصة ، وخدمة الطراز . وخدمة المباني ، وخدمة الأسلحة وما يجري مجراها ، وخدمة الخزانة للقبض والنفقة . وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة الأنزال والنزائل ، وخدمة أحكام السوق .

ثم يعلق ابن حيان على ذلك بقوله : « وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يتحلوا منها بنائل ، ولا قبضوا منها مرتزقاً ، ولا نالوا بها مرتفقاً ، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل معصوب ، وخراب مستول ، ومع سلطان فقير ، لا يقع بيده درهم إلا من صباية ، مستغل جوف المدينة ، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رمقه ، ويفرق جملة على من تكنفه من جنده ودائره ، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته ، فلم يلبث الأمر أن تفرس به فسفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته » (١) .

تلك هي الصورة القوية التي يقدمها إلينا المؤرخ الأندلسي المعاصر عن بلاط المستظهر ، وظروف ولايته . والواقع أن هذا الخليفة الفتي كان يتمتع بخلال باهرة ، وكان ممكناً أن يكون معقد الآمال ، لو أتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طلب ، ولكن الظروف عاجلته وغلبته على أمره ؛ وكان قد بدأ ولايته بأن أرسل إلى المدن والثغور يدعو إلى تأييد بيعته ، فلم تثمر دعوته أو لم يتسع الوقت لذلك ، وقبض على عدد من الوزراء والأكابر وصادر أموالهم ، وكان يرجو بإزالتهم تمكين نفوذه وسلطانه ، ثم قبض على عدد من أبناء عمه المروانية ،

(١) نقله في الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦ و ٣٧ .

واعتقلهم بالقصر مع ابني عمه سليمان والعراقي ، وكانت هذه البوادر المكدرية تقضى على هيئته بسرعة ، وتذكرى السخط عليه في صدور الخاصة والعامه معاً . ثم وقع حادث كان نذير الاضطرام . وذلك أنه استقبل عدة من الفرسان البربر فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر ، فغضب لذلك الكبراء ، وأوغروا صدور العامة قائلين لهم ، إننا حاربنا البربر وقهرناهم ، وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا ، وتمكينهم من أمرنا . فهاجت العامة ، وزحفت جموعهم على القصر ، واقتحموه على غرة ، وقتلوا البربر حيث وجدوا ، وفتحوا المطبق وأخرجوا من كان به من المعتقلين ، ووثبوا إلى جناح الحرم ، وأدرك عبد الرحمن المستظهر أنه هالك ، فاختم في أتون الحمام ، واعتدى الثوار على آل عبد الرحمن وحریمه ، وسبوا أكثرهن ، وكانت مناظر شنيعة مروعة (١) .

ولما اختفى المستظهر بالله ، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبید الله ابن الناصر ، وكان محتفياً خشية البطش به ، فأخذ إلى القصر ، وأجلس في مجلس الملك ، وبويع بالخلافة في اليوم الثالث من ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ (١٧ يناير ١٠٢٤ م) ، وتلقب بالمستكفي بالله . وبحث عن المستظهر حتى عثر به في أتون الحمام في حالة مزرية ، فأخذ إلى حضرة الخليفة الحديد ، وأعدم أمامه ، وكانت إمارته مذولى حتى قتل سبعة وأربعين يوماً ، لم يحدث فيها حدث هام ، ولم يجاوز سلطانه مدينة قرطبة .

وكان عبد الرحمن المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية الرفيعة وأورد له طائفة من القصائد الجيدة (٢) .

وكان المستكفي يوم ولايته في الثانية والخمسين من عمره ، وكان عاطلاً من الخلال الحسنة ، ميالاً إلى البطالة ، شغوفاً بالمجون والشراب ، عاجزاً سيئ الرأي ، وقد شبهه ابن حزم ، في سوء خلاله ، وفي مجونه وفسقه ، وفي خضوعه لغانية خبيثة ، بسميه المستكفي العباسي ، وقد كان كلاهما في نفس السن ، وحكم كل منهما نحو سنة وخمسة أشهر (٣) .

ولم تقع خلال ولاية المستكفي القصير ، أحداث ذات شأن ، وكان مما عمله

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٨ و ٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٣٨ و ١٣٩ .

(٢) راجع الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠ - ٤٣ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١ ، وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

أن أمر بنحنيق ابن عمه محمد العراقي ، ونعاه للناس ، وندب لولاية عهده ابن عمه سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر . وفي أيامه هدمت القصور الناصرية ، وخربت قصور المنصور بالزاهرة ، فسادتها الوحشة والحراب .

واضطهد المستكفي معظم الرجال البارزين من الساسة القدماء ، ومن المفكرين ، وغادر كثيرون منهم قرطبة ، ولجأوا إلى بلاط يحيى بن حمود بمالقة ، وكان من هؤلاء الوزير السابق والشاعر اللامع أبو عامر بن شهيد ؛ ووصف هؤلاء ليحيى ابن حمود سوء الأحوال في قرطبة . ومع أن يحيى لم يكن متحمساً لفكرة السير إلى قرطبة ، فإن الأنبياء ترامت إلى القرطبيين بأنه يتخذ أهباته لاسترداد عاصمة الخلافة ؛ وعلى أي حال فقد سئم القرطبيون ولاية المستكفي العاطلة الماجنة الفاسدة ونادوا بخلعهم . فدخل عليه الوزراء والكبراء ، وأغلظوا له في القول ، وطلبوا إليه التخلي ، فاستعطفهم بدين القول ، ثم غادر قرطبة في نفس اليوم متنكراً في زي امرأة . وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ (مايو سنة ١٠٢٥ م) . وسار المستكفي صوب الثغر في نفر من صحبه ، ووصل إلى إقليج من أحواز قرطبة ، وهناك اغتاله بعض مرافقيه ، لاعتقادهم أنه يحمل مالا . وكان مقتله لسبعة عشر يوماً فقط من خلعهم (١) .

ومضت بضعة أشهر ؛ والحكومة في قرطبة فوضى لا ضابط لها . وأخيراً قرر يحيى بن حمود أن يسير إلى العاصمة ، فقصده إليها في قواته ودخل القصر في الخامس عشر من رمضان من نفس العام (٩ نوفمبر سنة ١٠٢٥ م) ، وبقي بها إلى نهاية هذا العام ، ثم غادرها في أوائل المحرم سنة ٤١٧ هـ قاصداً إلى مالقة ، وترك بها وزيريه أحمد بن موسى ، ودوناس بن أبي روح ، يدبران شئونها ، ومعهما حامية صغيرة من البربر ، بيد أنه لم يمض زهاء شهرين حتى تجهمت الحوادث كره أخرى .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ و ١٤٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن عبد الرحمن المستكفي هو والد الأديبة والشاعرة الأندلسية الكبيرة «ولادة» التي اشتهرت بروعة أدبها وشعرها ، والتي أوحى إلى الوزير الشاعر ابن زيدون المتيم بها طائفة من غرر قصائده . وقد لبثت ولادة عصراً تخلب بجهاها وأدبها وشعرها الباب المجتمع القرطبي الرفيع . وتوفيت في سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) (راجع الصلة لابن بشكوال رقم ١٥٤٠ ؛ وقلائد العقيان ص ٧٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٤٩) .

ذلك أن خيران وزهير الفتيين العامريين ، قصدا إلى قرطبة ، وأوعزا إلى القرطبيين بالتخلص من البربر ، فثار القرطيون فجأة ، وفتكوا بالحامية البربرية ، وكانت زهاء ألف رجل ، وفر أحمد بن موسى وزميله دوناس إلى مالقة ، وكان ذلك في العشرين من ربيع الأول من سنة ٤١٧ هـ .

وأجمع القرطيون على أثر ذلك على رد الأمر لبني أمية ، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ، واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أخى عبد الرحمن المرتضى . وكان عند مقتل أخيه في سنة ٤٠٩ هـ ، قد فر من قرطبة في نفر من صحبه ، ولجأ إلى مدينة ألبونت في شمال شرقي الأندلس ، واستظل من ذلك الحين بحماية واليها عبد الله بن قاسم الفهرى . وبعث إليه أهل قرطبة بالبيعة ، وهو بمقره بمحصن ألبونت ، فتلقاها في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وتلقب بالمعتد بالله ، وبقي بمقره بألبونت مدة سنتين وسبعة أشهر ، وهو يخطب له بقرطبة ، ثم قدم إليها في شهر ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ فجددت له البيعة ، واستمر في كرسي الخلافة عامين آخرين . وسر القرطيون لمقدمه في البداية ، ولكنه ألقى زمام الأمور إلى رجل من الموالي يسمى حكيم بن سعيد القزاز . فاستأثر بكل ساطة ، وأطلقت يده في الأموال ، وكان أخرق عسوفاً ، فجمع حوله نفراً من السفهاء العاطلين عن كل إخلاص وحزم ، وأطلق العنان لغوايته وأهوائه . فاضطربت الشئون وامتعض العقلاء ، وزعماء البيوتات الكبيرة ، وشعروا بما نالهم على يده من ضروب الإهانة والنيل ؛ وأحاط هذا الوزير المستبد الماجن الخليفة برجاله ، وأبعد عنه الصحب وذوى الحجى ، ودفعه بالرغم من شيخوخته ، إلى تيار الشراب والمجون ، حتى ساءت الأمور إلى الذرورة ، وفقدت الخلافة والحكومة ، كل عطف وهيبة ، وتهامس الناس في وجوب إزالة هذه الحالة ، والتخلص من أوزارها وعواقبها . والتفت جماعة الناقلين حول فتى من أبناء عمومة هشام ، هو أمية بن عبد الرحمن العراقي ، من أحفاد الناصر ، وكان فتى شديد التهور والجهالة ولكن بعيد الأطماع ؛ وفي ذات يوم تربصت تلك الجماعة الناقمة بالوزير حكيم بن سعيد وفتكت به ، وطافت برأسه في المدينة ، وتركوا جثته في العراء (ذو القعدة سنة ٤٢٢ هـ - نوفمبر سنة ١٠٣١ م) . ثم سار أمية في جموعه إلى القصر ، والخليفة هشام عاكف

على شرابه ونسائه ، فنهبت العامة بعض أجنحة القصر ، ولولا أن زجرهم الوزير الشيخ ابن جهور ونصحهم بالكف عنه ، لما أبقوا على شيء . وخشى هشام المعتد على نفسه ، فبادر إلى الخروج من القصر مع ولده ونسائه ، وهو يناشد الجماعة أن يحقنوا دمه ، ولجأ إلى ساباط الجامع . واجتمع رأى الناس جميعاً كباراً وصغاراً على خلعه ، والتخلص جملة من بني أمية ، وإبطال رسم الخلافة ، وعلى نفي بني أمية وإجلالهم جميعاً عن المدينة ، وكان رائد الجماعة وناصحهم في ذلك أبو الحزم ابن جهور ، وكان هذا الوزير النابه يستأثر نظراً لماضيه التالد وأسرته العريقة ، ورأيه الناضج ، بمحبة الشعب وثقته وتأيينه ، وسرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه ابن جهور في مصاير قرطبة .

وانتهى القوم إلى خلع هشام المعتد ، وإبعاده وأهله إلى أحد الحصون القريبة ، ثم غادره بعد أيام قلائل ، وسار إلى الثغر ، حيث التجأ إلى سليمان بن هود صاحب لاردة من أعمال الثغر الأعلى ، وقضى هنالك بقية أيامه حتى توفي في سنة ٤٢٨ هـ دون عقب ؛ وأبعد أمية بن عبد الرحمن عن القصر ، وكان يهجس بتولى كرسي الخلافة مكان المعتد ، فلما رأى وعيد القوم ، اختفى وغادر قرطبة إلى حيث لا يعلم أحد . ونودي في سائر أحياء قرطبة وأرباضها بأن لا يبقى بها أحد من بني أمية ، ولا يأويهم أحد ، وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الأمر بمنتهى الحزم ، حتى أجلاهم عن المدينة ومحا رسومهم (١) .

وبخلع هشام المعتد ، تنتهى رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية ، وينقطع ذكرها إلى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى .

* * *

ولنعد الآن قليلاً إلى الوراء لنتبع مصاير دولة بني حمود في جنوبي الأندلس . وقد رأينا أن يحيى بن علي بن حمود الملقب بيحيى المعتلى ، بعد أن خلع عمه القاسم من الخلافة ، وأرغم على مغادرة قرطبة في سنة ٤١٤ هـ ، سار إلى بلدة شريش ، فسار يحيى في أثره ، وما زال به حتى هزمه وقبض عليه ، ثم قتل في سجنه فيما بعد ، واستولى يحيى على سائر ما كان بيده من البلاد والثغور ، وانفرد برياسة البربر في الأندلس . ثم عاد فدخل قرطبة مرة أخرى على أثر خلع المستكفي في سنة ٤١٦ هـ ،

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٥ - ١٥٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٨ - ١٤٠ .

ولكنه غادرها بعد ذلك إلى مالقة ، التي غدت من ذلك الحين معقله وعاصمة ملكه ، في أوائل سنة ٤١٧ هـ ، واستمر بها مدى حين .

وكان يحيى المعتلى يخشى بالأخص على مملكته الفتية ، من مطامع القاضى محمد بن اسماعيل بن عباد ، الذى استقل برياسة إشبيلية ، حسبما تقدم . فسار بقواته إلى قرمونة حصن إشبيلية من الشمال الشرقى ، وانتزعاها من يد حاكمها محمد ابن عبد الله البرزالي كبير بنى برزال ، واستقر بها يرقب الفرصة للوثوب بابن عباد وتحطيمه ، فسار البرزالي إلى ابن عباد وتحالف معه على قتال يحيى . وكان يحيى قد استسلم إلى لهوه وملاذه ، وعكف على معاقرة الشراب والمجون المستمر ، وجنوده تغير على إشبيلية من آن لآخر . ورأى القاضى ابن عباد أن يدحض دعوة المعتلى فى الخلافة أولاً ، فأظهر فى أواخر سنة ٤٢٦ هـ شخصاً زعم أنه هشام المؤيد . وأنه كان مختفياً ولم يمت ، وبايعه بالخلافة ، ودعا الناس إلى الدخول فى طاعته . ثم سير ابن عباد إلى قرمونة بعض قواته مع ابنه إسماعيل ، ومعها طائفة من قوات البربر المتحالفة معه ، فطوقت المدينة ليلاً ، وكن معظمها فى أماكن مستورة ، ووقف يحيى على الخبر فخرج فى قواته وهو ثمل ، واشتبك مع الهاجمين فى معركة حامية وكاد يوقع بهم الهزيمة ، لولا أن ظهرت قوات ابن عباد من كمينها ، وأطبقت عليه ، فانهزم أصحابه ، وقتل فى المعركة واحترز رأسه ، وحمل سريعاً إلى ابن عباد فى إشبيلية (المحرم سنة ٤٢٧ هـ - نوفمبر سنة ١٠٣٥ م) ، واستمر فتك جنود ابن عباد بالبربر أمام أسوار قرمونة ، ولم يقف إلا حينما تدخل محمد بن عبد الله البرزالي ، وقد ساءه هذا الفتك الذريع بقومه ، فكف ابن عباد مرغماً ، ودخل البرزالي قرمونة ، واستولى على ما فيها من مال ومتاع ، وسبى نساء يحيى وجواريه (١) .

ولما قتل المعتلى على هذا النحو ، سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلي ، وأبو جعفر أحمد بن موسى بن بقرنة البربرى ، باستدعاء أخيه إدريس لتولى الملك مكانه ، وكان والياً لسبته . وكان ليحيى ولدان حدثان هما إدريس وحسن ؛ وفى رواية أنه كان قد أوصى بولاية عهده لولده حسن ، ولكن حداثة سنه حالت دون ولايته . وهكذا بويج إدريس بالخلافة فى مالقة ، قاعدة المملكة الحمودية

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٨ و ١٨٩ ، ١٩٠ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٧ .

وتلقب بالمتأيد بالله ، وعين ابن أخيه حسناً لحكم سبته وأعمالها ، وندب لمعاونته الحاجب نجا ، واعترفت بولايته رندة والحزيرة ، وكان من حلفائه المعترفين ببيعته الفتى زهير العامري صاحب ألمرية ، وحبوس بن ماكسن زعيم صنهاجة وصاحب غرناطة ؛ وقد سارا في قواتهما لمعاونة إدريس على محاربة ابن عباد ، وانضم إليهما البرزالي صاحب قرمونة . وفي شهر ذى القعدة سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) سارت القوات المتحالفة إلى أحواز إشبيلية وعاثت فيها ، واحتلوا قرية طشانة ، ثم احتلوا « القلعة » ، الواقعة شرقي إشبيلية ، وأحرقوا طريانة الواقعة في جنوبها ، ثم احتلوا حصن القصر ، وانصرف زهير بعد ذلك إلى ألمرية .

وفي العام التالي توفي حبوس ، وخلفه في حكم غرناطة ولده باديس ، وبعث باديس وأخوه بُلُتْقِين إلى زهير يطلبان تجديد التحالف الذي كان بينه وبين أبيهما ، ولكن زهيراً سار في قواته إلى غرناطة ، والتقى بباديس وأخيه في قرية من أحواز غرناطة تسمى « ألفنت »^(١) . والظاهر أنه وقع بين الفريقين نوع من سوء التفاهم ، واعتبر باديس أن زهيراً توغل في أرضه بقواته أكثر مما يجب ؛ أو أن باديس وأخاه بلقين ، قد وضعوا خطة للغدر بزهير . وعلى أي حال فقد عمل باديس على قطع طريق الرجعة على زهير ، ووضع له الكماثن في المضائق . ووقع القتال بين زهير والبربر ، فهزم زهير وقتل ، ولم يعثر على جثته ، واحتوى باديس على معسكره ، واستولى على غنائم هائلة من الخيل والسلاح والمتاع ، وقبض باديس على كاتب زهير أحمد بن عباس ثم قتله بعد ذلك . وحدثت هذه الواقعة في أواخر سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م)^(٢) .

وكان القاضي ابن عباد ، المتغلب على إشبيلية ، بعد قتل منافسه يحيى المعتلى قد خلا له الجو ، واشتد بأسه ، وأخذ يطمح إلى التغلب على ما يجاور إشبيلية من المدن والمقاطعات . فبدأ بأن سير ولده إسماعيل في جيش زحف على قرمونة حصن إشبيلية ، من الشمال الشرقي ، وكان بها محمد بن عبد الله البرزالي ، فاستولى عليها ، واستولى كذلك على إستجة الواقعة في شرقها . فاستعاث البرزالي بإدريس المتأيد ، وباديس أمير غرناطة ، وهرعت الجند البربر من مالقة وغرناطة

(١) وهي بالإسبانية Daifontes ، وهي تقع على قيد نحو خمسة كيلومترات من شمال غرناطة .

(٢) راجع في تفصيل تلك الحوادث : البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩١ و ٢٩٣ ،

والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٢٦٩ و ٥٢٧ و ٥٢٨ .

استجابة لدعوته . ونشبت بين البربر وبين جند ابن عباد الأندلسيين وقائع عديدة ، انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل اسماعيل بن عباد ، وذلك في أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) (١) .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى توفي إدريس المتأيد في قلعة ببشتر ، وكان قد نقل إليها مريضاً من مالقة . وكانت وفاته في السادس عشر من محرم سنة ٤٣١ هـ .

وعلى أثر وفاته بويج ولده يحيى بالخلافة في مالقة ، وذلك بترتيب وزيره أبي جعفر ابن بقنة وسعيه . وتلقب يحيى بالقاسم بأمر الله ، وكان فتى حداثاً قليل الخبرة والحزم ، ولكن ابن بقنة سارع برفعه إلى العرش استبقاء لسלטانه الذي تأثرت في ظل أبيه . بيد أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن نجا الحاجب الصقلبي ، وكان يومئذ بسبته ، لم يرقه هذا الاختيار ، فبادر بالدعوة إلى حسن بن يحيى المعتلى (ابن أخي إدريس) . وكان إدريس قد اختاره لولاية عهده ، وكان وقت وفاة عمه حاكماً لسبته والثغور المغربية ، فبويج حسن بالخلافة ، وجهز الحاجب جيشاً ، وسار بقواته مع حسن في أسطول بم شطر مالقة ، ونزلت القوات إلى البر ، وحاصرت مالقة من البر والبحر ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى اضطر يحيى إلى التسليم والتنازل عن الخلافة ، ثم سار إلى قمارش ، وأقام بها .

وبويج حسن بن يحيى بالخلافة في مالقة في جمادى الثانية سنة ٤٣١ هـ ، وتلقب بالمستنصر بالله ، واعترفت بطاعته غرناطة وغيرها ، وعهد بتدبير الأمور إلى الوزير أبي جعفر بن بقنة ، وعهد إلى الحاجب نجا بحكم الثغور المغربية . وكان حسن أميراً حازماً ، قوى النفس ، فنظم الإدارة ، واستكثر من الجند ، وجبى الأموال . واستراب بوزيره أبي جعفر ، وكان يسر له نصرته ليحيى ، فدبر مقتله ، وذلك في يوم عيد الفطر سنة ٤٣٣ هـ (٢) ، ثم أمر بقتل يحيى القاسم ، فقتل في ربيع الثاني سنة ٤٣٤ هـ . وكانت أخته زوجة للمستنصر ، فما لبثت أن دبرت مقتله انتقاماً لأخيها ، وهلك حسن بالسم في جمادى الأولى سنة ٤٣٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٤٢ م) :

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٠ ؛ والمراكشي ص ٣٦ .

والروايات بعد ذلك متضاربة ، فمنها ما يقول بأن الحسن لم يعقب ذرية (١) ومنها ما يقول إنه ترك ولداً صغيراً بسبته . وعلى أى فقد نهض الحاجب نجا على أثر وفاة المستنصر ، وعبر البحر في قواته من سبته إلى الجزيرة ؛ وهنا يقال إنه نهض ليؤيد دعوة ولد الخليفة المتوفى ، ويقال من جهة أخرى إنه نهض ليستخلص تراث الحموديين لنفسه ، بعد أن اضطرت شئونهم . وسار نجا إلى الجزيرة وفيها ابنا القاسم بن حمود ، فخرجت إليه أمهما سيعة ، وعنفته على مسلكه وعدم ولائه لسادته ، فاستحى منها ، وغادر الجزيرة ميمماً شطر مالقة . وكان معظم جنده من قبيلة برغواطة البربرية ، أخوال حسن بن يحيى ، فاستراوا منه ومن مقاصده وائتمروا به ، وقتلوه في الطريق . ثم ساروا إلى مالقة ، وكان حسن بن يحيى أيام خلافته قد قبض على أخيه إدريس . وزجه إلى السجن ليأمن منافسته . فأخرجه الحند من سجنه وبويع بالخلافة . وتلقب بالعالى ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٥٤٣٤هـ (يناير سنة ١٠٤٣ م) ، وأطاعته البربر في غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها . وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة ، التي نظمها عبد الرحمن بن مقاننا القبداقى الأشبونى فى مدحه ومطلعها :

البرق لائح من أندرين	ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيفه عارية	كمخاريق بأيدي اللاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين	وبقلبي زفرات وأنين
وأناجى فى الدجى عادلتى	ويك لا أسمع قول العاذلين (٢)

ومنها :

عيرتنى بسقام وضنى	إن هذين لدين العاشقين
قد بدالى وضح الصبح المبين	فاسقنيها قبل تكبير الأذنين
أسقنيها مرة مشمولة	لبثت فى دنها بضع سنين
مع فتیان كرام نجب	يتهادون رياحين المحجون (٢)

وكان العالى أميراً رقيق الخلال ، جواداً كثير الصلات ، أديباً ينظم الشعر ، ومع ذلك فقد كان يجمع حوله بطانة سيئة ، وصحابة من أراذل القوم . وكان ضعيف

(١) المراكشى ص ٣٧ .

(٢) راجع هذه القصيدة بأكملها فى نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

الرأى ، متهاوناً فى شئون الحكم ، فسرى التفكك إلى سلطانه ، وفى أواخر سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن على بن حمود ، فخرج إدريس فى صحبه من مالقة إلى حصن ببشتر ، وعاونه باديس بن حبوس أمير غرناطة بجنده ليسترد سلطانه ، فغزا مالقة ولكنه لم يفز بطائل ، فارتد مع أهله وصحبه إلى سبتة .

وبويع محمد بن إدريس فى شعبان سنة ٤٣٨ هـ . وتلقب بالمهدى ، وتوطد أمره بمالقة ؛ ولكن بعض النواحي نكلت عن تأييده ، ولا سيما غرناطة ؛ وكان أميرها باديس من أشد معارضيه ، وكان يشعر أنه أحق من غيره بزعامة البربر ؛ وأبدى المهدي عزماً فى تنظيم الحكومة وإصلاح الأمور ، ولكنه كان طاغية سفاكاً للدماء يسرف فى قتل مواطنيه البربر ، حتى كرهه معظمهم ، واجتمع رأى معارضيه من الزعماء وعلى رأسهم باديس على وجوب خلعه ، والاعتراف بطاعة محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء ، وانفق رأى البعض الآخر ومنهم أبو نور بن أبى قررة اليفرنى صاحب رندة ، على الاعتراف بطاعة إدريس بن يحيى العالى . وهكذا ادعى الخلافة ثلاثة من أمراء بنى حمود فى وقت واحد ، وفى مناطق صغيرة متقاربة ، وهذا إلى الخليفة المزعوم الذى أقامه ابن عباد صاحب إشبيلية باسم هشام المؤيد ؛ ويستعرض الفيلسوف ابن حزم هذه الحالة وهو معاصر لها فى مرارة وتمهكم ، ويصفها بأنها « فضيحة لم يقع فى العالم إلى يومنا مثلها : أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم يتسمى بأمر المؤمنين ، ويخطب لهم فى زمن واحد » (١) .

واستمر محمد بن إدريس المهدي فى كرسى الخلافة زهاء ستة أعوام . ولما لم ير خصومه وسيلة للتغلب عليه ، لحأوا إلى الغيلة ، فسدوا عليه من قتله بالسهم ، وذلك فى أواخر سنة ٤٤٤ هـ (أوائل سنة ١٠٥٣ م) .

فبويع من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن على بن حمود ، وتلقب بالسامى ، وأقام حيناً بمالقة ، ثم أصابته فيما يظهر لوثة ، فغادر مالقة ، وهام على وجهه فى صفة تاجر ، وغادر البحر إلى شاطئ العدو ، فأخذ إلى

(١) ابن حزم فى رسالته « نطق العروس » ص ٨٣ . وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٧

و ٢٤٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤١ .

سبته ، حيث قتله حاكمها سواجات البرغواطي (١) .

وكان إدريس بن يحيى العالى ، قد لجأ على أثر خلععه إلى سبته ، فأقام بها فى كنف سواجات ، وأقام كذلك حيناً فى رندة ، فى كنف حاكمها أبى نور بن أبى قررة ، فلما هلك السامى ، سار إلى مالقة واستقبله أهلها بحماسة ، ودعى له بالخلافة مرة أخرى ، واستمر فى الحكم حتى توفى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) بعد أن عهد بالخلافة لابنه محمد .

فخلفه ولده محمد ، وتلقب بالمستعلى ، وأقرت بيعته ألمرية ورندة ، ولكن معظم الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة نكلوا عن طاعته . وفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، سار باديس فى قواته إلى مالقة ، واستولى عليها وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلى ، وسار إلى ألمرية ، ثم عبر منها البحر إلى مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم . واستمر بها حتى توفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) والمستعلى هو آخر من حكم فى مالقة من أمراء بنى حمود .

وفى أثناء ذلك كان رأى الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة وإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالى صاحب قرمونة ، ومحمد بن نوح صاحب مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، قد اجتمع على البيعة لبنى محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء . وكان يحيى المعتلى حينما خلع عمه القاسم بن حمود ، قد قبض على ولديه محمد وحسن ، واعتقلهما بالجزيرة ، فلما توفى يحيى ، أفرج عنهما . وتولى محمد حكم الجزيرة ، وذلك فى الوقت الذى قامت فيه دولة المهدي فى مالقة . ثم حاول محمد أن ينتزع الخلافة لنفسه ، فسار فى أنصاره إلى مالقة محاول انتزاعها من يد المهدي ، ولكنه أخفق فى محاولته ، فارتد إلى الجزيرة ، وتوفى بها فى سنة ٤٤٠ هـ .

فخلفه ولده محمد وحكم الجزيرة فترة قصيرة ؛ ثم خلفه ولده القاسم ، وتلقب بالواثق ، وكانت خلافته هزيلة ضيقة الرقعة والموارد ، ولم يتح لها من البقاء سوى فترة يسيرة . ذلك أن ابن عباد صاحب إشبيلية اعزم أن يقضى على خلافة الحموديين بصفة نهائية ، فبعث قواته إلى الجزيرة الخضراء فطوقها من البر والبحر واضطر القاسم سراعاً إلى التسليم ، وغادر الجزيرة بالأمان مع أهله وصحبه

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٨ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤٢ .

(٤٤٦ هـ - ١٠٥٥ م) وسار إلى المرية حيث التجأ إلى حماية صاحبها المعتصم بن صمادح ، ولبت بها حتى توفي سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) .

وفي نفس الوقت كان باديس أمير غرناطة قد استولى على مالقة من يد المستعلي (٤٤٩ هـ) ، وانهار بها سلطان الحموديين . وهكذا انقرضت دولة بني حمود من مالقة والجزيرة معاً ، وانتهى بذلك سلطانهم بالأندلس بعد أن حكموا المثلث الإسباني الجنوبي ، وثور العدو الشمالية ، زهاء نصف قرن^(١) .

* * *

وهكذا انحدرت إسبانيا المسلمة ، في النصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عقب انهيار دعائم الخلافة الأموية والدولة العامرية ، إلى معترك مروع من التمزق والفوضى ، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة ، تمتد من ضفاف دويرة شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً ، ومن شاطئ البحر الأبيض منذ طركونة شرقاً حتى شاطئ المحيط الأطلنطي غرباً ، إلى أشلاء ممزقة ، ورقاع متناثرة ، وولايات ومدن متباعدة متخاصمة ، يسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيار ، أو تغلب من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوى السلطان السابق ، أو زعيم أسرة محلي من ذوى الجاه والعصبية . وسيطر البربر من جانبهم على أراضي المثلث الإسباني الجنوبي ، وما كان منه بيد الدولة الحمودية ، وأنشأوا هنالك إمارات عدة ، ما لبثت أن نزلت لى ميدان الصراع العام ، الذى شمل هذه المنطقة . وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هي دول « الطوائف » ، وذلك منذ أوائل الربيع الأول من القرن الخامس ، حتى الفتح المرابطى ، زهاء سبعين عاماً ، قضتها جميعاً فى سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة ، والحصومات والحروب الأهلية الانتحارية ، وكادت بتنازها وتفرقها ومنافساتها ، تمهد لسقوط الأندلس النهائى . وقد كان من رحمة القدر ، أن إسبانيا النصرانية ، كانت فى نفس الوقت الذى انتشرت فيه وحدة الأندلس على هذا النحو

(١) راجع فى تفاصيل الحوادث المتقدمة ، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٨ و ٢٩١ و ٢٩٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ١٥٥ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ و ٩٧ ؛ والمراكشى ص ٣٧ - ٣٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٤٢ و ١٤٣ . وراجع بحثاً بالإسبانية للأستاذ المستشرق الفرناطى سيكودى نوثينا عن دولة بني حمود عنوانه : **Los Hammudies, Senores de Málaga y Algeciras, p. 47-53**

الخطر . تعانى من انقسام الكامة ، وتعصف بها ريح الخلاف والتفرق ، فلم تتح لها فرصة للوثوب بالأندلس الممزقة ، إلى أن كان الوقت الذى بلغ فيه تناهى الطوائف ذروته ، واشتد ساعد اسبانيا النصرانية كرة أخرى ، واستطاعت أن تضرب ضربتها القوية بانزاع طليطلة ، أول قاعدة إسلامية كبيرة (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) : وعندئذ تطورت الحوادث بسرعة واتجهت الأندلس الجريح . فى توجسها وانزعاجها ، إلى إخوانها المسلمين فيما وراء البحر : بعدوة المغرب ، تستدعيهم لنصرتها . وكان أن تدفقت الجيوش المرابطية من المغرب على شبه الجزيرة الإسبانية . وكان أن أنقذت دولة الإسلام فى الأندلس .

ثبت المراجع

- ١ - مراجع أندلسية وإسلامية عامة
- تاريخ ابن خلدون المسمى « كتاب العبر » (بولاق) .
- تاريخ الكامل لابن الأثير (الطبعة الأهلية ١٣٠٣ هـ) .
- تاريخ الطبرى المسمى « تاريخ الأمم والملوك » (الطبعة الأهلية) .
- تاريخ أبي الفدا المسمى « المختصر فى أخبار البشر » (الطبعة الأهلية) .
- فتوح البلدان للبلاذرى (القاهرة ١٩٣٢) .
- مروج الذهب للمسعودى (بولاق) .
- نهاية الأرب للنويرى (القسم التاريخى وهو لا يزال مخطوطاً) .
- وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .
- كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .
- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقرئى (الطبعة الأهلية ١٣٢٤ هـ) .
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغزى بردى (طبعة دار الكتب) .
- فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم المصرى (طبع لجنة ذكرى جب) .
- يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر للثعالبي (القاهرة ١٩٤٧) .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .
- أخبار مجموعة فى فتح الأندلس لمؤلف مجهول (مدريد ١٨٦٧) .
- تاريخ افتتاح الأندلس لأبى بكر بن القوطية (مدريد ١٨٦٨) .
- البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى (الجزء الأول الخاص بإفريقية والثانى الخاص بالأندلس المنشوران بعناية العلامة دوزى (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليثى بروفنسال .
- بغية الملتبس فى تاريخ رجال الأندلس (لابن عميرة الضبى) .
- كتاب الصلة لابن بشكوال (ضمن المكتبة الأندلسية ، والقاهرة سنة ١٩٥٥) .
- قضاة قرطبة لأبى عبد الله الحشنى المنشور بعناية الأستاذ روبرا (مدريد ١٩١٤) .
- المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس لابن حيان ، السفر الثالث المنشور بعناية الأب ملسور أنتونيا (باريس ١٩٣٧) .

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (المجلدات الثلاثة المطبوعة بعناية جامعة القاهرة) .
- الحلة السراء لابن الأبار القضاعي (القسم المطبوع بعناية العلامة دوزي) .
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (القاهرة ١٣٣٢هـ) .
- جنوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) .
- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (طبع القاهرة ١٩٢٨ ، وكذلك طبعة لجنة التأليف والترجمة) .
- المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية البلنسي (المطبوع بعناية وزارة التربية المصرية) .
- أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .
- الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .
- الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي (القاهرة) .
- نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (الرباط ١٩٣٤) .
- جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) .
- رسالة نقط العروس لابن حزم (المنشورة بمجلة كلية الآداب بالقاهرة في عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) .
- طوق الحمامة لابن حزم (دمشق ١٣٤٩ هـ) .
- معجم البلدان لياقوت الحموي (القاهرة ١٣٢٣ - ١٣٢٥ هـ) .
- الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري (القاهرة ١٩٤٨) .
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي (طبع رومة ١٥٩٢) .
- وصف الأندلس للإدريسي (المطبوع بعناية المستشرق سافدرا) المسالك والممالك لابن حوقل (المكتبة الجغرافية) .

مصادر مخطوطة

- تاريخ ابن حيان : « المقتبس في تاريخ أهل الأندلس » ، مجموعة أوراق مخطوطة من « السفر الأول » تشمل حوادث سنة ١٨٠ - ٢٣١هـ ، عشرها المرحوم الأستاذ ايمى بروقدسال ، ونقلت منها وقد ضاعت الآن .
- تاريخ ابن حيان : « السفر الثاني » من المقتبس وهو يشمل حوادث سني

٢٣٣ - ٢٦٧ هـ قطعة مخطوطة محفوظة بمكتبة جامع القرويين بفاس .
قطعة ثالثة مخطوطة من تاريخ ابن حيان محفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ
بمدريد تتعلق بحوادث سنة ٣٦١ - ٣٦٥ هـ
إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ١٧٣١
الغزيرى) .
كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلى عبد الرحمن الهذيل (مخطوط
محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٥٢ الغزيرى) .
شذور مخطوطة لابن حزم نشرها الأستاذ ميغل آسين بلاثيوس فى مجلة
الأندلس (سنة ١٩٣٤) .

٢ - المراجع الأوربية

- رجعنا فيما يتعلق بالروايات الإسبانية اللاتينية إلى موسوعة الأب Enrique Florez الكنسية الكبرى وهى :
- España Sagrada (Madrid 1747—1886, 51 Tomos)
وقد تضمنت الروايات التاريخية الآتية :
- | | |
|--|--------------------------------------|
| Isidorus Pacensis Crónicon | رواية إيزيدور الباجى |
| Chronicon Compostellanum | رواية كومبستيللا (شنت ياقب) |
| Annales Toledanes | الأخبار الطليطلية |
| Chronicon Lusitanum | الرواية اللوسيتانية (البرتغالية) |
| Chronicon Adefonsi | الرواية الأدفونشية |
| Rodericus Toletanus : Historia Arabum. | رواية ردرىك الطليطلى (تاريخ العرب) |
| Lucas Tudensis : Chronicon Mundi. | رواية لوقا التطيل (تاريخ العرب) |
| Crónica general de España. | تاريخ اسبانيا العام لألفونسو العالم |
| Padre Mariana : Historia general de España (Madrid 1855). | |
| Conde : Historia de la Dominación de los Arabes en España. | |
| F. J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1897). | |
| Modesto Lafuente : Historia General de España (Barcelona 1889). | |
| Julian Ribera : Disertaciones y Opúsculos (Madrid 1928). | |
| R. Altamira : Historia de España y de la Civilización Española (Barcelona 1900). | |

- R.M. Pidal : La España del Cid (Madrid 1947).
„ „ „ : La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Madrid 1959.)
„ „ „ : Origenes del Espanol.
„ „ „ : Historia y Epopya.
Una Crónica anonima de Abd Al-Rahman Al-Nasir (Madrid-Granada 1950).
F. Codera : Embajadas de Principes cristianos en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.H. XIII, 1886.)
F. Codera : Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.H., VIX, 1887).
A.G. Palencia : Historia de la España Musulmana.
L. S. de Lucena : Los Hammudies Senores de Málaga y Algeciras. (Málaga 1955).
Cardonne : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domination des Arabes.
Camille Julian : Histoire de la Gaule.
Dom Vissette : Histoire de Languedoc.
Reinaud : Histoire des Invasions des Sarrazins en France,
Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête des Almoravides (Ed. Lévy-Provençal 1932).
Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge. (3e Ed.)
Zeller : Histoire de l'Allemagne.
Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.
Schlegel : Philosophie der Geschichte.
Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire.
Lane-Poole : The Moors in Spain.
Scott : Moorish Empire in Europe.
H. Ch. Lea : History of the Inquisition of Spain.
Creasy : Decisive Battles of the World.
Finlay : Byzantine Empire.
Hodgkin : Charles the Great.
Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis.
Encyclopédie de l'Islam.
Bayle : Dictionnaire Historique et Critique.
Bouquet : Recueil des Historiens de la Gaule et de la France.

فهرست الشعر والشعراء

صفحة	
	نصر بن سيار
١٤٢	أرى تحت الرماد وميض نار عبد الرحمن بن أمية (الداخل)
١٩٩	سعدى وحزمى والمهند والتقنا
١٩٩	شتان من قام ذا امتعاض
١٩٩	أيها الركب الميمم أرضى
٢٠٠	تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
	عباس بن ناصح الحزيرى
٢٣٩	نكد الزمان فأمنت أيامه
	الحكم بن هشام
٢٤٣	رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً
٢٤٧	غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن
٢٤٧	قضب من البان ماست فوق كئبان
	غريب بن عبد الله
٢٤٤	يا أهل قرطبة الذين تواكلوا
	مؤمن بن سعيد
٢٤٩	يطم على العنقاء فى طيرانها يحى الغزال الحيانى
٢٤٩	لست تلقى الفقيه إلا غنيا
٢٥٠	ياليت شعرى أى شىء محصل
٢٥٠	كأن الملوك الغلب عندك خضعاً
٢٨٠	وأغيد لئن الأطراف رخص
٢٨١	يانود يارود الشباب التى
	عبد الرحمن بن الحكم

صفحة

٢٧٥

إذا ما بدت لى شمس النهار

٢٧٧

ولقد تعارض أوجه لأوامر

٢٧٧

فكم قد تخطيت من سبب

٢٧٧

قتلتى بهواكا

عباس بن فرناس

٢٨٩

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف

٣١٠

كأن قصور الأرض بعد تمامه

أبو عمر ابن عبد ربه

٣١٠

أما على قصر الخليفة فانظرا

٣٢٢

نجا مستكفماً تحت جناح من الدجى

٣٣٠

ألا إن إبراهيم لحة ساحل

٣٦٩

بدا الهلال جديداً

٤١٩

قد أوضح الله للإسلام منهاجاً

هاشم بن عبد العزيز

٣١٤

سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى

سعيد بن جودى

٣٢٥

يابنى مروان جدوا فى الحرب

الأمير عبد الله بن محمد

٣٤٦

يامهجة المشتاق ما أوجعك

٣٤٦

ويحى على شادن كحيل

٣٤٦

يامن يراوغه الأجل

عبد الرحمن الناصر

٣٩٦

همم المملوك إذا ما أرادوا ذكرها

أبو الوليد بن زيدون

٤٠٠

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى

محي الدين بن عربى (نقلا عنه)

٤٠١

ديار بأكناف الملاعب تلمع

صفحة	
٤١٣	منذر بن سعيد البلوطي مقالى كحد السياف وسط الحافل
٤٤٤	عبد الملك بن سعيد المرادى ملك الخليفة آية الإقبال
٤٥٤	جعفر بن عثمان اللصحنى أطلع البدر فى سخابه
٤٧٩	صبرت على الأيام لما تولت
٤٦٢	الحكم المستنصر
٤٦٢	إلى الله أشكو من شمائل مسرف
٤٦٣	عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت
٤٨٠	أبى أمية أين أقمار الدجى
٤٨٤	أليس من العجائب أن مثلى
٤٨٥	اقترن الوعد وحن الهلاك أبو العلا صاعد بن حسن البغدادى
٤٩٩	يا حرز كل مخوف وأمان كل
٥١٠	جددت شكرى للهوى المتجدد أبو عمر بن دراج القسطلى
٥٠٤	هل الملك يملك ريب المنون
٥٠٥	لك الله بالنصر العزيز كفى
٥٠٨	اليوم أنكص أبليس على عقبه
٥٥٧	بدا ربح السعد واستقبل النجح
٥٦٧	إن كان وجه الربيع مبتسما
٥٧٦	هو البدر فى فلك المجد دارا مانقش على قبر المنصور

صفحة

٥٧٦

آثاره تنبيك عن أخباره

عمرو بن أبي الحباب

٥٢٢

لايوم كاليوم من أيامك الأول

المنصور بن أبي عامر

٥٢٨

رمىت بنفسى هول كل عزيمة

٥٢٨

منع العين أن تذوق المناما

.....

٥٦٨

زمان جديد وصنع جديد

سليمان المستعين

٦٠٠

عجباً يهاب الليث حد سناني

عبد الرحمن بن مقانا

٦١٩

البرق لائح من أندرين

فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية

ومقابلها الإفرنجي

Aiava	ألبة	Aquitaine	أكوتين
	ألبة والقلاع		بلاد أرغن . أرغن . الثغر الأعلى
Alava et Castella Vetula		Aragon	
Albacete	البسيط	Astorga	أسترقة
	شتمرية الشرق	Asturias	أشتوريش
Albarracin		Avenpace	ابن باجة
	شتمرية ابن رزين	Avignon	صخرة أبنيون
Alcacer da Sol	قصر إبي دانس	Avila	آبالة
Alcalá de Henares	قلعة النهر	Badajoz	بطليوس
Alcantra	القنطرة	Baeza	بياسة
Alcázar	القصر	Baleares	الجزائر الشرقية
Alfonso Raimundez	أدفنش بن رمند	Barcelona	برشلونة — برشونة
Algarve	كورة الغرب	Beja	باجة
Algeciras	الجزيرة الخضراء	Berbastro	بربشتر
Alicante	لقنت	Bermudo	برمند
Almería	المرية		بسكونية — بسكونس
Almodavar	المدور	Biscay — Viscaya	
Almodavar del Rio	حصن المدور	Bobastro	ببشتر
Almoravides	المرابطون	Burgos	برغش
Almunecar	المنكب	Cabra	قبرة
Alphonso - Alfonso	أدفنش ، أدفنش ، ألفنش	Calahorra	قلهرة
Alpujurras		Calatayud	قلعة أبواب
Alpuxarras	البشرات البشرية	Calatrava	قلعة رباح

Calatanazor	قلعة النسور	Fernando-Ferdinand	فرذلند
Carcassone	قرقشونه	Fernan Gonzales	فرنان غنصالص
Carmona	قرمونة	Froila	فرويلة
Carthage	قرطاجنة القديمة	La Frontera	ألفرنتيره
Cartagena	قرطاجنة الأندلس	Galicia	جاليقية
Castellon	قسطلونة	García	غرسية
Castile — Castilla	قشتالة	Gaule	غاليس
Catalonia	قطلونوية	Gerona	جرندة
Cataluna		Gibraltar	
Cardegna — Cerdana	شرطانيه		جبل طارق — جبل الفتح
Ceuta	سبتة	Goths	القوط — الغوط
Charlemagne		Granada	غرناطة
Karl — Charles	كارله — شارلمان	Gregorius	جرجير
Cintra	قلمبرية — قلمبرية	Guadalajara	وادي الحجارة
Coimbra		Guadalete	وادي لكاة
Cordova-Córdoba	قرطبة	Guadalquivir	الوادي الكبير — النهر الأعظم
Coria	قورية	Guadarrama	وادي الرملية
Corsica	قورسقة	Guadiana	وادي يانة — وادي أنة
Cuenca	قونقة — كونكة	Guadix	وادي آش
Daroca	دروقة	Huesca	وشقة
Denia	دانية	Ivica-Ibiza	جزيرة يابسة
Duero-Douro	نهر دويرة	Jaca	چاقة
Ebro	نهر إبرة	Jaen	جيان
Ecija	إستجة	Jódar	شودر
Elvira	إلبيرة	Lamigo	لميقة
Evora	يابرة — يافورة	Lausitania	البرتغال القديمة
Favila	فاقاسة	León	ليون (جليقة)

Lerida	لاردة	Navarra	بلاد البشكنس — نبرة
Lisbon — Lisboa	أشبونة — لشبونة	Niebla	لبلة
Lombardy	بلاد اللنبرد — أنكبردية	Normans	الأردمانيون — المحجوس
Lopez	لب	Ocsonoba	أكشونبة
Lorca	لورقة	Orelius	أورالى
Lugo	لُك	Oria	أورية
Lyon	لوذون — لوطون	Orihuela	أوريوله
Madelin	حصن مادلين	Pallares	بليارش
Magertf	مجريط	Pamplona	بنبلونة
Majorca-Mallorca	جزيرة ميورقة	Pedro	بطره
Málaga	مالقة	Pelagius-Pelayo	بلای — بلايو
Martos	مرتش	Priego	باغه
Mauretania	المغرب الأقصى	Pyrenees	جبال البرنيه أو البرت أو البرتات
Medinaceli	مدينة سالم	Pirineos	
Medina-Sidonia	شدونة	Poley	بلای — بلی
Mérida	ماردة	Rejio	ريه (كورة)
Mertola	مارتلة — ميرتلة	Ramiro	ردمير — رذمير
Minorca	جزيرة منورقة	Ramon Berenguer	رمند
Monzon	منتشون	Rhône	نهر (وادی) رذونة
Montimayor	منتميور	Roderic	لذريق — رذريق
Mentileon	منتلون	Roncesvalles	باب شزروا — باب الشزرى
Morón	مورور	Ronda	رندة
Mozárabes	المستعربون أو النصارى المعاهدون	Rueda	حصن روطه
Mula	مولة	Salmanca	شلمنتة
Murcia	مرسية	Sanhoc	شانجه
Narbonne	أربونة	San Esteban	شنت إشتيبين
		Santa Maria de Algarve	شنتمرية الغرب

Santarein-Santarem	شنترين	Toulouse	تولوشة
Santaver	شنت برية	Trujillo	ترجاله
Santiago	شنت ياقب	Tudela	تطيلة
Saragossa-Zaragoza	سرقسطة	Tudmir	تدمير
Sardegna	جزيرة سردانية	Ubeda	أبدة
Sicilia	صقلية	Urgel	أرقلة
Ségovia	شقوبية	Vacassora	بفسرة
Seville-Sevilla	إشبيلية	Valencia	بانسية
Sierra de Almaden	جبال البرانس	Valtierra	بلتيرة
Sierra Morena	جبل الشارات	Valladolid	بلد الوليد
Sierra Nevada	جبل شاير - جبل الثلج	Viguera	بقرة
Tagus-Tajo	نهر التاجه أو التاجو	Villanueva	بله نوبه
Tanger — Tangier	طنجة	Viseu	بازو
Tarifa	جزيرة طريف — طريف	Xativa-Jativa	شاطبة
Tarragona	طركونة	Xenil-Genil	نهر شنيل
Toledo	طليطلة	Xeres-Jerez	شريش
Torrox	طرش	Xecunda	شقندة
Tortosa	طرطوشة	Zamora	سمورة

فهرست الموضوعات (للقسم الثاني من الكتاب)

صفحة

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الثالث – عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية

- الفصل الأول : المملكة الإسبانية النصرانية خلال القرن التاسع الميلادي ... ٣٥٦
الفصل الثاني : ولاية عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية ... ٣٦٧
الفصل الثالث : خلال الناصر وما أثره ... ٣٩٥
الفصل الرابع : غزوات المسلمين في غاليس وشمال إيطاليا وسويسره ... ٤٢٢

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الرابع – ربيع الخلافة الأندلسية

- الفصل الأول : الحكم المستنصر بالله ... ٤٤٠
الفصل الثاني : هشام المؤيد بالله ... ٤٦٦

الكتاب الثالث

الدولة العامرية

- الفصل الأول : الحاجب المنصور ... ٤٨٢
الفصل الثاني : خلال المنصور وما أثره ... ٥١٥
الفصل الثالث : الممالك النصرانية الإسبانية خلال القرن العاشر الميلادي ... ٥٣٥
١ – نشأة مملكة قشتالة ... ٥٣٧
٢ – مملكة ليون ... ٥٣٩
٣ – مملكة نافار ... ٥٤٦

صفحة

- ٤ - عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية ٥٤٨
٥ - تنظيم السلطات السياسية ٥٥٠
الفصل الرابع : عبد الملك المظفر بالله ٥٥٤
الفصل الخامس : عبد الرحمن بن المنصور وسقوط الدولة العامرية ... ٥٦٩

الكتاب الرابع

سقوط الخلافة الأندلسية ودولة بني حمود

- الفصل الأول : الخلافة في معترك الفتنة والفوضى ٥٨٨
الفصل الثاني : دولة بني حمود ٦٠٢
ثبت المراجع ٦٢٥
فهرست الشعر والشعراء ٦٢٩
فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ٦٣٣

فهرست الخرائط

- ١ - الممالك الإسبانية النصرانية في القرن الحادى عشر الميلادى ٥٤١

فهرست البلدان والأماكن

٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
 ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٣٥٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٤٠٦ ،
 ٤٣٤ - ٤٣٦ ، ٤٥٩ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ،
 ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ،
 ٥٢٠ ، ٥٣٠ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٤٢ ،
 ٥٤٦ ، ٥٤٨ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ،
 إسبانيا المسلمة ؛ ١٨٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٤٠٢ ، ٤٤٠ ، ٥١٥ ،
 ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٤٣ ، ٥٤٨ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ،
 إسبانيا النصرانية ؛ أنظر إسبانيا
 إستية ؛ ٣٣٣ ،
 إستجة ؛ ٤٩ ، ٦٩ ، ١٣٠ ، ١٥٩ ،
 ٢٣٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ،
 ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٧٠ ، ٦١٧ ،
 أسترققة ؛ ٦٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ٢٠٩ ،
 ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٧٨ ،
 ٤٩٠ ، ٥٠٠ ، ٥٠٩ ، ٥٤٥ ،
 أستورياس ، (استورية) ؛ ٥١ ، ٧٤ ،
 ٨٢ ، ٨٦ ، ١٣٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ،
 أسكتلندا ؛ ٨٩ ،
 الإسكندرية ؛ ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
 إسكندناوة ؛ ٢٨ ، ٢٥٨ ، ٢٨١ ،
 آسيا الصغرى ؛ ٥٢ ، ٩٠ ، ٩١ ،
 أشبونة ؛ ٦٩ ، ٧٠ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٣٠٢ ، ٣٥٧ ، ٤٤٦ ،
 إشبيلية ؛ ٣٤ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ٧٠ -
 ٧٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ،
 ١٣٣ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٥٩ - ١٦٤ ،
 ١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ،

- ١ -

أبدة ؛ ٣٧٥ ،
 أيره ، نهر ؛ ٦٩ ، ١٣٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
 ٢١٣ ، ٢٢٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
 ٣٨٢ ،
 آبلتة ؛ ٢١٢ ،
 أينيون ؛ ١١٣ ، ١١٤ ،
 أجدة ؛ ٦٩ ، ١١٣ ،
 أجون ، دير ؛ ٤٢٧ ،
 الأجم ، حصن ؛ ١٩ ،
 أراجون ، مملكة ؛ ٤٩١ ، ٥٣٨ ،
 أربونة ؛ ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٤ ،
 ٨١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
 ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٦٨ ، ١٨٤ ، ٢١٢ ،
 ٢٢٤ ، ٢٤٦ ، ٤٢٢ ، ٤٣٢ ،
 الأردن ؛ ١٢٤ ، ١٥٠ ،
 أرشونة ؛ ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٣٢ ،
 أرقلة ؛ ٦٩ ، ١٣١ ،
 أركش ؛
 آرل ؛ ٨٨ ، ١١٤ ، ٢٦٣ ، ٢٩٣ ،
 ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ،
 أرملاط ؛ ٥٨٤ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ،
 أرنيط (أرنيدو) ؛ ٣٨٢ ،
 إسبانيا ؛ ١٧ ، ٢٦ ، ٣٠ - ٣٧ ،
 ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٤ ، ٥٩ ، ٦١ - ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ،
 ٦٩ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٩٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
 ١١١ ، ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ،
 ١٥٢ ، ١٦٧ - ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ،
 ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ،

٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٤
٣٨١ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٣٥٧ ، ٣١٤
البونت ؛ ٦٠٧ ، ٦٠٦
إلبيرة ، كورة ؛ ٣٢٠ ، ٣٠٦ ، ١٤٩
٣٧٠ ، ٣٢٥
إلبيرة ؛ ١٣٤ ، ١٣٠ ، ١٢٤ ، ٦٩ ، ٤٩
١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٨٣ ، ١٩١
٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٢
٣٣٤ ، ٣٧١ ، ٤٩١
ألفونت ؛ ٦١٧
ألمانيا ؛ ٤١٦ ، ٢٨١ ، ٢٥٨ ، ٩٢ ، ٧٧
٤١٧
المرية ؛ ٤٤٦ ، ٤٠٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٢
٤٤٧ ، ٤٥٢ ، ٥٩٩ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥
الأناضول ؛ أنظر آسيا الصغرى
أنتيب ؛ ٤٣٢
أنتيسة ؛ ٤٨٦ ، ٤٤٤ ، ٣٨٠
الأندلس ؛ ٤١ ، ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٢ ، ١٧
٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥
٦٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨١
٨٦ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٠٤
١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨
١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧
١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٨
١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٤
١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩
١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٣
١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١
٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧
٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨
٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٨ ، ٢٦١
٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢
٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢
٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٣
٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٤
٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩
٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨

٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤
٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٩٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٧
٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤
٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٤٤٧ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨
٦١٦ ، ٦١٧
أشتوريش ، جبال ، هضاب ؛ أنظر أستورياس
أشتوريش ، ملكة ؛ ٣٦٤
أشرس ، حصن ؛ ٣١٦
إصبهان ؛ ١٤١ ، ١٤٢
أصيلا ؛ ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٤٥١
إفريقية ؛ ١٤ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣
٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٥
٥٧ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢
٧٣ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩١ ، ١٠٤
١٠٥ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٣
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨
١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥١
١٦٠ ، ١٨٢ ، ١٩٧ ، ٢٢٨ ، ٣١١
٣٨٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧
٤٢٥ ، ٤٣٢ ، ٤٣٦ ، ٤٥٠
أفنيون ، أنظر أبنيون
إقريطش ؛ ٤٣٤ ، ٢٧٩ ، ٢٤٢
أكشونية ؛ ٣٣٥ ، ٣٠٢ ، ٢٥٤ ، ١٢٤
إقليج ؛ ٦١٣
إقليش ؛ ٣٣٦
أكسفورد ؛ ٨٩
أكوتين ؛ ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٥
٨٦ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧
١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٣١ ، ١٧١
٢٠٦ ، ٤٣٤
آكي ؛ ٤٢٧
الألب ، جبال ؛ ١١٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦
٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢
ألانديجا ؛ أنظر الخندق
الأنية ، قلعة ؛ ٣٠٠
ألبية ؛ ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٩٩
٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٨٦ ، ٤٥٣ ، ٥٣٨
ألبية والتلاع ؛ ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٥٣

باب السدة ؛ ٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٤٤١ ، ٦٤٤٣ ، ٤٧٥

باب الشزرى (باب شيزروا) ؛ ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٥٣

باب الشزرى ، موقعة ؛ ١٨١ ، ١٨٣ ، باب النخيل : ٤٠٥

باجة ؛ ٥٥ ، ٦٩ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٣ ، ٢٠٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣٢٦ ، ٣٣١

بادربورن ؛ ١٦٧ ، ١٧٢ ، بارباتى ، نهر ؛ ٤٢ ، بارى ؛ ٤٣٤

باريس ٧٧ ، ٨٩ ، ١٠٣ ، بازو ؛ ٣٦١ ، ٥٠٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، باطقة ؛ ١٣٠

باغة ؛ ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، باقاريا ؛ ٧٧ ، ٧٩ ، ١٧٣ ، بالمودى ، دير ؛ ٤٢٦

ببشتر ؛ ٦٩ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ببشتر ، جبل ؛ ٣٠٤ ، ٣٧٥

بجاية ؛ ٤١١ ، ٤٥٠ ، البراجلة ؛ ٣٢٤

براثيا ؛ ٢١٦ ، البرتغال ؛ ٤٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٢٩٩ ، ٤٤٦ ، ٤٨٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨

برتقال ؛ ٢١٢ ، ٣٠٠ ، بربشتر ؛ ٣٣٨ ، ٥٥٩

برجة ؛ ٢٦٢ ، برجونية ؛ ٧٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣١

بردال ؛ أنظر بوردو .

بردوليا : ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٥٣٧

برشلونة ؛ ٥٢ ، ٦٩ ، ١٣١ ، ١٦٦ ، ٤١ — أذراس

٣٥٩ — ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٧٠ ، ٤٨٦ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٧ ، ٤٩٥ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ ، ٥١٥ ، ٥٢١ — ٥٢٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٩ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٦ ، ٥٩٧ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، ٦١٥

أذنة ، حصن ؛ ٢٨٨

أذو جر ؛ ٢٥٨

أوتون ؛ ٨١ ، ٨٣

أودر ، نهر ؛ ٢٨

أوراس ، جبل ؛ ١٧ ، ٢٢

أوربا ؛ ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٩١ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢٦٣ ، ٣٨٩ ، ٤٥٨

أوريولة ؛ ٤٩ ، ٥٥ ، ١٣٠ ، ٢٠١ ، ٢٩٣ ، ٣٧٣

أوزونة ؛ ٢٣٢

أوستراسيا ؛ ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٥ ، ١٠٠

أوسمة ؛ ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٤٩٨ ، ٥٢٠ ، ٥٩٧ ، أوسيز ؛ ١١٣

أوفيدو ؛ ٢١٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٤٦٤ ، ٥٣٨

إيبرو ، نهر ؛ أنظر إبرة

إيج مورت ؛ ٤٢٦

إيريا ؛ ٢١٧ ، ٥٠٧

إيطاليا ؛ ٢٨ ، ٢٩ ، ٥٣ ، ٧٧ ، ٩٢ ، ١٠٨ ، ٢٦٣ ، ٣٩٢ ، ٤١٦ ، ٤٢٦

٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦

إيكس ؛ ٤٢٦

إيكس لاشانيل ؛ ٢٢٨

إيلاش ، حصن ؛ ٣٣٨

ب — ت — ث

باب الجنان ؛ ٤٤٣

٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٣
 بلاد الفرنج ؛ ٢٥٩ ، ٢٤٦ ، ١٠٥
 بلاد اللونبارد ؛ ٤٢٩ ، ٤٢٨ ، ٢٤٦ ، ٤٣٣ ، ٤٣١
 بلاط الشهداء (واقعة البلاط) ؛ ١٠١ ، ٥٩
 ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٢
 ٢٠٩ ، ٤٢٢ ، ٤٣٥
 بلاي (بلي) ؛ ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢
 ٣٢٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٦
 بلتيرة ؛ ٣٨٠
 بلد الوليد ؛ ٦٩
 البلدة ، حصن ؛ ٢٩٤
 البلدة ، موقعة ؛ ٣٦٥
 بلتلتة ؛ ٥٥
 بلنسية ؛ ٥٥ ، ٦٩ ، ١٣٠ ، ٢٠١
 ٢٣٠ ، ٣٧٣ ، ٤٦١ ، ٦٠٦
 بلنسية ، جبال ؛ ١٨٣
 بله نوبه ؛ ١٥٢
 البليار ، جزائر ؛ أنظر الجزائر الشرقية
 بليارش ؛ ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
 بنبلوثة ؛ ٨٨ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٦
 ١٧٧ ، ١٨٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦١
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤
 ٢٩٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤
 ٣٦٦ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٤٩٥ ، ٥٠٩
 ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٥٨
 هو السفراء ؛ ٤٠٣
 هو ، نهر ؛ ٤٢٩
 هو ، نهر ؛ ٩٧
 هو ، نهر ؛ ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩
 هو ، نهر ؛ ٤٩٠
 هو ، نهر ؛ ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١١٢ ، ١٧١
 هو ، نهر ؛ ١٤٤
 هو ، نهر ؛ ٨٩
 هو ، نهر ؛ ٨٣
 هو ، نهر ؛ ٢١٣
 هو ، نهر ؛ ٣٧٠ ، ٤٧٥
 هو ، نهر ؛ ٢١٧

٢٣٢ ، ٢٢٣ ، ١٨٣ ، ١٧٢ ، ١٦٧
 ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٩٠
 ٣٣٩ ، ٤٢٣ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٥٥٧ ، ٥٢٠
 برغش ؛ ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٨٥ ، ٥١٠ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠
 برقة ؛ ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ١٤٨
 البرنيه ، جبال ؛ ٣١ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٢
 ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤
 ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١١١
 ١١٤ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٥٣
 ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٧
 ١٨١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢٢٣
 ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٥٣
 ٣١٠ ، ٣٣٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٤٢٢
 ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٤٥
 البرنيه ، ولاية ؛ ٢٠٨ ، ٥٥٩
 بروفانس ؛ ١١٣ ، ١١٤ ، ٢٦٣ ، ٢٩٣
 ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦
 برينانيا ؛ ١٧١ ، ١٧٣
 بريجور ؛ ٩٧
 برييه ؛ ٧٢ ، ١١٣
 بسطة ؛ ٦٩ ، ٤٩١
 بسكرة ؛ ٤٥٠
 بسكونية ؛ أنظر بلاد البشكنس .
 البصرة (بالمغرب) ؛ ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢
 البصرة (بالعراق) ؛ ٢٤
 بطرسة ، حصن ؛ ٣٠٢
 بطليوس ؛ ٧٠ ، ٢٥٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠١
 ٣٠٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ، ٣٧٧
 ٣٧٩ ، ٥١٢
 بغداد ؛ ١٦٨ ، ٢٧٨ ، ٢٩٥ ، ٤٥٦
 بقسرة ؛ ٥٥
 بقيرة ؛ ١٨٤ ، ٢٦٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣
 بلاد البشكنس ؛ ٨٨ ، ١١١ ، ١٣١
 ١٧١ ، ١٨٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٣
 ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٨

٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
 ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ،
 ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٥٧ ،
 ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ،
 ٣٦٦ ، ٣٨٣ ، ٤٢٣ ، ٤٤٢ ، ٤٩٦ ،
 ٥٥٧ ، ٥٩٤ ، ٦١٥ ،
 الشجر الأوسط ؛ ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٣٠٣ ،
 ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٨١ ، ٥٩٠ ،
 الشجر الفرنجي (الشجر الإسباني) ؛ ٢٣٣ ،
 ٢٦١ ، ٥٥٧ ،
 الشجر القوطي ؛ ٢٣٢ ، ٢٥٤ ، ٤٩١

ج - ح - خ

جاردر فرينيه ؛ ٤٢٥ ،
 الجارون ، نهر ؛ ٢٩٠ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ٩٢ ،
 ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٥٩ ،
 جاقه ؛ ٣٣٨ ،
 جالولاء ؛ ١٩ ،
 جامع قرطبة ؛ ١٩٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣١٠ ، ٣٤٧ ، ٣٦٩ ،
 ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ،
 ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٥٠٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ،
 ٥٥٤ ،
 جامعة قرطبة ؛ ٤٥٨ ،
 جان دي لاڤور ؛ ١٧١ ،
 جبال رندة ؛ ٣٠٤ ،
 جبال قرطبة ؛ ١٣٠ ، ٥٧٨ ،
 جبال كانتبريا ؛ ٢١٣ ،
 جبال مونشويس ؛ ٥٥٧ ،
 جبال وادي الرملية ؛ ٤٤٤ ،
 جبل العروس ؛ ٣٩٧ ،
 جبل منتش ؛ ٥٩٢ ،
 جبل طارق (صخرة طارق) ؛ ٤١ ، ٨٩ ،
 ٤٧٠ ،
 جربيرة ، صخرة ؛ ٥٠٩ ، ٥١٠ ،
 جريزون ؛ ٤٢٧ ،
 جرينويل ؛ ٤٣١ ، ٤٢٨ ،
 الجزائر الشرقية ؛ ٢٦ ، ٣٩ ، ٢٦٣ ،

بيزانصون ؛ ٨٩ ،
 بيزنطية ؛ ٩١ ، ٢٧٩ ،
 البيضاء ، موقعة ؛ ٢٦٣ ،
 بيطر التة ؛ ٣٨٣ ،
 بيمون ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ،
 التاجه ، نهر ؛ ٦٩ ، ٧٠ ، ١٣٠ ، ١٦٣ ،
 ٢٣٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٤١ ، ٣٦١ ،
 ٣٨٧ ،
 تارانت ؛ ٤٣٤ ،
 تاكرونا ، كورة ؛ ٢٤٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ،
 تاهرت ؛ ٣٠٩ ، ٣٩١ ، ٤٥٠ ، ٥٠٦ ،
 تدمير الأندلس ؛ ٤٩ ، ٧٠ ، ١٢٤ ،
 ١٦٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٢٣ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٣ ، ٢٧٩ ، ٢٩٣ ، ٢٠٦ ، ٣٢٦ ،
 ٣٣٣ ، ٣٧٣ ، ٤٩١ ،
 تدمير الشام ؛ ١٤٧ ،
 تراقية ؛ ٢٨ ، ٢٩ ،
 ترجيله ، ترجاله ؛ ٣١٤ ،
 تطيلة ؛ ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٦٦ ، ٣٨٠ ،
 ٣٨٣ ، ٣٨١ ،
 تلمسان ؛ ٤٩٤ ، ٥٠٦ ،
 تور ؛ ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ٤٣٥ ،
 تور ، موقعة ؛ أنظر بلاط الشهداء ،
 تورنجن ؛ ٤١٦ ،
 تورني ؛ ٧٦ ،
 تورينو ؛ ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،
 تولوشة (تولوز) ؛ ٢٩ ، ٧٥ ، ٧٩ ،
 ٨٠ ، ٨١ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ٢٢٤ ،
 تونس (إفريقية) ؛ ١٢٤ ، ١٢٨ ، ٣١٤ ،
 ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٤٥٣ ، ٤٩٢ ،
 التيمز ، نهر ؛ ٨٩ ،
 الثغر ، ولاية ، رباط ؛ ١٢٤ ، ١٣١ ،
 ١٣٤ ، ٢١٢ ، ٢٣٢ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ،
 الثغر الأدنى ؛ ٢٣٧ ، ٣٣٥ ،
 الثغر الأعلى ؛ ١١١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ،

حجر النسر ، قلعة ؛ ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،
 الحرة ، موقعة ؛ ١٢١
 حصن روطه ؛ ٢٩٨ ، ٣٨٦
 حصن سمسطا ؛ ٢٥٥
 حصن شبطران ؛ ١٦٤
 حصن شيليش ؛ ٣٧١
 حصن الشط ؛ ٣٧٦
 حصن القصر ؛
 حصن شلوبانية ؛ ٣٣٢
 حصن شندلة ؛ ٢٨٨
 حصن شنتان ؛ ٣٧٠
 حصن شنت إشتين ؛ ٣٠٧
 حصن شنت بخت ؛ ٤٨٦
 حصن شنت مرتين ؛ ٥٦٤
 حصن طرش ؛ ٣٧٥ ، ٤٧٠
 حصن طلمنكة ؛ ٣٠٧
 حصن غرمالج ؛ ٤٤٥
 حصن قسطنطونة ؛ ٣٢٥ ، ٣٣٦
 حصن قشتيل ؛ ٣٣٧
 حصن كركبوايه ؛ ٣٢٦
 حصن كركي ؛ ٣٠١
 حصن مجريط ؛ ٣٠٧ ، ٣٨٥ ، ٤٧٧
 حصن مدنيش ؛ ٥٥٧
 حصن المدور ؛ ١٥٧
 حصن تمصر ؛ ٥٥٧
 حصن منتشون ؛ ٣٣٨
 حصن منت شلوط ؛ ٣٠١
 حصن منت ليون ؛ ٣٧٠
 حصن منت ميور ؛ ٣٧٦
 حصن منتيشة ؛ ٣٧٠
 حصن مولة ؛ ٣٣٧
 حصن يبة ؛ ٤٤٥
 حضر موت ؛ ٣٣٧
 الحفرة ، موقعة ؛ ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٩٧
 حصن ؛ ٦٩ ، ١٢٤
 الخيرة ؛ ٦٧
 خراسان ؛ ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣
 خندا ، بحيرة ؛ ٤٢

٦٠٤ ، ٤٤٣٣ ، ٤٢٤٤ ، ٣٤٢٤ ، ٣٤١٤ ، ٢٩٣
 الجزر البريطانية ؛ ٢٥٨
 الجزيرة ، الجزيرة الخضراء ؛ ٥١ ، ٦٩ ،
 ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٥٨ ، ١٨٤ ،
 ٢٤٨ ، ٢٩٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٣٢ ،
 ٣٧٢ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٧٠ ، ٥٠٥ ،
 ٥١٢ ، ٥٩٥ ، ٦٠٠ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ،
 ٦١٠ ، ٦١٧ ، ٦٢١
 جزيرة طريف ؛ ٤٠ ، ٣٣٢
 الجزيرة (العراق) ؛ ٤٠٧
 جليقية ؛ ٢٥ ، ٢٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ،
 ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ١١٢ ،
 ١٣٤ ، ١٣٦ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ - ٢١٢ ،
 ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣٥٧ ،
 ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٤٩٠ ، ٥٠٦ ،
 ٥٧٦ ، ٥٠٧
 جليقية ، ملكة ؛ ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٣٥٧ ،
 ٣٧٨ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٤٤ ،
 جنوة ؛ ٤٢٧
 جنيف ، بحيرة ؛ ٤٢٧
 جواد اليبى ، نهر ؛ ٤٢
 جورا ؛ ٤٢٨ ، ٤٢٩
 جوززنى ؛ ٤١٥
 چونكيرا ؛ ٣٨٢
 جويان ؛ ٩٧
 جيان ؛ ٦٩ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٥٢ ،
 ١٥٥ ، ١٨٧ ، ٢٤٩ ، ٢٨٨ ، ٣٠٦ ،
 ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ،
 ٣٧٠ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦١٩
 جيان ، كورة ؛ ٣٢٦ ، ٣٧٠ ، ٦٠٨
 جيرندة ؛ ١٣١ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢
 لاجيروند ، مقاطعة ؛ ١٠٠
 الخيرة ؛ ١٤٤
 الحامة ؛ حصن ؛ ٣٢٥
 الحجاز ؛ ٢٣ ، ٥٧ ، ٦٧ ، ٣٩٣

رومة ؛ ١٦ ، ١٧ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
٣١ ، ٥٣ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٧ ،
٣٩٩ ، ٤٣١
الرون ، نهر ؛ ٥٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٤ ،
٩٦ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٣١ ، ١٣٥ ،
٤٢٣ ، ٤٢٥
رونشال ؛ أنظر باب الشزرى
الريشيرا ؛ ٤٣٦
الريش ، نهر ؛ ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٩ ،
٩٢ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٨ ، ١٦٩ ،
١٧٣
ريه ؛ ٦٩ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
٢٣٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٢٤ ، ٣٧١ ،
٣٧٣ ، ٣٩٧ ، ٥٩٥
ريه ، كورة ؛ ٣٠٤ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ،
٣٣٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
أنزاب ؛ ١٤٣ ، ٥٠٥
أنزاهرة ، مدينة ؛ ٣٩٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ،
٤٩٧ ، ٥٠٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٣١ ،
٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ ،
٥٧١ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ، ٥٨١ ،
٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٥٩٣ ، ٦١٣
الزهران ، مدينة ؛ ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،
٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٧ ، ٤٤٥ ،
٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٥٠٣ ، ٥٧١ ، ٥٩٦ ،
٥٩٩
زويقة ؛ ١٦

س - ش

السباط ؛ ٣٤٧
ساقوا ؛ ٤٢٨ ، ٤٣٠
سان برنار ؛ ٤٢٨
سانتاروفينا ، دير ؛ ٧١
سكان تروبييه ؛ ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥
سان جالين ؛ ٤٣٠
سان خير نمو ، دير ؛ ٤٠٣
سهاجون ، دير ؛ ٤٩٦ ، ٥٣٦
سبانيا ؛ ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ،

الخدق ، موقعة ؛ ٣٣٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ،
٤١٠ ، ٤١٩ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨
خيخون ؛ ٥١

د - ذ

دار الناءورة ؛ ٤٤٣
داسيا ؛ ٢٨
دأماركة ؛ ٢٥٨ ، ٢٨١ ، ٤٤٦
الدانوب ؛ ٢٧ ، ٣١ ، ٥٣ ، ٢٤٦
دانية ؛ ٦٩ ، ١٣٠ ، ٤٣٣ ، ٦٠٤
دجلة ، نهر ؛ ١٤٣
درنة ؛ ٢٥
دروقة ؛ ٣٣٦
دمشق ؛ ٢١ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٨٧ ،
١١٠ ، ١٢٦ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،
١٥٨ ، ٢٠٧ ، ٤٥٦ ،
دوفينه ؛ ١١٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٠ ،
٤٣١
دويرة ، نهر ؛ ٦٩ ، ١٣٠ ، ٢٠٩ -
٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٣٥٧ ،
٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٧ ،
٣٨٩ ، ٤٤٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٩ ،
٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٢ ، ٥٢٠ ، ٥٤٣ ،
٥٤٤
دير خدان ؛ ١٤٧
ديزنتي ، دير ؛ ٤٢٧
راجوزا ؛ ٤٣٤
رباجورسا ؛ ٥٤٧ ، ٥٥٩
الربض ، ربض قرطبة ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ،
٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٤١١
الربض ، واقعة ؛ ٢٤٠ - ٢٤٤
ردونة ؛ ١٠٣
الرصافة ؛ ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٤٩ ، ٣١٠ ،
٣٩٦ ، ٤٧٩ ، ٥٩٠
رندة ؛ ٢٢٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٧٣ ، ٦١٦
روسيون ؛ ٧٤
الروضة ؛ ٢٤٤ ، ٢٦٩ ، ٣٦٩ ، ٣٩٦ ،
٤٤٣

شالون ؛ ٢٩ ، ٨٣
الشام ؛ ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٩ ، ٥٣ ،
٦٧ ، ٧١ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٢١ ،
١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ،
١٥١ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٨٦ ،
٣٠٩ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٩٢ ، ٥٢٧ ،
شبه الجزيرة الإسبانية ؛ ٣٨ ، ١٢٠ ، ١٧٦ ،
٣٩٥ ، ٤٤٧
شبه الجزيرة العربية ؛ ٦٨ ، ١٣٩ ، ٢٠٢ ،
شذوثة ؛ ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٥١ ،
٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٢ - ٢٩٢ ، ٢٥٩ ،
٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣٢٦ ، ٣٧٢ ، ٦٠٠ ،
شرطانية ؛ ١٨٤
شريش ؛ ٤٢ ، ٣٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ،
٦١٥
شريش ، موقعة ؛ ٢٠٧ ، ٢٠٥ ،
شقنذة ؛ ١٢٩ ، ١٣٣ ، ٢٤٠ ، ٣٢٠ ،
٥٩٩
شقوقية ؛ ٦٩ ، ١٣٠ ، ٢١٢ ، ٣٧٨ ،
شلب ؛ ٢٨١
شلمنقة ؛ ٦٩ ، ١٣٠ ، ٢١٢ ، ٣٦٠ ،
٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٥٤٥ ،
شنت إشتبين ؛ ٣٧٩ - ٣٨٤ ، ٣٨٤ ،
٤٤٥ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٣٦ ، ٥٦٠ ،
شنت برية ؛ ١٦٢ - ١٦٤ ، ٢٥٣ ،
٢٥٥ ، ٣٠٣ ، ٣٣٦ ،
شترين ؛ ٣٨٦ ، ٥١٢ ،
شتمرية الغرب ؛ ٣٢٦ ، ٣٣٥ ،
شنت منكش ؛ ٣٦٤ ، ٣٨٧ - ٣٨٩ ،
٤٨٩ ، ٥٢٠ ، ٥٣٦ ، ٥٤٥ ،
شنت يوانش ؛ ٥٥٩ ،
شنت ياقب ؛ ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٨١ ، ٤٩٠ ،
٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٢٠ ، ٥٣٦ ، ٥٤٣ ،
٥٤٦ ، ٥٥٢ ،
شنت ياقب ، كنيسة ؛ ٣٦٤ ،
شنيل ، نهر ؛ ٣٣٣ ، ٣٧٠ ، ٥٢٤ ،

٨١ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١١١ ،
١١٤ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٢٠٩ ،
٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٣٠٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ،
٤٣٥
سبتة ؛ ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ -
٤١ ، ٤٩ ، ٥٩ ، ١١٨ ، ١٢١ ،
٣٩١ ، ٤٥٠ ، ٤٩٣ ، ٥٠٥ ، ٦٠٥ ،
٦٠٧
سيطلة ؛ ١٦
سجلماسة ؛ ٣٠٩
سردانية ؛ ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٧ ، ١٢٨ ،
٢٦٣ ، ٤٢٤ ، ٤٣٣ ،
سرقسطة ؛ ٥٢ ، ٦٩ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ،
١٣٠ - ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ،
١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢١٤ ،
٢٢٣ - ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٩ ،
٢٩٤ ، ٢٩٦ - ٢٩٩ ، ٣١٤ ، ٣٣٦ ،
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٦٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ،
٤٢٤ ، ٤٩٦ ، ٥١٠ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ،
٥٦٤
سرية ؛ ٥١١ ، ٥١٢ ،
سكسونية ؛ ٧٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٧٠ ،
سمرقند ؛ ١٤٣
سمورة ؛ ١٣٠ ، ٢١٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ،
٣٤١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٧ ، ٣٨٨ ،
٣٨٩ ، ٤٩٩ ، ٥٠٩ ، ٥٢٠ ، ٥٣٧ ،
السند ؛ ٩٠ ، ٩٤ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ،
سوبراني ؛ ٣٣٨ ، ٥٣٨ ، ٥٤٧ ،
السوس ؛ ١١٧
سولسونة ؛ ٢٣٢
سويسرة ؛ ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ،
٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ،
سيرا مورينا ، جبال ؛ ٣٦٢ ،
سيرا نقادا ، جبال ؛ ٣٧١ ،
سيانقة ؛ أنظر شنت منكش
شاطبة ؛ ٧٠ ، ١٣٠ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٦٠٦ ،

العامرية ؛ ٥٢٢

العدوة ، عدوة المغرب ؛ ١٢١ ، ١٩٥ ،

٢٠٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٨٦ ، ٣٧٢ ،

٣٩١ ، ٢٩٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٦ ، ٤٩٤ ،

٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٧٥ ، ٦٢٣

العراق ؛ ٢٤ ، ٧١ ، ١١٦ ، ١٤٠ ،

١٤٣ ، ١٤٨ ، ٤٥٦

عقبة البقر ؛ ٥٩٤

غاليس (غاليا) ؛ ١٧ ، ٢٩ ، ٤٥ ، ٧٥ ،

٧٧ - ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

١٠٨ ، ١١٢ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٦٩ ،

١٧٤ ، ١٧٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٤١٦ ،

٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ،

٥٩٦ ، ٦٠٨ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ،

غرناطة ؛ ٤٩ ، ٢٠١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٦١٩ ،

غرماج ؛ ٥٩٧

ف - ق - ك

فارس ؛ ٧١ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ،

فاس ؛ ٣٩١ ، ٤٤٩ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ،

٥٠٦

فالانس ؛ ١١٣ ، ٢٩٣ ،

قاليه ؛ ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،

فانداليتا ، فاندالوسيا ؛ ١٧

فج المركور ؛ ٢٩٥

فحص البلوط ، ٣٠٦

فحص مهران ؛ ٤٥١

فراشند يلوم ؛ ٤٢٩

فراكسنيه (فراكسنيتم) ؛ ٤٢٥ ، ٤٢٧ -

٤٣٢

فرنسا ؛ ٢٨ ، ٢٩ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨١ ،

٨٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ،

١١٠ ، ١٦٧ ، ١٨٣ ، ١٨٠ ، ٢٠٧ ،

٢٢٤ ، ٢٣٢ ، ٢٦٣ ، ٣٦٠ ، ٤١٥ ،

٤١٦ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٥ -

٤٣٧

الفرنثيرة ؛ ٤١ ، ٤٢ ، ٧٠

ص - غ

صانص ؛ ٨١ ، ٨٩ ،

الصخرية ؛ ٢٠٧ ، ٢٢٥ ، ٣٥٧ ،

صقلية ؛ ٢١ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٧ ، ١٢٨ ،

٣٦٢

طرابلس ؛ ١٥ ، ١٦ ، ١١٧ ، ١٤٨ ،

طرسوفة ؛ ٢٦٢ ، ٣٣٨ ،

طرش ؛ ١٥٠ ، ١٥١ ، ٣٧٢ ،

طرطوشة ؛ ٦٩ ، ١٣١ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ،

٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٦٢ ، ٢٩٣ ، ٤٢٣ ،

٥٩٤ ، ٦٠٦

طرف الغار ، رأس ؛ ٤٢

طركونة ؛ ٥٢ ، ٦٩ ، ١٣١ ، ١٩٧ ،

٢٦٣

طريانة ؛ ٦١٧

طشانة ؛ ٦١٧

طلبيرة ؛ ١٢١ ، ٢٣٦ ، ٢٩٠ ، ٣١٤ ،

٣٤٠ ، ٣٧٩

طلياطة ؛ ٢٦٠

طلياطة ؛ ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤١ ،

٥٠ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ١٢١ ،

١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،

١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،

١٦١ ، ١٦٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،

٢٠٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ ،

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٥١ ،

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،

٢٧٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ ،

٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٤ ، ٣٣٢ ،

٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ - ٣٤١ ، ٣٥٩ ،

٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ،

٤٤٤ ، ٤٧٨ ، ٥١٢ ، ٥٢٦ ، ٥٣٧ ،

٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٧٦ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ،

٥٩٢ - ٥٩٤ ، ٦٢٣

طنجة ؛ ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٨ - ٤٠ ،

٤٩ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ٤٥١ ، ٤٩٤ ،

٥٠٥ ، ٦٠٠ ، ٦٠٤ ، ٦١٠

٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٢٥ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٥ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ - ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ - ٥١٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٤ ، ٥٤٤ ، ٥٥٤ - ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٧١ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٥٩٨ ، ٦٠٣ ، ٦٠٥ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١١ ، ٦١٣ - ٦١٥
 قرطبة القديمة ؛ ٤٠٢
 قرقشال ؛ ٣٨٣
 قرقشونة ؛ ٥٢ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨١ ، ١٠٣ ، ١٣١ ، ٢٢٤
 قرمونة ؛ ٥٢ ، ١١٥ ، ١٣٠ ، ١٦٠ ، ٢٧٤ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٩
 قرية العيون ؛ ١٦٤
 قسطنطينية ؛ ١٦ ، ١٧ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٩١ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤٤٨
 قشالة ؛ ٥٠ ، ١٩٦ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٩٩ ، ٣٥٨ ، ٣٨٥ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٦ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠٩ - ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٧ ، ٥٤٤ ، ٥٤٤ ، ٥٤٤ ، ٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢
 قصر أبي دانس ؛ ٤٤٦ ، ٥٠٧ ، القصر الخلفي ؛ ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، القصر الزاهر ؛ ٣٩٥
 قصر الزاهرة ؛ ٥٣١ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٧٠ ، ٥٧٩ ، ٥٨١ ، قصر الزهراء ؛ ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤١١ ، ٤١٨ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٨٣ ، ٥٤٢ ، قصر الفاتيكان ؛ ٣٩٩
 قصر قرطبة ؛ ٣٦٨ ، ٤١١ ، ٤١٦ ، ٤٤٣

فريجيوس ؛ ٤٧٦
 فريزيا ؛ ٧٩ ، ١١٢ ، الفسطاط ؛ ٥٦
 فلسطين ؛ ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، فنجيط ؛ ٢٢٩
 الفوشكة ، نهر ؛ ٣٢١
 فيل دنى ؛ ٢٢٤
 الفين ، نهر ؛ ٩٧
 قابس ؛ ٢٢
 قادمس ؛ ٤٢ ، ٢٢٩
 قاشتر و مورش ؛ أنظر شنت إشتيين
 القاهرة ؛ ٤٥٦
 قبرس ؛ ٢٤ ، ٤٥٦
 القبر المقدس ؛ ٢٣١
 قبر المنصور ؛ ٥١٤
 قبره ؛ ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣٣٤
 قرجيطة ؛ ٥٠٨
 قرطاجنة القديمة ؛ ١٦ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٩٧
 قرطاجنة الأندلس ؛ ٦٩ ، ١٣٠ ، ١٩٧
 قرطبة ؛ ٣٣ ، ٤٩ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٤ - ٨٨ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٧ - ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ - ٢٣١ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ - ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٥ - ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ - ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠

كربلاء ؛ ١٢٥ ، ١٣٨
 الكريز ، نهر ؛ ٩٧
 كنتش ، منية ، ٣١٠
 كورسيكا (قورسقة) ؛ ٢٦٣ ، ٤٣٣
 كوؤادنجا ؛ ٢٠٧ ، ٢٠٨
 الكوفة ؛ ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣
 كويانسا ؛ ٥٢٠

ل - م

لاردة ؛ ١٣١ ، ٢٢٩ ، ٢٩٨ ، ٣٣٨ ؛
 ٦١٥ ، ٥٥٧
 لاميجو ؛ ٥٠٨ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤
 لبلدة ؛ ٣٠ ، ١٦٤ ، ٢٦٩ ، ٤٧١٥٣٢٦
 لفتت ؛ ٦٩ ، ٧٠ ، ١٣٠ ، ١٥٨
 لك ؛ ٢١١ ، ٢١٢ ، ٣٥٨
 المنوار ، نهر ؛ ٨٠ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٢٠
 ٤٥٤ ، ٢٥٩
 لوجدانيا ؛ ١٣٠
 لوديش ؛ ٦٩
 لودون ؛ ٥٢ ، ١٠٣
 لورقة ؛ ٥٥ ، ٦٩ ، ١٣٠ ، ٣١٩ ؛
 ٤٩١ ، ٣٢٦
 لوزيتانيا ؛ أنظر البرتغال
 لوس بانيسوس ؛ ٤٧٦
 لوشة ؛ ٣١٦
 لومبارديا ؛ أنظر بلاد المونبارد .
 ليجوريا ؛ ٤١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣٩ ؛
 ليران ، جزيرة ؛ ٤٣٢
 ليون (فرنسا) ؛ ٨٩ ، ١١٣
 ليون ، إمارة ومدينة ؛ ٧٤ ، ١٦٧ ، ٢٨١ ،
 ٢٨٨ ، ٢٩٣ - ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ،
 ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧ ،
 ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤١٧ ، ٤٤٧ ، ٤٧٨ ،
 ٤٨٠ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ،
 ٥٠٠ ، ٥٠٩ ، ٥٢٠ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ،
 ٥٤٠ ، ٥٤٦
 ماجلون ؛ ٦٩ ، ١١٣

٦١٣ ، ٥٩٩ ، ٥٨٢ ، ٥٨٠ ، ٥٧٩ ، ٥٠٣
 قصر مدينة سالم ؛ ٥١٤
 قصر ناصح ؛ ٥٦١ ، ٥٧١
 قطلونية ؛ ٢٢٣ ، ٢٣٨ ، ٢٥٤ ، ٢٣٩ ،
 ٤٩١
 قفصة ؛ ١٦
 قلعة ألابية ؛ ٣٠٠
 قلعة النسور ؛ ٥١١ ، ٥١٣
 قلعة النهر ؛ ٥٩٢
 قلعة أيوب ؛ ٣٣٦ ، ٣٨٦
 قلعة بيشتر ؛ ٦١٨
 قلعة جلمانية ؛ ٣٠٠
 قلعة رباح ؛ ١٨٧ ، ٢٥٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ،
 ٣٢٤ ، ٣٣٦ ، ٣٧٠ ، ٥٧٧ ، ٥٨٢ ،
 ٥٩٢
 قلعة رعواق ؛ ١٦١
 قلخرة ؛ ٣٨٢ ، ٣٨٣
 قلمرية ؛ ٦٩ ، ٧٤ ، ٢٣٨ ، ٣٠١ ،
 ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٤٩٥ ، ٥٠٧ ، ٥٢٠ ،
 ٥٤٣ ، ٥٤٤
 قلورية ؛ ٣٩٢ ، ٤٣٤
 قلهرة ؛ ١٨٤ ، ٢٢٨ ، ٢٩٤ ، ٣٥٩ ،
 ٣٨٢ - ٣٨٤ ، ٤٤٥
 قلونية ؛ ٣٨١ ، ٤٩٩ ، ٥٦٠ ، ٥٩٧
 قمارش ؛ ٦١٨
 قتاليش ؛ ٥١١
 قنسرين ؛ ١٢٤ ، ١٤٧
 قنطرة إستجة ؛ ٥٢٤
 قنطرة قرطبة ؛ ٧٤ ، ٥٢٣
 قورية ؛ ١٢١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٧ ،
 ٣٦٠ ، ٥٠٧
 قونقة ؛ ٦٩ ، ٧٠ ، ١٣٠ ، ٣٠٣
 القيروان ؛ ٢٠ - ٢٣ ، ٨٦ ، ١١٨ ،
 ١٢٨ ، ١٦٠ ، ٤٥٣
 كانجاس ؛ ٢١٤
 كاماراج ؛ ٤٢٥
 كانتبريا ؛ ١٣٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ،
 ٥٤٧

٤٦٢ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤٤٦ ، ٣٩٢
٦١٥ ، ٦٠٢
المكتبة الأموية ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠
مكناسة ؛ ٣٩١ ، ٥٠٥
مكة ؛ ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٦٢
مليلة ، ١٤٩ ، ٤٩٥
المملكة الإسبانية النصرانية ، أنظر إسبانيا
منت شقند ؛ ٣٢٤ ، ٣٧١
منت شلوط ؛ ٣٠١
متلون ؛ ٣٣٤
منتيشة ؛ ٣١٩ ، ٣٢٦
منزل هاني ؛ ٥٨٣
منقرا تو ؛ ٤٢٧
المتكب ؛ ١٥٠ ، ١٥١ ، ٦٠٥
منهو ، نهر ؛ ٣٠٧ ، ٣٦٠ ، ٥٠٧
٥٤٣ ، ٥٤٤
منورقة ، جزيرة ؛ ٢٦ ، ٢٦٢
منية العقاب ؛ ٥٩٣
مورور ؛ ٦٠٠ ، ٦٢١
الموز ، نهر ؛ ٧٨
الموصل ؛ ١٤٣
مون سني ؛ ٤٢٦
ميرانده ؛ ٣٧٨
ميرتلة ؛ ٣٢٦
ميزيا ؛ ٢٨
ميورقة ، جزيرة ؛ ٢٦ ، ٢٩ ، ٤٦٢ ، ٤٧٥

ن - ي

ناجرة ؛ ٣٨٣ ، ٥١١ ، ٥٤٦
ناغار (أو نبرة) ؛ ٢١٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦١
٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٣٩ ، ٣٦٢
٣٦٤ - ٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٤١٧
٤٤٥ ، ٤٨٠ ، ٤٩٩ ، ٥٠٩ ، ٥١٠
٥٣٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٩
وانظر بلاد البشكنس
نوستريا ؛ ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٥ ، ١٧١
نوقاليس ، دير ؛ ٤٢٦ ، ٤٢٩
نوماثيا ؛ ٥١٢

ماردة ؛ ٥٢ ، ٦٩ ، ١٢٣ ، ١٣٠
١٥٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٩٦
٣٠٢ ، ٣٣٥ ، ٣٦١ ، ٣٧٩ ، ٥١٢
ماسون ؛ ٨٣
مالقة ؛ ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ١٣٠ ، ٣٠٣
٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩
٦١٠ ، ٦١٣ ، ٦١٦ ، ٦٢٢
متحف قرطبة ؛ ٤٠٥
المجلس الزاهر ؛ ٤١١
المجلس الكامل ، ٣٦٨
المدينة ؛ ١٢١
مدينة الباب ؛ ٨٧
مدينة سالم ، ٢٥٣ ، ٣٠٧ ، ٣١٩ ، ٣٥٧
٣٨١ ، ٣٩٠ ، ٤٥٣ ، ٤٦٢ ، ٤٧٦
٤٨٥ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ - ٥١٤ ، ٥٥٤
٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٩٠
مريلة ؛ ٥٩٥
مرتوش ؛ ٢٦٥
مرج راهط ؛ ١٥٢
مرسيليا ؛ ٢٦٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣٥
مرسية ؛ ٤٩ ، ٦٩ ، ١٣٠ ، ٣١٩
٣٢٦ ، ٤٩١
مرو ؛ ١٤٢ ، ١٤٣
المساره ، موقعة ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥
١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٩٥ ، ١٩٩
مسجد الزهراء ؛ ٣٩٨ ، ٤٠٠
المسيلة ؛ ٤٤٩
مصر ؛ ١٤ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١
١٠٥ ، ١١٥ ، ٣٩١ ، ٤٥٠ ، ٤٥٣
٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٥٢٧
مطونية ؛ ٣٨١
المغرب ؛ ٢٠ - ٢٢ ، ٣٨ ، ٩٠ ، ٩٤
١٢٠ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ٢٧٨ ، ٣٣٣
٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٥
٤٤٨ - ٤٥١ ، ٤٦٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥
٥٠٠ ، ٥٠٦ ، ٥١٢ ، ٥١٧ ، ٥٥٦
المغرب الأقصى ؛ ٢٥ ، ٢٠ ، ٥٥ ، ١١٦
١١٨ ، ١٢٠ ، ١٤٩ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦

١٨٧ - ٢٧٥ - ٢٨٨ - ٥٢٣ - ٥١٩	٤٢٨ : فيس
وادي لكّة . نهر : ٤٢ - ١٢٥	انثيل : ٨٩
وادي مني : ٥٠٦ - ٥٠٥	نيمّة - ٦٩ - ٧٢ - ١١٣
وادي ياره . نهر : ٤٧٠ - ٥٩٥	همذان : ٤٠
وادي يانه ، نهر : ٦٩ - ١٣٠ - ١٦٣	وادي آش : ٢٠١ - ٣٣٢ - ٣٧١
٣٦١	وادي بلون : ٣٣٤
ويدة : ٣٣٦	وادي الحجارة : ١٣٠ - ٢٣٠ - ٢٩٥
وجدة : ٤٩٥	٣٠٧ - ٣٨١ - ٤٧٧ - ٤٩٧
وستفاليا : ١٦٧	وادي زارات : ٥٠٥
وشقة : ١٧٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٨	وادي سليط : ١٢٢ - ٣٥٩
٢٩٧ - ٢٩٩ - ٣٣٨ - ٤٤٥ - ٥٥٩	وادي القري : ٢٣
يابرة : ٦٩	وادي قيس : ١٥٨
اليونان : ٢٨ - ٢٩	الوادي الكبير ، نهر : ٦٩ - ٧٤ - ١٦٤

فهرست القبائل والطوائف والدول

٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥

٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ ، ٣٠١ ، ٣١٤

٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥

٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٨

٣٨٠ ، ٣٩١ ، ٤٠٠ ، ٤٠٨ ، ٤٥١

٤٦٠ ، ٤٦٧ ، ٤٨٠ ، ٤٩٣ ، ٥٠١

٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٧ ، ٥٢٣ ، ٥٦٥

٥٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨

٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٨

٥٩٩ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨ ، ٦١٥ ، ٦١٨

٦٢٠ ، ٦٢٢

برغواضه : ٦١٩

البشكنس : ٨٠ ، ٨٢ ، ١١٤ ، ١٣١

١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧

١٧٨ ، ١٨١ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥

٢٣٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٣

٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥

٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤٩٥ ، ٥٣٨

البلديون : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ٢٠١

البيزنطيون : ٢٤٣ ، ٤١٤

بنو أقي عبيدة : ٣٠٨ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨

٣٤٣ ، ٥٢١

بنو أسد : ٦٧

بنو أمية : ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩

١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٣

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٨ ، ١٨٣ ، ١٨٦

١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩

٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٣٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧

٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٣٠٣

٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥

٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨

٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ ، ٤٤٩

ا - ب - ت

الإباضية : ٦٨ ، ١١٦

الأدارةسة : ٣٩١ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥١

٤٥٢ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣

الأردمانيون : أنظر التورمان

الأسلمة ، المسلمة : أنظر التصاري المعاهدون

الأسرة الكارلية : ٧٨ ، ٧٩

الإسلام : ٥٤ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣

٦٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٠٤

١٠٦ ، ١١٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٠

١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨٩

٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٨ ، ٢٣٠

٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥

٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠٢

٤١٥ ، ٤١٧ ، ٥١٦ ، ٥٥٤

الأقار : ١٧٠

الآلان : ٢٩ ، ٩٢

الآلماني ، قبائل : ٧٧

الإمبراطورية الرومانية : انظر الدولة الرومانية

الأوس : ٦٧

أباد : ٦٧

الإيطاليون : ٤٠٩

البابوية : ٣٦٢ ، ٤٣٠

البرانس ، قبيلة : ٢٠٢

البربر : ١٧ - ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٤٠

٤٩ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣

٧٤ ، ٨٣ - ٨٦ ، ٩٨ ، ١١٥ ، ١١٦

١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٤٠

١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٢ - ١٦٤

١٦٦ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٧

٢٠١ - ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧

٣٣٧ . ٣٣٨ . ٣٤١ . ٣٤٠ . ٣٤٣ . ٣٤٢
٣٤٣ . ٣٤٥ . ٣٤٦ . ٣٤٧ . ٣٤٨
بنو كلاب : ١٢٣
بنو كنانة : ٦٧
بنو نيب : ٣٨٣
بنو مدرار : ٣٠٩
بنو مغيث : ٢٠٢
بنو منذر : ٦٧
بنو هشام الحنظليون : ٣٣٦ . ٣٨٥ . ٣٨٦
٣٩١ . ٤٩٦ . ٤٩٨
بنو يفرن : ٤٩٣ . ٤٩٤
سبع : ٦٦
ثقيف : ٦١

ج - ز

جند : ٦١ . ١٢٢
جلائق : ٢١٠ . ٢١٨ . ٢٢٣ . ٢٢٥
٢٢٩ . ٣٥٧ . ٤٠٩ . ٥٦١
حجازيون : ٧٠
خزورية : ١١٦
حير : ٦٦ . ٨٤ . ١٤٠
خزاعة : ٦٧
خزرج : ٦٧
أخلافه الأندلسية : ٤٠٢ . ٤١٠ . ٤٤٠
٤٦٨ . ٥٧٢ . ٥٨٥
الأخلاف الإسلامية : ٥٧٤
أخلافه الأموية : ١٣٢ . ١٤٠ . ١٥٣
٣٩٦ . ٤٦٥ . ٤٧٣ . ٤٨٩ . ٥٣٣ . ٥٥٨
الأخلاف العباسية : ٢٣٠ . ٢٣١
الأخلاف الفاطمية : ٣٩٢ . ٤٥٠
أخوارج : ٦٨ . ١٤٨
خشم : ٨٤
الدعوة الفاطمية : ٣٩١ . ٣٩٣
الدولة الأموية : ١٩ . ١٣٨ . ١٣٩
١٤٠ . ١٤٤ . ١٨٩ . ١٩٠ . ٢٢٢
٢٧٨ . ٣٣٩ . ٣٤٧ . ٣٩٢ . ٤٠٢
٤٠٧ . ٤٠٨ . ٤٢٣ . ٥٢٢ . ٦٠٥

٤٥٦ . ٤٦١ . ٤٨٠ . ٤٩٨ . ٥٠٣
٥٠٦ . ٥٢٩ . ٥٣٠ . ٥٣٢ . ٥٧٢
٥١٧ - ٥٧٩ . ٥٨٥ . ٥٨٩ . ٥٩٢
٦١٥
بنو بزاز : ٤٦٧ . ٦١٦
بنو نجيب : أنظر بنو هشام .
بنو تميم : ٤٧ . ٦٧ . ٥٢٤
بنو جفنة : ٦١
بنو حنظلي : ٢٩٩ . ٣٧١
بنو جهور : ٥٢١
بنو حجج : ٣٢٧ - ٣٢٩ . ٣٨١
بنو حدير : ٥٢١ . ٥٣٥
بنو حفصون : ٢٣٥
بنو حمدان : ٤٠٧
بنو حمود : ٦١٥ . ٦٢٢
بنو خزر : ٤٤٩ . ٤٥٠
بنو خلدون : ٣٢٧ . ٣٢٨
بنو دانس : ٣٠١
بنو ذوالنون : ٣٠٣ . ٣٣٥ . ٣٣٦
٣٨٣
بنو رستم : ٣٠٩
بنو شريط : ٣١٥ . ٣٨٣
بنو شهيد : ٢٠٢ . ٣٠٨ . ٣١٤ . ٥٢١ . ٥٦٥
بنو ضريف : ٢٥٤
بنو عامر : ٥٦٥ . ٥٧٢ . ٥٧٧ - ٥٨٠
٥٨٢ . ٥٨٥ - ٥٨٧ . ٥٨٩ . ٥٩٤
٥٩٦ . ٥٩٧
بنو العباس : ١٢٨ . ١٤٤ . ١٤٦
١٤٨ . ١٦٠ . ١٩٤ . ٢٢٦ . ٣٠٩
٣١٤ . ٣٩٢ . ٣٩٣
بنو عصام : ٣٩١
بنو عمرو بن موسى : ٣١٥
بنو غومس : ٥١٠ . ٥٥٩ . ٥٦٠
٥٨٣
بنو فضيس : ٥٢١ . ٥٦٥
بنو قسي : ٢٣٥ . ٢٥٣ . ٢٩٧
٣١٠ . ٣١٥ . ٣٢٢ . ٣٢٣ . ٣٣٦

٢٦ ، ٢٧ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٦ —
 ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ،
 ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ،
 ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧ ،
 ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ،
 ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،
 ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٢١ — ١٣٣ ،
 ١٤١ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
 ١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٩١ ،
 ١٩٤ ، ٢٠٠ — ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ،
 ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٦٥ ،
 ٢٦٨ ، ٢٨٨ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ،
 ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ،
 ٣٧٢ ، ٣٧٨ ، ٣٩٣ ، ٤٠٨ ، ٤٢٢ ،
 ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،
 ٤٤٠ ، ٤٨٠ ، ٦٠٦ .

الغالليون ؛ ٩٣

غسان ؛ ٦٧

غطفان ؛ ٦٧

غمارة ، قبائل ؛ ٤٥١ ، ٥٠٥

ف - ق - ك

الفاطميون ؛ ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ،
 ٤٠٦ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٩٢ ،
 ٥٢٨
 الفتية العاصريون ؛ ٥٨١ — ٥٨٩ ، ٥٩٠ ،
 ٥٩١
 الفرنج ؛ ٢٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
 ٨٢ ، ٨٦ — ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٦ ،
 ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ،
 ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،
 ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
 ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،
 ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢٠٩ ،
 ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٦٤ ،
 ٤٢٣ ، ٤٩١ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٦٠٠

الدولة البيزنطية ؛ ٥٣ ، ٢٧٨ ، ٣٩٢ ،
 ٤١٤ ، ٥١٩

الدولة الرومانية ؛ ١٤ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
 ٣٥ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢

دول الطوائف ؛ ٢٧٨ ، ٣٣٦ ، ٤٣٣ ،
 ٦٢٢ ، ٦٢٣

الدولة العامرية ، ٥٢٦ ، ٥٦٦ ، ٥٨٥ ،
 ٦٠٣

الدولة العباسية ١٤٤ ، ٢٣١ ، ٢٧٨ ،
 ٢٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٥١٩

الدولة الفاطمية ؛ ٣٩١ ، ٤١٠ ، ٤١٤

دولة الفرس ؛ ٨٩

ربيعة ؛ ٦٧

الروم ، الرومان ؛ ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ،

٢٢ ، ٢٥ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ٧٤ ،

٩٣ ، ١٠٥ ، ١٧٤ ، ٣٧٤

زناطة : ٢٥ ، ١١٧ ، ١٤٩ ، ٢٠٢ ،

٣٩١ ، ٤٣٩ ، ٤٥٠ ، ٤٨٠ ، ٤٨٦ ،

٤٩٢ — ٤٩٤ ، ٥٠٦ ، ٥٥٦ ، ٥٨٣

س - ع

الشاميون ؛ ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٤٩ ، ٢٠١ ،

الشوابيون ؛ ٢٩ ، ٩٢

الشيعة ؛ ١٣٩ — ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٣٩٢ ،
 ٤٤٩ ، ٤٥٠

الصفارية ؛ ٦٨ ، ١١٦ ، ١١٧

الصقالبة ؛ ٢٠٢ ، ٢٤٦ ، ٢٧٣ ،

٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠٨ ، ٣٨٧ ، ٣٤٣ ،

٣٩٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ،

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ،

٤٧٦ ، ٥٣١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٥٦٩ ،

٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٨٤ ، ٥٨٩ ،

صنهاجة ؛ ٢٥ ، ٣٩٢ ، ٤٥٠ ، ٤٨٠ ،

٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٩٠ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨ ،

٦١٦

العبيديون ؛ أنظر الفاطميون

العجم ؛ ٢٧٣

العرب ؛ ١٤ ، ١٥ ، ١٨ — ٢٠ ، ٢٥ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ،
٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ،
٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ،
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ،
٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ،
٢٣٧ - ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،
٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،
٢٦٨ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ - ٢٩٥ ، ٣٠١ -
٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ،
٤٢٣ ، ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٦٣ ،
المستعربون ؛ أنظر النصارى المعاهدون
المصريون ؛ ٧٠
مصمودة ؛ ٢٠٢ ، ٢٥٤ ، ٢٧٣ ، ٣٠١ ،
٣٣٥
مضر ، المضرية ؛ ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٤ ، ١٢٠ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٥١ ،
١٥٣ ، ١٥٥ ، ٢٠١ ، ٢٢٢ ، ٢٥٧ ،
٥٧٨
مغراوة ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٠٦ ، ٥٥٦ ،
مغيلة ؛ ١٤٩
ملكة أراجون ؛ ٢٣٣
المملكة الإسبانية النصرانية ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ،
٢٥٨ ، ٢٨١ ، ٢٩٨ ، ٣٥٦ - ٣٥٩ ،
٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٩ ،
٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٤٢٣ ، ٥٢٠ ،
ملكة أكوتين ؛ ٢٠٦
ملكة الفرنج ؛ ٥٣ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
٨٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٢ ،
١٥٣ ، ١٨١ ، ٢٠٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ،
٣٦٤ ، ٤١٠ ، ٤٢٣ ،
ملكة غرناطة البربرية ؛ ٢٠٣
ملكة القوط ؛ ٣٠ ، ٣٧ ، ٤٩ ، ٦٣ ،

٦٠٤ ، ٦٠٦ ،
الفرنج المبروفنجية ؛ ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،
١١٤ ، ١٣١ ،
الفهرية ؛ ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ،
الفيكنج ؛ ٢٥٨
القبائل الجرمانية ؛ ١٧ ، ٢٧ ، ٥٣ ، ٦٤ ،
٧٦ ، ٩٢ - ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ،
١١٤ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
القبائل السكونية ؛ ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ،
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ٢٢٤ ،
القبائل العربية ؛ ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
٣٣١ ، ٥٥٣ ،
القبائل الوثنية ؛ ٧٧ ، ٩٤ ، ١١٢ ،
القرامطة ؛ ٤٩٢
قريش ؛ ٦٧ ، ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٥٩١ ،
قضاة ؛ ٦٧
القوط ؛ ٢١ ، ٢٧ - ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ،
٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ،
٥٢ - ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ،
٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٢ ،
٩٣ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ،
١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٧١ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ،
٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
٢٦٥ ، ٢٩١ ، ٣٢٧ ، ٣٧٣ ، ٤٦٤ ،
٥٤٨ ، ٥٤٩ ،
القيسية ؛ ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٨٧ ،
كتامة ، ٢٥ ، ٣٣٥ ،
الكرسى الرسول ؛ ٣٦٢

ل - ي

لحم ؛ ٢٣ ، ٦٧ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ٣٢٧ ،
اللونبارد ؛ ١٧١ ، ٤٠٩ ،
الحجوس ؛ أنظر النورمان .
مدغرة ، قبيلة ؛ ٢٠٢
مديونة ، قبيلة ؛ ٢٠٢
المسلمون ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٤٢ ،
٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٢ ،

٥٧٩ ، ٥٦٢
نصارى الشمال ؛ ١٢٣ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ،
٢٦٦ ، ٢٥٨ ، ٢٢٣ ، ١٥٨ ، ١٥٣
٢٩١
النصارى المعاهدون ؛ ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٣٥ ،
٢٥٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
٢٧٠ ، ٢٩١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٤٦٤ ، ٥١٧ ،
النصرانية ؛ ٧٧ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٩ ،
١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٣٥ ،
١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ٢٠٣ ،
٢١٨ ، ٢٣٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ،
٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٣٠١ ، ٣٣٨ ، ٤١٠ ،
٤١٥ ، ٤١٧ ، ٥١٨
نفزة ، قبيلة ؛ ٤٠ ، ١٤٨ ، ٢٠٢ ، ٢٧٢ ،
النورمان ؛ ٢٥٨ - ٢٦١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،
٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٤٣٧ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ،
حنزبل ؛ ٦٧
هواراة ؛ ٢٥ ، ٢٠٢ ، ٣٣٥
هوازن ؛ ٣٢٥
الهون ؛ ٢٩
الهون ؛ ٢٩
الوندال ؛ ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٣ ،
٩٢
اليمينية ؛ ٦٦ ، ٨٢ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،
١٢٤ - ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ،
١٤٢ ، ١٤٩ - ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،
١٦٤ ، ١٩١ ، ٢٠١ ، ٢٢٢ ، ٣٢٧ ،
٥٧٨ ، ٣٢٨
اليهود ؛ ٣١ - ٣٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ،
٦٢ ، ٦٤ ، ١٧٠ ، ٤٥٧ ، ٤٦٤ ،
٤٦٥

٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٧٢
مملكة المونبارد ؛ ٥٣
مملكة ليون ، جليقية ؛ ١٧١ ، ٢١٠ ،
٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٨١ ، ٣٠٧ ، ٣٥٧ ،
٣٦٤ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ،
٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٤٤٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ،
٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٥ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ،
٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٥٨ ، ٥٧٦ ،
مملكة نافار ؛ ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٥٤٦ ،
٥٤٧
الموالي ؛ ٢٠٢ ، ٢٤٦ ، ٣٢٤ ، ٤٠٨ ،
٤٨٠
المولديون ؛ ٢٠٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٤ ،
٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
٣٠١ ، ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ - ٣٢٨ ،
٣٣١ ، ٣٣٨ ، ٣٥٩ ، ٣٧١ - ٣٧٣ ،
٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٤١٧ ، ٤٤٠ ، ٤٦٣ ،
٤٦٤
النصارى ؛ ٢٦ ، ٣٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ،
٦٢ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ٨٤ ،
٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٣ ، ١١٢ ،
١١٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
٢٠٥ - ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣٢٤ ،
٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٨٠ -
٣٨٤ ، ٤٥٧ ، ٥١٤ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ ،

فهرست الأعلام

ابن حزم الفيلسوف؛ ١٢٧، ٢٤٧، ٢٥٧،
 ٢٧٤، ٣١٧، ٣٤٥، ٤٥٥، ٤٨٧،
 ٤٨٨، ٥٠١، ٦٠٣، ٦٠٩، ٦١١،
 ٦١٢، ٦٢٠،
 ابن حمدون؛ ٣٠٥،
 ابن حوقل؛ ٣٩٩، ٤٠٧،
 ابن حيان، أبو مروان؛ ١٠٦، ١٢٧،
 ١٩٢، ١٩٦، ٢٣٨، ٢٥٧، ٢٧٣،
 ٢٨٧، ٢٩٥، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٢١،
 ٣٣٧، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٩٨،
 ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٨،
 ٤٧٥، ٤٧٩، ٥١٨، ٥٢٤، ٥٢٨،
 ٥٣٢، ٥٦٧، ٥٧٢، ٦٠٥، ٦٠٦،
 ٦١١،
 ابن خلدون؛ ٤٧، ٥٣، ١٠٥، ١١٥،
 ١٤٧، ١٩٤، ٢٠٧، ٢١٢، ٣٢٧،
 ٤٤٥، ٤٨٠، ٤٨٨، ٥٣١،
 ابن خلكان؛ ١٠٣، ١٤٧،
 ابن دحية البلنسى؛ ٢٨٠،
 ابن دراج القسطلی، أبو عمر؛ ٥٠٤،
 ٥٠٥، ٥٠٨، ٥٥٧، ٥٦٧، ٥٧٦،
 ابن ذكوان، (أبو العباس)؛ ٥٢٧،
 ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٥، ٥٨٣، ٥٩١،
 ٥٩٣، ٥٩٩،
 ابن زيان؛ ٨٦،
 ابن شاکر، ٢٩٦،
 ابن شكوح، أمير البحر؛ ٢٩٢،
 ابن عبد الحكم؛ ٤٧، ٥٦، ١٠٤، ١٠٥،
 ابن عبد البر؛ ٢٨٣،
 ابن عذارى؛ ١٠٥، ٦٠٣،
 ابن عطف؛ ٣٢٦، ٣٧٠،
 ابن عياش، أبو عبدالله؛ ٥٠١، ٥٢١، ٥٢٢،
 ابن غالب؛ ٢٠١،

— ١ —

أبان بن عبدالله؛ ٣٣٢، ٣٣٤،
 إبراهيم الإمام؛ ١٤١، ١٤٢، ١٤٣،
 إبراهيم بن حجاج؛ ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٣،
 ٣٧١،
 إبراهيم بن شجرة؛ ١٨٣،
 إبراهيم بن عثمان بن بشار؛ أنظر أبو مسلم
 أبلو، الكونت؛ ٢٥٣،
 ابن الأبار التضاعى؛ ٣٢٥، ٤١٨، ٤٦١،
 ابن أبي يزيد المصرى؛ ٥٧٥،
 ابن الأثير؛ ٤٧، ٧٧، ١٠٤، ١٠٥،
 ١٤٧، ٢١٢، ٣١٨، ٤٢٠، ٥٣١،
 ابن الأعلب؛ ٣١٤،
 ابن التياقي؛ النديم؛ ٥٢٦،
 ابن الحجاب، عبيد الله؛ ١٠٥، ١٠٦،
 ١١١، ١١٥، ١١٦، ١١٧،
 ابن الخطيب، لسان الدين؛ ٣٤٠، ٣٨٨،
 ٣٨٩، ٤٠٩، ٤٦١، ٤٦٨، ٤٧٤،
 ٥١٤، ٥١٧، ٥١٨، ٥٢٣، ٥٢٥،
 ٣٤٠، ٣٦٣، ٥٣٢، ٥٧٨، ٥٧٩،
 ٦٠٣،
 ابن الطرييشة؛ ٣٣٦،
 ابن العراف، النديم؛ ٥٢٦،
 ابن الفرضى؛ ١٢٧،
 ابن القوطية، أبو بكر؛ ٦٠، ١٢٧،
 ٢٤٠، ٢٧٢، ٣١٧، ٤٥٨، ٤٧٠،
 ابن بسام؛ ٦٠٠،
 ابن بشكوال؛ ١٠٦،
 ابن بقنة، أبو جعفر؛ ٦١٣، ٦١٤،
 ٦١٦، ٦١٨،
 ابن جلجل، سليمان بن حسان؛ ٤١١، ٤١٢،
 ابن حزم، أحمد بن سعيد، الوزير؛ ٣٩٨،
 ٤٨٧، ٥٠١، ٥٢١، ٥٨٢، ٥٩١،

أحمد بن دحيم بن خطاب ؛ ٤٩١
 أحمد بن زياد اللخمي ؛ ٣٦٩
 أحمد بن عباس ؛ ٦١٧
 أحمد بن عبد الله ؛ ٣٦٩
 أحمد بن عبد الملك بن شهيد ؛ ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٦٢
 أحمد بن عبد ربه ، أبو عمر ؛ ٢٢١ ، ٣١٠ ، ٣٦٩ ، ٣٤٧ ، ٣٣٠ ، ٣٢٢ ، ٣١١ ، ٤١٩
 أحمد بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٢٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٣ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٤١٩
 أحمد بن محمد بن حدير ؛ ٣٦٩ ، ٤١٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٨ ، ٥٢١
 أحمد بن محمد بن زياد ؛ ٤١٩
 أحمد بن مسلمة ؛ ٣٧١
 أحمد بن معاوية القط ؛ ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٦٣
 أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ؛ ٣٢٨
 أحمد بن يعلى ؛ ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٥٤٠
 أدريان ، الإمبراطور ؛ ٤٥٩
 إدريس بن إدريس الحسني ؛ ٢٣٨
 إدريس بن عبد الله الحسني ؛ ٦٠٣
 إدريس بن علي بن حمود ؛ ٦١٠ ، ٦١٦ ، ٦١٨
 إدريس بن يحيى المعتلى (العالى) ؛ ٦١٩ ، ٦٢٠
 إدريس بن يحيى بن إدريس (السامي) ؛ ٦٢٠
 الإدريسي ، الشريف ؛ ٤٨ ، ٤٠١
 أرختنا بنت عمر بن حفصون ؛ ٣٧٥ ، ٣٧٧
 أردونيوس الثاني ، ملك ليون ؛ ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٤٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨
 أردونيوس الثالث ؛ ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٤
 ٥٤٦ ، ٥٦٧
 أردونيوس الرابع ملك ليون ؛ ٤١٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧
 أرذبيلش الرياحي ؛ ٣٧٠
 أرمانوس ، الإمبراطور ؛ ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٤٢

أبن غومس ؛ ٥٨٤
 أبن مناو ؛ ٥٩٧ ، ٥٩٨
 أبن هيرة ؛ ١٤٣
 أبن وليد الكلبي ؛ ٣٦٩
 أبو الخطار ؛ حسام بن ضرار الكلبي ؛ ٦٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩
 أبو الثماخ زعيم اليمنية ؛ ٢٥٢
 أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ؛ ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٩١
 أبو الفرج الإصفهاني ؛ ٤٥٦
 أبو الفتوح بن ناصر ؛ ٥٩٠
 أبو القاسم
 أبو القاسم بن يوسف الفهرى ؛ ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨٧
 أبو المطرف بن عون الله ؛ ٥٦٠
 أبو المهاجر الأنصاري ؛ ٢٠
 أبو بكر الأهري ؛ ٤٥٦
 أبو بكر الزبيدي ؛ ٥٢٧
 أبو بكر بن معاوية القرشي ؛ ٤٥٨ ، ٤٧٠
 أبو ثور بن قسي ؛ ١٧٢ ، ٢٢٤
 أبو صفوان حاكم سرقسطة ؛ ٢٢٨
 أبو عامر بن شهيد ؛ ٦١١ ، ٦١٣
 أبو عبد الله الحسني ؛ ٤٥٦
 أبو علي القالي ؛ ٤١٢ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٧٠ ، ٥٢٦
 أبو كعب بن عبد البر ؛ ٢٣٣
 أبو مسلم الخراساني ؛ ١٤١ - ١٤٤
 أبو نور بن أبي قررة اليفرنى ؛ ٦٢٠
 أبو هاشم عبد الله ؛ ١٤١
 أبو يحيى التجيبى ، الأنقر ؛ ٣٣٦ ، ٣٣٧
 أتانا جلد ابن تيودمير ؛ ١٢٤
 آتيللا الترى ؛ ٢٩
 اجنهارت ؛ ١٦٩ ، ١٧٨
 إچيكا ؛ ٣٢ ، ٣٣
 أحمد بن اسحاق ؛ ٣٨٦ ، ٣٨٧
 أحمد بن البراء ؛ ٣٢٧
 أحمد بن برد (أبو حفص) ؛ ٥٥٧ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥ ، ٦٠٩ ، ٦١١

٢٢٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،
 ألفونسو الثالث ، الكبير ؛ ٢٩٥ ، ٢٩٨ ،
 ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٧ ،
 ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٧٨ ،
 ألفونسو الرابع ؛ ٣٨٤ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ،
 ألفونسو الخامس ؛ ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٢ ،
 ٥٤٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٧٦ ،
 ألفونسو القس (جد ابن حفصون) ؛ ٣٠٣ ،
 أم الأصبح أخت عبد الرحمن ؛ ١٤٨ ،
 أمية بن إسحاق ؛ ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ،
 أمية بن عبد الحكم ؛ ٢٥٥ ،
 أمية بن عبد الرحمن ؛ ٢٣٤ ،
 أمية بن عبد الرحمن العراقي ؛ ٦١٤ ، ٦١٥ ،
 أمية بن عبد الغافر ؛ ٣٢٨ ،
 أمية بن عبد الملك بن قطن ؛ ١٢١ ، ١٢٤ -
 ١٦٠ ،
 أمية بن عيسى بن شهيد ؛ ٣٠٩ ،
 أمية بن معاوية بن هشام ؛ ٢٥٣ ،
 آنزيموند ؛ ١٣١ ، ١٣٥ ،
 أنسلم ؛ ١٧٨ ،
 أنشودة رولان ؛ ١٧٧ - ١٨٠ ،
 أنيجو أريستا ؛ ٣٦٥ ،
 أوباس ؛ ٣٤ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٢٠٨ ،
 أوتو الأكبر ؛ ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،
 ٤٣٠ ، ٤٣١ ،
 أوتو الثاني ؛ ٤٤٨ ،
 أوراكا بنت فرنان كوثالث ؛ ٥٣٨ ، ٥٣٩ ،
 ٥٤٠ ،
 أورسيوس ، المؤرخ ؛ ٤١١ ، ٤١٢ ،
 ٤٥٦ ،
 أورليوس ؛ ٢١٤ ، ٢١٧ ،
 أورية بنت موسى ؛ ٢٩٦ ،
 الأوزاعي ، الإمام ؛ ٢٢٦ ،
 أوغسطس ، الإمبراطور ؛ ٤٥٩ ،
 أولوخيو ، سان ؛ ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ،
 إيجلونا ؛ ٧٠ ، ٧١ ،

أرمنجو ، الكونت ؛ ٥٩٤ ،
 أرموزندة ، ابنة بلايو ؛ ٢١٠ ،
 أرنولد ؛ ١٠٨ ،
 أورزندا ؛ ٢١٤ ، ٢١٦ ،
 أوزار ، الكونت ؛ ٢٥٣ ،
 أوزار ؛ ٣٦٥ ،
 إسحاق الموصلی ؛ ٢٧٨ ،
 إسحاق بن إبراهيم العقيلي ؛ أنظر ابن عطف
 إسحاق بن محمد البرزالي ؛ ٦٢١ ،
 إسحاق بن المنذر ؛ ٢٤٨ ،
 إسحاق بن محمد القرشي ؛ ٣٧٣ ،
 أسد بن الحرث ؛ ٣٠٣ ،
 اسكندر سفروس ؛ ٢٨ ،
 أسلم بن عبد العزيز بن هشام ؛ ٤١٩ ،
 أسماء بنت غالب ؛ ٤٧٨ ،
 إسماعيل بن عباد ، القاضي ؛ ٦١٦ ، ٦١٨ ،
 إسماعيل بن عبيد الله ؛ ١١٧ ،
 إسماعيل بن لب ؛ ٢٩٥ ،
 إسماعيل بن موسى بن ذى النون ؛ ٢٩٧ ،
 ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
 إسنا ، الكونت ؛ ٣٧٨ ،
 آسور فرناندز ؛ ٥٣٨ ،
 أصبغ بن سلمة ؛ ٥٥٨ ،
 أصبغ بن عبد الله ، ٢٣٤ ،
 أفلح الصقلي ، الفتى ؛ ٣٤٣ ، ٤٠٩ ،
 ٤٥٣ ، ٦٠٤ ،
 أكتافوس ، الإمبراطور ؛ ٤٥٩ ،
 أأريك ، ٢٩ ، ٤٤ ، ٧٧ ،
 ألبرو القرطبي ؛ ٢٦٦ ، ٢٦٨ ،
 إلبيرة الراهبة ؛ ٤٤٧ ، ٤٨ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ،
 ألتاميرا ، رافاييل ، ٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ،
 ٢٦٨ ،
 ألفابدة ؛ ٧٩ ،
 ألفونسو العالم ؛ ٣٧ ،
 ألفونسو ، أمير ليون ؛ ١٦٧ ،
 ألفونسو الأول (دوق كانتبريا) ؛ ١٣٦ ،
 ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ،
 ٣٥٧ ،
 ألفونسو الثاني ، العفيف ؛ ٢١٧ ، ٢٢٣ ،

بكر بن يحيى بن بكر ؛ ٣٢٦
 بكير بن ماهان ؛ ١٤١
 البلاذرى ؛ ٤٧ ، ١٠٤
 بلاجيوس دوق كانتبريا ؛ ٣٣
 بلايو (أو بلاجيوس) ؛ ٨٢ ، ٨٧ ، ٥٤
 ١٣٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٠
 بلايو بن برمودو ؛ ٥٠٩
 بلايو ، القديس ؛ ٥٤٣
 بلج بن بشر القشيري ؛ ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٨
 بلقين بن حبوس ؛ ٦١٧
 بلكترودة ؛ ٧٩
 بلكين بن زيري بن مناد ؛ ٤٤٩ ، ٤٥٠ ،
 ٤٥٣ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣
 بلزاربيوس ؛ ١٨
 بليق الفتي ؛ ٤٩٢
 بوريل ، الكونت ؛ ٤٤٧ ، ٤٩١
 بوسون ؛ ٤٢٥ ، ٤٢٦
 بهار ، أم الأمير عبد الله ؛ ٣١٨
 بهلول بن مروان ؛ ٢٢٨
 بهير أم الأمير محمد ؛ ٢٨٥
 بيتر ، ملك بلغاريا ؛ ٤١٥
 بيدال مثنديث ، المؤرخ ؛ ١٧٠ ، ١٧٣ ،
 ١٧٧ ، ١٨١ ، ٤٤٨ ، ٥١٣ ، ٥٣٣
 تاسيتوس ؛ ٢٨
 التيجاني ؛ ٥١٧
 تراچان ، الإمبراطور ؛ ٤٥٩
 التروبادور ؛ ٤٣٦
 تريسا بنت برمودو الثاني ؛ ٥٢٩ ، ٥٤٣
 تليد الفتي ؛ ٤٥٧
 تمام الفتي ؛ ٤٠٩
 تمام بن عامر الثقفي ؛ ٣٠٩
 تمام بن علقمة اللخمي ؛ ١٥٠ ، ١٥٧ ،
 ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٩٥ ،
 ٢١٣
 تميم بن معبد الفهري ؛ ١٣٣
 تودقالد ؛ ٧٩
 تيودورا ، الإمبراطورة ؛ ٢٨٠

إيجهارد ؛ ١٧٨
 إيزيدور الباجي ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٥ ،
 ٦٢ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٢٠٦
 إيضا ؛ ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠
 إيمون ؛ ٤٢٩
 أيوب بن حبيب اللخمي ؛ ٧٢
 أودو ، دوق أكويتين ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،
 ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٦ ،
 ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١١١ ،
 ١١٣ ، ١٣٥
 أوركا ، أميرة نافار ؛ ٥٤٦ ، ٥٤٧

ب - ت - ث

باديس بن حبوس ؛ ٤٥٨ ، ٦١٧ ، ٦٢٠ -
 ٦٢٢
 باسيه ، المستشرق ؛ ١٨١
 ببين القصير ؛ ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٦٨ ،
 ١٧١ ، ٢٣١ ، ٢٦٣
 ببين بن شارلمان ؛ ٤٢٤
 ببين دي هرستال ؛ ٧٩
 بتروس ، اللوق ؛ ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٠
 بدر مولى عبد الرحمن الداخل ؛ ١٤٨ ، ١٥٠ ،
 ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٤ ، ١٩٠
 بدر الصقلبي ؛ ٣٤٢
 بدر بن أحمد ، الحاجب ؛ ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،
 ٣٨١ ، ٤١٨ ، ٤١٩
 برت ، ملكة برجونية ؛ ٤٢٧
 برمودو ابن فرويلا ؛ ٢١٧ ، ٢٢٣
 برمودو الثاني ؛ ٤٩٠ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ،
 ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ،
 ٥١٣ ، ٥٣٠ ، ٥٤٥ ، ٥٩٧
 برنار ، القديس ؛ ٤٣١
 بريهة بنت يحيى أم المنصور ؛ ٤٧٠
 بسيل الثاني ، الإمبراطور ؛ ٥٥٩
 بشر بن صفوان الكلبي ؛ ٨١ ، ٨٢
 بشر بن مروان ؛ ٢٤
 بشرى الفتي ؛ ٥٧٧
 بقى بن مخلد ؛ ٢٧٣ ، ٣١١ ، ٣٤٧

جيبون ، إدوارد ، ٤٤ ، ٨٩ ، ١٠٧ ،
 جيرولدوس ؛ ٤٣٢
 جيوم دى تولوز ؛ ٢٢٤ ، ٢٣٢ ، ٣٥٤
 جيين دى تولوز ؛ ٢٦١
 حارث بن بزيغ ؛ ٢٨٧ ، ٢٨٨
 الحباب بن رواحة الزهرى ؛ ١٣٣ ، ١٣٤ ،
 ١٥٠
 حباسة بن ماكسن ؛ ٥٩٨
 حبوس بن ماكسن ؛ ٥٩٠ ، ٥٩٨ ، ٦٠٥ ،
 ٦١٧
 حبيب بن أبى عبيدة الفهرى ؛ ٧١ ، ١١٧ ،
 ١١٨
 حبيب بن سودة ؛ ٣٧٢ ، ٣٧٣
 حبيب بن عبد الملك ؛ ١٥٩ ، ١٨٤
 حذيفة بن الأحوص القيسى ؛ ٨٢
 الحر بن بن عبد الرحمن الثقفى ؛ ٦٠ ، ٧٢ ،
 ٧٣ ، ١٥٩ ، ٢٠٨
 حزم بن وهب ؛ ٢٣٨
 حسان بن مالك ، أبو عبدة ؛ ١٥٠ ، ١٩٥
 حسان بن النعمان الغسانى ؛ ٢١ - ٢٣ ، ٢٥
 حسداى بن شبروت ؛ ٤٥٧ ، ٤٦٤
 الحسن بن أحمد بن عبدالودود السلمى ؛ ٤٩٣ ،
 ٤٩٤
 حسن بن عبد الغافر بن أبى عبدة ؛ ٢٧١
 الحسن بن كنون ؛ ٤٤٩ - ٤٥٣ ، ٤٩٢ ،
 ٤٩٣
 الحسن بن على بن أبى طالب ؛ ٦٠٣
 حسن بن يحيى المعتلى ؛ ٦١٨ ، ٦١٩
 الحسين بن على بن أبى طالب ؛ ١٢٥ ، ١٣٩ ،
 ١٤١ ، ١٦٢
 الحسين بن يحيى الأنصارى ؛ ١٦٦ ، ١٧٢ ،
 ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٤ ، ١٨٥
 خشخاش ، أمير البحر ؛ ٢٩٢
 الحصين الثقيل ؛ ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢١١
 حفص بن عمر بن حفصون ؛ ٣٠٣ ، ٣١٩ ،
 ٣٧٥ ، ٣٧٦
 حفص بن المرة ؛ ٣٢٥ ، ٣٣٢
 حكم بن سعيد القزاز ؛ ٦١٤

تيودريك الأول ؛ ٢٩
 تيودريك الثانى ؛ ٢٩
 تيودريك الرابع ؛ ٩٦ ، ١١٣
 تيودفرد ؛ ٣٣
 تيودمير القوطى ؛ ٣٣ ، ٤١ ، ٥٥ ، ١٢٤ ،
 تيودمير القس ؛ ٢١٧
 تيودوسيوس ، الإمبراطور ؛ ١٧
 تيوفيلوس ، الإمبراطور ؛ ٢٧٨ ، ٢٧٩
 ثعلبة بن سلامة الجذامى ؛ ١١٨ ، ١٢٢ ،
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٩٥
 ثعلبة بن عبيد الجذامى ؛ ١٦٦ ، ١٧٢ ،
 ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٤ ، ١٨٥
 ثوابة بن سلامة الجذامى ؛ ١٢٥
ج - ح - خ
 جدار بن عمرو المذحجى ؛ ١٥٠ ، ١٩٥
 جريجورى الثانى ، البابا ؛ ١٠٦
 جريجوبوس ؛ ١٦
 جريمولد ؛ ٧٩
 جعفر بن عبد الغافر ؛ ٣٢٤
 جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى ؛ ٤٦١
 جعفر بن عثمان المصحفى ؛ ٤٢٠ ، ٤٤٣ ،
 ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٦ -
 ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٤٨٠ ، ٥١٦ ، ٥٢٢
 جعفر بن على بن حدون الأندلسى ؛ ٤٤٩ ،
 ٤٥٠ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ ، ٥٢٢
 جعفر بن عمر بن حفصون ؛ ٣٥٦ ، ٣٧١ ،
 ٣٧٥
 جميلة العذراء ؛ ٢٥٤ ، ٢٥٥
 جهور بن عبد الملك ؛ ٤١٨
 جهور بن محمد بن جهور ، أبو الحزم ؛ ٥٧١ ،
 ٦٠٦ ، ٦٠٨ ، ٦١٤ ، ٦١٥
 جوذر الفقى ؛ ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٧٥
 جومث بن أنطونيان ؛ ٢٦٨ ، ٢٧٢ ،
 ٣١٢
 جوفد سالفو سانشيز ؛ ٥٤٣ ، ٥٤٤
 جوهر الصقلى ؛ ٣٩٢ ، ٤٤٩
 جيانجوس ، المستشرق ؛ ٦٣

درى الفقى ؛ ٤٠٩ ، ٤٧٥
 دسيوس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
 دوزى ، رينهارت ؛ ٦٢ ، ١١٦ ، ١٩١ ،
 ٤٥٨ ، ٤٢٠ ، ٤٠٧ ، ٣٧٤ ، ٢٦٢
 ٥١٣ ، ٥٣٣
 دولثديو ، القس ؛ ٢٩٩
 دوناس بن أبى روح ؛ ٦١٣ ، ٦١٤
 دونيا سانشا ؛ ٣٣٨
 ديبيل ، الزعيم الشعبى ؛ ٢٣٤
 ديسقوريدس ؛ ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٤
 ديسم بن إسحاق ؛ ٣٢٦
 الذلفاء ، أم عبد الملك المنصور ؛ ٥٥٥ ،
 ٥٦٤ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٨١ ، ٥٨٢
 ذو النون بن سليمان الهوارى ؛ ٣٠٣
 راتبرد ؛ ٧٩
 راجنفردي ؛ ٧٩
 الرازى المورخ ؛ ١١٥ ، ١٢٧ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٣٠٤ ،
 ٣٠٦
 رامون بوريل الثالث ؛ ٥٥٨
 راميرو الأول (رذمير) ؛ ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
 ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩
 راميرو الثانى (رذمير) ؛ ٣٨٤ - ٣٩٠ ،
 ٥٣٦ - ٥٣٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧
 راميرو الثالث ؛ ٤٤٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٩ ،
 ٤٩٠ ، ٤٤٥
 راميرو أباركا ؛ ٤٨٧
 رانكه ، المورخ ؛ ١٠٨
 ربيع بن زيد (ريشموندو) ؛ ٢٤١ ، ٢٤٨ ،
 ٣٥٢ ، ٣٩٨ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٥٨
 رتشارد ملك النورمان ؛ ٤٤٧
 ردريلك ، ملك القوط ؛ ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،
 ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
 ٧٠ ، ٩٥ ، ٢٠٥
 ردريلك الطليطلى ؛ ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧
 رزق بن نعمان الغسافى ؛ ١٥٨
 الرشيد ، هارون ؛ ١٦٨ ، ٣٣١
 الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ؛ ١٨٤

الحكم بن عبد الرحمن ؛ ٢٨٨
 الحكم بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
 الحكم المستنصر ؛ ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٤ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤٢١ ، ٤٤٣ ،
 ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ،
 ٤٦٦ ، ٤٧٣ ، ٤٩٢ ، ٥١٦ ، ٥٢٦ ،
 ٥٣٣ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ - ٥٤٧ ، ٥٩٧ ،
 ٦٠٢ ، ٦٠٥
 الحكم بن هشام ؛ ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٤٠ - ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٠٩ ، ٣٣٨ ،
 ٣٥٧ ، ٣٩٢ ، ٤٠٨ ، ٤٢٣ ، ٤٩١
 حلاوة أم الحكم بن هشام ؛ ٢٥٠
 حلال أم هشام بن عبد الرحمن ؛ ٢٢١
 حمدون بن بسيل ؛ ٣٠٧
 الحميدى ، أبو عبد الله ؛ ١٠٥
 حنظلة بن صفوان الكلبي ؛ ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨
 حيوه بن ملامسى الحضرمى ؛ ١٥٨ ، ١٥٩ ،
 ١٦٤
 خالد بن الوليد ؛ ٢٣
 خالد بن حبيب ، ١١٧
 خالد بن حميد الزناتى ؛ ١١٧ ، ١١٨
 خالد بن عثمان بن خلدون ؛ ٣٢٧ - ٣٢٩
 خلف بن حسين بن حيان ؛ ٥٢١ ، ٥٢٤ ،
 ٥٢٨
 خليفة بن مروان ؛ ١٦١
 خمينا ، الملكة ؛ ٣٦٣
 خمينو غرسييس ؛ ٥٤٦
 خير بن شاكر ؛ ٣٢٠
 خيران العامرى ؛ ٥٦٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠٤ -
 ٦٠٦ ، ٦٠٨ ، ٦١٤
 د - ز
 داجوبيرت ؛ ٧٨
 داود بن هلال (أبو معن) ؛ ١٦٥
 دحية الغسافى ؛ ١٨٣

٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ،
٥٧٠
سانشو غرسية الأول (أمير قشتالة) ؛ ٥٤٦ ،
٥٥٧ - ٥٦١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٦ ،
٥٩٧
سانشو غرسييس ؛ ٥١١
سانشو ولد أردونيو ؛ ٣٨٤ ، ٥٣٦
سانشو ولد راميرو ؛ ٣٩٠ ، ٥٣٩ ، ٥٤٧
سان ماييل ، القديس ؛ ٤٣١
سباجريوس ؛ ٧٧
سترايون ، الجغرافى ؛ ١٧١
سبيعة ، زوجة القاسم بن حمود ؛ ٦١٩
السرى بن الحكم ؛ ٢٤١
سموندى ؛ ١٠٨
سعد بن أبي هند ؛ ٢٢٦
سعد بن عبادة ؛ ١٦٦
سعد بن عمر المكى ؛ ٣٤٧
سعد بن محمد بن السليم ؛ ٣٤٣
سعدون الرعيني ؛ ٢٣٢
سعدون بن عامر (السرنباقي) ؛ ٣٠١ ، ٣٠٢
سعيد اليحصبي (المطري) ؛ ١٥١
سعيد بن الحسين الأنصارى ؛ ١٨٤ ، ١٨٥ ،
٢٢٢
سعيد بن الحكم الجعفرى ؛ ٤٦٢
سعيد بن أيوب ؛ ٤٠٦
سعيد بن سليمان بن جودى ؛ ٣٢٥
سعيد بن عباس القرشى ؛ ٢٩٦
سعيد بن عبد ربه ؛ ٣٤٧
سعيد بن عمر العكبي ؛ ٣٤٧
سعيد بن مستنة ؛ ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤
سعيد بن الأمير محمد ؛ ٢٨٧ ، ٢٨٨
سعيد بن المنذر ؛ ٣٧٦
سعيد بن هذيل ؛ ٣٧٠
السفاح ؛ أنظر عبد الله بن محمد بن علي
سفيان بن عبد ربه ؛ ٢٧٢
سكوت ، المؤرخ ؛ ٦٣
سلمة بن علي بن أبي عبدة ؛ ٣٤٣
سليط بن عبد الله بن عباس ؛ ١٤٢

رومانوس ، الإمبراطور ؛ أنظر أرمانوس
ريان الفتى ؛ ٣٤٣
ريكافرد ؛ ٢٦٨
رينو ، المستشرق ؛ ٤٣٧
ريوتيانوس ، الكونت ؛ ٣٥٨
زاوى بن زيرى بن مناد ؛ ٥٦٥ ، ٥٩٠ ،
٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٨ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ،
٦٠٨
زخرف ، أم الحكم بن هشام ؛ ٢٢٧
زرياب (أبو الحسن علي بن نافع) ؛ ٢٧٨
زكريا بن عمروس ؛ ٢٩٧
الزهراء (جارية الناصر) ؛ ٣٩٦
زهير العامرى ؛ ٥٦٣ ، ٦٠٨ ، ٦١٤ ، ٦١٧
زهير بن قيس البلوى ؛ ٢٠ ، ٢١
زياد بن أفلح ؛ ٤٦٧
زياد بن عبد الرحمن ، ٢٢٦
زيرى بن عطية ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٠٣ -
٥٥٦ ، ٥٥٦
زيادة الله بن مضر الطنبى ٥٢٦
زيرى بن عطية ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٠٣
زيرى بن مناد ؛ ٣٩٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠
زيلر ؛ ١٠٨

س - ش

سابور الفارسى ، الفتى ؛ ٤٥٧
سارة القوطية ؛ ٦٠ ، ٣٢٧
سافدرا ، المستشرق ؛ ؛ ٥١٣
سالم ، مولى عبد الرحمن ؛ ١٤٨
سانشو ، زعيم نافار ؛ ٣٦٥
سانشو ملك نافار ؛ ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٨٠ ،
٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥
سانشو ملك نافار (الثانى) ؛ ٤٨٩ ، ٤٩٥ ،
٥٣٦ ، ٥٤٠ ، ٥٤٢
سانشو ، ملك ليون ؛ ٤١٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ،
٤٤٧
سانشو غرسية (ابن فرتون) ؛ ٣٦٥ ، ٣٦٦
سانشو غرسية ، ملك نافار ؛ ٤٤٧ ، ٤٤٨ ،
٤٩٩ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ،

ص - غ

صاعد بن الحسن البغدادي ؛ ٤٩٩ ، ٥١٠ ،
 ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٦٧
 صالح بن علي ؛ ١٤٤
 صباح أم المؤيد ؛ ٤٥٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ،
 ٤٧٨ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٥٠١ - ٥٠٤
 صقر قریش ؛ ١٩٢ ، ١٩٣
 الصميل بن حاتم ؛ ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ،
 ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٩ ،
 ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٨٥
 الضبى ، أحمد بن يحيى ؛ ١٠٥
 الضحاك بن قيس الفهري ؛ ١٥٢
 صمويل ، اسم ابن حفصون النصراني ؛ ٣٣٣
 طارق بن زياد ؛ ٢٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
 ٤٥ - ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ ،
 ٨٥ ، ٤٧٠ ، ٥٠٦
 طالوت الفقيه ؛ ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ،
 الطبرى ؛ ١٠٤ ، ١٤٧
 طرسوس المجوسى ؛ ٥٧٩
 طرفة الفقى ؛ ٥٦٣ ، ٥٦٤
 طرفة بن لقيط ؛ ٢٤٧
 طروب ، جارية عبد الرحمن سن الحكم ؛ ٢٧٢ ،
 ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥
 طريف بن مالك ؛ ٤٠ ، ٤٨
 طوطة ، ملكة نازار ؛ ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
 ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٤١٧ ، ٥٤١ ، ٥٤٦
 عاصم بن مسلم الثقفى ؛ ١٩٥
 عامر بن عامر ؛ ٣٠٥
 عامر بن فتوح ؛ ٦٠٥
 عامر بن عمرو العبدري ؛ ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥٠ ،
 عائشة بنت أحمد بن قادم ؛ ٤٥٧
 عباس بن الوليد ؛ ٢٦٢
 عباس بن عبد العزيز القرشى ؛ ٣٧٠
 العباس بن عبد الله ؛ ٢٤٨
 عباس بن فرناس ؛ ٢٤٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٩ ،
 ٣١٠ ، ٣١١
 عباس بن ناصح الجزيرى ؛ ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،

سليمان المستعين ؛ ٤٠٠ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ،
 ٥٩٦ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥
 سليمان بن المرتضى ؛ ٦١٠ ، ٦١٢
 سليمان بن شهاب ؛ ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢١١
 سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية ؛ ١٩٧ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣٣
 سليمان بن عبد الملك ؛ ٥٦ ، ٥٩ ، ٧٠ ،
 ٧١ ، ٧٢ ، ٩١ ، ١٠٩ ، ١٣٨ ، ١٤١
 سليمان بن عبدوس ؛ ٢٩٦
 سليمان بن عمر بن حفصون ؛ ٣٧٥ ، ٣٧٦
 سليمان بن مرتين ؛ ٢٥٤ ، ٢٥٦
 سليمان بن هشام ؛ ٥٨٠ ، ٥٩١ ، ٦١٣
 سليمان بن هود ؛ ٦١٥
 سليمان بن يقظان الكلبي (الأعرابي) ؛
 ١٦٦ - ١٦٨ ، ١٧٠ - ١٧٣ ، ١٧٦ ،
 ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٨
 السمح بن مالك الخولاني ؛ ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٩ ،
 ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١٠٦ ، ٢٢٥
 ٥٢٤
 سنير ، الكونت ؛ ٣٣٩
 سوار بن حمدون القيسى ؛ ٣٢٤ ، ٣٢٥
 سوذى ، الشاعر ؛ ٩٥
 سيزبوت ابن وتيزا ؛ ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠
 سيلو ، ملك جليقية ؛ ٢١٤
 سيمونيت ، المستشرق ؛ ٧١ ، ٢٠٥ ،
 ٢٣٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧٦ ، ٣٧٤ ، ٥٢٧
 شارل الأصلع ؛ ٣٠٩ ، ٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٤٢٤
 شارلمان ؛ أنظر كارل الأكبر .
 شقنا بن عبد الواحد (الفاطمى) ؛ ١٦٢ -
 ١٦٦ ، ١٨٣ ، ٢١٣
 شلدريك ؛ ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣١
 شمر بن ذى الجوشن ؛ ١٢٥
 شنت ياقب ؛ أنظر ياقب القديس
 شنجول ؛ أنظر عبد الرحمن المنصور
 شهيد بن عيسى بن شهيد ؛ ١٩٥
 شيلون ؛ أنظر سيلو

عبد الرحمن بن علقمة اللخمي ؛ ١١٢ ، ١١٣ ،
 ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
 عبد الرحمن بن غانم ؛ ٣٠٧
 عبد الرحمن بن كثير اللخمي ؛ ١٢٦
 عبد الرحمن بن الأمير محمد ؛ ٢٩٥
 عبد الرحمن بن محمد (المرتضى) ٦٠٦-٦٠٨ ،
 ٦١٤
 عبد الرحمن بن مروان الجليقي ؛ ٢٩٦ ،
 ٢٩٩ - ٣٠٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،
 عبد الرحمن بن مطرف التنجيمي ؛ ٤٩٦ ، ٤٩٧ ،
 عبد الرحمن بن معاوية (الداخلى) ؛ ١٣٤ ،
 ١٤٧ - ١٥٢ ، ١٥٤ - ١٦٨ ، ١٧٢ ،
 ١٨٠ ، ١٨٢ - ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ،
 ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦٧ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٣١٠ ، ٣٢٨ ،
 ٣٣٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٦ ، ٤٠٨ ، ٤٢٢ ،
 ٤٤٢ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٣ ، ٤٩٨ ،
 ٥٥٣
 عبد الرحمن بن مغيث ؛ ١٩٥
 عبد الرحمن بن مقانا ؛ ٦١٩
 عبد الرحمن بن هشام (المستظهر) ؛ ٦١٠
 عبد الرحمن بن يوسف الفهرى ؛ ١٣٤ ، ١٥٠
 ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧
 عبد السلام بن بسيل الرومى ؛ ١٩٥
 عبد السلام بن يزيد بن هشام ؛ ١٨٦ ، ١٩١
 عبد العزيز بن أبي عبدة ؛ ٢٤٨
 عبد العزيز بن الناصر ؛ ٤٥٧
 عبد العزيز بن عباس ؛ ٣٠٥
 عبد العزيز بن مروان ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥
 عبد العزيز بن موسى بن نصير ؛ ٥٥ ، ٥٧
 ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٢٤
 عبد الغافر اليماني ؛ ١٥٨
 عبد الغافر اليحصبي ؛ ١٦٤
 عبد الغافر بن عبد العزيز ؛ ٢٩٧
 عبد القادر بن أبان ؛ ٢٢٤
 عبد الكريم بن مهران الغساني ؛ ١٩٥

٢٤٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
 عبد الأعلى بن وهب ؛ ٢٧٣
 عبد الجبار بن المغيرة ؛ ٥٨٠ ، ٥٨١
 عبد الحميد بن بسيل ؛ ٢٤٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٣
 عبد الحميد بن مغيث ؛ ٣٠٧
 عبد الرحمن الناصر ؛ ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
 ٢٦١ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،
 ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ - ٣٣٨ ، ٣٤٠ ،
 ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ،
 ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ -
 ٣٨٤ ، ٣٨٦ - ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،
 ٤٠٦ ، ٤٠٨ - ٤٢٠ ، ٤٣٠ ، ٤٤٠ ،
 ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٨٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ ،
 ٤٩٩ ، ٥١٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٩ ،
 ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٥٣ ، ٦٠٥
 عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٢٩ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٧١
 عبد الرحمن بن الحكم ؛ ١٩٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
 ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ - ٢٥٢ ،
 ٢٥٤ - ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
 ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ - ٢٨٢ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ،
 ٣١١ ، ٣٤١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،
 ٣٦٧ ، ٣٩٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٤٦ ، ٤٦٣ ،
 عبد الرحمن بن المنصور ؛ ٥١٠ ، ٥٢٩ ،
 ٥٣٠ ، ٥٣٣ ، ٥٥٤ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ ،
 ٥٧٠ - ٥٧٩ ، ٥٨٢ - ٥٨٥ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣
 عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ؛ ٣١٤ ، ٣٤٢
 عبد الرحمن بن حبيب ؛ ١١٨ ، ١٢٢ - ١٢٥ ،
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٨٢
 عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الصقلبي ؛ ١٦٩ ،
 ١٨٢ ، ١٨٣
 عبد الرحمن بن حفصون ؛ ٣٧٥
 عبد الرحمن بن رستم ؛ ٢٧١ ، ٢٧٢
 عبد الرحمن بن عبد العزيز التنجيمي ؛ ٣٣٦
 عبد الرحمن بن عبد الله الجليقي ؛ ٣٧٧
 عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ؛ ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
 ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٥ - ١٠٨ ، ١١١

عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ؛ ٢٢٥ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ،
 ٢٥١ - ٢٥٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٥٧ ،
 عبد الله بن أبي عامر ؛ ٤٧٠ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ،
 ٥٨٧
 عبد الله البلنسى : ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٤ ، ٤٢٣
 عبد الله بن الزبير ؛ ١٩ ، ٢١ ، ١٥٢ ،
 عبد الله بن الشمير بن عمير ؛ ٢٧٦ ،
 عبد الله بن بدر ؛ ٤٠٦ ،
 عبد الله بن حبيب ؛ ٣١١ ،
 عبد الله بن حجاج ؛ ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،
 عبد الله بن خالد ؛ ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٦٢ ،
 ١٩١ ، ١٩٥
 عبد الله بن سعد بن أبي السرح ؛ ١٥ ، ١٦ ،
 عبد الله بن طاهر ؛ ٢٤١ ،
 عبد الله بن عثمان ؛ ٢٢٣ ،
 عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ؛ ٤٠٨ ،
 عبد الله بن عبد العزيز المرواني ؛ ٤٩٧ ،
 ٤٩٩ ، ٥٠٠
 عبد الله بن عبد الملك بن مروان ؛ ٢٥ ،
 عبد الله بن علي ؛ ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ،
 ١٤٧ ، ١٩٩
 عبد الله بن قاسم الفهري ؛ ٦١٤ ،
 عبد الله قرلمان بن بدر ؛ ٢٧٧ ،
 عبد الله بن كليب ؛ ٢٦٠ ، ٢٦٢ ،
 عبد الله بن محمد ، الأمير ؛ ٣٠٠ ، ٣٠٤ ،
 ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ - ٣٢٩ ،
 ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ - ٣٤٧ ، ٣٦٣ ،
 ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٤٩٩ ، ٥٤٦
 عبد الله بن محمد بن أمية ؛ ٢٧٢ ،
 عبد الله بن محمد الزجالي ؛ ٤١٨ ،
 عبد الله بن محمد بن علي (السفاح) ؛ ١٤٣ ،
 ١٤٦ ، ١٤٧
 عبد الله بن محمد بن لب ؛ ٣٣٧ ، ٣٣٩ ،
 ٣٦٦ ، ٣٨٣
 عبد الله بن مروان ؛ ١٩ ، ٢٣ ،

عبد الله بن مروان الجليقي ؛ ٣٣٥ ، ٣٧٧ ،
 عبد الله بن مسلمة ؛ ٥٨١ ،
 عبد الله بن المنصور ؛ ٣٩٧ ، ٤٩٨ ،
 ٥٥٤
 عبد الله بن موسى بن نصير ؛ ٥٥ ، ٧٢ ، ٥٧ ،
 عبد الله بن يحيى ؛ ٢٦٢ ،
 عبد المطلب بن حبيب ؛ ٢٧٣ ،
 عبد الملك بن أبي الجواد ؛ ٣٢٦ ، ٣٣٥ ،
 عبد الملك بن إدريس الجزيري ؛ ٥٦٤ ،
 عبد الملك بن إدريس الخولاني ؛ ٥٢١ ،
 عبد الملك بن جهور ؛ ٣٤٧ ، ٤١٨ ،
 عبد الملك بن حبيب ؛ ٢٧٣ ،
 عبد الملك بن شهيد ؛ ٣٤٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ،
 عبد الملك بن العباسي القرشي ؛ ٢٩٥ ،
 عبد الملك بن عبد الله بن أمية ؛ ٣٠٩ ، ٣٤٣ ،
 ٣٤٤
 عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ؛ ٢٢٣ ،
 ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤
 عبد الملك بن عمر بن مروان (المرواني) ؛
 ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٩٤ ،
 عبد الملك بن قطن الفهري ؛ ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠ ،
 ١٢١ ، ١٢٢
 عبد الملك بن مروان ؛ ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
 ٢٥ ، ١٩٣ ، ١٩٥
 عبد الملك بن المنصور ، المظفر ؛ ٤٩٦ ،
 ٤٩٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ،
 ٥١٤ ، ٥٢٨ ، ٥٥٥ ، ٥٥٨ - ٥٧١ ،
 ٥٨٢
 عبد الملك بن موسى بن نصير ؛ ٥٥ ،
 عبد الملك بن هشام ؛ ٢٢٥ ،
 عبد الملك بن يزيد الأزدي (أبوعون) ؛ ١٤٣ ،
 عبد الواحد الروطي ؛ ٢٩٨ ،
 عبد الواحد المراكشي ؛ ٦٠٣ ،
 عبد الواحد بن إسحاق الضببي ؛ ٢٧٧ ،
 عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني ؛ ٢٧١ ،
 عبد الواحد بن يزيد الهواري ؛ ١١٨ ، ١١٩ ،
 عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث ؛ ٢٩٧ ،

عمر بن حفصون ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
 ٣٠٥ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ،
 ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،
 ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٥ ،
 ٣٧٠ ، ٣٧٢ - ٣٧٧
 عمر بن الخطاب ؛ ١٤ ، ٢٣ ، ١٩٣ ،
 عمر بن طلوت ؛ ١٦٤
 عمر بن عبدالعزيز ؛ ٧٣ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٢٢٢ ،
 عمر بن عبد الله ؛ ١١٧
 عمر بن عيسى البلوطي (أبو حفص) ؛
 ٢٤٢ ، ٢٧٩
 عمرو بن العاص ؛ ١٤ ، ١٥
 عمرو بن عبد الله بن عامر (عسكلاجة) ؛
 ٤٧٧ ، ٤٩٣
 عمرو بن عمرو بن عمرو ؛ ٢٩٧
 عمرو بن يوسف ؛ ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٩٧ ،
 عمربل بن تيملت ؛ ٥٣
 عنيسة بن سحيم الكلبي ؛ ٨١ ، ٨٢
 عيسى الرازي ؛ أنظر الرازي .
 عيسى بن الحسن بن أبي عبده ؛ ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٠٨
 عيسى بن دينار ؛ ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٧٣ ، ٣١١ ،
 عيسى بن سعيد (ابن القطاخ) ؛ ٥٠٦ ، ٥٢١ ،
 ٥٢٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ ، ٥٧٨
 عيسى بن شهيد ؛ ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٥ ،
 ٢٨٦ ، ٣٠٨
 عيسى بن فطيس ؛ ٤٦٢ ، ٥٠١ ، ٥٢١ ،
 عيسى بن مزاحم ؛ ٦٠
 عيسى بن منصور ؛ ٤٤٨
 عيشون بن سليمان بن يقظان ؛ ١٧٤ ، ١٧٦ ،
 ١٧٧ ، ١٨٤
 غاتون ، الكونت ؛ ٢٨٨
 غالب بن تمام بن علقمة ؛ ١٨٥
 غالب بن عبد الرحمن الناصري ؛ ٣٩٢ ،
 ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٦٢ ،
 ٤٧٦ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ،
 ٤٩٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢٢ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧

عبد الوهاب بن عباس ؛ ٢٤٨
 عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ؛ ٣١٩
 عبدون بن خزرون ؛ ٦٢١
 عبده ، زوجة المنصور ؛ ٥٢٩ ، ٥٧٠
 عبید الله المهدي ؛ ٣٩١
 عبید الله بن أبان بن معاوية ؛ ١٨٦ ، ١٩١
 عبید الله بن أمية بن الشالية ؛ ٣٢٦ ، ٣٧٠
 عبید الله بن عثمان ؛ ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
 ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،
 ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٥
 عبید الله بن قاسم ؛ ٤٤٨
 عبید الله بن يحيى بن إدريس ؛ ٣٤٧
 عبید الله بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٢١ ، ٣٢٢ ،
 ٣٤٣
 عبید الله بن يحيى بن أدريس ؛ ٣٤٧
 عبیده والى إفريقية ؛ ١٠٤
 عبيدة بن حميد ؛ ٢٣٦
 عبیده بن عبد الرحمن السلمى ؛ ٨٢ ، ٨٣
 عثمان بن أبي نسعة الخثعمي ؛ ٨٢ ، ٨٥ ،
 ١٠١ ، ٢٠٨
 عثمان بن عفان ؛ ١٥ ، ٦٨ ، ١١٦ ، ١٩٣ ،
 عثمان بن عمرو ؛ ٣٢٦
 عثمان بن نصر ؛ ٣٧٣
 عثمان بن نصر المصحفي ؛ ٤٦١
 عروة بن الوليد ؛ ١٣٢
 عزرة بن عبد الله الفهري ؛ ٨٢
 العزيز بالله ؛ ٤٥٣ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣
 عصام الخولاني ؛ ٣٤١
 عقبة بن الحجاج السلولي ؛ ١١١ - ١١٥ ،
 ١٢٠ ، ٢٠٩
 عقبة بن نافع الفهري ؛ ١٥ ، ١٩ ، ٢٠
 عكاشة الفزاري ؛ ١١٨ ، ١١٩
 العلاء بن مغيث اليحصبي ؛ ١٥٩ ، ١٦٠ ،
 ١٦١ ، ١٨٣ ، ٢١٢
 علي بن أبي طالب ؛ ١٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،
 ١٤١ ، ١٤٤
 علي بن حمود ؛ ٦٠٣ ، ٦٠٠ ، ٦٠٧ -
 علي بن وداعة ؛ ٥٩٧

٥٤٧ ، ٥٤٦ ، ٥٤٤ ، ٥٤٢ ، ٥٤٠
 فرويلا أخو الفونسو الأول ؛ ٢١٢ ، ٢١١
 فرويلا ، الكونت ؛ ٣٦١
 فرويلا الأول ؛ ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
 ٢١٦
 فرويلا ، أخو أردونيو ؛ ٣٨٤
 فلورا ؛ ٢٦٩
 فلورندا القوطية ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧
 فنلى ، جورج ، ١٠٨
 فون شلجيل ؛ ١٠٨
 فيدو كنت ؛ ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٨٠ ، ١٨٥
 قارله ، قلدوس ؛ أنظر كارل مارتل
 قارله بن بيبين ؛ أنظر كارل الأكبر
 القاسم بن حود المستعلي ؛ ٥٩٩ ، ٦٠٠ ،
 ٦٠٣ ، ٦٠٤ — ٦١٠
 القاسم بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٤٥
 قاسم بن مطرف بن ذى النون ؛ ٤٤٥
 القائم الفاطمي ، ٣٩١
 قسطنطين الأكبر ؛ ٢٨
 قسطنطين السابع ؛ ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤
 قسى ، الكونت ؛ ٢٥٧ ، ٢٩٦
 قطن بن عبد الملك ؛ ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤
 كاردون ، المستشرق ؛ ١٠٣
 كارل مارتل ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧ ،
 ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
 ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
 ١١٤ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٦٩
 كارل الأكبر ؛ ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ،
 ١٨١ ، ١٨٥ ، ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٥٣ ،
 ٢٦٣ ، ٢٨٥ ، ٤٠٣ ، ٤٩١
 الكاهنة ؛ ١٧ ، ٢٢
 كريب بن عثمان بن خلدون ؛ ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣٥
 كريزي ، إدوارد ؛ ١٠٨
 كسييلة بن لمزم ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢
 كلثوم بن عياض القشيري ؛ ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥

غرسية إنيجيز ؛ ٣٣٨ ، ٣٦٥
 غرسية أمير نأفار ؛ ٢٥٥ ، ٢٥٧
 غرسى فرناندز ؛ ٥١١
 غرسية الأول ، ملك نأفار ؛ ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ،
 غرسية الثانى ، ملك نأفار ؛ ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٤١٧
 غرسية سانشيز ، ملك نأفار ؛ ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،
 ٤٤٧ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥٤٤
 غرسية سانشيز الثانى (أمير قشتالة) ؛ ٥٤٦ ، ٥٤٧ ،
 غرسية سانشيز الثالث ؛ ٥٤٧ ، ٥٤٨
 غرسية ابن أردونيو ؛ ٤٤٣
 غرسية ابن الفونسو الثالث ؛ ٣٦٣
 غرسية ، ملك ليون ؛ ٣٧٨
 غرسية فرناندز ، كونت قشتالة ؛ ٤٤٧ ،
 ٤٤٨ ، ٤٥٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ،
 ٥١٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٣
 غريب بن عبدالله ؛ ٢٤٤
 الغزيرى ، ميخائيل ؛ ٥٥
 الغمر بن يزيد بن عبد الملك ؛ ١٩٩
 غياث بن علقمة اللحى ؛ ١٦٠ ، ١٦١

ف - ق - ك

فاتن ، الفتى ؛ ٥٨١
 فاطمة ، بنت الرسول ؛ ١٦٢
 فافيليا بن بلايو ؛ ١٣٦ ، ٢١٠
 فافيليا والد بلايو ؛ ٢٠٥
 فاليا ، ملك القوط ؛ ٢٩
 فالينس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
 فامبا ، ملك القوط ؛ ٣٥
 فائق الفتى ؛ ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٧٥ ، ٥٢٦
 الفتح بن خاقان ؛ ٤٠٣ ، ٥٣١
 الفتية الصقالبة ؛ ٢٠١ ، ٢٧٣ ، ٤٦٧ ،
 ٤٧٣ ، ٥١٦ ، ٥٢٦ ، ٥٩٣
 فرتون إنيجيز ؛ ٢٦٢
 فرتون بن لب بن موسى ؛ ٢٩٥
 فرتون بن غرسية ؛ ٢٦٤ ، ٣٦٥
 فرتون بن موسى ؛ ٢٩٨
 فرنان كونثال (فردلند القومس) ؛ ٤٤٣ ،
 ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٣ ، ٥٣٨

محمد بن أخير ؛ ٤٥٠
 محمد بن السليم ؛ ٢٧١
 محمد بن السليم ، أبو بكر ؛ ٤٦٢ ، ٤٨٤
 محمد بن العراقى ؛ ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٣
 محمد بن القاسم المروانى ؛ ٢٣٤
 محمد بن القاسم بن حمود ؛ ٦٢٠ ، ٦٢١
 محمد بن القاسم بن طملىس ؛ ٤٥٠ ، ٤٥١
 محمد بن المغيرة ؛ ٥٨٠
 محمد بن إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٣٠ ، ٣٧١
 محمد بن أبي سليمان الزجالي ؛ ٢٧٢
 محمد بن إدريس ، المهدي ؛ ٦٢٠
 محمد بن إدريس (المعتلى) ؛ ٦٢٠ ، ٦٢٢
 محمد بن أبي عامر ؛ أنظر المنصور
 محمد بن اسماعيل بن عباد ؛ ٦٠٩ ، ٦١٦ ، ٦١٧
 محمد بن أضحي الهمداني ؛ ٣٢٥
 محمد بن بشير ؛ ٢٤٥
 محمد بن تاكيت المصمودي ؛ ٣٣٥
 محمد بن جهور ؛ ٥٢١
 محمد بن حارث ؛ ٢٧٣
 محمد بن حفص بن جابر ؛ ٥٢١
 محمد بن رستم ؛ ٢٥٥ ، ٢٦٠
 محمد بن بدر الحن ، الأمير ؛ ٢٤٩ ، ٢٥٧ ،
 ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ،
 ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ -
 ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
 ٣١٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ،
 ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٣ ، ٤١٩ ، ٤٥٥
 محمد بن عبد السلام الحشني ؛ ٣١١
 محمد بن عبد السلام بن بسيل ؛ ٢٧١
 محمد بن الأمير عبد الله ؛ ٣٢٨ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٥ ، ٣٦٨
 محمد بن عبد الله الأشجعي ؛ ٨٣
 محمد بن عبد الله البرزالي ؛ ٦١٦ ، ٦١٧
 محمد بن عبد الملك المظفر ؛ ٥٦٠ ، ٥٨٢
 محمد بن عبد الملك بن شهريط (الطويل) ؛
 ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
 محمد بن علي بن أبي طالب ؛ ١٤١

كلوتير الثاني ؛ ٧٧
 كلوثيس ؛ ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٣
 كنانة بن سعد ؛ ١٦٥
 كوديرا ، المستشرق ؛ ٥١٣
 كوندى ، يوسف ؛ ٣٦ ، ٩٧ ، ١٠١
 كونراد ، ملك برجونية ؛ ٤٢٧ ، ٤٢٩
 ل - م
 لافونتي ، موديستو ؛ ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،
 ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥٤٤
 لامبجيا ؛ ٨٦ ، ٨٧
 لاين پول ؛ ٦٣
 لب بن الطربيشة ؛ ٣٧٧
 لب بن زكريا بن عمروس ؛ ٢٩٧
 لب بن محمد بن لب ؛ ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،
 ٣٤١ ، ٣٦٥
 لب بن موسى ؛ ٢٩٥ ، ٣٦٥
 الليث بن سعد ؛ ٢٧٣
 لوتبراند ، ملك اللونبارد ؛ ١١٤
 لوتبراند ، المؤرخ ؛ ٤١٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ،
 لوقا التطيلي ؛ ٣٥
 لويس بن شارلمان ؛ ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣ ، ٤٢٤
 ليتوكريسيا ؛ ٢٩٢ ، ٢٩٩
 ليون الثالث ، الإمبراطور ؛ ١٠٩
 ماسديه ، المؤرخ ؛ ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٣٣
 ماركوس أوريليوس ؛ ٤٥٩
 ماريانا ، فتاة قرطبة ؛ ٢٦٩ ، ٢٧٠
 ماريانا ، والدة الناصر ؛ ٣٦٨
 ماريانا ، المؤرخ ؛ ٣٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٥١٢
 مالك بن أنس ، الإمام ؛ ٢٢٦ ، ٢٧٣
 مالك بن يزيد التجيبى ؛ ٢٣٣
 المأمون العباسي ؛ ٢٤١ ، ٢٧٩
 مجاهد العامري ؛ ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٥٦٣ ، ٦٠٤
 محمد ، النبي العربي ؛ ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٨ ،
 ٢٦٧ ، ٢٦٩
 محمد بن الحسين ؛ ٤١٧ ، ٥٣٩
 محمد بن الحنفية ؛ ١٤١ ، ١٤٢

مطرف بن لب بن موسى ؛ ٢٩٥ ، ٣٣٦
 مطرف بن مندف التجيبى ؛ ٣٨٥ ، ٣٨٦
 مطرف بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٣٦
 مطرف بن موسى بن موسى ؛ ٢٩٧ ، ٢٩٨
 مطروح بن سليمان بن يقظان ؛ ١٧٤ ،
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢٢٣
 مظفر بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٠٣
 معاوية بن أبي سفيان ؛ ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،
 ٢٣ ، ٢٤ ، ٩١ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣
 معاوية بن حديج ؛ ١٩
 معاوية بن لب ؛ ٤٤٨
 معاوية بن هشام ، المؤرخ ؛ ٣٠٦
 المعتصم العباسى ؛ ٢٧٩
 المعتصم بن صادق ؛ ٦٢٢
 المعز لدين الله الفاطمى ؛ ٣٩١ ، ٣٩٢ ،
 ٤٤٩ ، ٤٥٠
 المعز بن باديس ؛ ٥٦٥
 المعز بن زيرى ؛ ٤٩٤ ، ٥٠٦ ، ٥١٢ ، ٥٥٦
 معن بن عبد العزيز التجيبى ؛ ٥٠٠ ، ٥٠٩
 المغيرة بن الحكم ؛ ٢٤٤
 المغيرة بن الوليد بن معاوية ؛ ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩١
 المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ؛ ٤٦٦ ، ٤٤٦٧
 ٤٧٣ ، ٤٧٩
 مغيث الرومى ؛ ٤٩٩ ، ٥٧٤ ، ٥٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٧٢
 المقرئ ، المؤرخ ؛ ٤٧ ، ٨٤ ، ١٠٥
 مكحول بن عمر ؛ ٢٩٦ ، ٣٠٠
 المنذر بن الناصر ؛ ٤٥٧
 منذر بن سعيد البلوطى ؛ ٤١٣ ، ٤١٩ ، ٤٦٢
 المنذر بن عبد الرحمن ؛ ٢٩٥
 المنذر بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٢٩٠ ، ٢٩٨
 ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
 ٣١٣ ، ٢١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٤٥ ،
 ٣٦٠ ، ٣٦٣
 المنذر بن يحيى التجيبى ؛ ٦٠٦ ، ٦٠٨
 المنصور بن أبي عامر ؛ ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
 ٢١٢ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٤٢ ،
 ٤٦٠ ، ٤٦٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٥٠٩ ،
 ٥١١ - ٥٢٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣٤ ، ٥٤٥

محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ؛ ١٤١
 محمد بن عمر بن لبابة ؛ ٣١١
 محمد بن لب بن موسى ؛ ٢٩٨ ، ٣٠٥ ،
 ٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،
 ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٨٢
 محمد بن محمد بن أبي زيد ؛ ٣٦٩
 محمد بن نوح ؛ ٦٢١
 محمد بن هاشم التجيبى ؛ ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
 ٣٨٩ ، ٣٩٠
 محمد بن وضاح ؛ ٢٧٣
 محمد بن هشام ، المهدي ؛ ٥٧٧ - ٥٨٥ ،
 ٥٨٨ - ٥٩٧ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤
 محمد بن يعلى الزناتى ؛ ٥٨٣
 محمد بن يوسف الحجارى ؛ ٤٥٧
 محمد بن يوسف الفهرى ؛ ١٣١ ، ١٥٦ ،
 ١٥٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧
 محمد بن يوسف بن مطروح ؛ ٢٧٣
 محمد بن يزيد ؛ ٧٢
 محمود بن عبد الجبار ؛ ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦
 محيى الدين بن عربى ؛ ٤٠١
 مروان بن الحكم ؛ ١٥٢
 مروان بن عبد الرحمن الخليقى ؛ ٣٣٥
 مروان بن محمد ؛ ١٢٨ ، ١٤٢ - ١٤٤
 مروان بن يونس الخليقى ؛ ٢٣٩
 المستظهر بالله ؛ ٦١١ ، ٦١٢
 المستكن بالله ؛ ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٥
 المستكن بالله العباسى ؛ ٦١٢
 المستنصر بالله الفاطمى ؛ ٤١٨
 المسعودى ، المؤرخ ؛ ١٩٤ ، ٣٨٨
 مسعود بن عبد الله ؛ ٢٩٠
 مسلم بن عقبة المرى ؛ ١٣٩
 مسلمة بن عبد الرحمن ؛ ٢٣٤
 مسلمة بن مخلد ؛ ٢٠
 مسوقة بن مطرف ؛ ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣
 المطرف بن عبد الرحمن ؛ ٢٥٧
 المطرف بن الأمير عبد الله ؛ ٣٢٨ ، ٣٣٢ ،
 ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٨
 مطرف بن عيسى الغسافى ؛ ٤٥٦

نظيف الفتي ؛ ٥٨١ ، ٥٦٦ ،
 نود ، ملكة النورمان ؛ ٢٨١
 نونيو ، الكونت ؛ ٣٦٣
 هادريان ، البابا ؛ ١٧٠
 هاشم الضراب ؛ ٢٥٥
 هاشم بن عبد العزيز ؛ ٢٧١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٨ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،
 ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤
 هذيل بن الصميل ؛ ١٨٥ ، ١٨٦
 هرود لاند ؛ ١٧٨
 هروسو قيتا ، الراهبة ؛ ٤٠٧
 هشام الفهرى ؛ ١٦١
 هشام المصحفى ؛ ٤٤٣
 هشام المعتد بالله ؛ ٦١٤ ، ٦١٥
 هشام المؤيد بالله ؛ ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٥٤ ،
 ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ،
 ٤٧٥ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ،
 ٤٨٥ ، ٥٠١ - ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥١٦ ،
 ٥٣٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ،
 ٥٦٣ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٩ ،
 ٥٨٠ - ٥٨٤ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ،
 ٥٩٣ ، ٥٩٥ - ٥٩٩ ، ٦٠٤ - ٦٠٦
 هشام بن الحكم ؛ ٢٣٨
 هشام بن سليمان بن الناصر ؛ ٥٩١ ، ٥٩٢
 هشام بن عبد الجبار بن الناصر ؛ ٥٦٥ ،
 ٥٦٦ ، ٥٧٨
 هشام بن عبدالرحمن ؛ ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٣٥٧ ، ٤٢٣
 هشام بن عبد الملك ؛ ٦٠ ، ٨٣ ، ٨٧ ،
 ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٣ ،
 ١٣٨ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٩٧
 هشام بن عزرة الفهرى ؛ ١٥٥ ، ١٥٩
 هشام بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٤٥
 هشام بن هذيل ؛ ٤١٤
 هلال الميديونى ؛ ١٦٣
 هوج ، ملك بروفانس ؛ ٤٢٧ ، ٤٢٨
 هوريك ، ملك النورمان ؛ ٢٨١

٥٤٨ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٣ ،
 ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٩ - ٥٧٢ ، ٥٧٩ ،
 ٥٨٢ ، ٥٨٥ ، ٥٩٦ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤ ،
 المنصور العباسى ، أبو جعفر ؛ ١٣٣ ، ١٣٤ ،
 ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٩٢ ،
 ١٩٤ ، ٢٣٠ ، ٢٤٧
 منصور الخصى ؛ ١٩٥
 منندو كونثالث ؛ ٥١١ ، ٥٤٦ ، ٥٥٨
 منوسة ؛ ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٠
 مورجات ؛ ٢١٦ ، ٢١٧
 مورنتوس ، الدوق ؛ ١١٣ ، ١١٤
 موسى بن أبي العافية ؛ ٣٩١
 موسى بن حنوش ، الراى ؛ ٤٦٥
 موسى بن ذى النون ؛ ٣٣٥ ، ٣٣٦
 موسى بن سالم الخولانى ؛ ٢٣٣ ، ٢٤٠
 موسى بن فرتون بن قسى ؛ ٣٦٥
 موسى بن محمد بن حدير ؛ ٣٤٧ ، ٤١٨
 موسى بن موسى بن قسى ؛ ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،
 ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
 ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٦٠ ، ٤٢٤
 موسى بن موسى بن حدير ؛ ٣٦٩
 موسى بن نصير اللخمي ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٥ ،
 ٣٨ - ٤١ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٣ - ٥٩ ،
 ٧١ ، ٧٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٤٧٠
 موسيتو ، موجيتوس ؛ اسم مجاهد العامرى
 مؤمن بن سعيد ؛ ٢٤٩ ، ٣١١
 مهرجان ، أم الحكم المستنصر ؛ ٤٤١
 ميسرة المدغرى ؛ ١١٧
 ميسرة الفتي ؛ ٢٥٦
 ميسور الصقلبي ؛ ٣٩١ ، ٤١٩ ، ٤٦٠
 ميشليه المؤرخ ؛ ١٠٨

ن - ي

نجما الصقلبي ، أبو الفوز ؛ ٦١٦ - ٦١٩
 نجده الصقلبي ؛ ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٤٠٩ ، ٤١٩
 نصر الخصى ؛ ٢٦٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ،
 ٢٧٥ ، ٢٨٥
 نصر بن سيار ؛ ١٤٢ ، ١٤٣

هونوريوس ، الإمبراطور ؛ ٢٩
 هيرود ؛ ٢١٧
 الهيثم بن عبيد الكلابي ؛ ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
 ٢٠٨ ، ١٠٥
 واضح الفتى ؛ ٤٠٠ ، ٤٦٠ ، ٥٠٥ ،
 ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦٣ ، ٥٨٣ ،
 ٥٩٠ ، ٥٩٢ - ٥٩٧ ، ٦٠٤
 الواقدى ، المؤرخ ؛ ١٠٤
 وانسوس ، البربرى ؛ ١٤٩
 وتيزا ، ملك القوط ؛ ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ،
 ٤١ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٣٢٧ ،
 الوليد بن الحكم ؛ ٢٥٦
 وليد بن حيزون ؛ ٤٤٣
 الوليد بن عبد الملك ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٩ ،
 ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٠٩ ،
 ١٣٨ ، ١٤١ ، ٢٥٧
 الوليد بن غانم ؛ ٣٠٩
 الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؛ ١٢٨ ، ١٤٩
 ووفقة بن شابعه ؛ أنظر إنيجو أريستا
 وهب الله بن حزم ؛ ٢٥٩
 ياقب ، القديس ؛ ٢١٧ ، ٣٥٩ ، ٥٠٧ ،
 ٥٠٨ ، ٥٤٣ .
 ياقوت الحموى ؛ ٤٠١
 يحيى الغزال (أبو زكريا يحيى بن الحكم) ؛
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٦ - ٢٨٢
 يحيى بن ابراهيم بن مدين ؛ ٢٧٣
 يحيى بن الحسين ؛ ١٨٥
 يحيى بن حبيب ؛ ٢٨٠ ، ٢٨١
 يحيى بن حريث الجذامى ؛ ١٢٩
 يحيى بن سلمة الكلبي ؛ ٨٢
 يحيى بن سقالة القيسي ؛ ٣٢٤
 يحيى بن عبد الرحمن التجيبى ؛ ٤٩٧

يحيى بن عبد الله بن يحيى ؛ ٣٠٤
 يحيى بن علي بن حمدون ؛ ٤٤٩ ، ٤٥٠ ،
 يحيى بن علي بن حمود (المعتلى) ؛ ٦٠٧ -
 ٦١٠ ، ٦١٣ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦٢١ ،
 يحيى بن محمد التجيبى ؛ ٤٤٥ ، ٤٥٢ ،
 ٤٦٢
 يحيى بن مضر القيسي ؛ ٢٣٤
 يحيى بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٣٦
 يحيى بن نصر التجيبى ؛ ٢٤٠
 يحيى بن يحيى بن بكر ؛ ٣٣٥
 يحيى بن يحيى الليثى ؛ ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٧٣ ،
 يدو بن يعلى ؛ ٣٩٤
 يزيد بن الوليد ؛ ١٢٨
 يزيد بن عبد الملك ؛ ٨١
 يزيد بن معاوية ؛ ٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٩ ،
 يزيد بن المهلب ؛ ٥٧
 يعقوب الخوارى ؛ أنظر ياقب القديس
 يعقوب بن كلس ؛ ٤٩٣
 يوحنا ، حاكم قرطاجنة ؛ ٢١
 يوحنا الجورزبني ؛ ٤١٥ ، ٤١٥ - ٤١٧ ، ٤٣٠ ،
 يوحنا الثانى عشر ، البابا ؛ ٣٦٢ ، ٤١٧ ،
 يوحنا زمسكى ، الإمبراطور ؛ ٤٤٨
 يوستنيان ، الامبراطور ؛ ١٨
 يوسف بن اسماعيل بن نغزالة ؛ ٤٥٧
 يوسف بن بخت ؛ ١٥٠ ، ١٩٥ ، ٢٢٣ ،
 ٢٧١
 يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ؛ ١٢٦ ،
 ١٣٤ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،
 ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٨٣ ، ١٩٣ ، ٢١١ ،
 يوسف بن عمر بن يزيد ؛ ١٢٣
 يوليان ، الكونت ؛ ٢٦ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٤٨ ،
 ٥٢ ، ٥٩

هونوريوس ، الإمبراطور ؛ ٢٩
 هيرود ؛ ٢١٧
 الهيثم بن عبيد الكلابي ؛ ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
 ٢٠٨ ، ١٠٥
 واضح الفتى ؛ ٤٠٠ ، ٤٦٠ ، ٥٠٥ ،
 ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦٣ ، ٥٨٣ ،
 ٥٩٠ ، ٥٩٢ - ٥٩٧ ، ٦٠٤
 الواقدى ، المؤرخ ؛ ١٠٤
 وانسوس ، البربرى ؛ ١٤٩
 وتيزا ، ملك القوط ؛ ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ،
 ٤١ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٣٢٧ ،
 الوليد بن الحكم ؛ ٢٥٦
 وليد بن حيزون ؛ ٤٤٣
 الوليد بن عبد الملك ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٩ ،
 ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٠٩ ،
 ١٣٨ ، ١٤١ ، ٢٥٧
 الوليد بن غانم ؛ ٣٠٩
 الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؛ ١٢٨ ، ١٤٩
 ووفقة بن شابعه ؛ أنظر إنيجو أريستا
 وهب الله بن حزم ؛ ٢٥٩
 ياقب ، القديس ؛ ٢١٧ ، ٣٥٩ ، ٥٠٧ ،
 ٥٠٨ ، ٥٤٣ .
 ياقوت الحموى ؛ ٤٠١
 يحيى الغزال (أبو زكريا يحيى بن الحكم) ؛
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٦ - ٢٨٢
 يحيى بن ابراهيم بن مدين ؛ ٢٧٣
 يحيى بن الحسين ؛ ١٨٥
 يحيى بن حبيب ؛ ٢٨٠ ، ٢٨١
 يحيى بن حريث الجذامى ؛ ١٢٩
 يحيى بن سلمة الكلبي ؛ ٨٢
 يحيى بن سقالة القيسي ؛ ٣٢٤
 يحيى بن عبد الرحمن التجيبى ؛ ٤٩٧

THE MOORISH EMPIRE IN SPAIN

FROM THE CONQUEST
TO THE FALL OF THE OMAYYAD CALIPHATE

by

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of "The End of the Moorish Empire in Spain" "The Tawaif Kingdoms
to the Almoravide Conquest" "Los Monumentos Moros en Espana y Portugal"
"Decisive Moments in the History of Islam" etc.

First Period - Part II

Lajnat-ul-Taalif Press

Cairo — 1960

THE MOORISH EMPIRE IN SPAIN

FROM THE CONQUEST
TO THE FALL OF THE OMAYYAD CALIPHATE

by

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of "The End of the Moorish Empire in Spain" "The Tawaif Kingdoms
to the Almoravide Conquest" "Los Monumentos Moros en Espana y Portugal"
"Decisive Moments in the History of Islam" etc.

First Period - Part II

Lajnat-ul-Taalif Press

Cairo — 1960